

جامعة دمشق  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
قسم التاريخ

# نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام في العصر المملوكي ٦٤٨ . ٩٢٣ هـ ١٢٥٠ . ١٥١٧ م

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب  
أحمد غسان سبانو

إشراف الأستاذ الدكتور  
جباغ قابلو

العام الدراسي  
٢٠٠٩ . ٢٠١٠

## كلمة شكر وامتنان

أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور جباغ قابلو للمساعدات القيمة التي أرفدني بها لإتمام مسيرة هذا البحث .

كما اتقدم بالشكر الجزيل أيضا الى الأساتذة : الدكتورة وفاء جوني والدكتورة إكمال إسماعيل والدكتور أجفان الصغير والدكتور عمار النهار للمساعدات والتوجيهات القيمة التي قدموها .

وهناك الكثير من الأصدقاء الذين قدموا لي مساعدات لا تنسى، بالبحث عن المصادر والمراجع؛ ليتسنى لي إتمام عملي، ولا أنسى دعمهم، ولهم مني الشكر.

- مدخل:

قامت دراسات كثيرة حول الدولة المملوكية سواء في عالمنا العربي أو في الغرب، تلك الدولة التي اتصفت بإدارة لا مثيل لها في العالم خصوصاً طرق وصول الحاكم لكرسي الحكم، وتعصب المماليك لأنفسهم وتقوقعهم عن أبناء دولتهم وعدم الاتصال بهم إلا من خلال طاقم خدمة مدنية، وبطانة دينية من أرباب العمام، مهمتها تثبيت ملكهم . ذلك الملك الذي استمر بين دولة المماليك الأتراك ودولة المماليك الجركس ما يزيد عن مائتين وخمسين عاماً .

فعلى الرغم من كل تلك الظروف القاسية التي مرت على الدولة ، لم تمنع الإدارة المملوكية من إيجاد نظام إداري اشتهر بالدقة والتنظيم في العالم ، وأثنى عليه الغربيون في عصره وأعجبوا به حتى الآن، حتى غدا العصر المملوكي في الغرب عصر النهضة الإسلامية.

تقول المؤرخة الأمريكية التركية الأصل ( إيسن أتال ) في كتابها الفن في العصر المملوكي: ( هناك توازٍ في بعث وتقدم الغرب والشرق خلال القرون الثلاثة: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ميلادي من العصور الوسطى، في بعث وتطور كل مظاهر الحياة في كلا الشطرين من العالم في تحقيق الهدف الإنساني من التطور والتقدم. وتبدلت حياة العمال والفلاحين والتجار في كلا الطرفين، وكان البعث الديني في كليهما مهماً في دفع التطور وخصوصاً في الفنون والعمارة، وأنتج العالم الإسلامي تراثاً مقتبساً من روح الشرق وديانته وفنونه إنتاجاً عالياً رفيع المستوى.

لقد أسس المماليك دولة تمتعت بنظام جعلها تتمتع بالقوة والاستقرار مع كل الظروف الصعبة . وكان أهم الأسس التي سببت هذا النجاح الثراء الواسع للدولة المتحصل من مختلف الضرائب المفروضة على التجارة العابرة لبلاد الشام ومصر وعلى الأراضي الزراعية والخدمات البلدية والمنتجات الزراعية وغيرها .. . لقد أسس المماليك دولة تقوم على نظام إداري قوي مدعوم بنظام عسكري، كلاهما استطاعا الوقوف أمام التحديات الخارجية والأزمات الداخلية والتقلبات الاقتصادية. وكانوا المدافعين الحقيقيين عن الإسلام والأماكن المقدسة. واستطاعوا إحياء نظام الخلافة. (1)

ولكن هذا النظام ، وبسبب الفساد الذي اعتراه، مرَّ بمراحل ضعف وفساد طغى مع الزمن، وأسهم في سقوط الدولة فيما بعد .

وموضوع البحث هو: «النظم والإدارة المدنية في العصر المملوكي في بلاد الشام» تلك النظم والإدارة التي جاءت متممة لنظم الإدارة في العصور السالفة ، وتطورت في العصر المملوكي، وهي بالتالي حجر الأساس للإدارة التالية بشكل أو آخر.

والموضوع على أهميته لم يحظ بالدراسة الشافية لا باللغة العربية ولا باللغات الأوروبية . ومن الواجب الاعتذار لاتساع البحث أكثر من المطلوب في مثل هذا الموضوع. وبالوقت نفسه الاعتذار لصغر حجم البحث مقارنة بما كان يجب أن يضم . إذ كل فقرة من البحث كان يجب أن تكون كتاباً مثل: كتاب عن السلطان، وآخر عن الخليفة في العصر المملوكي، وآخر عن الدواوين، وآخر عن رؤسائها. وكتاب عن أمين السر فالدودار فالوزير وهكذا. ولو استمر البحث لاقتضى وضع موسوعة تضم أكثر مما جاء في الكتاب الموسوعي «صبح الأعشى للقلقشندي» ، لا انتقاصاً من قدر المؤلف والكتاب،

(1) Atule (: Esin ) Art of The Mamluks . Smithsonian Institution ،Washington ،D. C. 1981 pp 5، 12 . 21)

فهو موسوعة بكل ما تحوي الكلمة من معنى، ولكن لاستكمال البحث للفترة التي تلت وفاته ولتقييم الإدارة في العصر المملوكي، الذي نتابع مسيرته الإدارية بشكل أو آخر .  
فالدراسة تعنى بالإدارة المدنية فقط ، وليس لها علاقة بوجهة أخرى مثل الجيش وترتيباته وأمره، ولا تعنى بدراسة المالية والميزانية. لكن كان لا بد أحياناً من التلميح إماماً على مواضيع خارجة عن الموضوع لطبيعة مسرى الدراسة .

البحث ينحصر بالنظم والإدارة المدنية التي تميزت بانفصالها نوعاً ما عن الإدارة العسكرية والتي اتسمت على العموم أن يكون على رأسها أشخاص من السكان الأصليين، عدا المراكز القيادية العليا لدواعي أمن القيادة المملوكية. عكس الإدارة العسكرية والبنية العسكرية التي اعتمدت على عنصر المماليك المستجلب في عدده الكبير وفي قيادته بشكل خاص. ورغم أن هناك تداخلاً في الناحيتين العسكرية والإدارية. وهنا يجب إيجاد طريقة لفصل الإدارتين بقدر الإمكان والانفراد بالإدارة المدنية، فقد اعتمدت السلطة المملوكية نظام فصل السلطات الثلاث: العسكرية والمدنية والدينية

#### **السلطة الأولى: أرباب السيوف وهي السلطة العسكرية :**

وهم رجال الجيش، ولم يكونوا مصريين بل من المماليك والجلبان، وهم على نوعين:

##### **النوع الأول: الأمراء الأجناد وهم أربع طبقات:**

الطبقة الأولى: أمراء المئتين: وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء، فهم أمراء المئين مقدمو الألواف وعدة كل منهم مائتا فارس.

الطبقة الثانية: أمراء الطبلخاناه : وسموا كذلك لأن لهم الحق في دق الطبول والآلات في الموكب الرسمية وعند الخروج من المنزل .

الطبقة الثالثة: أمراء العشرات: ووظيفتهم تسمى إمریات عشرة، وعدة كلٍ منهم عشرة .

الطبقة الرابعة أمراء الخمسات. بخدمة كل واحد منهم خمسة مماليك.

##### **النوع الثاني: الأجناد وهم على ثلاث طبقات:**

الطبقة الأولى: المماليك السلطانية: وهم أعظم الأجناد شأنًا، وأرفعهم قدرًا، وهم أقرب للسلطان من باقي الجند. ومنهم يجري اختيار الأمراء رتبة بعد رتبة.

الطبقة الثانية: مماليك الحلقة: وهم من يدخلون الطباق فيتم إسلامهم وتعليمهم ثم تدريبهم عسكرياً .

الطبقة الثالثة: البحرية وهم حرس السلطان الخاص (١)

#### **السلطة الثانية: أرباب القلم وهي السلطة المدنية :**

ومعظمهم من المصريين، ولم يؤثر عنهم أنهم استطاعوا خلع السلطان، أو تغيير أسرة حاكمة، مع أن كل الأسر الحاكمة كانت تعتمد عليهم في إدارة شؤون البلاد، وكان سلاطين المماليك في البداية يعينون المماليك في كل الوظائف أو معظمها، وقد احتفظوا بهذه القاعدة إلى نهاية حكمهم فيما يختص

١ . القلقشندي ( ابو العباس أحمد ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا اصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية القاهرة ٢٠٠٤ وسيشار اليه باسم القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ١٦ .

بالوظائف الكبيرة، ولكنهم اضطروا إلى أن يتخذوا - في وظائف مثل كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء وغيرهما - موظفين من غير المماليك، بل كانوا يستخدمون اليهود والمسيحيين من أهل الذمة، لأن المماليك لم يكونوا يتقنون مثل هذه الأعمال، وكان معظم الموظفين الماليين من القبط لما اشتهروا به من نشاط وكفاية في تولي مثل هذه الأعمال.<sup>(١)</sup>

### السلطة الثالثة: أرباب العمام من أصحاب الوظائف الدينية :

وأهمها القضاء، والنظر في المظالم، والحسبة، وإمامة الجوامع والتدريس في المدارس وفي الزوايا والربط ونقابة الأشراف، وغير ذلك .

يعد أصحاب العمام فئة مستقلة في المجتمع المملوكي، كغيره من المجتمعات، فلها سلطتها الروحية الدينية إضافة لأهمية الوظائف التي تستلمها، وأهمها القضاء والحسبة والإفتاء والتدريس والإمامة وغيرها. إلا أن الصعوبة هو تداخل السلطة العسكرية بالسلطات الإدارية . واتساع هذا التداخل عبر تاريخ الدولة المملوكية بمرور الزمن .

فقد كان في مبتدأ الدولة المملوكية هناك وظائف إدارية يجري التعيين فيها من أرباب السيوف من طبقة الأمراء المماليك وذلك لأسباب أمنية، من هذه الوظائف : الوزير الذي قد يكون من أرباب السيوف فيسمى الوزير . وإن كان من أصحاب الأقلام سُمي بالصاحب، ثم أطلق عليه الصاحب الوزير أو وزير الصلبة حينها . كذلك النواب سواء داخل مصر أو في بلاد الشام ، والوالي وأحياناً المحتسب ، وغيرها من الوظائف التي ستمر معنا<sup>(٢)</sup>.

والبحث في الإدارة يعني البحث الموضوعي القانوني. في شكل التنظيم في الحكم وفي التقسيمات الإدارية، وفي الإدارة وتوزيع المسؤوليات، وفي القائمين على الإدارة من الموظفين، وفي الخدمات المقدمة من الإدارة. دون التعرض للإدارة من حيث الشكل، مثل أشكال المراسيم والمكاتبات، أو طرق العمل في ديوان الإنشاء وغيره من الدواوين، أو شكل الخط ونوع الورق، أو طرق صيغ المناشير والمراسيم وغيرها، إذ كل هذا يعد من النواحي الشكلية الخارجة عن الموضوع.

والملاحظ أن الكثير من المصادر تنقل من أصول أقدم، وأحياناً يتم النقل الحرفي للنص عبر الكثير من النصوص، بل تابع المؤلفون المحدثون النقل باستخدام العبارات نفسها، خصوصاً تلك التي ترتبط بالتقسيمات الإدارية وطرق البريد وما شابهها، ويبدو صعوبة مخالفة هؤلاء إذ لا مجال للابتكار بل لا بد من متابعة تلك المسيرة.

وسيكون منهج العمل الاعتماد على الأصول الإدارية المدنية التي توطدت عبر العصور لتصل إلى الفترة المملوكية، والاعتماد على المصادر والكتب التي بحثت في هذا الموضوع وهي كثيرة وأغلبها كتبت من قبل أعضاء بارزين في الإدارة المملوكية، جعلوا من كتبهم علماً إدارياً منفصلاً، وأدباً إدارياً من بين

١ . ( حسن (علي إبراهيم ) تاريخ المماليك البحرية مكتبة النهضة المصرية طبعة ١٩٤٨ ص ٢٢٤ وما بعدها وسيرمز إليه باسم حسن تاريخ المماليك البحرية .

٢ . - حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص: ٢٦١ - ٢٦٢ .)

فنون الكتابة. وتتبع الإدارة بين إدارة السلطة المركزية في الدولة المملوكية والإدارة في نيابات السلطنة ومناطقها الإدارية والتميز في الصلاحيات بين كليهما. وقد جرى التوسع في بعض الأبحاث لأهميتها، وجدية الموضوع وعدم توسع الباحثين فيه، مثل قانون الموظفين، والأمن الداخلي، والخدمات الإدارية، وغير ذلك.

#### - مصادر البحث:

الدراسة المقدمة تشمل مدة طويلة، استمرت مئتين وسبع وستين سنة ميلادية. فهي طويلة جداً زمانياً. وهي واسعة جداً ومتشعبة ، كما أنها تغطي مساحات جغرافية واسعة. لذلك كانت المصادر كثيرة والمراجع أكثر ليتم تغطية الموضوع بقدر الإمكان. وكانت المصادر متداخلة في الأصول فمن المؤرخين

الشوام من سكن مصر وكتب فيها وعنها ، ومن المصريين من عاش في بلاد الشام وكانت موضوع كتاباته . ومنهم من كتب عن مصر وبلاد الشام معاً .

ودراسة نقدية لكل المصادر يكون من الصعوبة بمكان وإطالة لا طائل منها. لذلك أقدم أهم المصادر التي تتعلق بالموضوع مباشرة، تلك المصادر التي بحثت في الإدارة في العصر المملوكي . والدراسة لأهم المصادر التي اعتمدت عليها مما لها علاقة مباشرة بالإدارة المدنية في العصر المملوكي ، جرى إيرادها من ضمن بحث ( الكتابة الديوانية تطورها وأدبها ) . لأن ذلك البحث يتضمن إيراد كل من وضع كتاباً في أدب أو علم الكتابة الديوانية في عصر المماليك والعصور التي سبقتة ، ومنعاً للتكرار دون طائل فقد جرى إيراد المصادر ونقدها ومدى الاستفادة منها في ذلك البحث.

وكانت الاستفادة أيضاً - إضافة للكتب الديوانية والتاريخية - من كتب الرجال مثل كتاب «تراجم القرنين السادس والسابع» والمعروف باسم «الذيل على الروضتين» لابن شامة المقدسي، وكتاب «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» لابن حجر العسقلاني، و«الوافي بالوفيات» لصلاح الدين خليل ابن أبيك الصفدي. و«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، «وفوات الوفيات» لمحمد بن شاکر الكتبي، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد. ومن الكتب المتخصصة «نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين» لعبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي «والدارس في تاريخ المدارس» للنعماني، في موضوع بحث المدارس. وغيرها ومن البلدانات «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» لمحمد بن عبد المنعم الحميري.

ومن كتب الرحلات «رحلة العبدري» و«رحلة ابن جبير الأندلسي»، و«رحلة ابن بطوطة». وغير ذلك كثير في مواضيع مختلفة عن الحسبة والمدارس فالمستشفيات وسائر مواضيع البحث.

أما المراجع فلا بد من العودة إلى مراجع كثيرة عربية ومعربة ومصادر إنكليزية اللغة، تلك المراجع التي تساعد كثيراً في ربط المعلومات وأحياناً الإشارة إلى نقط وأضواء جديدة، خصوصاً تلك المراجع التي قدمت دراسات حديثة معمقة تبعد عن السطحية والاجترار في تقديم المعلومات. وأخص بالذكر أيضاً أبحاثاً معاصرة مثل: معجم الألفاظ الفارسية، ومصطلحات صبح الأعشى، والأطالس التاريخية، وكتب المواقع الأثرية.

وأخص بالذكر أيضاً الكتب التي درست العصر المملوكي في مدن معينة، مثل: دمشق في عصر المماليك، والقدس والكرك وغزة في عصر المماليك وغير ذلك<sup>١</sup>.

---

#### ١- ملاحظات حول المراجع والأبحاث والإحالات الواردة في الكتاب :

من الأهمية بمكان أن أشير أن البحث تم وضعه بين مدينتي لندن ودمشق، وقد اعتمدت على مصادر ومراجع موجودة لدي في كلا المدينتين، ولم تكن جميع تلك المصادر والمراجع من الطبقات نفسها، بل هناك فرق بين طبقات تلك الكتب، لذلك أشرت في لائحة المصادر والمراجع إلى مختلف الطبقات التي وردت في البحث.

ولسهولة البحث والاقتصار قمت بذكر التفاصيل الدالة على كل مصدر ومرجع عند وروده في البحث لأول مرة من اسم المؤلف والمحقق أو المترجم إذا وجد ، ثم دار النشر وسنة النشر إذا توفرت والطبعة، أو الطبقات المختلفة. أما فيما يخص الكتب المتباينة الطبقات، فقد ذكرت كل طبعة ومصدرها واختصارها كما وردت في صفحات البحث عند ورودها .

بينما أبقى الكتب القليلة الاستعمال باسمها الكامل عند الإحالة إليها، أما الكتب المنفردة الطبعة والتي اشتهرت باختصارها فقد اكتفيت بالإحالة إليها وفق ما اشتهرت به.

لم أقم بالإشارة لكتب البلدانيات أو الأعلام والوفيات أو دوائر المعارف للجزء والصفحة لكون تلك المصادر مرتبة أبجدياً مما يسهل الوصول للأعلام بسرعة لاستكمال المعلومات.



## - مخطط البحث:

تتضمن الدراسة بحث نظام الحكم والإدارة في العصر المملوكي في بلاد الشام من سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وتنتهي بسقوط دولة المماليك سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م.

سيكون البحث على الشكل التالي:

## - تمهيد :

مقدمة تاريخية عن المماليك وأصلهم وكيفية وصولهم وأصولهم واستلامهم الحكم. نشوء الدولة المملوكية منذ استلام شجر الدر للحكم واعتبارها فترة وسيطة بين العصر الأيوبي والعصر المملوكي. وحتى سقوط الدولة المملوكية على يد السلطان العثماني سليم الأول .

ثم جرى بحث تبعية بلاد الشام للدولة المملوكية ، وأهمية بلاد الشام لبقاء الدولة ، وبُعْد بلاد الشام الأمني ، وتدخلات الصليبيين والمغول والأرمن والتتار .

ويقسم البحث إلى تسعة فصول وهي:

## الفصل الأول: الكتابة الديوانية وتطورها وأدبها :

تطور الكتابة الديوانية ، وأصولها وكيفية كتابتها حتى وصلت للعصر المملوكي، وبيان أهم من دَوّن في علم الكتابة ممن زاول المهنة وعمل فيها طويلاً.

## الفصل الثاني :

السلطة المركزية وبلاد الشام : والبحث فيه كان في طبيعة السلطة المركزية وتدخلها في بلاد الشام . سلطة السلطان أولاً، ثم نائب السلطنة ثم الوزير ورئيس الديوان .

ثم البحث عن النيابات في بلاد الشام وكيفية نشأتها وعلاقتها بالسلطان، وعلاقة النواب بنائب دمشق. ثم بحثت كل نيابة كيف وجدت وأهميتها .

## الفصل الثالث :

التقسيمات الإدارية لبلاد الشام : تضم بلاد الشام ثمان نيابات، وهي نيابة دمشق وحلب وحماة وأطرابلس وصفد والكرك وغزة والقدس، وهي الولايات الثمان التي تتشكل منها نيابات بلاد الشام وتفصيلات الأقسام الإدارية لكل نيابة.

## الفصل الرابع : الإدارة المملوكية في بلاد الشام.

أولاً - نيابة دمشق: وظائف أرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب العمائم في دمشق، وباقي ولايات دمشق، والمراكز الإدارية التابعة لها وملحقاتها.

ثانياً - نيابة حلب: وبحث الإدارة والوظائف في نيابة حلب في حاضرتها، وفي خارج حاضرة حلب.

ثالثاً - نيابة طرابلس : والإدارة فيها.

وهكذا في كل من نيابة حماة ونيابة صفد ونيابة الكرك وغزة والقدس.

## الفصل الخامس :

بحثً عن قوانين ونظم التوظيف في الدولة المملوكية، وواجبات وحقوق الموظفين ورواتبهم وما يقدم إليهم من تقدمات وخلع وهدايا، دون الخوض في شكيلات الموظفين عموماً، مثل بحث ما يتعلق بأزيائهم لعدم تعلقها بالبحث القانوني للإدارة ولتجنب الإطالة في البحث.

#### **الفصل السادس: الإدارة وخدمات البنية التحتية:**

**أولاً - الأشغال العامة والمنشآت:** وتضمن الأبحاث المتعلقة بمهمات الإدارة وما قدمته للدولة والشعب، وقد ضم بحث الأشغال العامة من بناء الترع والخلجان والقناطر والجسور، سواء السلطانية منها أو البلدية، ثم القناطر والمنشآت العامة في بلاد الشام، ومشاريع مياه الشرب.

**ثانياً - الاتصالات والخدمات البريدية ومراكزها:** شاملاً الخدمات البريدية البرية والخدمات البريدية الجوية بالحمائم الزاجل وطرقه ومطاراته وطرق العمل في هذه الخدمة. كما جرى بحث خدمة نقل الثلج من جبال لبنان إلى مقر السلطان وطرقها لكونها تتم عن طريق الخدمة البريدية. كما بينت خدمة إيصال الأخبار بالطرق الضوئية، ومراكزها وطرق العمل بها.

**ثالثاً - شبكة المواصلات والخدمات البلدية:** وفيه وصف للحياة اليومية في المدن وشبكة مواصلات المملكة وصيانتها وحفظ الأمن فيها سواء الداخلية أو التي تربط أجزاء المملكة. وإنارة المدن وزينتها، والفساد الأخلاقي في المدن، وطرق التخلص من النفايات.

#### **الفصل السابع : القضاء والأمن الداخلي والوالي والشرطة :**

**أولاً - القضاء :** حيث بحثت في النظام القضائي وأنواع القضاء وإجراءات المحاكمات .

**ثانياً - الأمن الداخلي:** الوالي والشرطة: حيث جرى بحث الولاية والشرطة وأعمالهم، وتوزيعهم الجغرافي في بلاد الشام، ومعاونيهم ومن يقوم بالعمل معهم. وطريقة عملهم واختصاصاتهم. وإشرافهم على السجون، ودراسة للسجون في المملكة. وشواهد على الفساد في هذه المؤسسة. ثم جرى البحث عن قوة إطفاء الحرائق لأنها فرع من الشرطة ومهامها.

#### **الفصل الثامن: الخدمات العامة:**

**أولاً- العناية الصحية:** وأهم البيمارستانات في بلاد الشام، ثم الصيدليات وخدماتها.

**ثانياً- التعليم والمدارس في بلاد الشام :** بيان المدارس والنشاط العلمي والنهضة العلمية في المملكة، وكيفية إنشاء المدارس، ومن يقوم بها رجالاً ونساء وأوقافها، ثم بيان بأهم المدارس في المملكة، وأخيراً أسباب انحسار النهضة العلمية.

#### **الفصل التاسع : كيف إحتفظ الممالك بالسلطة .**

**الخاتمة:** وفيها جرى بحث الفساد في الدولة المملوكية من مختلف نواحي الحياة فيها من فساد الحكام والموظفين على مختلف مراتبهم، وفساد النظام بشكل عام. وفيه أسباب انحطاط المملكة الذي أدى إلى سقوطها وتلاشيها.

أهم ما جاء من جديد في هذه الرسالة .

وأنتبع البحث بملاحق تضم :

- ملحق رقم ١ : شرح لأهم المصطلحات الواردة في البحث تلك المصطلحات التي غلبت على الإدارة والحكم في العصر المملوكي والتي أخذت من الفارسية والتركية والعربية جذورها.
- ملحق رقم ٢ : إدارة البدو في بلاد الشام .
- ملحق رقم ٣ : لائحة بأسماء نواب الشام .
- ملحق رقم ٤ : مخططات تتعلق بالبحث ومجموعة صور توثق الفترة.

- تقديم: المماليك وإستيلاؤهم على الحكم في مصر والشام

## ١ - أصل المماليك:

المماليك جمع مملوك. وهي اشتقاق لغوي (اسم المفعول) من فعل (ملك) [بالفتح والفتح ثم الفتح]. وهو العبد المملوك، لا فرق في اللون أو الجنس أو المنبت. سواء أسود البشرة أم أسمر أم أشقر. كان أول استخدام لهم زمن الخلافة العباسية في بغداد.

ولما ازداد النفوذ الفارسي في دولة بني العباس استقدم الخلفاء الآلاف من المماليك من قبائل التركمان والمغول من مناطق أواسط آسيا.

ولم يكن من الصعب الحصول على هؤلاء المماليك، ذلك أن تجارة العبيد كانت رائجة جداً في حينها. وكان الوضع الاقتصادي لقبائل وسط آسيا سيئاً للغاية، وأصبح الوضع الاقتصادي في العصور الوسطى متداعياً جداً، وانتشرت المجاعات، واضطر كثير من الأهالي في مناطق وسط آسيا وشرق أوروبا لبيع أولادهم، خصوصاً للدولة الإسلامية، لأنهم واثقون من حصول أولادهم على مستقبل أفضل، وخصوصاً أن بعض من سبقهم وصل لمراكز عالية بالسلطة، منها قادة الجيوش وحتى السلاطين. وقد شاعت الأخبار لدى هذه القبائل أن أولادهم سيلاقون مصيراً أفضل، وسعادة وسرعة في الوصول للثراء. وسيترقون في الوظائف والمناصب. وهو صحيح بطبيعة الحال. فما كان أهل تلك القبائل يرون غضاضة أو حرجاً في بيع أولادهم للنخاسين، مما جعل الرقيق لا يعتمد على سبایا الحرب فقط. وبعض هؤلاء المماليك لم يفقدوا صلتهم بأهاليهم بل أرسلوا بطلبهم للحضور، منهم برقوق الذي أحضر والده آنص وأهله.<sup>(١)</sup>

وكانت أثمان هؤلاء الرقيق تختلف بين قلة وكثرة، وتصل أحياناً إلى أثمان باهظة، يعتمد ذلك على اللون والقوة ومقدار الجمال والذكاء.<sup>(٢)</sup>

وبدأ استخدام المماليك بمصر بكثرة في عصر الدولة الطولونية (٢٥٤ . ٢٩٢) هجرية / (٨٦٨ . ٩٠٥) م. كما تابعت الدولة الإخشيدية (٣٢٣ . ٣٥٨) هجرية / (٩٣٥ . ٩٦٩) م استخدام المماليك. فكان معظم عناصر الجيش لديها من المماليك الأتراك. وقد بلغ تعدادهم ثمانية آلاف مملوك.<sup>(٣)</sup>

كذلك كان عصر الفاطميين في القاهرة، فقد قلدوا العباسيين في اعتمادهم على المماليك من مغاربة وسودان وأتراك طوال فترة حكمهم الذي دام ما بين (٣٥٨ . ٥٦٧) هجرية / (٩٦٩ . ١١٧١) م.

تبع الأيوبيون من سبقهم في الاعتماد على المماليك خلال فترة حكمهم التي دامت واحداً وثمانين عاماً ما بين (٥٦٧ . ٦٥٠) هجرية / (١١٧١ . ١٢٥٢) م. واعتمدوا بكثرة على العنصر التركي، ثم

١ . شاهين الملطي (عبد الباسط بن خليل بن شاهين) نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٧ ص ١١٥، وسيشار إليه باسم شاهين الملطي: نزهة الأساطين.

٢ . موير (وليم) : تاريخ دولة المماليك في مصر: ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥، ص ٣٩. وسيشار إليه باسم موير: تاريخ دولة المماليك. وانظر أيضاً: الأنصاري (ناصر) المجلد في تاريخ مصر:، طبعة القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٨ وسيشار إليه باسم: الأنصاري: المجلد في تاريخ مصر.

٣ - سرور (محمد جمال) الظاهر ببيرس وحضارة مصر في عصره، طبعة القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٥. وسيشار إليه باسم سرور: الظاهر ببيرس .

المغولي. وكان إعتمادهم على المماليك على وجه الخصوص في الجيش. فبنوا لهم الثكنات في جزيرة الروضة قرب القاهرة القديمة. بعيدين عن المدينة نسبياً، وقد سموا بالمماليك البحرية. نسبة لنهر النيل الذي يطلق عليه العامة من أهل مصر اسم بحر النيل.<sup>(١)</sup>

وقد اشترى صلاح الدين وحده اثني عشر ألف مملوك من الجراكسة والأتراك ودرّبهم عسكرياً، وشكل منهم فرقاً مختارة كانت الأكثر بأساً والأقوى بطشاً. وبالوقت نفسه أخذ نفوذهم بالازدياد، حتى أن أمراء المماليك الأسدية (نسبة لأسد الدين شيركوه) والصلاحية (نسبة لصلاح الدين الأيوبي)، خافوا على نفوذهم بعد وفاة الملك العزيز عثمان سلطان مصر، فتدخلوا لمنع العادل أخي صلاح الدين من السيطرة على مصر، واستدعوا الملك الأفضل من صرخد وسلموه مقاليد الحكم في شهر رمضان سنة ٥٩٥ هجرية الموافق كانون الثاني / يناير ١١٩٩ م. كما كانوا وراء مؤامرة لعزل السلطان الملك العادل الثاني (الصغير) لإحلال الصالح نجم الدين أيوب محله في السلطنة.<sup>(٢)</sup> ولم يلبثوا أن استولوا على السلطة، وأصبح السلطان واحداً منهم، وأخذوا يتداولون السلطة فيما بينهم.

إلا أن تعبير (المماليك) تطور عبر الزمن وأصبح يطلق، بالمفهوم التاريخي، على دولة أسسها في مصر والشام أولئك المماليك الذين أحضرهم صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه من بعده، مشكلين طبقة خاصة، ذات ميزات منفردة وأسلوب منفرد في التاريخ.

ولم يتوقف سيل ورود المماليك الجدد حتى بعد استيلائهم على الحكم، فقد استمر استجلابهم في عهد الظاهر بيبرس، فالملك قلاوون. ثم السلطان حسن وبرقوق وبرسباي وقاتباي.<sup>(٣)</sup>

وكان سبب ودوافع هذا الزحف والرواج في شراء المماليك ظروف منطقة أواسط آسيا والصراعات العرقية والقبلية. أضف إلى ذلك الغزو المغولي لتلك الأصقاع، وما خلف ذلك من بؤس وهجرات جماعية وقحط ومجاعات. فلا بد إذاً من ازدياد وتنشيط تجارة الرقيق.

لقد كان للمماليك في مصر مركز خاص استثنائي، لا يمكن معه مقارنته بأي ممالك في أي مكان آخر في العالم، حتى ممالك بغداد حين تسلطوا على الخليفة والحكم والقرار، لم يكونوا على قدر واستطاعة لتشكيل دولة أو فئة أرستقراطية عسكرية (أوليغارشية). وحتى في حالة تجمعاتهم الكبيرة وثوراتهم العامة (كثورة الزنج) فإنهم لم يشكلوا دولة. وكان تسلطهم أو سيادتهم عارضة، فردية لم تنتقل لخلفائهم أو لبني جلدتهم. عكس ما حصل في مصر فيما بعد.

لم يكن السلطان وحده الذي يستجلب المماليك، فقد كان الأمراء أيضاً يشترون المماليك ويشكلون منهم حرسهم الخاص، وعناصر جندهم المقربين. ولذلك كان المملوك الأسعد حظاً من يملكه السلطان

١ - موير : تاريخ دولة المماليك، ص ١٥٥. وانظر أيضاً الأنصاري : المجلد في تاريخ مصر.

٢ - زقلمة ( أنور ) المماليك في مصر ، مكتبة مديولي ١٩٩٥ القاهرة ص ١٩. وسيشار إليه باسم : زقلمة : المماليك في مصر. وانظر أيضاً : عاشور (د.د. سعيد عبد الفتاح ) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، طبعة القاهرة ١٩٩٣ ص ١٧٦ وما بعدها وسيشار إليه باسم عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام .

٣ . زقلمة : المماليك في مصر ، ص ٢١ .

الذي سحرره فيما بعد ليكون أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة. وقد يثب في ترقيته وثبة واحدة ليكون أمير ألف.<sup>(١)</sup>

كان يتم استجلاب الممالك أثناء عصر الدولة الأيوبية، ومن بعدها الدولة المملوكية، من عدة بلدان أهمها: شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز. ومن آسيا الصغرى، ومن فارس وتركستان وأواسط آسيا، أي ما يسمى بلاد ما وراء النهر. وكذلك كان يستجلب الممالك من الأرمن والشركس والمغول، ومن الأتراك والروم والروس والأكراد. وكانت هنالك أقلية أوروبية من اليونان وإسبانيا وألمانيا وغير ذلك.<sup>(٢)</sup>

كان الممالك ينسبون إلى صاحبهم الأول أو إلى أستاذهم أو تاجر الرقيق الذي استجلبهم، مثل الممالك الذين عرفوا باسم الممالك العثمانية، وقد نسبوا إلى الخوجا عثمان، الذي استجلبهم وكان أحد كبار تجار الممالك، وقد اشتهر بحسن بضاعته، لذلك كان الانتساب إليه من باب الفخر والاعتزاز. وكان يذكر نسبهم هذا بعد اسمهم. إذ لا جدوى من ذكر نسبهم أو اسم عائلتهم الأصلي. فقد كان النسب على سبيل المثال (الظاهر بيبرس العلاني البندقداري الصالحي) فاسمه بيبرس الذي تلقب فيما بعد بالظاهر على عادة ذلك العصر، وكان علاء الدين البندقداري هو أول مالك له، ثم تسمى بالصالحي نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، بعد أن انتقل إلى خدمته. وبعد أن قام بيبرس نفسه بشراء الممالك من التجار أطلق اسمه على ممالكه وتسموا الممالك الظاهرية بيبرس. وأطلق على ممالك السلطان الأشرف خليل اسم الممالك الأشرفية خليل.

بينما نرى أن السلطان قلاوون الألفي إنما أخذ اسمه (الألفي) من القيمة الباهظة التي دفعت لشرائه وهي ألف دينار، وكانت آنذاك مبلغاً جسيماً. مما كان مدعاة فخر لمالكة ولقلاوون نفسه.<sup>(٣)</sup>

## ٢ - استيلاء الممالك على الحكم ونهاية الدولة الأيوبية:

بعد موت الملك الصالح نجم الدين أيوب أثناء معركة المنصورة ليلة الاثنين نصف شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩ م)، خاف قادة الجيش وزوج الملك الصالح شجر الدر على تأثير ذلك على معنويات الجند ومسير المعركة فتم إخفاء موته، حتى الثاني عشر من رمضان.<sup>(٤)</sup> واستدعي ابنه توران شاه من حصن كيفا الواقع على نهر دجلة بالعراق، وهو صاحب الحق الشرعي في حكم البلاد، رغم عدم توصية أبيه له بالحكم. ورغم تلك الظروف القاسية تم النصر ودحر الفرنجة وأسر ملكهم لويس التاسع في المنصورة.

١. زقلمة : الممالك في مصر ، ص ٢٢ وما بعدها

٢. انظر الأنصاري : المجلد في تاريخ مصر، ص ١٥٥. وانظر أيضاً: عاشور : الأيوبيون والممالك في مصر والشام، ص ١٧٩.

٣ - انظرموير : تاريخ الممالك طبعة القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٧ وما بعدها وانظر أيضاً زقلمة : المجلد في تاريخ مصر، ص ١٥٥. وانظر أيضاً عاشور : الأيوبيون والممالك في مصر والشام ، ص ١٧٩ وما بعدها.

٤ . المقرئزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الغبيدي ) السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد طبعة ١٤٢٩ هـ مكة المكرمة، ج ١ ص ٤٤١ وسيشار إليه باسم المقرئزي : السلوك ، عاشور : الأيوبيون والممالك في مصر والشام ، ص ١٥٩.

استشعر المماليك قوتهم بنصرهم في معركة المنصورة. وعلى العكس قام توران شاه بإقصاء أهل بيته وتكر لشجر الدر ولأمراء المماليك ممن كانوا سبب سلطنته، خصوصاً الفارس أقطاي الذي أرسلته شجر الدر لاستدعائه للحكم فوعده بأن يؤمره. وتكر لأهل بيته الأيوبي فنفى وسجن بعضهم. ثم لاحق شجر الدر (أو شجرة الدر) بمال أبيه الذي لم تمتلكه وأخذ يتهدها، فأرسلت كتاباً للمماليك البحرية تشكو أعماله. وشعر الجميع بخطر السلطان الجديد. وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع، ويقول (هكذا أفعل بالبحرية) وكان يسميهم بأسمائهم، فاغتنم المماليك وجوده على السباط في فارسكور<sup>(١)</sup>، فنقدم إليه بيبرس البندقاري فضربه بالسيف وقطع أصابع يده، ورأى المماليك إتمام عملهم خوفاً من وعيده فقتلوه جريحاً حريقاً غريقاً، وفر أصحابه.<sup>(٢)</sup>

أجمع أمراء المماليك البحرية، وأعيان الدولة وأهل المشورة على تنصيب شجر الدر. التي استلمت الحكم وأخذت تصدر التوقييع من قلعة الجبل بإسم أم خليل المستعصمية، إذ باستخدامها أم خليل ابنها الميت، من صاحبها الملك الصالح نجم الدين أيوب، حفظت صلتها بالبيت الأيوبي. وباستخدامها المستعصمية، أعطت السلطة الروحية والارتباط للخليفة العباسي ببغداد المستعصم. وجرى الدعاء لها في الجوامع بعد الخليفة وسكت النقود باسمها.<sup>(٣)</sup>

لم يكن هذا ليرضي البيت الأيوبي، وأخذوا يتكتلون في الشام، ولم يرض الخليفة العباسي المستعصم بتولي امرأة ملك مصر. لذلك ارتأى المماليك تزويج شجر الدر من أتابك العسكر الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي. وقد انتهت دولة بني أيوب بذلك وبدأ الحكم المملوكي.

كان لوصول المماليك للحكم تأثير كبير جداً على مختلف مظاهر الحياة في الدولة ، فلقد كانت الخلافات بين أبناء الأسرة الأيوبية سبباً لقيام الأيوبيين باستجلاب المماليك لحماية أنفسهم من أبناء أسرهم الذين يتنازعون على السلطة. إلا أن الموضوع اختلف تماماً فقد استطاع هؤلاء العبيد الوصول للملك والسيطرة على السلطة وإقصاء الأيوبيين أسيادهم. تم ذلك في ظروف عسكرية قاسية خلال معركة المنصورة أثناء صد الحملة الفرنسية على مصر. إلا أن المماليك عدّوا الظروف العسكرية المأساوية فرصة لهم بحجة الدفاع عن الإسلام والمسلمين. وكرسوا هذا الموقف الدفاعي بإعادة الخلافة العباسية إلى مصر إثر سقوطها في بغداد بعد تدمير بغداد والخلافة فيها. وبضم الحرمين الشريفين لمصر . وخدمت الظروف هؤلاء المماليك إذ استطاعوا إتمام مهمة صلاح الدين في طرد بقايا الصليبيين. كما استطاعوا وقف هجمات المغول على حدود مصر الشمالية. فكانت النتيجة أن سلمت مصر من التدمير الذي أصاب بلاد الشام والقتل الجماعي الذي ارتكب هناك. فأصبحت مصر خصوصاً بعد ضم بلاد

١ - ( قرية في منطقة المنصورة في مصر حيث حدثت المعركة الفاصلة بين المسلمين والصليبيين بقيادة لويس التاسع ).

٢ . المقرئزي : السلوك ص ٤٥٧ . ٤٥٨ ، عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٥٦ . ١٥٧ .

٣ . المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٥٩ ، عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٥٧ . ١٥٨ .

الشام إليها هي المركز الإسلامي الأول في العالم. وأصبحت الدولة الكبرى الوحيدة في العالم العربي والإسلامي. (١)

إضافة إلى ذلك أصبحت هدفاً للهجرة من كل أنحاء العالم الإسلامي لسلامة الوضع فيها أمنياً ولقوتها ولازدهارها الاقتصادي الكبير الذي استمر لأكثر من مائة عام، ولقوة جيشها الكبير الذي أصبح حامياً للازدهار الاقتصادي والثروة.

بالوقت نفسه أخذ الوجود العربي الإسلامي في الأندلس بالتراجع والسقوط نتيجة حروب الاسترداد الإسبانية فانهاالت الهجرة إلى مصر من الأندلس ومن المغرب ومن الشرق العربي، إضافة لطوائف من الكرد والتركمان ومن المغول من أبناء القبيلة الذهبية \* التي كانت تعيش في وسط آسيا، قد ارتبطت مع مصر بأواصر الود والصداقة خصوصاً في زمن السلطان بيبرس. يضاف إلى ذلك بقايا الجيش العباسي وسكان العراق الهاربين من المغول. فكان من الطبيعي أن يزداد عدد السكان. وقد قدر بعض الباحثين عدد سكان مصر حينها بثلاثة ملايين نسمة وعدد سكان القاهرة بستمئة ألف نسمة. فنمت المدن وخصوصاً العاصمة كذلك امتد التوسع إلى القرى والضيع في مصر، عكس بلاد الشام التي بقيت منطقة مهددة وتعاني من الدمار الذي أصابها. (٢)

وقد قدر بعض الباحثين عدد العائلات التي هاجرت إلى مصر بعد الأخذ بعين الاعتبار دخول بقايا الجيش العباسي المهزوم أمام المغول، التي دخلت حدود بلاد الشام عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م بسبب سقوط بغداد بيد المغول وما تبعها منخراب وتلف للأراضي الزراعية وتوقف لل عمران والصناعات ، على الشكل التالي: فقد دخلت مجموعات من الفرسان الأكراد تقدر بثلاثة آلاف فارس استقرت في غزة. وفي ستينيات القرن الثالث عشر ميلادي أي ستينيات القرن الثامن الهجري أتت مجموعات مغولية لتعيش في مصر عددها بضع مئات من العائلات. وتبعهم أناس من بغداد وشيراز وفرسان أتراك أتوا حوالي عام ٦٦٨ هـ / ١٢٩٦ م بلغ عددهم مابين ١٠٠٠٠ . ١٨٠٠٠ عائلة استقروا في مصر أيضاً، يضاف إلى ذلك هجرة الكثير من العائلات من مختلف أنحاء بلاد الشام استقرت في مصر إثر الهجوم المغولي. (٣) وقد توسعت الحارات الجديدة في مصر حيث قدر بعض المؤرخين العرب أن مصر قد تضاعفت حجماً في زمن بيبرس.

العصر المملوكي متميز في تاريخ العرب والإسلام سواء من طريقة تأسيس الدولة المملوكية أو من حيث الظروف السياسية والعسكرية التي كانت فيها. فالمماليك أولاً من أجناس تركية مختلفة. إذ تابع

١. مصطفى ( نادية محمود ) العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية: المعهد العالي للفكر الإسلامي القاهرة ١٩٩٦ ص ٨٠٧.

\* (القبيلة الذهبية : من قبائل المغول وسميت بالتتار نسبة لقبيلة تاتا حكمت شرق روسيا في القرن التاسع عشر واتخذت اسم الذهبية من الخيمة ذات القبة الموشاة بغطاء من ذهب مقر قيادة باتو الرائع حفيد جنكيز خان انظر قصة الحضارة : ول ديورانت )

٢. أشتور . ( آ ) : التاريخ السياسي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى: ترجمة عبد الهادي عيلة وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة دمشق ١٩٨٥. ص ٢١٩، وسيمرز إليه باسم أشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، 291. Ashtor p. p 286 .

٣. ( أشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ص ٣٧٨ . ٣٧٩).



السلطين والأمرء شراء الممالك من تجار العبيد وأدخلوهم في خدمتهم كفرسان في الجيش النظامي أو حراس الممالك أو الحرس السلطاني. فأصبحت تجد في القطعة العسكرية الواحدة أشخاصاً من مختلف الجنسيات الآسيوية والأوروبية. حتى السلطين، فالسلطان كتبغا مغولي الأصل، بينما خليفته لاجين فارس جرمانى، وخشقدم من أصل ألبانى. وقد شاهد الرحالة الأوربيون الذين زاروا القاهرة في القرن الخامس عشر ميلادى التاسع هجرى شاهدوا ممالك من أصول ألمانية وهنغارية وإيطالية أيضاً. <sup>(١)</sup> أضف إلى ذلك أن طبيعة المهاجرين الذين وصلوا مصر بعد الاجتياح المغولي وتباين ثقافتهم ولغاتهم، مع إحتفاظ الممالك بلغتهم التركية، جعل مصر فسيصفاء ثقافياً ، حتى أن بعض السلطين كانوا لا يتكلمون العربية، وإذا أرادوا الاطلاع على مراسلات الدولة كانوا يحتاجون لترجمان. كما كان أمرء الممالك في كثير من الاجتماعات الرسمية يتركون الحديث بالعربية ليتكلموا فيما بينهم بالتركية.

كما كانت مصر هدف هجرة العلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامى، فإن منهم المؤرخين والكتبة والقضاة، وهؤلاء هم من غلبوا أخبار العامة في كتبهم التاريخية وحولياتهم، خصوصاً أن من سيكافئهم من السلطين والأمرء على كتبهم لا يهتم أخبار العامة. وبعض السلطين كان يجاهر بكرهه للعامة. كما أن عزلة الممالك كطبقة فرسان متميزة، حيث قاموا بمنع أهل البلاد من دخول الجيش. وأسندوا المناصب الكبرى في سائر قطاعات الدولة لضباط الجيش. كما وأسندوا الكثير من الوظائف المدنية للزميين من الأقباط واليهود ، يضاف إلى ذلك تقوقعهم في قلعة الجبل وعدم اختلاطهم بالعامة من أهل البلاد. كل ذلك أكد الفاصل القاطع بين الحاكم والمحكوم.

ومكان للممالك اثرهم على الحركة العلمية والثقافية إذ ساعد الانتماء الدينى للممالك ، الذى ربما كان فطرياً بسبب تربيتهم الإسلامية في الطباق، واحتياجهم للعاطفة الدينية ، كونهم فئة وصلت للحكم بحجة الدفاع عن الإسلام، ساعد في ازدهار العلوم خصوصاً الدينية الشرعية في الدولة المملوكية. كما ساهم في تأسيس نهضة علمية أدبية عظيمة. ولم يمنع هذا الجيش الكبير من العلماء والأدباء والشعراء الذين سواء نشأوا في السلطنة المملوكية أو هاجروا إليها من سائر نواحي العالم العربى والإسلامى. في خلق نهضة علمية أدبية عمرانية ما نزال نتلمس ظلها الوارف في زماننا بشكل أو آخر.

١. أشنور : التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص ٣٧٠ . ٣٧١.

## الفصل الأول

### الكتابة الديوانية تطورها وأدبها

أولاً - الكتابة الديوانية :

كان فن الكتابة الديوانية قديماً ، نتجت عن الحاجة إلى هذا الفن الإنشائي لتنظيم سير الكتاب وتكييف النظم الإدارية، وطرق المخاطبات الرسمية، وقد اقتبس المؤلفون الأوائل ذلك من الشريعة الإسلامية ومن

التراث الفارسي والرومي في البلاد المفتوحة في عصر الفتوحات الإسلامية. أخذ كتّاب الدواوين في الأغلب في تدوين هذه الكتب لتقديم النصح والإرشاد لمن يتبع طريقهم المسلكي. ولتنظيم مهنة الكتابة الديوانية وتبيان أساليبها وصيغها العلمية في كافة متطلبات المكاتبات موضوعاً، وبيان طرق المخاطبة داخل الدولة، أو المراسلات الخارجية. كما تضمنت الكتابة الديوانية اتجاهاً آخر يأخذ باب النصح والإرشاد للحاكم أولاً ثم للحاشية فالكُتّاب، تلك النصائح التي أتت عن خبرة وتدريب. كما اتخذت الكتابة الديوانية اتجاهاً ثالثاً في إعداد وتنقيف الكاتب في كل وجوه الثقافة والعلوم والأدب والكياسة التي يحتاجها في عمله ليكون أداؤه جيداً ومرضياً عنه.

وقد تطورت الكتابة الديوانية عبر العصور من زمن الرسول عليه السلام وحتى العصر المملوكي كثيراً، وبلغت قمته في الموسوعات المتخصصة، خصوصاً كتاب القلقشندي «صبح الأعشى» الذي يعد موسوعة في بابها جامعاً ومانعاً، ولا يحتاج الكاتب في ذلك العصر لسواه في علم الإدارة.

ولقد بدأ هذا الفن : في صورة تقديم النصائح للملوك، ولعل أقدمها ( حسب سنة وفاة الكاتب ) :

١ - رسالة عبد الحميد الكاتب الموجهة لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية عام ١٢٩ هـ / ٧٤٦ .

٧٤٧ م .

٢ - كتاب الرسائل لابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م .

٣ - التبر المسبوك في نصيحة الملوك للغزالي الذي كتبه عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ . ١١١٠ م .

٤ - سراج الملوك للطرطوسي المتوفى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وغير ذلك .

ثم بدأت تأليف كتب الدواوين بالظهور وتطورت حتى أصبحت موسوعات. ومن كتّاب هذا الفن من العلوم الإدارية، منذ أوائل نهضة هذا الفن، حتى العصر المملوكي الذي يعد العصر الذهبي لهذه الصنعة. نذكر أهم أعلام هؤلاء الكتاب متبعين التسلسل الزمني بحسب تاريخ وفاتهم:

١ - ابن قتيبة :

الذي عاش في المدة الواقعة ما بين ٢١٣ . ٢٧٦ هـ / ٨٢٨ م . وكتابه «أدب الكاتب» يعد أول

كتاب علمي بهذا الخصوص، حيث حثَّ على تأديب الكُتّاب.

٢ - الجهشاري :

المتوفى عام ٣٣١ هـ / ٩٤٢ . ٩٤٣ الذي جاء بكتابه «الوزراء والكتاب»<sup>(١)</sup> ويعد الكتاب مصدراً هاماً لأسماء الكتاب من العرب والعجم في مركز الخلافة أو في الأمصار.

### ٣ - أبو بكر محمد الصولي :

المتوفى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م جاء بكتابه «أدب الكتاب» منتقداً من سبقه في هذا الباب متهماً إياهم بالسطحية، وجعل كتابه ثلاثة أقسام، في الكتابة وفي آلاتها وأدواتها وترتيبها، ووجوه الأموال، وكتابه هام جداً في بابها.

### ٤ - قدامة بن جعفر :

المتوفى سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م، وله كتاب «الخراج وصناعة الكتابة» الذي يعد أول كتاب مهني علمي في صناعة الكتابة. فقد كان جده نصرانياً فأسلم ليعمل في دواوين الخلافة العباسية مثل أبيه جعفر، ثم تبعهم قدامة فعمل في الدواوين ويعد كتابه كدليل للكتاب يستعينون فيه في صناعتهم. فذكر ما يحتاج الكاتب من البلاغة والكتابة وأدواتها ثم تحدث في الدواوين وأنواعها، ثم تحدث في جغرافية الأمم، وعن وجوه الأموال، وغير ذلك.<sup>(٢)</sup>

### ٥ - ابن دُرستويه :

الذي عاش في المدة ٢٥٨ . ٣٤٧ هـ / ٨٧١ . ٩٤٨ م<sup>(٣)</sup>، ويعد تلميذاً لابن قتيبة فوضع كتاب «كتاب الكتاب» وابتدأه في اللغة والنحو وانتهى به بصناعة الكتابة من افتتاح الرسائل وتصديرها والتواريخ والأرقام ثم القلم والدواة وغير ذلك.

### ٦ - أبو هلال الحسن العسكري :

الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران  
كان حياً عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م

١ . (الجهشاري هو جعفر بن غانم بن علي الجهشاري وزير حاجب الخليفة العباسي المعتمد على الله المتوفى في بغداد سنة ٢٧٩ هـ عاصر ابن طولون ص ٣٣).

٢ . الحسنية ( سليم ) أضواء على صناعة الكتابة عند العرب منذ نشأتها حتى العصر المملوكي ، مطبوعات وزارة الثقافة السورية ١٩٩٧ ص ٣١ . ٣٦، وسيشار إليه باسم الحسنية : أضواء على الصناعة الكتابية عند العرب.

٣ . (هو أبو جعفر عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي الفارسي صاحب المبرد وأخذ عنه وتلمذ على ابن قتيبة . أضواء على صناعة الكتابة عند العرب ص ٣٣ - ٣٤). انظر الحسنية: أضواء على صناعة الكتابة عند العرب

له الكثير من التصانيف منها الأوائل ، ويهم في هذا البحث : «كتاب الصناعتين: الشعر والكتابة» وكان كتابه ذا طابع لغوي مع بعض التفصيل في صناعة الكتابة مثل ما يحتاجه الكاتب من أدوات الكتابة وأصول مكاتبة كل فئة حسب طبقات الناس وأفهامها.

وكانت كتابات أدب الدواوين والإنشاء نشطة في العصر الفاطمي خصوصاً، بدءاً من عهد ابن طولون الذي إليه يعود فضل تنظيم الدواوين في مصر تنظيمًا علمياً. وظهرت الكتب الكثيرة منها مؤلفات المُسَبَّحي، وابن المأمون، وابن ظافر، وابن مُيَسَّر، وابن أَيْبَك الدوداري، وأبي المحاسن ابن تغري بردي. وكتابا اتعاط الحنفا، والمقفى الكبير للمقريزي التي تشكل اللبنة الأساسية في هذا العلم.

#### ٧ - علي بن خلف:

يعد علي بن خلف أول من ألف في فن الكتابة الديوانية العلمية في مصر الإسلامية. وهو أهم كتاب أدب الإنشاء في القسم الأول من فترة الدولة الفاطمية، ويعد من كبار رجال دولتهم. وقد ألف كتابه «مواد البيان» في عهد المستنصر بالله ( انظر الحاشية )، ولا يعرف تاريخ وفاته بالتدقيق ولكنه كان موجوداً في سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م، حيث أنهى العمل بكتابه المذكور. لا يعرف الكثير عن كامل اسمه ولا حياته ويعتقد أنه كان رئيس ديوان الرسائل في العصر الفاطمي، وقد نقل عنه القلقشندي ١٦٨ مرة، فهو يقول مبيناً نقله عن الغير : قال في «البيان» أو يقول: قال «صاحب البيان»، فنقل بمعدل يقرب من نصف كتاب «مواد البيان»، وهو المصدر الأول للقلقشندي عن تلك الفترة من العصر الفاطمي. والكتاب في عشرة أبواب يبين العمل في ديوان الرسائل ومهمات كل كاتب منهم، وما يحتاج إليه في عمله. ثم يقدم ما يتطلب من الكتاب كافة ليكون في منصبه من كافة العلوم والفنون والأدب. (١)

#### ٨ - الصابئ الحرائي :

أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حيون أبو الخير الصابئ الحرائي الكاتب الملقب بالرئيس وبالصدر الأوحده، عاش بين عامي ٣٥٩ . ٤٤٨ هـ / ٩٦٩ . ١٠٥٦ م كان صابئاً وأسلم وهو صاحب الرسائل المشهورة. وهو من عائلة اشتغلت بالكتابة والدواوين، وأبوه أيضاً، وجدّه أبو إسحاق إبراهيم المحسن كان كاتباً للإنشاء في بغداد. وللمحسن أولاد اشتغلوا في الكتابة، منهم أبو الحسن غرس النعمة الذي كمل تاريخ أبيه، وابنه محمد أبو الحسن غرس النعمة أيضاً وله كتاب «الربيع» وحفيده ابن نبهان. وكذلك خال أبي الحسن هلال كان كاتباً وهو ثابت بن سنان بن قرة الكاتب

---

المستنصر بالله معد بن علي بن الحاكم بأمر الله من خلفاء الدولة الاطمية ولد سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م وبويع بالخلافة سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م حكم ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام .

١. ابن الصيرفي ( علي بن منجب بن سليمان ) : مواد البيان تحقيق حسين عبد اللطيف طبعة جامعة الفاتح . طرابلس ١٩٨٢ المقدمة:، ويضم معه للمؤلف نفسه القانون في ديوان الرسائل والإشارة لمن نال الوزارة: تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠ ص ٦٠١. وسيشار إليه باسم ابن الصيرفي مواد البيان .

البليغ الذي كتب كتاباً في التاريخ عن الحوادث التي تمت في زمانه من سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٦ م إلى حين وفاته سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤ م.

وقد وضع أبو الحسن هلال الصابئ كتاباً باسم «رسوم دار الخلافة» فيما يتعلق ببحثنا، وكتاب «التأريخ» ذيله على تأريخ خاله ثابت بن سنان الصابئ الطبيب، وقد ذيل عليه ابنه غرس النعمة محمد «كتاب الدولة البويهية» وله أيضاً كتاب «غُرر البلاغة في الرسائل» وكتابه «الرسائل» أنشأه عن الملوك والوزراء يقارب رسائل جده أبي إسحاق. وكتاب «الوزراء» الذي ذيله على كتاب الصولي أو الجهشاري<sup>(١)</sup>. وكتاب «مآثر أهله» و«كتاب الكتاب» و«كتاب السياسة»، وتوفي سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦ م.

(٢)

#### ٩- الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م :

هو قاضي القضاة أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي<sup>(٣)</sup> وقد وضع عدة كتب في هذا الموضوع كان أهمها الأحكام السلطانية، وعده القلقشندي «مما يستغني الناظر فيه عن مراجعة غيره، فبين فيه مختلف نواحي الإدارة والوظائف والولايات وكل ما تفضي إليه حاجة الكاتب»، وقد اعتمد عليه القلقشندي في كتابه صبح الأعشى<sup>(٤)</sup>.

#### ١٠ - ابن خلف الفراء :

أبو يعلي محمد بن الحسين بن محمد (وفي المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء بن الحسن) ابن خلف الفراء الحنبلي توفي سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م يؤمن بالتجسيم وله كتاب «الأحكام السلطانية»

#### ١١ - ابن الصيرفي : علي بن منجب بن سليمان الكاتب:

عاش ما بين عامي ٤٦٣ . ٥٤٢ هـ / ١٠٧١ . ١١٤٧ م ، كان أبوه صيرفياً وجده كاتباً وكان يتدرب في الوظائف الإدارية خمسين عاماً حتى أصبح «رئيس ديوان»، وضع كتاباً هاماً باسم «القانون في ديوان الرسائل» عن الإدارة وأسلوب الحكم والكتاب والدواوين، وقد نقل عنه القلقشندي كثيراً في كتابه صبح الأعشى. والكتاب يتحدث عن سبب كتابته وطرق الاستفادة منه ومن المستفيد منه وشروط اختيار

١. الصفدي (صلاح الدين) الوافي بالوفيات تحقيق هلموت ريتزر، دار صادر بيروت ١٩٦٢ . ١٩٧١ . ويشير إليه باسم الصفدي الوافي بالوفيات.

٢. (الصفدي: الوافي بالوفيات: انظر ترجمة أبو الحسن الصابئ).

٣. حاجي خليفة (مصطفى القسطنطيني): كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون، دار الفكر بيروت ١٩٨٢، (في كشف الظنون هو علي بن محمد بن حبيب) ويشير إليه باسم حاجي خليفة: كشف الظنون.

٤. القلقشندي: صبح طبعة الذخائر ج ٢ ص ٧٠٥.

رئيس الديوان ومن يعمل فيه . وطرق المكاتب لمختلف الجهات. وقد نقل القلقشندي نصف الكتاب بشكل غير مباشر . إذ يعتقد أنه لم يطلع على الكتاب إلا من خلال نقولات من «تذكرة أبي الفضل الصوري» الذي نقل من «القانون في ديوان الرسائل». ويعتقد أن ابن الصيرفي قدم كتابه للوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي. وقد أراد ابن الصيرفي من وضع كتابه أن يكون قانوناً يسترشد به العاملون بديوان الإنشاء، أو ما كان يسمى بديوان الرسائل وإضافة لنصائحه للكتاب ونماذج الكتابات فهو يعطينا تفصيلاً عن عمل الديوان وموظفيه، ويقدم أيضاً ما يراه شروطاً مطلوبة لتعيين موظفي الديوان. ولابن الصيرفي كتاب آخر اسمه «الإشارة إلى من نال الوزارة». ويعد ابن الصيرفي أهم كتاب النصف الثاني من عصر الدولة الفاطمية. (١)

## ١٢- العزيزي :

وهو حسن ابن أحمد المهلبي . الذي وضع كتاباً هاماً في المسالك والممالك يحمل هذا الاسم وإشتهر باسم كتاب العزيزي. وقدم فيه التقسيمات الإدارية والتابعة الإدارية في الفترة الفاطمية . وفائدة الكتاب كبيرة في المقارنة مع غيره من الكتب التي جاءت على الموضوع نفسه مثل (زبدة كشف الممالك) للظاهري ، وكتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي .

## ١٣ - العماد الأصفهاني أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني :

ولد سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م وتوفي ٥٩٧ سنة هـ / ١٢٠١ م وتسلم الكثير من المناصب منها فيما يخص ديوان الإنشاء، إلى أن رتبته الملك العادل نور الدين في ديوانه منشئاً سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م. وفي عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م، وولاه الإشراف على ديوان الإنشاء مضافاً إلى الكتابة حتى توفي نور الدين، فاختلف أمر العماد ولم يبق له سوى الكتابة. ثم ضيقوا عليه إلى أن خرج من الديوان عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م.

وفي زمن صلاح الدين عاد للديوان معاوناً للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، كاتب سر السلطان، وأورد في كتابيه (البرق الشامي ، والفتح القدسي) كثيراً مما أنشأ من الرسائل والتبشيرات والمناشير وإستمر في ديوان الإنشاء بعد موت صلاح الدين إلى آخر سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م حيث تركه نهائياً وتفرغ للكتابة حتى توفي بدمشق عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م.

وله الكثير من الكتب منها : (البرق الشامي) وكتاب (خريدة القصر وجريدة أهل العصر) و (خطفة البارق وعطفة الشارق ) في التاريخ ، وغيرها وله ديوان شعر .

اختصر كتابه قوام الدين الفتح بن علي البنداري المتوفى عام ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م .

١ . ابن الصيرفي : مواد البيان : ١٩٩٠ ص ١ . ٢٦٠ ، الحسنية : أضواء على صناعة الكتابة الدواوينية عند العرب ص ٤٣ . ٤٥٠ .

في كتاب سماه « سنا البرق الشامي »

#### ١٤ - الأسعد بن مماتي:

المتوفى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م وهو وجيه الدين أسعد بن المهذب المصري الوزير .  
وكتابه « قوانين الدواوين » . الهام جداً في بابيه الذي كتبه عن خبرة طويلة أثناء خدمته في كثير من الدواوين ، وأصله من نصارى أسيوط في صعيد مصر أسلم مع أولاده ليبقى في خدمة الديوان ، وكتابه اختص في قسمه الأول بجغرافية مصر في العصر الأيوبي . والقسم الآخر يتعلق بدواوين مصر والوظائف الديوانية ورسومها . والقسم الأخير يتعلق بالفلاحة والشؤون الزراعية . ويعد من أهم المصادر الأولية لعلوم الكتابة الديوانية .

رغم أنه يبحث في الدولة الفاطمية إلا أنه يتحدث عموماً في علم الإدارة سواء في مصر أو الشام ، وقد نقل عنه كل من كتب في علم الإدارة بعده ، ويعد كتاب نهاية الأرب متماً لكتاب ابن مماتي في المعلومات الإدارية خلال العصر المملوكي . والكتاب هام في بحث أصل الإدارة المملوكية خصوصاً أن نظاماً كثيرة استمرت بعد الفترة الفاطمية ضمن نظم الدولة المملوكية .

#### ١٥ - ضياء الدين ابن الأثير :

أبو الفتح نصر الله الجزري ٥٥٨ . ٦٣٧ هـ / ١١٦٢ . ١٢٤٠ م ولد بجزيرة ابن عمرو قرب الموصل من أصول عربية . وكان هدف تعلمه التحاقه بمهنة الكتابة لدى الأمراء . ألف الكثير من الكتب في مجالات مختلفة ، منها في نطاق بحثنا :

«المثل السائر في آداب الكاتب» و«الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور» و«رسائل ابن الأثير» أو « ديوان الترسل » و« المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء » وكتاب « المفتاح المنشأ لحديقة الإنشاء » . ويلاحظ شبه تخصصه في علم الإنشاء <sup>(١)</sup>

#### ثانياً - صناعة الكتابة الديوانية وأعلامها في ظل الدولة المملوكية الأولى :

وكان بدء الدولة المملوكية باستلام معز الدين أيبك ٦٤٨ . ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ . ١٢٥٠ م وفي هذا العصر كان هناك نهضة كبيرة في هذا العلم . من المؤلفين في هذا العصر :

#### ١ - أبو سالم محمد بن طلحة القرشي النصيبي :

الوزير المتوفى سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م

وكتابه «العقد الفريد للملك السعيد» جعله على أربعة قواعد: الأول في مهمات الأخلاق والصفات وهي في عشر أبواب أخذت القسم الأكبر من الكتاب . والقاعدة الثانية في السلطنة والولايات وهي تشتمل

<sup>١</sup> الحسنية : أضواء على صناعة الكتابة الدواوينية ص ٦١ . ٧٠ .



على بابين الأول في السلطان وما يتحلى به من الصفات، والثاني في الولايات وفيها خمس طبقات الوزير وكتابة الإنشاء، وكتابة الجيش، وكتابة ديوان الأموال وسائر الحاشية. والقاعدة الثالثة في الشريعة والديانات وفيها أربعة أركان هي الفتناء والقضاء والحسبة والأوقاف. والقاعدة الرابعة في تكملة المطلوب بأنواع من الزيادات. جعل للكتاب خاتمة وتنبهياً في ذكر بعض حكايات الصالحين. (١)

## ٢ - اليونيني :

قطب الدين موسى بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م وقد قدم الكثير من المعلومات حول الفترة المملوكية التي عاش فيها إضافة للمعلومات التي دونها باختصاره كتاب السبط لابن الجوزي ( مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ) وتابع كتابه من تاريخ وفاة سبط ابن الجوزي سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م وقد وصلنا حتى أحداث حتى سنة ٧١١ هـ / ١٣١٢ م . وفي الناحية الإدارية قدم معلومات هامة عن بلاد الشام خصوصاً مدة الظاهر بيبرس وقدم الكثير من المعلومات في ذكره الوفيات . وقد اعتمد الكتاب نظام الحوليات المذيلة بالوفيات .

## ٣- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية : المتوفى سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م.

وضع كتاباً اسمه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» وهو يعد من الكتب الهامة في علم السياسة. يبين من عنوانه أنه يظهر السياسة الشرعية وكيفية الإصلاح المطلوب سواء للسلطان الذي هو الراعي أو للرعية بشكل عام. وقد ولد بحران سنة ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م، وهاجرت أسرته للشام ، وفيها درس ونبح، وحتى قال عنه العلامة كمال الدين بن الزملكاني: إذا سئل عن فن من العلم، ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن. وقيل إن تصانيفه بلغت خمسمائة مجلدات وله الكثير من الكتب منها «منهاج السنة النبوية» و«الرد على تأسيس التقديس للرازي» في سبع مجلدات، و«الرد على المنطق» و«الموافقة بين المعقول والمنقول» وجمعت فتاواه من قبل تلامذته في عدة مجلدات. وهو معروف بمواقفه الملتزمة المتشددة مما أثار عليه خصومه وما زاده إلا تشدداً وسجن ومات بسجن القلعة بالقاهرة. (٢)

## ٤ - ابن شيخ الربوة :

وهو محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م ويعد كتابه ( نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ) ذا صفة جغرافية ، ألا أنه يفيد في جغرافية وحدود وأسماء القرى في بلاد الشام ويتضمن معلومات مفصلة تفيد في دراسة الإدارة في بلاد الشام (١).

١ . النصيبي ( أبو سالم محمد بن طلحة القرشي ) العقد الفريد للملك السعيد ، طبعة مصر بلا تاريخ ص ٦٠٥ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ١١٥٢ .

٢ . انظر ( صديق حسن خان القنوجي ) أبجد العلوم : إعداد عبد الجبار زكار وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٨ الجزء الثاني القسم الاول ص ٣٩٠ وسيشار إليه صديق حسن خان : أبجد العلوم .

## ٥ - أبو الفداء :

عماد الدين إسماعيل المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م فقد قدم في كتابه المختصر في تاريخ البشر والمعروف أيضاً باسم المختصر في أخبار البشر ، ومن هذا العنوان نعلم أن أبا الفداء إختصر كتابه من مصادر أخرى مثل الكامل في التاريخ لابن الأثير وغيره . وتأتي أهمية الكتاب في القسم الذي يتحدث فيه عن تاريخ حماة في ظل البيت الأيوبي خصوصاً في العصر المملوكي . حيث كان شاهداً عياناً للأحداث ومشاركاً فيها خصوصاً في فترة استلامه ملك حماة على طريقة النواب ، وقد قدم الكثير من المعلومات الإدارية خصوصاً عن حماة . وأحداث عصره معتمداً على ثقافته وسعة اطلاعه وخبرته الشخصية . ويعد شيخ المؤرخين في عصره . وقد قدم كتابه الكثير من المعلومات التي أفادت البحث فيما يتعلق بالإدارة خصوصاً في حماه وبلاد الشام . وعلاقات نواب حماة بالسلطان ونواب الشام الآخرين .

## ٦ - شهاب الدين النويري:

أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التميمي البكري شهاب الدين المولود عام ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م والمتوفى سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م والذي خدم في الدولة المملوكية أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون في الدواوين وباشر نظر الجيش . وكان كتابه الموسوعي الضخم «نهاية الأرب في فنون الأدب» الذي قدم فيه موسوعة تاريخية في الكون والإنسان والحيوان والنبات والتاريخ . وقد قدم المعلومات التاريخية التي دونت أعمال السلاطين وكبار الأمراء مما له علاقة بموضوع البحث هذا، وبما أورده النويري من شؤون الإدارة في العصر المملوكي، وعنه نقل ابن تغري بردي . وكتابه الموسوعي «نهاية الأرب في فنون الأدب» يقع في ثلاثين مجلداً، وفي طبعات أخرى أكثر . وفيه الكثير عن الكتابة الديوانية والولايات والدواوين، وخصوصاً:

السفر السادس: في القسم الخامس: وفيه عن الملك وما يشترط به وما يحتاج إليه في أربعة عشر باباً يتحدث فيهم عن شروط الإمامة وواجبات الملك وواجبات الرعية نحوه، وفي حسن السياسة وفي المشورة وحفظ الأسرار والحجاب وفي قادة الجيوش . ثم في القضاة والأحكام، وولاية المظالم ونيابة دار العدل، وأخيراً في الحسبة .

السفر السابع: من الكتاب حيث يبحث في الكتابة وما يتعلق بها من فنون الأدب وصفات الكاتب وأشكال الكتابة وأقسام الرسائل وصفة كل قسم من تسمية وعنوان وإيضاح وتشكيك، وذكر التقاليد والتشريف ، ثم ذكر شيء من الرسائل المنسوبة للصحابة . وجاء في سفره الثامن بعض كتابات من إنشاء كبار القضاة والكتاب وأنواع المكاتبات والدواوين ، وذكر الأموال والخراج والضرائب على أقصاب السكر والغلال والبيع والشرء وإجراء المحاسبات وكيفيةها وغير ذلك . والكتاب هام بتلك المواضيع في إختصاص هذا البحث (١) .

---

١ - النويري : نهاية الأرب انظر فهرس الكتاب .

## ٧ - عبد الرحمن الشيرازي:

المتوفى سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٧٢ م

الذي وضع كتاب «النهج المسبوك في سياسة الملوك» وهو كتاب هام جداً في بابيه.

#### ٨ - ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى:

عاش ما بين الأعوام ٧٠٠ . ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ . ١٣٤٩ م وهو مؤرخ دمشقي ومن أسرة خدمت المماليك وعمل في الدواوين وله كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» ويعد كتاباً رائداً في اختصاصه نقل عنه كل من كتب بعده من المقر التقوي ( صاحب تثقيف التعريف ) إلى القلقشندي وإلى غرس الدين الظاهري. واختصر كتابه المقر التقوي بكتاب تثقيف التعريف.

وله أيضاً كتاب موسوعي هو « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ضم كتابه الكثير من المعلومات الإدارية ، حققت من الكتاب (دوروتيا كرافولسكي) الجزء الخاص بدولة المماليك الأولى وفيه معلومات هامة جداً تتعلق بالتقسيمات الإدارية وبالفنون الديوانية. وعن جغرافية الدولة، وعن البريد ومراكزه والحمام والهجن والمناور بتركيز ودقة. وفيه معلومات كثيرة عن الهيكل الإداري للدولة ونيابات بلاد الشام . وكانت فوائد الكتاب في البحث متشعبة وخصوصاً حول البريد والوظائف وحدود النيابات.

#### ٩ - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي والمعروف باسم ابن

السبكي، والمولود سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م المتوفى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ . ١٣٧٠ م قاضي القضاة، وله الكثير من المؤلفات، ولعل أهمها خصوصاً في موضوعنا كتاب فريد في موضوعه هو «معيد النعم ومبيد النقم»، وهو كتاب مختصر على شكل اثني عشر ومائة مثال لكيفية إزالة النقمة في سبيل إعادة النعمة التي ذهبت.

وله أيضاً كتاب «الألغاز» و«تشحيد الأذهان على قدر الإمكان» في الرد على البيضاوي و« ترشيح التوشيح»، و«التصحيح والتوشيح» وله أيضاً « جمع الجوامع في الأصول»، و« رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب» و«السيف المشهور في عقيدة أبي منصور»، و«شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي» و«طبقات الشافعية».<sup>(١)</sup>

#### ١٠ - العثماني : وهو محمد بن عبد الرحمن الحسيني العثماني المتوفى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م

وكتابه ( تاريخ صفد ) الذي نشره سهيل زكار ، يعد من أهم الكتب التي وصفت الإدارة في صفد ، فيقول العثماني نفسه عن سبب وضعه الكتاب أن نقاشاً تم بينه وبين بعض المهتمين في ضبط نواب صفد ، ويبدو أنه كان هناك خلاف على الموضوع ، فقام بوضع الكتاب الذي قال: إنه لم يسبقه إليه أحد. وقد بدأ تاريخه من فتح صفد . ذاكراً فيه :أسماء النواب وأرباب الوظائف الدينية من قضاة وخطباء ووكلاء بيت مال . وأرباب الوظائف الديوانية من كتاب السر ونظر المال وغير ذلك . وهو بهذا كتاب هام في موضوعه وفيما حوى من معلومات إدارية عن نيابة صفد .

١ . إسماعيل الباباني : هدية العارفين وهو ملحق بكتاب كشف الظنون وذيل له انظر مادة ابن السبكي فيه . طبع دار الفكر بيروت ١٩٨٢ .

## ١١ - المقر النقوي بن ناظر الجيش تقي الدين أحمد بن محمد المصري:

المتوفى سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م كان كاتب الدرج في عصر الدولة الناصرية.

وقد وضع كتاب « تثقيف التعريف » وهو تهذيب للتعريف مع إيراد ما أهمل التعريف من أمور خصوصاً الوصايا والأوصاف ومراكز البريد. اعتمده القلقشندي كأحد مصادره ونقل عنه ٢٩٩ مرة. وقال في مقدمته في سبب تأليف كتابه صبح الأعشى (فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى « وما خاب من استخار » وراجعت أهل المشورة و « ما ندم من استشار » مستوعباً من المصطلح ما اشتمل عليه « التعريف » و « التثقيف »<sup>(١)</sup> وقال القلقشندي للمقارنة بين الكتابين (فصار كل من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد، ولم تقع الغُنية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا في معنى واحد).<sup>(٢)</sup>

## ثالثاً - الكتابة الديوانية في عصر الدولة المملوكية الثانية :

ودخل عصر المماليك البرجية باستلام الظاهر برقوق الحكم سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م وشجع المماليك العلماء فكان في زمانهم الكثير من الموسوعات العربية وأهمها في موضوعنا صبح الأعشى للقلقشندي، ومؤلفات صلاح الدين الصفدي، وصاحب خزانة الأدب ابن حجة الحموي، والسلوك لمعرفة الملوك، ونهاية الأرب وغير ذلك كثير<sup>(٣)</sup>. وفي هذا العصر ازدهرت الكتابة في علم أحكام الدواوين وظهرت الموسوعات الديوانية، ويعد هذا العصر من أفضل عهود فن الكتابة الديوانية على الإطلاق.

## من هؤلاء الكتاب:

### ١ - ابن خلدون:

هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم ولي الدين الإشبيلي الأصل، التونسي ثم القاهري المالكي المعروف بابن خلدون. ولد عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م وتوفي عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م.

وكتابه الموسوعي «العبر وديوان المبتدأ والخبر» المعروف باسم تاريخ ابن خلدون. كانت المقدمة في كتابه من أوائل ما كتب في العالم عن علم الاجتماع، وانتشرت مقدمته في معظم أنحاء العالم، وحظيت بدراسات معمقة في كثير من اللغات الحديثة. وكان لها أهميتها الكبيرة في دراسة أحكام السلطة والعلوم الإدارية. وضم كتابه ( العبر ..) الكثير من المعلومات عن الإدارة .

### ٢ - ابن كثير الدمشقي :

١ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١ ص ١٠.

٢ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١ ص ٨.

٣ . الزيات ( أحمد حسن ) تاريخ الأدب العربي: دار نهضة مصر القاهرة بلا تاريخ ص ٤٠١ . ٤٠٤، ويشير إليه باسم الزيات : تاريخ الأدب العربي.

إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين ، ولد في بصرى الشام جنوبي دمشق سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م وانتقل مع والده لمدينة دمشق .وسافر في طلب العلم ، ألف كتاب ( البداية والنهاية ) في ستة عشر مجلداً. على نمط الكامل لابن الأثير . وله مصنفات أخرى منها ( شرح البخاري ) لم يكمله ثم ( طبقات الشافعية ) . و( تفسير القرآن العظيم ) في عشرة مجلدات ،و( الباعث الحثيث الى معرفة علوم الحديث ) و ( التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل ) وهوكتاب في الحديث بخمسة مجلدات .

توفي بدمشق سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م

وكتابه البداية والنهاية الذي سار فيه على طريقة الحوليات وينتهي في سنة ٧٦٧ هـ / وقد اعتمد في كتابه على المقتفى على تاريخ ابو شامة للبرزالي وكتاب الجزري حوادث الزمان . وقد تبع في كتابه أسلوب الحوليات متبعا وفيات أهم الأعيان في تلك السنة . وكتابه مع أنه أهمل النقد والتحليل فقد قدم للبحث موادّ توزعت في كثير من فصول الدراسة<sup>(١)</sup> .

### ٣ . ابن حبيب:

وهو الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب المولود عام ٧١٠ هـ / ١٣١١ م والمتوفى سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م. وقد وضع كتابه موضوع البحث «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه» في ثلاثة مجلدات، وكان حين وضع الكتاب في الثلاثين من عمر، وكان شاهد عيان على معظم حوادث الكتاب وفيه أورد بشكل الحوليات أهم حوادث السنة باقتضاب ووفياتها. وضم كتابه حوادث ما بين سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م وحتى ٧٠٨ هـ / ١٢٠٨ م. وقد وضع ابنه طاهر بن الحسن بن عمر بن حبيب كتاب «درة الأسلاك» يغطي فترة كتاب تذكرة النبيه مضافاً إليها ما يغطي الفترة ما بين سنتي ٧٧٨ . ٨٠٢ هـ. وهناك من يقول أن «درة الأسلاك» هو مسودة النبيه.

نشأ ابن حبيب تنشئة دينية وتنقل في طلب العلم ما بين دمشق ومصر وحلب حيث أقام فيها بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م وفيها تسلم الكثير من الوظائف الدينية، ألف كثيراً من الكتب في التاريخ والعلوم الدينية والأدب فُقد بعضها. وفائدة الكتاب هامة جداً خصوصاً فيما جاء بأخبار المنصور وبنيه مع اختصار المؤلف للمعلومات التي يوردها.

### ٤ - أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي تقي الدين ابو العباس :

عاش ما بين سنتي ٧٥٦ . ٨٢١ هـ / ١٣٥٣ . ١٤١٨ م من أصول عربية من القليوبية المصرية، عمل في عدة وظائف حتى التحق بديوان الإنشاء عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م وتدرج فيه. ووضع كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» الموسوعي حيث أنهى القلقشندي العمل في كتابه صباح يوم الجمعة ٢٨ شوال سنة ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م. ويعد أهم موسوعة إدارية في اللغة العربية، لم يترك المؤلف صادرة أو واردة إلا أحصاها، بما يتعلق بالكتاب واحتياجاتهم سواء اللغوية أو العلمية أو التاريخية أو الجغرافية،

<sup>١</sup> - (إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ١٨ - ١٩ )

وحتى سائر العلوم الأخرى. ثم تتبع الدواوين والأعمال بادئاً من تاريخ كل ديوان أو وظيفة حتى عهده. ونقل من مصادر هامة مثل «التذكرة» و«كتاب الصناعتين» لأبي هلال العسكري، و«التعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله العمري، و«القلم والدواة» لمحمد بن علي و«أدب الكاتب» لابن قتيبة و«الأحكام السلطانية» للماوردي و«مواد البيان» لعلي بن خلف. وغير ذلك مع المقارنة والنقد والتوجيه.

ويعد كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» من خمسة عشر مجلداً أهم المصادر في موضوع هذا البحث. إذ يعد كتابه من أهم الموسوعات العربية في علم الإدارة وقد أفاد هذا الكتاب البحث إفادة كبيرة جداً وجرى إعماله في كثير من المواضيع، في أسلوبه في التقسيم والتبويب لأنه لم يكتف بما دون من معلوماته المتحصلة نتيجة خدمته الطويلة في ديوان الإنشاء؛ بل إستند على كل المصادر التي سبقته في هذا المضمار، واعتمد على أرشيف ديوان الإنشاء الضخم الذي كان تحت يده. مضيفاً معرفته العملية. وزاد أهمية الكتاب أنه كان يشير إلى مصادره ويبين رأيه في المسيرة الإدارية وتطورها. ونقل صديق حسن خان في كتابه أبجد العلوم في وصف علم الكتابة وأهمية كتاب القلقشندي صبح الأعشى:

( قال أبو الخير في موضوعاته: هو علم يعرف منه كيفية نقش صور الحروف البسائط، وكيف يوضع القلم، ومن أي جانب يبتدى في الكتابة، وكيف يسهل تصدير تلك الحروف، وفيه من المصنفات الباب الواحد من كتاب صبح الأعشى ١ ) انتهى ومثله في «مدينة العلوم».

وكتاب صبح الأعشى جعله مؤلفه سبعة أجزاء لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بعلم الإنشاء إلا أوردتها، وزعم أن المنشئ لا بد له من معرفة جميع العلوم والأخبار والأحوال فأتى في كتابه ما أمكن له التعرض.

وله كتاب «مآثر الإنافة في معالم الخلافة» الذي اعتمد فيه على كتابه «صبح الأعشى» حيث قدم نماذج لمختلف أنواع العقود والمكاتبات والبيع. ويتحدث فيه عن الخلافة وأطوارها ومعناها وشروطها وغير ذلك، ثم يبحث بمن ولي الخلافة بدءاً بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وحتى الخليفة في مصر المعتضد بالله داود بن المتوكل أبي عبد الله محمد الذي بويع بالخلافة في رابع محرم سنة سبع عشرة وثمانمئة، وذكر أخباره حتى انتهاء تأليف الكتاب سنة تسع عشر وثمانمئة. وكان يذكر مع كل خليفة أهم مجريات الحوادث في زمانه.

وذكر مقرات الخلافة في العالم الإسلامي. ومن ادعى الخلافة باطلاً. ثم كتب فصلاً فيما يكتب للخلفاء وأتباعهم، وفصل آخر في الكتب الصادرة عن الخلفاء وولاة العهد وكتب الملوك لهم. وفصل أخير في أوائل منسوبة للخلفاء وملح وأعاجيب. <sup>(١)</sup> وربما كان هذا الكتاب آخر ما دون القلقشندي.

\* انظر مادة علم قوانين الكتابة في ابجد العلوم لصديق خان . وأبو الخير هو السيد صالح مير نور الحسن خان من علماء الهند من مواليد بهوبال سنة ١٢٧٨هـ م ١٨٦١ م حسب المصدر نفسه .

١ . القلقشندي (أحمد بن عبد الله) مآثر الإنافة في معالم الخلافة: ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب بيروت ٢٠٠٦ ص ٤٧٧ . ٤٨٣، وسيشار إليه باسم القلقشندي : مآثر الإنافة.

وأفاد البحث في كتابه الثاني «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» في معرفة بعض القبائل العربية التي مرت خلال البحث.\*

## ٥ - المقرئ:

أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني تقي الدين المقرئ: ٧٦٦ . ٨٤٥ هـ / ١٣٦٥ . ١٤٤١ م.

أصل أسرته من بعلبك ونشأ ومات في القاهرة وله نحو مائة مجلد من تأليفه. وقد أرخ لمصر والفسطاط، وأرخ للعصر الفاطمي مبيناً تاريخ القاهرة في الفترة الفاطمية، ثم أرخ للعهد الأيوبي وتابع حتى الفترة المملوكية التي عاصرها .

ولعل أهم كتبه مما يخص بحثنا هي:

١ . اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: وفيه معلومات كثيرة عن النظم والإدارة في العصر الفاطمي مع مقارنة بالعهود التي سبقتة والتي بعده من العصر المملوكي.

٢ - كتاب ( الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك ) .

٣ - كتاب (إغاثة الأمة في كشف الغمة).

٤ . كتاب ( السلوك في معرفة دول الملوك ) الموسوعي في ثمانية أجزاء، وأرخ في كتابه المدة الواقعة ما بين سنة ٥٦٨ هـ وحتى تاريخ وفاته. وقد ألفه في ذكر الملوك بعد الفاطميين من الأكراد والأتراك والشراكسة وبدأه بحوادث سنة ثمان وستين وخمسائة وأخبار صلاح الدين في اتجاهه بعساكره إلى الكرك والشوبك، مستخدماً نظام الحوليات لعهد كل سلطان بشكل عام وأفرد بحثاً بعدها للوفيات بتلك السنة، وقدم مواد هامة تبين دور السلاطين في الإدارة والعمران، إضافة للسياسة.. وقد حوى كتابه «السلوك» إضافة للمعلومات التاريخية معلومات هامة تتعلق بالإدارة في العصر المملوكي وهو مفيد كثيراً في هذا البحث

٥ . كتاب ( المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ) : واشتهر بإسم «خطط المقرئ» ألفه ما بين عامي ٨٢٠ . ٨٤٣ هـ / ١٤١٧ . ١٤٣٩ م وقد ذكر معالم مصر وآثارها وأوابدها وأنهارها وجسورها وخلجانها والإدارات والوظائف وقدم معلومات هامة عن الخطط والآثار من مدارس وربط وبیمارستانات ومن جسور وأدر وغير ذلك. كما قدم ملخصاً لحياة السلاطين .

ويعد كتابه عظيماً بمعلوماته التي جاءت ممن عمل في الدولة في قطاع الإدارة والحسبة والإمامة. وقد أغنى هذا الكتاب البحث كثيراً في معلوماته .

٦ . شذور العقود في ذكر النقود: وهو يبحث بالنقود والسكة والمعاملات ومعالجة مشاكل التضخم المالي ومسائل بطلان النقود وخياسها .

## ٦ - بدر الدين محمود العيني :

بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود العنتابي . من عینتاب حيث ولد سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٣ م ونشأ فيها . ثم سافر للقاهرة سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م ، وحصل على وظيفة خادم في المدرسة الظاهرية ، وارتقى في السلم الوظيفي حتى تولى حسبة القاهرة سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م ، وعزل وعاد إليها عدة مرات ، ثم استلم منصب نظر الأحباس ثم عينه الأشرف برسبای قاضي قضاة الحنفية في الديار المصرية سنة ٨٢٩ هـ / ١٣٢٦ م . واشتهر بالقضاء .

وكان يقرأ التاريخ على الأشرف برسبای بالعربية ويترجم له بالتركية ، وكان أحياناً ينام عنده . وكان برسبای يقول ( لولا العنتابي ما كنا مسلمين ) . ثم تنقل في عدة وظائف وجمع لمدة طويلة القضاء والأحباس والحسبة معاً . وكان محفوظاً عند الملوك عدا جقمق الذي عزله سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، فعظم عليه ذلك لقلّة موجوده وصار يبيع أملاكه وكتبه حتى توفي سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، وله مؤلفات كثيرة، منها: ( مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ) و ( طبقات الشعراء ) وكثير من كتب الفقه واللغة ، منها شرح البخاري وشرح تحفة الملوك .

وكتابه ( عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ) يبدأ من مبدأ الدنيا حتى سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠١ م ويقع الكتاب في نحو ٦٩ مجلداً ، وقد تبعثرت مخطوطاته في مكتبات العالم . فقام مركز تحقيق التراث بمصر بتحقيق عصر سلاطين المماليك من حوادث وتراجم، وعهد بالتحقيق للدكتور محمد أمين، ونشرته الهيئة العامة للكتاب في مصر مع ما يتعلق بعصر سلاطين المماليك .

وأهمية كتاب العيني كونه عاصر المماليك وعمل في دواوينهم وكان المؤرخ الرسمي تقريباً للسلطان برسبای . وكان ينقل عن تاريخ بيبرس وعن أبي شامة وتاريخ ابن الأثير وغيرهم إلا أنه كان مدققاً وناقداً . وأفاد هذا الكتاب الكثير في البحث وخصوصاً أعمال السلاطين من بيبرس وحتى برسبای، وقد قدم معلومات هامة في تأريخ ما جاء فيه من تراجم وأخبار تتعلق بالإدارة<sup>(١)</sup> .

## ٧ - غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري:

المتوفى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م، وهو جندي من أولاد الناس وهو تعبير مملوكي يعني من أولاد المماليك، وضع كتاباً هاماً جداً وهو : «زبدة كشف الممالك» وقدم الكتاب بحجمه الصغير خدمة علمية كبيرة ويعد مصدراً هاماً في الإدارة . ويعد مصدراً هاماً لكل من كتب في موضوع الإدارة بعد مؤلفه . وكان فيه للبحث كبير الفائدة سواء في شؤون الإدارة والحكم أو في المسالك والبريد وطرقه .

## ٨ . ابن تغري بردي:

<sup>١</sup> - ( العيني ) بدر الدين محمود ( عقد الجمان في تاريخ الزمان ، تحقيق د . محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ج ١ ١٩٨٧ ص ٥ - ١٦ ، وسيرمز إليه باسم : العيني : عقد الجمان )



المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م وله عدة مؤلفات هامة منها «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» الذي اختصره بكتاب اسمه «الدليل الشافي على المنهل الشافي» وقدم ذيلاً لكتاب السلوك باسم «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» وكتابه الموسوعي «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» في ستة عشر مجلداً، حيث قدم معلومات مفيدة جداً في مجمل البحث. وأهمية كتابه ليس في المعلومات القيمة التي قدمها فقط، بل نقده للسياسة المملوكية وإظهار نقاط الضعف فيها وأسباب التراجع في سياسة وإدارة الدولة التي أنتت فيما بعد على حياة دولة المماليك. وفي كتابه الآخر «مورد اللطافة فيمن ولي الخلافة» قدم معلومات هامة تفيد في ضبط أسماء وسنوات الولادة والوفاة لكثير ممن ذكر في هذا البحث مما اشتمله الكتاب.

#### ٩ . ابن أياس:

المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م والذي عاصر مرحلة سقوط الدولة المملوكية واستيلاء العثمانيين على الدولة. وفي كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» الموضوع في خمسة مجلدات، حيث يكمل فيه ما انتهى إليه كل من المقرئزي وابن تغري بردي يقدم مواداً هامة عن تلك الفترة. خصوصاً ان المؤلف كان يكتب من وجهة نظره، أي وجهة نظر العامة دون التزام بوجهة نظر المماليك ، كذلك عاش في فترة أواخر فترة المماليك وأوائل الفترة العثمانية .

وابن أياس كان يكتب لنفسه لا للسلطان ومع أنه كان من أصل مملوكي ألا أن كتابه مثل فكره الحر الناقد مع عاطفة دينية، فهو يمدح من يستحق المدح ويذم من عليه الذم من مقاييس الشرع فقط . ولكتاب ابن أياس أهمية كبيرة خصوصاً لما يتعلق بعصره<sup>(١)</sup>.

#### ١٠ - عبد الله بن لطف الله محمد بن بهاء الدين الخالدي:

المتوفى سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٢٠ م وله كتاب هام جداً في علم الإدارة وهو: «المقصد الرفيع المنشأ الى صناعة الإنشاء» وهو كتاب تخصص في علم الإدارة في العصر المملوكي . وقد قدم أبحاثاً هامة عن ديوان الإنشاء والعاملين فيه ونظامه وطريقة العمل فيه ، وبين ترتيب الديار المصرية والشامية . وتحدث عن الوظائف والإدارات. فبدأ في التعريف بديوان الإنشاء وأصل وضعه . وفي قسم الكتاب الثاني قدم ما يحتاج إليه الكاتب من لغة وتاريخ. ثم قدم القسم الثالث في شكل الأرض والبحار، ثم فصل في الممالك، وفصل في مسالك مصر والشام ومكة والمدينة. ثم بين ما يتصرف به كاتم السر وما يقوم به من مهام. ثم يذكر ترتيب ديوان الإنشاء وتطور نظامه. وترتيب الديار المصرية: العسكري من أرباب السيوف، والمدني من أرباب الأقلام، ومن ثم الوظائف الدينية ممن يقع في الحضرة

<sup>١</sup> - (علي (أكرم حسن) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، الشركة المتحدة للتوزيع دمشق ١٩٨٢ ص ٤٥٠ - ٤٥٢ وسيشار اليه باسم : علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين )

ثم في مصر فالشام والحجاز فاليمن. ثم يبحث في الألقاب وأنواعها ثم في الورق المستعمل في ديوان الإنشاء، ثم يفصل في الكتابات وأشكالها ويورد الكثير من نماذجها. واعتمد في مصادره على كتابي «التعريف» و«صبح الأعشى»، وكتب عن الفترة المتأخرة من العصر المملوكي، ومعلوماته مفيدة، خصوصاً في تقاطعها مع المعلومات المتحصلة من المصادر الأخرى، وهي هامة جداً لمواضيع بحثنا وقد أثرت البحث بمعلوماتها الهامة والفريدة.

#### رابعاً - الكتابة الديوانية في أوائل العهد العثماني :

وانتهت الدولة المملوكية بمقتل الأشرف تومان باي ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م واستلم العثمانيون الحكم ووضعوا سيطرتهم التامة على مصر وبلاد الشام. إلا أن بعض المؤلفين ممن اهتم بصناعة الكتابة والدواوين قام بتقديم مساهمات جيدة تحسب على العصر المملوكي من هؤلاء :

١ - ابن طولون : المتوفي عام ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م وهو مؤرخ دمشقي عاش فيها ، وكتب عن الأحداث التي عايشها كشاهد عيان ، مستفيداً في تدوين ما سبق زمانه على أساتذته عبد القادر النعيمي ويوسف بن عبد الهادي والعلاء البصروي ، وقد عاش في أواخر الدولة المملوكية وأوائل عصر الدولة العثمانية . وله مؤلفات كثيرة منها ( البرق الشامي في منازل الحج الشامي ) و ( الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية ) و ( رسائل ابن طولون ) و ( ضرب الحوطة على جميع الغوطة ) و ( وذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر ) و ( القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ) و ( مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ) و ( إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ) والفائدة من الكتابين الأخيرين ، فيما جاء فيهما من أخبار تتعلق في الإدارة والعمران والأبنية والجوامع والمدارس في دمشق ، كبيرة جداً وهامة.

#### ٢ - ابن زنبيل :

وهو أحمد بن علي بن أحمد المحلي الرمال الشهير بابن زنبيل، كان حياً سنة ٩٨٠ هـ صنف الذهب الأبريز المحرر في اقتفاء علم الرمل والأثر. تاريخ سلطان سليم الأول العثماني المعروف باسم تاريخ ابن زنبيل ، أو آخرة المماليك .

وهو ممن عاصر آخر أيام السلطان قانصوه الغوري . وبداية الحكم العثماني . ورغم اعتماد كثير من المؤرخين المحدثين على معلوماته ، ونقلهم عنه . إلا أن في الكتاب كثيراً من المغالطات والأخطاء والشطحات تجعل من معلوماته وأسلوبه ولغته العامية . ، كتاباً من كتب السير في المقاهي الشعبية . وسواء كان هذا من هنات المؤلف أو أدخلت من قبل الرواة والنساخ والقصاصين ، ولا نغفل أخطاء محقق الكتاب التي ساهمت في تقليل قيمة معلوماته ، فإن على المؤرخ التعامل بحذر شديد مع مادة الكتاب (١).

١ - (علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ص ٤٥٣ - ٤٥٦ )

### ٣ - محمد بن عيسى بن كنان:

الذي عاش في الفترة ١٠٧٤ . ١١٥٣ هـ / ١٦٦٣ . ١٧٤٠ .  
وقد وضع كتاباً هاماً في ظل الدولة العثمانية، باسم «حدائق الياسمين في ذكر خلفاء دولة السلاطين»  
أنهاه سنة ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م وأدرج فيه النظم والدواوين في العصر المملوكي المتأخر في قسمه الأول  
من الكتاب. ثم أورد تلك الأحكام للعصر العثماني في قسم الكتاب الثاني.  
قدم الكتاب للبحث معلومات قيمة عن الممالك والتنظيم الإداري في القسم الأول منه. وكان من أهم  
مصادره كتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري وغطى فترة نهاية العصر المملوكي.

فالملاحظ أن علم الكتابة الديوانية والإدارية تطور كثيراً عبر العصور التاريخية في أدبنا العربي . وأخذ  
حيزاً كبيراً منه . فبعد أن بدأ بعلم قوانين الكتابة  
( أي معرفة كيفية نقص صور الحروف البسائط، وكيف يوضع القلم، ومن أي جانب يبتدئ في الكتابة،  
وكيف يسهل تصوير تلك الحروف<sup>(١)</sup> . )

---

<sup>١</sup> - ( صديق حسن خان : أبجد العلوم الجزء الثاني القسم الثاني ص ١٢٠ - ١٢١ )

## الفصل الثاني

### السلطة المملوكية في بلاد الشام

تتقسم السلطة في نيايات بلاد الشام الى قسمين سلطة مركزية تتدخل في كل نيايات الشام . وسلطة محلية تتوزع بين النيايات ونيابة دمشق التي لها سلطة على باقي النيايات .

**أولاً - السلطة المركزية على بلاد الشام :**

فهي تتمثل بما يلي :

١ - السلطان :

كان السلطان في العصر المملوكي يتم اختياره بواسطة الأمراء دون الأخذ بمبدأ الوراثة، ويجب أن يكون أقوى الأمراء شجاعة ومهارة في الحروب، ويرون السلطان لا يمتاز عنهم، إلا بالقوة وكثرة الممالك والثراء وقدرته على الدس والدهاء.

وبالوقت نفسه عليه أن يحافظ على قوة رابطته مع خشداشيته ومماليكه سواء في إشراكهم بالحكم أو إعطائهم المراكز العالية أو العطايا الوفيرة والإقطاعات. وأحياناً تكون تلك الترضيات من شروط الأمراء لإتمام تولية السلطان، ومن هنا كان تدخل السلطان بالنيابات كبيراً<sup>(١)</sup>

فهو يتدخل في النيابات بغية السيطرة عليها وعلى النواب ومحاسبتهم عند الضرورة، بل ومعاقتهم بالنقل أو الفصل أو السجن أو المصادرة وحتى القتل.

وكان السلطان في الدولة المملوكية هو السيد المطلق في كافة الأمور، العسكرية والمدنية والدينية وكان يتمتع بنفوذ كبير في كافة الميادين، والأمر له في النهاية سواء في مصر أو الشام. وله وظائف عديدة؛ فهو رأس الدولة والقائد الأعلى للجيش، فوظيفته الأولى هي قيادة الجيوش في الحرب، إذ كان السلاطين الممالك، مثل الأيوبيين، يخوضون الحرب بأنفسهم، سواء كانت الحرب للأعداء أو لقمع الفتن والثورات وحركات التمرد ومحاولات الانفصال.

والسلطان هو رأس السلطة المدنية: وهو الذي يعين نائب السلطنة ونائب الغيبة والنواب وكبار الموظفين من الوزير فالولة وكاتب السر والمحتسب ونظار الدواوين وغيرهم. كما له تعيين كبار الموظفين في الدولة سواء في مركز الحكم أو في بلاد الشام. وهم مسؤولون أمامه عن تصرفاتهم وأعمالهم. وهو الذي له الحق بعزلهم وتأديبهم. وحتى الحكم عليهم بالمصادرة والحبس أو بالموت. وترك السلطان أمر تعيين الموظفين الصغار للنواب وكبار رؤساء الدواوين سواء في المركز أو في سائر الأقاليم، وله حق التدخل دائماً عند الضرورة.

## ٢ - نائب السلطان :

ونائب السلطنة ويسمى أيضاً بالنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلامية، وسمي كذلك لأنه يتكفل بتصريف أمور الدولة العامة سواء كان السلطان في القاهرة أو متغيباً عنها، وتكون النيابة عامة عن السلطان، بينما الكفالة فهي كفالة الممالك مصر والشام. ويكون نائب الحاضرة إذا كان السلطان في القاهرة، ونائب الغيبة حال غياب السلطان.

والنائب هو السلطان الثاني في الدولة، وصلاحياته واسعة، وكان يصدر المراسيم من دون الرجوع إلى السلطان، باستثناء الأمور الصعبة التي كان لابد من إحاطته بها. وليس له تعيين نواب الشام ولكنه يخاطبهم بأمر السلطان ويكون وسيطاً بينهم وبين السلطان في كل القضايا<sup>(١)</sup>

<sup>١</sup> ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦. ج ٤ ص ٤، وسيشار إليه باسم ابن أبياس : بدائع الزهور . طقوش (محمد سهيل ) تاريخ الممالك في مصر وبلاد الشام: ، دار النفائس بيروت ١٩٩٧ ص ٤٧٥ . ٤٧٦، وسيشار إليه باسم طقوش : تاريخ الممالك

وكمثال عن تطور وضع النيابات بين سلطة مطلقة او مؤيدة , نجد على سبيل المثال علاقة غزة بالسلطان الغوري , ووضعها تجاه نائب الشام ووضع نائب الشام تجاه باقي النيابات ففي إثر الأزمات التي وقعت بعد وفاة قاتباي سنة ٩٠١ هـ / ١٣٩٦ م ووصول الغوري للحكم سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ ثم ظهر دور دمشق الفعال في تنصيب السلاطين لذلك إتجه السلطان الغوري لفصل نيابة غزة عن نائب دمشق و جعلها تابعة للسلطان , وأعطاه نائب دمشق نوعا من الإشراف الأدبي للحد من قوة نائب غزة .

ومن أشكال سلطات نائب دمشق الممنوحة فوق سلطات باقي نواب الشام فقد حصل نائب دمشق على نوع من الوصاية على باقي النواب , من ذلك ضرورة استئذان نواب الشام لنائب دمشق عند سفر النواب او سائر المسؤولين للقاهرة فكان ذلك نوع من السيطرة لنائب دمشق على باقي نواب الشام . ولم تقتصر سلطة نائب دمشق على النواب والموظفين بل تعدتها الى الوفود المتجهة للقاهرة , فعلى سبيل المثال , حين وصل رسل علي دولات \* ورسل جان بلاط نائب حلب وغيرهم نزلوا بالقصر منتظرين رجوع النائب من سفره ليستأذنوه بالسفر الى مصر .

وعندما بعث نكفور ( حاكم ولاية الاناضول وصاحب سيس ) رسله بالبحر الى دمياط , لم يأذن لهم السلطان بالقدوم عليه لأنهم لم يعلموا نائب دمشق بحضورهم مما إضطرهم للعودة ومما حمل تكفور لارسال هدية الى تتكز نائب دمشق حينها ليرسل بالسفر للقاهرة لمقابلة السلطان

### ٣ . الوزارة :

شغل منصب الوزير أمراء من أرباب السيوف، وشغله أيضاً موظفون من أرباب الأقلام. وحين أبطلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون انقسمت سلطات الوزير إلى ثلاثة: ناظر المال أو شاد الدواوين وناظر الخاص لتدبير الأمور الخاصة بالسلطان وتعيين المباشرين. وكاتب السر للتوقيع في دار العدل، مما كان يوقع فيه الوزير مشاورةً واستقلالاً<sup>(١)</sup>. إلا أن الوزارة حين عادت ثانية، لم تعد لسابق عهدها بل أصبحت تقوم بمهام ناظر المال فقط، وبقيت صلاحياتها الهامة بيد كاتب السر. فإن كان الوزير صاحب قلم، فهو المستقل بمباشرة الوظيفة نظراً وتنفيذاً ومحاسبةً على الأموال، وسمي أيضاً «الصاحب» بدل الوزير. بمعنى صاحب رأي السلطان ومدير أمره. <sup>(٢)</sup>

١ . ( القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٦ . ١٧ ، المقريزي الخطط ج ٢ ص ٢١٥ ، معيد النعم ص ٣٤ ، نقد الطالب لزغل المناصب ص ٣٦ - ٣٨ ، تاريخ المماليك البحرية ، الألقاب الإسلامية ص ٤٣٤ . ٤٣٥ )

\* علي دولات هو النعمان زين دولات شاه ابن علي الخوارزمي الشيخ علي ولد سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م رئيس اطباء خوارزم ومرسل اربك المغلي صاحب الروم لمصر سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م زمن محمد بن قلاوون وبقي فيها سنة ونصف . ( انظر اعيان العصر للصفي )

٢ . ( القلقشندي : صبح طبعة ال ذخائر ج ٤ ص ٢٩ ، العمري : مسالك الأبصار كرافولسكي ص ١٣١ ، ابن كنان حدائق الياسمين ص ١٧٢ ) .

٣ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٢٩ ، العمري : مسالك الابصار : كرافولسكي ص ١٣١ ، منعم : نظم المماليك ج ١ ص ٤٤ .

وإن كان صاحب سيفٍ، كان مقتصرًا على النظر والتنفيذ، وكان أمر الحساب في الأموال راجعاً إلى ناظر الدولة معه.

وكان منصب الوزير مثل منصب السلطان عرضة للتبديل السريع نظراً لعدم استقرار السلاطين في سلطتهم أو عدم صلاحية الوزير أو تغير هوى السلطان فبعض الوزراء خدم لسنوات وأقلهم ليوم واحد، وما بينهما. <sup>(١)</sup>

ودور الوزير في النيابات تنفيذ ما يأمر به السلطان . وتبليغ المراسيم . وطلب النواب للحضور بناء على استدعاء السلطان ، كما يقوم بحاسبة ومصادرة النواب بأمر السلطان .

يتبع الوزارة وظائف تتدخل في النيابات نذكر منها أهمها:

أ - استيفاء الصحبة: فهي وظيفة جليلة رفيعة القدر. قال في مسالك الأبصار:

وصاحبها يتحدث في جميع المملكة مصرًا وشامًا، ويكتب مراسيم يطلع عليها السلطان، تارة تكون بما يعمل في البلاد، وتارة بإطلاقات، وتارة باستخدامات كبار في صغار الأعمال، وما يجري مجراه.

وديوان الصحبة هو أرفع دواوين الأموال، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، وكل من دواوين الأموال تعتبر فرعاً من هذا الديوان وإليه يرجع حسابه وتنتهى أسبابه. <sup>(٢)</sup>

ب . صحابة ديوان الأحباس:

وصاحبها يكتب في كل ما يكتب فيه ناظر الأحباس إلا أنها بطلت. وهي وظيفة جليلة وصاحبها يتكلم على جميع ما في السلطنة مصرًا وشامًا ويكتب المراسيم والمربعات تارة بما يعمل في البلاد وتارة بإطلاقات وتارة باستخدامات في صغار الأعمال وهذا ما يجري مجراه بالأمر الشريف أو بأمر الوزير. وهذا الديوان من أرفع دواوين الأموال وفيه تثبت التواقيع والمراسيم وكل من دواوين الأموال فهو فرع هذا الديوان وإليه يرجع حسابه وتنتهى أسبابه ولا يكتب تاريخ المراسم المربعة إلا هو. <sup>(٣)</sup>

#### ٤ . كتابة السر:

ويلقب بالجناب الكريم. وقد جعل هذه الوظيفة كثير من كتاب الدواوين الوظيفة الأولى لا الثانية. إذ اعتبرت أعظم الوظائف خطأ وأجلها قدرًا ولصاحبها النفوذ والجاه عند السلطان وعند الأمراء. فهو المطلع على أسرار الدولة وأسرار السلطان، فلا يخفى عليه خافية. وهو أول من يدخل على السلطان وآخر من

<sup>١</sup> . (العمرى : مسالك الابصار ص ٤٧ . ٤٨ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٥٦).

<sup>٢</sup> . (العمرى : مسالك الابصار كرافولسكي ص ٤٨ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٥٦).

<sup>٣</sup> . (الخالدي : المقصد الرفيع المنشأ الهادي الى صناعة الإنشا : تحقيق خليل شحادة رسالة دكتوراه بيروت ١٩٨٨ ص ٢٥٧ وسيشار اليه باسم الخالدي : المقصد الرفيع ، القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ص ٣٤).

يخرج عنه. وهو مع السلطان ولو احتجب عن الكافة. وهو موضع ثقة وركون السلطان. وهو المطلع على حوادث الدولة ومهمات مملكته مصرًا وشامًا. (١)

وهو يقرأ الكتب الواردة على السلطان ويقوم بكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم وروداً وصدوراً، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها. ومع ضعف شأن الوزارة صار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة فيه، وهو بذلك يتدخل في نيابات الشام وله رأيه في النواب وله سلطة إدارية عليهم ولكن بأمر السلطان .

ومن أهم طرق سيطرة وتدخل كاتب السر في أمر النواب والنيابات كونه المسؤول عن البريد واستلامه وإرساله وعن الرسائل الواصلة بالحمام . إذ له التحدث في أمر البريد وتصريف البريدية والقصاد، وهو بذلك يستلم التقارير السرية التي يأتي بها عمال البريد الذين من أهم مهماتهم التجسس على النواب والموظفين ومعاينة ما يجري بالنيابات حتى مستوى تدقيق الأسعار في الأسواق . (٢)

وكان كاتب السر في نيابات الشام يماثل كاتب السر في مصر، سواء في مركزه أو في توليه للأمور أو في سعة اختصاصه، ويولى بمرسوم سلطاني من القاهرة، وقد كان لقب صاحب ديوان الإنشاء في مصر «صاحب ديوان الإنشاء» وهو مسماه في دمشق وحلب، ويسمى في حماه «صاحب ديوان المكاتبات، وفي طرابلس وصفد يطلق عليه «كاتب السر»، وفي غزة وسييس ( من بلاد الأرمن وأصبحت بعد الفتح قاعدة الثغور الشمالية ) وكرك «كاتب الدرج»، ما لم يكن أصل الكاتب فيهم من موقعي الإنشاء بمصر أو الشام عندها يسمى «كاتب الإنشاء». (٣)

وتتطبق شروط التعيين على كتاب السر في النيابات الشامية، ما ينطبق على كتاب السر في مصر. وتحت يدي كاتب السر كاتب الدست وكاتب الدرج. إلا أن حضور مجلس النائب ودار العدل ينحصر بكتاب الدست، ربما لإخفاء بعض الأسرار عن كاتب السر، وهو مما يسبب بعض الشكوى منهم. (٤)

## ٥ - نواب القلاع:

وهم نواب عن السلطان، يتم تعيينهم منه مباشرة في مختلف قلاع المملكة، وعلاقتهم واتصالهم مع السلطان مباشرة وهم من أرباب السيوف خصوصاً أن وظيفتهم عسكرية بحتة، ليس لهم علاقة بنواب المناطق التي هم فيها، وليس للنائب عليهم أي حق أو التزام. وتكون مفاتيح القلعة بيدهم، لا تعطى للنائب بأي شكل، وليس للنائب الدخول إلى القلعة. كما أنهم يقومون بمراقبة النائب ومسيرة الإدارة لديه،

١ . الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٥٦، ابن كنان ( محمد بن عيسى ) حقائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلطين تحقيق عباس صباغ دار النفائس بيروت ١٩٩١ ص ١٦٧ وزيشار اليه باسم : ابن كنان : حقائق الياسمين ، الباشا ( حسن ) الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية دار النهضة العربية القاهرة دون تاريخ ج ٢ ص ٩٠٠ . ٩٢٠ وزيشار اليه باسم الباشا : الفنون الإسلامية ).

٢ . ( القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٣٠ ).

٣ . ( الظاهري ) ( غرس الدين خليل بن شاهين ) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تصحيح بولس راويس طبعة باريس ١٨٩٤ م أعاد النشر مصوراً دار العرب للبستاني القاهرة ١٩٨٨ - ١٩٨٩ ص ١٣١ وزيشار اليه باسم الظاهري : زبدة كشف الممالك ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٥٩ . ٦٠ ).

٤ . ( حسن : تاريخ الممالك البحرية : ص ٢٤١ ).



ويتحذرون إمكانية تمرده أو طمعه بالحكم أو الانفصال، ويقدمون تقاريرهم عن الوضع إلى السلطان مباشرة. هذا إضافة لمهامهم العسكرية.

(عادة السلطان أن يطالعه نوابه في مملكته بكل ما يتجدد عندهم من مهمات الأمور أو ما قاربها، وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما يراه في ذلك، أو يبتدئهم هو بما يقتضيه رأيه، وينفذ على البرد أو أجنحة الحمام الرسائي)<sup>(١)</sup>.

## ثانياً - السلطة المحلية :

وهي تتمثل بالنواب والنيابات :

### ١ - النواب :

ويكون النائب من أرباب السيوف ممن يثق فيه السلطان ومن خاصته المقربين. استعمل تعبير النيابة بالنيابة عن السلطان نفسه في كل شؤون وأعماله. واستعمل في نيابة الغيبة، كما استعمل في نيابة الممالك التابعة للسلطان المملوكي بمعنى نيابات الأقاليم ونيابات الممالك الشامية.

والنائب عنه بدمشق يقال فيه: كافل السلطنة ومن دونه من أكابر النواب: كنائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد ونائب الكرك من الممالك الشامية، ونائب الإسكندرية ونائبي الوجهين: القبلي والبحري بالديار المصرية. يقال فيه: نائب السلطنة الشريفة، ويقال فيمن دونهم من النواب بالممالك الشامية كنائب حمص ونائب الرحبة وغيرهما: النائب بفلانة.

وكان يجري التعيين من قبل السلطان مباشرة وبمرسوم منه يجري تحديد مهام النائب ومدة تعيينه، ويجري التجديد سنوياً بمرسوم، ويجري إعطاؤه خلة الاستمرار.

ويجري تعيين النواب غالباً من ممالك الحلقة المقربين للسلطان. ويكون ذلك لعدة أسباب منها:  
أ. الاتفاق مسبقاً بين أمراء الحلقة على تعيين السلطان وتقاسم المناصب الهامة فيما بينهم بما فيها النيابة.

ب. وعد السلطان بالوظيفة، سواء قبل وصوله للحكم لمن كان داعماً له للوصول. أو أثناء تسلطه.  
ج. مكافأة المرشح على عمل أو خدمة هامة، فيرسل لنيابة تتناسب مع خدماته وقربه للسلطان وثقته به.

د. استرضاء المرشح لخلاف أو إشكال مع السلطان، فإما يرسل لنيابة ترضية تكون نيابة هامة، أو يرسل لنيابة قليلة الأهمية.

هـ - إبعاد المرشح عن مصر ويكون تعيينه في موقع قليل الأهمية استبعاداً له من قرب السلطان في القاهرة.

ويكون السلطان - عادة - حذر جداً في حال تعيين نائب دمشق الذي هو متنفذ على نواب الشام كافة وهو نائب السلطنة.

<sup>١</sup>. (القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٥٩ . ٦٠).

وكان يجري السلطان عملية تبديل وتنقلات في النواب لسبب أو آخر، من أمثلة ذلك: تعيين السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان<sup>(١)</sup> طقزدمر عن نيابة الشام وإحضاره إلى الديار المصرية. ولكنه استبدله. كذلك يجري سنوياً إصدار التشاريف التي تعني إعادة توزيع النيابات في بلاد الشام بإبقاء من يريد السلطان ونقل من يريد وهي غالباً تشمل معظم النواب بغية الحد من صلاحياتهم في حال بقائهم في مناصبهم مدة طويلة .

## ٢ - السلطات المحلية - نيابات بلاد الشام :

ضمت بلاد الشام في الأساس ست نيابات، كان الموقع الجغرافي من أهم العوامل التي أوجدت تلك التقسيمات كما بيّنّا في بحث التقسيمات الإدارية، إضافة للبعد التاريخي في تشكيل تلك التقسيمات. إلا أن تشكيل النيابات الست في بلاد الشام لم يجر في وقت واحد، بل كان يتعلق بظروف تاريخية تتعلق بالموقع الجغرافي ، أو تاريخ انضمام النيابة للسلطة المملوكية ، أو تاريخ تحررها من الحكم الصليبي<sup>(٢)</sup>.

فقد أصبحت دمشق وحلب نيابتين مملوكيتين بعد معركة عين جالوت وانهزام التتار سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، في عهد الظاهر بيبرس. وبقيتا فترة طويلة تمثلان نيابات بلاد الشام تحت الحكم المملوكي . وكانت لكل نيابة طبيعة جعلت لها خواص ومهام خاصة . فقد كانت نيابة دمشق تختص بمواجهة الصليبيين الذين كانوا يحتلون الشريط الساحلي لشرقي البحر المتوسط . فكان عليها الاستعداد الدائم لصد هجماتهم ، ومنع توسعهم ، ورد غزواتهم ، بالوقت نفسه الاستعداد لتحرير الأرض منهم . وكانت الظروف تقتضي من السلطان المملوكي أن يحتفظ بالشام ودمشق على الخصوص منطقة قوية عسكرياً واقتصادياً لحماية مصر .

فقد ذكر خليل بن شاهين الظاهري عدد الجند في بلاد الشام في عهده على الشكل التالي :

١٥٠٠٠ أجناد الحلقة بدمشق يضاف إليها ممالك الكافل والأمراء .

٨٠٠٠ أجناد الحلقة بحلب يضاف إليها ممالك الكافل والأمراء .

٥٠٠٠ أجناد الحلقة بطرابلس يضاف إليها ممالك الكافل والأمراء .

٢٠٠٠ أجناد الحلقة بصفد يضاف إليها ممالك الكافل والأمراء .

١٠٠٠ أجناد الحلقة بحماة يضاف إليها ممالك الكافل والأمراء .

علماً بأن هذه الأعداد لم تكن ثابتة بل هي عرضة للتبديل والتغيير، ولدواعي الأمن لم تكن السلطات المملوكية تعلن الأعداد بدقة<sup>(٣)</sup> .

وبالوقت نفسه كان على السلطان المملوكي أن يكون حذراً ممن فيها من النواب.

١ . ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي .

٢ - عاشور : مصر والشام ص ٣٠٤ .

٣ - عاشور : مصر والشام ص ٣١٠ .

لذلك قام سلاطين المماليك بحشد قوات عسكرية مملوكية في بلاد الشام ودمشق على الخصوص، ورفع أي سلطة لنائب دمشق على هذه القوات التي ربطها به شخصياً في القاهرة. كما كان السلطان المملوكي تبعاً لضرورة إعطاء نائب دمشق السلطات الكبرى على باقي نيابات الشام، كان عليه أن يتأني كثيراً في اختيار نائب دمشق، والحفاظ على صلات طيبة معه، وإرضاءه دائماً. ومن هذه السلطات أن تكون مراجعة نواب الشام للسلطان عن طريقه، وإعطاء الحق لنائب الشام بالسماح للنواب بالسفر إلى مصر للسلطان بعد أخذ إذن منه مما جعل له سلطة معنوية قوية عليهم.<sup>(١)</sup>

#### أولاً - نيابة دمشق الشام :

ونبحث في النيابة ثم في سلطاتها على باقي النيابات :

##### ١ - نيابة دمشق :

وكان نائب دمشق أو دمشق الشام أو الشام ، وهو أهم نواب الأقاليم وأعظمهم شأنًا حتى أن رتبته لم تكن تقل عن رتبة نائب السلطنة بالقاهرة ، فقد كان أوسع نواب الأقاليم الشامية نفوذاً بل كان الوحيد الذي يستحق نائب السلطنة غير النائب بمصر . ويطلق عليه اسم ( النائب الكافل ) أو كافل الممالك الإسلامية ( أو الشامية ) ويصدر بتعيينه في وظيفته تقليد خاص ، وينوب عن سلطان مصر في إدارة شؤون نيابته ويتمتع بالسلطة الكاملة والنفوذ المطلق الذين يتمتع بهما السلطان نفسه<sup>(٢)</sup>. ويصف القلقشندي سلطة نائب الشام فيقول : ( قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنياباته ويكتب عنه التواقيع الكريمة ، ويكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند ، وتجهزها للأبواب الشريفة فيشملها الخط الشريف السلطاني<sup>(٣)</sup> ). وكان نواب السلطنة في الأقاليم يختارون من أصحاب الوظائف الحربية التي كانت لهم الكلمة العليا في الدولة .

وكان نائب السلطنة في دمشق يعمل على السيطرة على كل أصحاب الوظائف في هذا الإقليم، وكان السلطان يراقب ذلك بعين ساهرة، ويشعر النائب بوجود السلطة المركزية للتدخل أحيانا :

أ - في ملء وظائف شاغرة ليست من اختصاص السلطان .

ب - بإصدار أوامر لمؤوسي النائب مباشرة . متخطياً النائب .

ج - قيامه بتعيين رئيس ديوان الإنشاء بالنيابة مباشرة من السلطان ليكون عيناً عليه يخبر السلطان بكل شاردة وواردة .

د - كذلك هناك وظائف أخرى كان السلطان يقوم بتعيين متوليها سترد في حينها .

١ . علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٣٣١ - ٣٣٢ . عاشور : مصر والشام : ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، الشلي ( فيصل ) بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية ، دار الزمان طبعة دمشق ٢٠٠٨ ص ٧١ - ٧٢ ، وسيشار اليه بإسم الشلي : بلاد الشام . إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ١٠٢

٢ . ( حسن : تاريخ المماليك البحرية : ص ٢١٩ )

٣ . ( القلقشندي صبح : طبعة مصر ج ٤ ص ٨٤ )

هـ - انفصال سلطات نائب القلعة عن سلطة النائب ، واعتبار نائب القلعة سيكون من يقوم بإعتقال النائب إذا طلب السلطان ذلك . ولا يجوز لنائب دمشق أن يدخل القلعة .  
ومن باب تقديم الطاعة يقوم نائب دمشق عند استلام منصبه بالدورة سبع مرات حول القلعة والصلاة ركعتين عند مدخل باب السر ، حتى إذا كان لدى نائب القلعة أوامر باعتقاله ليقوم بذلك . ومع أن هذا الأمر كان رمزياً فقط . فإنه بالتأكيد لم يحدث مطلقاً .<sup>(١)</sup> - ومن ذلك أن السلطان حين يقوم بزيارة دمشق أو أي نيابة أخرى فإنه لا يقيم بدار النيابة بل يقيم في القلعة .

## ٢ - سلطات نائب دمشق على نيابات الشام :

ولنائب السلطنة في دمشق سلطة على نيابات الشام الأخرى ، ونتمس ذلك ، على سبيل المثال ، ما جاء في التقليد الذي منحه السلطان كتبغا للأمير سيف الدين غرلو العادلي بتعيينه نائب السلطنة بدمشق ، كما جاء عند القلقشندي : ( وينظر في أمور الممالك الشامية نظراً عاماً ويعمل في سداد ثغورها وسداد أمورها ، رأياً ثاقباً وفكراً تاماً ويلاحظ أموال ما بعد من البلاد كملاحظته أموال ما دنا .<sup>(٢)</sup> )

١ - فالسلطان يعطي نائب دمشق سلطة النظر في أمور النيابات الشامية .

٢ - وسلطة تصريف أمورها .

٣ - وتقديم المشورة لنوابها .

٤ - وملاحظة مالياتها .

ونتمس قوة سلطات نائب دمشق الشام ، التي قد تكون تفوق الشكل العام من تلك السلطات ، نتيجة زواج بين أسرتي السلطان والنائب . فعلى سبيل المثال ما جاء في بدائع الزهور عن علاقة السلطان الناصر محمد بالأمير سيف الدين تنكز الذي عينه نائباً على دمشق سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢م وقد زوج ابني تنكز من ابنتيه ، وبعد عودة تنكز من مراسم الزواج كتب له الناصر محمد تقليداً ( بتفويض الحاكم في جميع الممالك الشامية بأسرها ، وأن جميع نوابها تكاتبه<sup>(٣)</sup> ) .

ويتحدث المقريزي عن الفرق بين سلطة نائب دمشق وسلطة باقي نواب الشام الذين لم يكن لهم من السلطة والنفوذ ما كان لنائب الشام فيقول : ( وبالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة بعد النائب بمصر سوى نائب الشام بدمشق فقط ، وإنما كانت النيابة تطلق أحياناً على أكابر نواب الشام وليس لأحد منهم من التصرف ما كان لنائب دمشق . ) وكان يطلق على كل من نواب السلطنة ببلاد الشام اسم (

<sup>١</sup> - ( ابن كنان ( محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي ) ، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، القسم الأول تحقيق د . حكمت إسماعيل وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ . وسيرمز إليه باسم ابن كنان : المواكب الشامية . ابن طولون ( شمس الدين محمد الصالحي الدمشقي : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٣٥ - ٣٨ . وسيشار إليه باسم ابن طولون نقد الطالب لزغل المناصب . )

<sup>٣</sup> - ( القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ١٣ ص ٨ - ١٢ )

<sup>٢</sup> - ( ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧١ - ١٧٢ ، حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢١ ، ورغم هذه الخطوة فإن ذلك لم يمنع السلطان حين شعر بتغيير تنكز من اعتقاله ومصادرته وإعدامه في الإسكندرية سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م )

ملك الأمراء ) لقيامه مقام الملك بالتصرف والتنفيذ وقيام الأمراء على خدمته كخدمة السلطان<sup>(١)</sup> إلا أن بعض نواب الحكم استطاعوا انتزاع سلطات واسعة من السلطان ، أحيانا تفوق سلطته. من ذلك أن النائب الأمير الحاج آل ملك أجبر السلطان الصالح إسماعيل سنة ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م على إبطال كل ما أصدره إخوانه السلاطين السابقون من مراسيم سلطانية إلى نواب الشام ، وأن يستمر بالعمل وفق المراسيم السلطانية التي أصدرها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بل إن النائب أجبر السلطان إسماعيل على أن يصدر مرسوماً يلغي بموجبه جميع المراسيم التي أصدرها هو شخصياً<sup>(٢)</sup> . وكانت الشام قبل دخولها الحكم المملوكي أول من عارض السلطة المملوكية ، وكانت تلك المعارضة من دمشق . إذ رفض المماليك الأكراد ( القيمرية ) أن يقسموا يمين الولاء لشجر الدر ، وكذلك فعل الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطنة بدمشق، رفض الاعتراف بشجر الدر ، وانضموا للمعارضة الأيوبية تحت لواء الملك الناصر يوسف الأيوبي . وكان ذلك عقبة أمام السلطة المملوكية لم يزلها سوى الخطر المغولي.

كذلك كانت الشام ملجأً إثر انقسام المماليك في مصر بعد قيام السلطان أيبك بقتل أقطاي زعيم المماليك البحرية. فر إلى الشام باقي أمرائهم وهم بيبرس وقلاوون وسنقر وببيري وغيرهم، وبقوا مصدر متاعب حتى سقوط بغداد بيد المغول، وظهور خطرهم، مما وحد صفوف المماليك .

وكان نواب دمشق من أوائل النواب في الثورة والتمرد على السلطان وخصوصاً السلطان الجديد ، إذ في غياب حق الإرث في خلافة السلطة . كان الأمراء يرون أن لهم الحق بالسلطة على التساوي ، فأبهم يسبق للسلطة لا بد أن يبايعه الآخرون . فعند موت قطز ، كان أول الرافضين لسلطة بيبرس نائب الشام الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ، حيث ثار في وجه بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م أي بعد شهر واحد من تسلم بيبرس السلطة وطلب لنفسه منصب السلطنة . ودعى لنفسه في خطبة الجمعة ولقب نفسه بالملك المجاهد وصك النقد بإسمه . إلا أن بيبرس استطاع القضاء على حركته<sup>(٣)</sup> . واستمرت اضطرابات نيابة دمشق ، ونيابات الشام خلال العصر المملوكي خصوصاً فترات حكم الناصر محمد الثالث . واستمر هذا الصراع حتى في عصر المماليك الجراكسة ، وأصبحت مسرحاً للصراع بين المماليك الأتراك والمماليك الجراكسة ، كذلك لم يتوقف هذا الصراع في زمن برقوق ، وتلاه في زمن ابنه فرج بن برقوق . واستمرت حركات الثورة والتمرد حتى نهاية حكم المماليك .

وتبين من دراسة أجراها (جاستون فييت ، كما أوردها أشتور) لتراجم أربعة وسبعين نائباً لنيابة دمشق في العصر المملوكي ، أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم الوصول للسلطنة وهما لاجين وشيخ . وتمكن اثنان من الهرب لخارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلطان ، وسجن خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين جرى إعدام خمسة عشر نائباً<sup>(٤)</sup>.

١ . ( الفلشندي : صبح طبعة مصر ج ٥ ص ٤٥٥ ، حسن : تاريخ المماليك البحرية : ص ٢٢١ )

٣ - الحجي ( حياة ) السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك : جامعة الكويت ١٩٩٧ ص ١٢٠ وسيشار إليه باسم الحجي : السلطة والمجتمع

٢ . ( المقريري : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ ، عاشور : مصر والشام : ص ٣٢١ - ٣٢٠ )

٤ . (عاشور : مصر والشام : ص ٣٢٩ )

## ثانياً - نيابة حلب:

تتمتع حلب بموقع استراتيجي هام، فهي تقع بالنسبة للدولة المملوكية في أقصى حدودها الشمالية وهي باتساعها الكبير مع توابعها وملحقاتها والنيابات الصغار والولايات الصغار والثغور تصبح أكبر ولاية في بلاد الشام، وبذلك تصبح ذات موقع حربي مهم. فكل ما حولها من الدول كانوا من أعداء المماليك والطامعين في حكم دولتهم، أو على الأقل ضم الشام لحكمهم؛ فكان البيزنطيون والأرمن والتتار والعثمانيون. فهي الخط الدفاعي الأول للسلطنة المملوكية. لذلك اضطر السلطان المملوكي لشحنها بالكثير من القوات والأسلحة والعُدَد والاهتمام بها وبأسوارها والحصون التي تتبعها.

وبطبيعة الأمر أدرك السلاطين المماليك خطورة من يتولى النيابة فيها، وإمكانية انفصاله أو ثورته ضد الحكم المملوكي. فكان كل سلطان جديد يسارع بتحليف نائبها على الطاعة وعدم الخيانة.

كان السلطان يختار نائب حلب من الأمراء الكبار الذين يثق بهم ثقة كبيرة، وغالباً يكونون ممن مارس مهمات كبيرة قبل تعيينه نائباً لحلب، كنيابة حماة أو الكرك أو أطرابلس أو غيرها، على سبيل الترقى. أو من نيابة أعلى، مثل دمشق، وهذا نادراً ما حدث إلا في حالة الطلب من المتعين. أو أن يكون المعين قد تسلم في بلاط السلطان مركزاً كبيراً مثل أمير سلاح.

وكان السلطان يعطي نائب حلب صلاحيات واسعة، مثل تفويضه بتحريك الجيوش ودخول الحرب في حالة شعوره بخطر من الأعداء الجوار. ومن مظاهر الخصوصية هذه للنائب أن المكاتبه إليه تماثل المكاتبه لنائب الشام. وكان يطلق على نائبها لقب «ملك الأمراء».

وبالطبع كان نائبها دوماً من أرباب السيوف، من المقدمين أمراء الألوفا.

ولكن رغم تلك الأهمية لنائب حلب، بقي نائب الشام أعلى مرتبة منه، ويكون هو التالي له بين النواب في بلاد الشام ويطلق عليه لقب نائب السلطنة الشريفة في حلب المحروسة. ويليهِ نائب أطرابلس ثم حماه ثم صفد. (١)

ولم تكن سلطة نائب الشام على نائب حلب مؤكدة دوماً؛ فقد كان العامل المادي له أثره في تحديد مدى تلك السلطة، فبعد أن أوجب السلطان الناصر محمد على نواب الشام بمكاتبه نائب دمشق، كانت الهدايا القيمة التي قدمها الأمير أرغون شاه للسلطان المظفر حاجي، دافعا وراء نقله من نيابة صفد الى نيابة حلب، بل جاء في توليته: ( ألا يكون لنائب الشام عليه حكم، وأن تكون مكاتبته للسلطان، وكتب لنائب الشام بذلك ) (٢) وكان هذا تقليداً جديداً في النظام الإداري لبلاد الشام منذ أن رسم الناصر محمد بن قلاوون أن تكون مكاتبات نواب الشام إلى نائب دمشق، الذي يملك وحده دون غيره من النواب حق المكاتبه للسلطان مباشرة (٣).

١ - ابن الشحنة (محمود) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب دار الكتاب العربي سورية ١٩٨٤ ص ٢٥٧، وسيشار إليه باسم ابن الشحنة : الدر المنتخب. حمزة (عادل عبد الحافظ) نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك: الهيئة المصرية العامة للكتاب و القاهرة ٢٠٠٠ ص ٩٠٦،

وسنشير إليه باسم حمزة : نيابة حلب . الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٣٨ . ١٢٤٠ (١)

٢ - (المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٧٢٧ )

٣ - (إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ١٠٥ ، الحجى : السلطة والمجتمع : ص ٦٧)

كذلك كان نواب حلب يشعرون بقوتهم وقوة نفوذهم . إضافة لبعدهم الجغرافي عن مصر والسلطان . وكان هذا مشجعاً لبعض نواب حلب في رفع راية العصيان . فقد حاول العديد من نوابها الأمراء رفع راية العصيان والانفصال . وكان السلاطين يعانون الكثير في القضاء على حركاتهم . فقد ثار الأمير شمس الدين ، أقوش البرلي ووطد مركزه بحلب . إلا أن بيبرس أحمد حركته<sup>(١)</sup> .

### ثالثاً - نيابة أطرابلس:

أطرابلس وما نطلق عليها الآن طرابلس، نيابة هامة جداً، فهي تقع على شاطئ البحر المتوسط، فهي من نيابات الثغور وقريبة للقوى الصليبية والبحرية الصليبية التي كانت تمارس القرصنة والإغارة الدائمة، وكانت من معادل الصليبيين القوية، والتي حررها المماليك، إذ فتحها السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩، بعد أن ملكها الفرنج مائة وأربع وثمانين سنة، وبذلك جعلها نيابة. فكانت آخر ولاية كبيرة تنضم للدولة المملوكية.<sup>(٢)</sup> وهي نيابة جليلة تأتي في المرتبة الثالثة بين نيابات الشام بعد دمشق وحلب.

### رابعاً - نيابة حماة:

تقع حماه على على طرف بادية الشام، وكانت صلاتها دائماً مع العربان صلات قوية جداً، وتعتبر دائماً حاضرة بدو بلاد الشام وبادية الشام التي تتصل مباشرة مع بدو شبه الجزيرة العربية، وهي تقع على العاصي وفي موقع متوسط في بلاد الشام بين شمالها وجنوبها على طريق القوافل وعلى شبكة الاتصالات. وموقعها هذا يعطيها قيمة عسكرية كبيرة.

بقيت حماة محتفظة باستقلالها وتبعيتها للبيت الأيوبي لمدة اثنين وسبعين عاماً في إطار الحكم المملوكي زيادة عن مثيلاتها من الممالك الأيوبية. فمع سقوط باقي الممالك الأيوبية الأخرى في بلاد الشام تباعاً، إذ لم يدم الحكم الأيوبي في سورية ومصر إلا إلى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م، بينما استطاعت حماة الاستمرار كمملكة تابعة للسلطان المملوكي في مصر اعتباراً من سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م وحتى ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م عدا فترة الانقطاع التي حدثت ما بين ٦٩٨ . ٧١٠ هـ / ١٢٩٨ . ١٣١٠ م حيث استلم الحكم فيها نواب عن السلطان المملوكي. وبعدها عادت لتكون ملكية تحت النفوذ المملوكي. والسبب كان سياسة ملكها المنصور محمد الذي حالف المماليك والسلطان قطز أولاً، والظاهر بيبرس ثانياً، وكلاهما أقراه على حكم حماة. وأصبح الملك المنصور في خدمة السلطان المملوكي بيبرس

<sup>١</sup> - ( أبو الفداء المختصر في أخبار البشر المطبعة الحسينية في مصر ط ١٣٢٥ هـ ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١١ وسيشار إليه بإسم أبو الفداء : المختصر . ، عاشور : مصر والشام : ص ٣٢١، الشلي : الدولة المملوكية ص ٨٤ )

<sup>٣</sup> . (علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٤).

والسلطان المنصور سيف الدين قلاوون، الذي عين ابن الملك المنصور الأيوبي على حكم حماة بعد موت والده، واستلم الحكم ابنه الملك المظفر الثالث محمود سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م، وفي عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م توفي السلطان المنصور سيف الدين قلاوون واستلم الحكم ابنه الملك الأشرف. وفي عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م توفي الملك المظفر محمود دون أن يعين خلفاً له. فقام السلطان الأشرف بتعيين الأمير قراسنقر نائباً للسلطنة حيث إستمر بها نحو عامين عام ٦٩٨ . ٦٩٩ هـ / ١٢٩٨ . ١٢٩٩ م، وبعد إجتياح المغول لبلاد الشام والفرجى التي حصلت حينها هرب قراسنقر ملتجئاً بالمغول. فاستلم نيابة حماة على التتابع الأمير كتبغا زين الدين المنصورى خلال سنتي ٦٩٩ . ٧٠٢ هـ / ١٢٩٩ . ١٣٠٣ م، ثم الأمير سيف الدين قبجق خلال فترة ٧٠٣ . ٧٠٩ هـ / ١٣٠٣ . ١٣٠٩ م وفي خلال أزمة لجوء السلطان الناصر محمد للكرك واستلام بيبرس الجاشنكير، استطاع أبو الفداء الذي أرسله نائب حماة الأمير قبجق قائداً للقوات الحموية لنصرة السلطان الناصر محمد، فاستطاع انتزاع وعد من الناصر محمد للعودة ملكاً لحماة، إلا أن هذا الوعد لم يجر الوفاء به بحجة انشغال السلطان بأعباء كثيرة، بل أعطى نيابتهما للحاج بهادر الظاهري، وما لبث أن استرجعها وقدمها إلى الأمير إسمندر بناء على طلبه، مكافأة لخدماته أثناء الأزمة، شغل إسمندر نيابة حماة بين ٧٠٩ . ٧١٠ هـ / ١٣٠٩ . ١٣١٠ م.

قام الأمير مهنا بن عيسى أمير العرب وكانت له دالة على السلطان بالتوسط لأبي الفداء، فوافق السلطان على ذلك على أن تكون نيابة لا مملكة، ونقل إسمندر لنيابة السواحل والفتوحات. واستلم أخيراً أبو الفداء حماة مضافاً لها بارين والمعرة، بعد فترة انقطاع عن البيت الأيوبي مدة إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً. وبقي فيها ما بين الأعوام ٧١٠ . ٧٣٢ هـ / ١٣١٠ . ١٣٣١ م. وبعد وفاته استلم ابنه الملك الأفضل ناصر الدين محمد على قاعدة أبيه. وصادف موت السلطان الناصر محمد في الحجة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م واستلم الحكم ابنه السلطان الملك المنصور أبو بكر الحكم المملوكي، وصادف أن ازدادت النعمة على ملك حماة الذي فقد آخر سند له بمصر بوفاة السلطان الناصر محمد، وبسبب تغير سلوكه وسوء معاملة رعيته، فقام الأمير قوصون بعزله ونقله إلى دمشق وجعله أميراً من أمرائها بعد حكمه حماة مدة عشر سنين، وعين مملوك أبي الفداء سيف الدين طقزتمر. وهذا مما يؤكد سلطة نائب دمشق على باقي النيابات .

وبذلك انتهى الحكم الأيوبي لحماة لتصبح نيابة مملوكية تحتل المرتبة الرابعة من نيابات بلاد الشام بعد دمشق وحلب وأطرابلس<sup>(١)</sup>.

وقد وصف القلقشندي حماة في العصر المملوكي قائلاً (أما حماة فقد أقر السلطان برقوق نظام الحكم الأيوبي فيها وعفى عن ملكها الملك المنصور الثاني وأقره على حكمها. وبقيت حماة مملكة أيوبية

١ . سبانو (أحمد غسان ) مملكة حماة الأيوبية: دار قتيبة دمشق ١٩٨٤ ص ٩٢ . ١٣٦، وسيشار إليه سبانو : باسم مملكة حماة الأيوبية.



خاضعة للسلطان المملوكي حتى وفاة ملكها المؤيد آخر ملوكها الأيوبيين سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م، لتصبح نيابة مملوكية، في عهد المنصور أبي بكر<sup>(١)</sup>.

كما نقل عن مسالك الأبصار: (قال في مسالك الأبصار: إن صاحبها كان يستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتاب السر وسائر الوظائف بها، وتكتب المناشير والتواقيع من جهته ولكنه لا يمضي أمراً كبيراً في مثل إعطاء إمرة أو وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر، وهو لا يجيبه إلا بأن الرأي ما تراه ومن هذا ومثله، وربما كتب له مرسومٌ شريفٌ بالتصرف في مملكته. قال في مسالك الأبصار: ومع ذلك فصاحب مصر متصرف في ولاية صاحبها وعزله، من شاء ولاه ومن شاء عزله، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن خلع الأفضل محمد بن المؤيد المتقدم ذكره من سلطنتها، بعد موت السلطان الملك الناصر وملك ابنه أبو بكر؛ ونائبها من أكابر الأمراء المقدمين، ولكنه في الرتبة دون نائب أطرابلس وإن كان مساوياً له في المكاتب من الأبواب السلطانية؛ ويظهر ذلك في كتابة المطلقات الكبار حيث يذكر نائب أطرابلس قبله<sup>(٢)</sup> .

#### خامساً - نيابة صفت ( صفا ) :

تشكلت صفدت كنيابة من نيابات الشام في العصر المملوكي حين افتتحها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٣ م. وكان إنشاؤها بهدف التصدي للصليبيين في عكا والمناطق الأخرى التي ما زالت بأيديهم، لذلك حشدت السلطات المملوكية حامية عسكرية كبيرة فيها، وبالفعل كان لهذه الحامية دورها في معارك التحرير.

وقد وصف ابن شداد طريقة تشكيل نيابة صفا من قبل الظاهر بيبرس الذي رتب فيها والياً (..). وجعل فيها أربعة وخمسين مملوكاً من مماليكه، وأقطعهم إقطاعاً، وقدم عليهم أميرهم ، وولى نائباً على قلعتها ، وصير نيابته في بلدها إلى الأمير عز الدين أيبك العلاني<sup>(٣)</sup>.

فكانت صفا أول نيابة أنشئت في فلسطين لتأدية أغراض عسكرية وأمنية.

وشهدت صفت جميع حوادث بلاد الشام وشاركت فيها من حروب صليبية وهجمات التتار، والصراعات الداخلية، وكان السلطان تارة يولي نيابتها للأمراء غصباً عليهم مثل الأمير سيف الدين طغاي الخاصكي حيث نفاه إليها سنة ٦١٨ هـ / ١٢١٨ م. أو استرضاء لهم مثل قيام السلطان خشقدم سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م بتعيين الأمير تمرار الأشرفي نائباً عليها.

وقد تقلد نيابتها مئة وسبع وعشرون نائباً منذ إنشائها وحتى سقوط الدولة المملوكية<sup>(١)</sup>.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ١٢ ص ٦، عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٣٠٦ ، العثماني ( محمد بن عبد الرحمن الحسيني ) تاريخ صفا تحقيق سهيل زكار دار التكوين دمشق ٢٠٠٩ ص ١٤ - ١٥ وسيشار إليه باسم العثماني: تاريخ صفا .

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٣٧ . ٢٣٨ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٣ .

٣ . ابن شداد ( يوسف بن رافع الحلبي ) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٨ ص ٥٠ وسيشار إليه باسم ابن شداد : الأعلام الخطيرة . العثماني : تاريخ صفا ص ٣ . علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٤

## سادسا - نيابة الكرك:

تتمتع منطقة وادي الأردن بمركز إستراتيجي هام بحكم موقعها بين الشام ومصر والحجاز والعراق، وهي ذات أهمية عسكرية كبيرة، وبحكم وجود تحصينات كبيرة وقوية فيها خصوصاً قلعة الشوبك وقلعة عجلون وقلعة الصلت، فقد كانت تشكل خطاً دفاعياً أول لمصر ضد الصليبيين والتتار.

وقد أدرك السلطان بيبرس أهمية الكرك، ووضع بين عينيه إقامة دولة قوية تضم مصر والشام، وهو يعلم بمطامع ملكها الأيوبي الملك المغيث باحتلال مصر، لذلك أرسل قوة لاحتلال الشوبك وتم له ذلك في ذي الحجة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م. وحدثت مناوشات بين قوات السلطان بيبرس والمغيث ولكن شفع للمغيث الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله، ثاني خلفاء بني عباس في مصر، فقبل بيبرس الشفاعة وأبقى المغيث على الكرك، إلا أنه كتم أمر قراره بإنهاء المغيث، فتوجه للشام بقوات كبيرة وبالوقت نفسه أرسل المبعوثين لطمأننة المغيث واستدرجه ليقوم بزيارة معسكره، فطلبت الخدعة على المغيث رغم نصائح بعض مرعيه. وعند وصول المغيث لدهليز السلطان ألقى القبض عليه وأخذ فتوى بقتله لاتصاله بالتتار، وأرسله معتقلاً لقلعة الجبل حيث قتل هناك.

ثم توجه الظاهر بيبرس لاسترجاع الكرك التي سلمت دون قتال في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦٦١ هـ / ٤ مايس . مايو ١٢٦٣ ودخلها بيبرس باليوم التالي وأخذ في تنظيم شؤونها، وعين أول نائب مملوكي عليها الأمير عز الدين أيدمر الإستادار، وأضاف إليه الشوبك وأعمالها. ورتب شؤونها وعمر ما خرب منها، وشحنها بالرجال والعتاد. (٢)

وكانت الكرك تعامل معاملة خاصة لدى سلاطين المماليك، فنظراً لحصانتها القوية وموقعها الإستراتيجي وقربها لمصر، أصبحت خزنة ثروات السلاطين، وملاذهم الأخير عند الملمات، وكان هذا امرأ شائعاً في فترة العصر الأيوبي والمملوكي. فقد قامت قلعة جعبر مقام الكرك في الشمال الشرقي لبلاد الشام فكانت خزنة الملك العادل أخي صلاح الدين لحصانتها. وقد جعل منها نائب دمشق تنكز مستودعاً لخزائن أمواله وملاذاً أخيراً له خصوصاً أنها تجاوز التتار إذا أراد نجدة ضد السلطان المملوكي، ولكن الدهر لم يمهله لتنفيذ ذلك (٣).

من ذلك رأينا السلطان الناصر محمد يلجأ إليها في رمضان سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م مظهراً أنه يريد الحج فتوجه إلى الكرك وأقام بها وطرده نائب الكرك إلى مصر وأعرض عن المملكة لاستبداد سلال

١. العثماني: تاريخ صفد ١٤. ١٥.

٢. في المقصد الرفيع أن بيبرس اقتلعها من عمر بن العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٧١ هـ انظر ص ٢٨٦، وانظر في ذلك أيضاً الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٥٤، وج ٣ ص ١٢٦٥، علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٥. إمارة الكرك الأيوبية ص ٣٢٨. ٣١١

٣. دهمان ( محمد أحمد ) ولاية دمشق في عصر المماليك. دار الفكر دمشق ١٩٨٤ ص ١٦٠ - ١٦١ وسيشار إليه باسم دهمان ولاية دمشق في عصر المماليك.

وبببرس دونه بالأمر وكتب إلى الأمراء بمصر يستعفيهم من السلطنة ويسألهم أن يتركوا له الكرك وبلادها فوافقوه على ذلك. وأقام بالكرك يدبر أمورها ويحكم بين من يتحاكم إليه وتسطن مكانه بببرس في الثالث والعشرين من شوال من تلك السنة. واستمر إلى رجب سنة ٧٠٩ فخرج جماعة من أمراء مصر إلى كرك وحملوا الناصر إلى دمشق . ومن ثم أعيد سلطاناً للمرة الثالثة<sup>(١)</sup> .

وأصبح لكرك بعدها شأن كبير في حياة الناصر محمد فقد جعل قلعتها مستودعاً لأمواله وسلاحه ، وأصبحت مقاماً لأولاده وعهد لنائبها تربية أولاده وتدريبهم على الفروسية وأعمال الحرب والصيد ، ففي سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م أرسل ابنه الأكبر محمد وعمره لا يتجاوز ثمانية سنين ومعه سبعون مملوكاً لخدمته وأرسل معه خزانة مال لتودع في قلعتها . وبعد خمس سنوات أرسل ابنه الثاني إبراهيم ليقم مع أخيه ثم أردفهما بابنيه الآخرين أبي بكر ورمضان<sup>(٢)</sup>

وكذلك فعل أحمد بن الناصر محمد . إذ أراد أن يجعلها عاصمة دولته ، إذ انتقل إليها ومعه كل الخزائن السلطانية . واستصحب معه شعائر السلطنة والخليفة . وناظر الجيش . وأخذ يصدر مراسيمه النافذة في مصر وبلاد الشام . وأخذ في ترميم سورها وقلعتها . وكان هذا سبباً في عزله<sup>(٣)</sup>.

### سابعاً . نيابة غزة :

كان يطلق عليها الفرس اسم ( غزة ) ، وسماها العرب ( غزة هاشم ) نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي مات فيها وهو راجع بتجارته إلى الحجاز . وكان لموقعها الجغرافي الإستراتيجي أهمية كبرى كنقطة اتصال بين آسيا وأفريقيا ، وعلى موقع تجاري هام يشكل عقدة مواصلات تجارية هامة من أبرز الطرق التجارية في العالم تلك التي تبدأ في حضرموت واليمن حيث تجتمع تجارة البلاد وتجارة الهند ، ثم تسير شمالاً إلى مكة المكرمة والمدينة والبتراء ومن هناك إلى فرعين ينتهي أحدهما في غزة ويتجه الثاني إلى دمشق وتدمر .

ولموقع غزة أهمية عسكرية لكونها حلقة الاتصال بين مصر والشام يتطلع إلى فتحها ملوك مصر إذا تطلعون لفتح الشام ، وكانت مقر حشود الجيوش من قبل غزة مصر . وكان الاستيلاء على غزة يعني السيطرة على طرق الحرب والتجارة بين آسيا وأفريقيا .<sup>(٤)</sup>

وقد بين الأمير كراي المنصوري المتوفى سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م أهمية غزة للسلطان الناصر محمد قائلاً ( من ملك غزة ملك مصر )<sup>(٥)</sup>

١ . ( الشوكاني ) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله ( البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع )

٢ . ( المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٧٢ ، \_ غوانمة ( يوسف درويش ) التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي ، دار الفكر للنشر عمان ١٩٨٢ ص ١٩٥ ) .

٣ . ( ابن كثير ( أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ) لبداية والنهاية تحقيق علي بري دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٨ ج ١٤ ص ٢٠١ وسيشار إليه بإسم ابن كثير البداية والنهاية . غوانمة : التاريخ السياسي لشرقي الأردن ص ٢٢٣ - ٢٢٤ )

٤ . ( الموسوعة الفلسطينية إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية دمشق ١٩٨٤ ج ٣ ص ٣٩٠ وسيشار إليها بإسم الموسوعة الفلسطينية ) .

٥ . ( انظر في ترجمة الأمير كراي ومقولته هذه في الدرر للعسقلاني ج ٣ ص ٣٥٢ . ٣٥٣ ) .

وكانت غزة في العصر المملوكي من النيابات الصغرى التي كانت تابعة لنيابة دمشق، وفيها من الوظائف مثل وظائف دمشق على العموم ولكن بشكل مصغر، ومعظمها يتبع نائب دمشق. واتخذت صفة النيابة المستقلة في عهد الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة، حيث أرسل الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائباً لغزة سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م ويقول الصفدي في ذلك «وعمل نيابة غزة».

وكانت من نيابات مقدمي الألوف بالصفقة الغربية الخارجة عن حاضرة دمشق.

يقول ابن تغري بردي في هذا الخصوص عند تعداده لمآثر الملك الناصر محمد: (حتى أن مدينة غزة هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة، وكانت قبل ذلك كأحاد قرى «البلاد الشامية»، وجعل لها نائباً وسمي بملك الأمراء، ولم تكن قبل ذلك إلا ضيعة من ضياع الرملة.)<sup>(١)</sup>

وتأتي نيابة غزة في المرتبة السادسة من حيث الأهمية والحجم بعد نيابة صفد، وقد اختلفت حدود نيابة غزة بين اتساع وتقلص بسبب عوامل كثيرة تلعب السياسة الداخلية للسلطنة المملوكية دورها فيها. وكذلك قوة ومركز النائب المعين.

من ذلك أنه جرى إلحاق ولاية نابلس بغزة عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م. كما ألحقت الرملة واللد عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م. وفي زمن ملك الأمراء المقر الأشرفي السيفي أضيفت لها نيابة القدس والخليل عام ٩٠١ هـ / ١٤٩٥ م.

كان يتولى نيابة غزة نائب السلطنة إذا كانت نيابة. ومقدم العسكر إذا كانت مقدمة عسكر. أما نيابة غزة فقد تأخر تكوينها كنيابة مستقلة إدارياً في العصر المملوكي إذ كانت تابعة لدمشق، إلا أن دور دمشق في النزاعات التي وقعت بين الأمراء المماليك في الفترة الواقعة بين وفاة السلطان قاتباي سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ووصول السلطان الغوري للحكم سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م. ودورها في عملية تنصيب السلطان جعل السلطان الغوري بعد إعتلائه الحكم يقوم بفصلها عن دمشق وإعطائها صفة النيابة التي تتبع السلطان مباشرة، مع إعطاء نائب دمشق إشرافاً أدبياً عليها. وبذلك تصبح غزة النيابة السابعة في بلاد الشام في العصر المملوكي المتأخر.<sup>(٢)</sup>

### ثامناً . نيابة القدس:

تحتفظ القدس بمركز كبير وديني عالمي فهي مركز هام ومقصد شريف للأديان السماوية الثلاثة، والصراع عليها قديم قدم المدينة المقدسة، واكتسبت القدس في الإسلام مكانة خاصة فهي ثالث الحرمين الشريفين ومسجدها من المساجد التي يقصدها المسلمون في كل مكان، وصخرتها المقدسة من شعائر

١ . ( ابن تغري بردي ) جمال الدين ابو المحاسن يوسف الأتابكي ٩ : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة دار الكتب العلمية بيروت بلا تاريخ ج ٩ ص ١٩٣ وسيشار اليه باسم ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، عطا الله ( محمود علي خليل ) : نيابة غزة في العصر المملوكي دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٦ ص ١٢١، وسيشار اليه باسم عطا الله : نيابة غزة ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٤٨ . ١٢٤٩).

٢ . علي دمشق بين عصرالمماليك والعثمانيين ص ٣٣٢.

الإسلام وجزء من الإيمان في رسالة النبي عليه السلام. ولذلك اتخذت صفة القداسة، وكل تهديد لها إنما هو تهديد للعرب والمسلمين، وما الحروب الصليبية إلا حروب للنيل من القدس وامتلاكها. من أجل ذلك قاتل صلاح الدين لاستعادتها، وقاتل المماليك للحفاظ عليها. كانت القدس من النيابات الصغيرة التابعة لدمشق، خلا بعض الفترات التي عوملت كنيابة مستقلة ولها إضافاتها. ويذكر القلقشندي أن النيابة في بيت المقدس استحدثت في سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م<sup>(١)</sup> وأن نيابتها أمرة طبلخانة وأضيف لها نظر القدس والخليل.<sup>(٢)</sup> إذ قام الأشرف شعبان برفع مرتبة نائبها فجعله طبلخانة، ولكنه أبقاها تابعة لدمشق. وكان يتم تعيين نائبها من قبل نائب دمشق. ولكن السلطان قلاوون أوردتها بمعاهدة الصلح مع الفرنج عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م على أنها «مملكة القدس الشريف» نحو سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٨٨ م حيث أصبح تولية نائبها تتم من قبل السلطان مباشرة.<sup>(٣)</sup> وقد اقتضت الظروف الخاصة ببلاد الشام التي حوت مناطق حدودية كثيرة شكلت ثغوراً للسلطنة، كما ضمت موانئ وقلاعاً هامة، أكسبتها ظروفًا خاصة. اقتضى ذلك أن تنقسم كل نيابة إلى عدد من الأقسام والنيابات الصغيرة. أطلق عليها القلقشندي تعبير «النيابات الصغار».<sup>(٤)</sup>

١. (في الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٥ يذكر نقلاً عن التتقيف أن السنة كانت ٧٦٧ هـ).

٢. (القلقشندي : صبح طبعة القاهرة ج ٤ ص ١٩٩).

٣. الحنبلي (مجير الدين ) الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: طبعة مكتبة المحتسب عمان ١٩٧٣ ج ٢ ص ٢٨٢ وسيشار إليه باسم الحنبلي : الأُنس الجليل. ، غوانمة : تاريخ نيابة بيت المقدس: ص ١٣ . ٢١، عطا الله (محمود علي خليل ) القدس في العصر المملوكي: ص ٣٢ . ٣٧).

٤. المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ و ٧٤٧، عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٣٠٥.

## الفصل الثالث

### التقسيمات الإدارية في الدولة المملوكية

### التقسيمات الإدارية في بلاد الشام :

لم تتبدل الحدود الجغرافية في عصر المماليك عن الدول التي سبقتهم كثيراً سواء في مصر أو في بلاد الشام. كما لم تتبدل بعدهم كثيراً حتى وقتنا الحالي. إذ ارتبطت التقسيمات عبر التاريخ استناداً لظروف وقتية اقتضتها الضرورة والبعد التاريخي والجغرافي والإداري المتوارث. وقد أبقى الإدارة المملوكية الاصطلاحات الإدارية التي كانت مستعملة في العصر الفاطمي، فاستخدمت كلمة عمل (بما يعادل حالياً مديرية أو محافظة) وناحية (أي مركز أو ناحية بالتعبير الشامي) وقرية كما نستعملها حالياً.

وخلال العصر المملوكي كان يجري بين الحين والآخر تعديلات اقتضتها الظروف مثل تحرير المناطق التي كان يحتلها الصليبيون، فأحدثت نيابات جديدة مثل نيابة صفد وأطرابلس. أو بسبب إعادة هيكلة النيابات لأسباب سياسية أو ترضية للأمرأ والنواب.

كانت مصر وبلاد الشام مقسمة في عصر المماليك إلى مناطق إدارية كثيرة، وبقيت الحجاز في تقسيماتها ونظمها تتبع النظام البدوي والقبلي ضمن الأطر الجغرافية. التي تتكون من قسمين: الأول مكة المكرمة. والثاني المدينة المنورة. وأورد هذه التقسيمات العمري والقلقشندي وغيرهم، وقد اقتبس القلقشندي هذه التقسيمات من العمري، وأشار إلى مواضع اقتباسه في كتابه صبح الأعشى، وإستفاض في شرح وتحديد مناطق أو مدن التقسيمات الإدارية أكثر من العمري، كما أنه رتبها بشكل جيد .

فكانت التقسيمات الإدارية في العصر المملوكي مقسمة إلى:

القسم الأول :الإدارة المركزية: في قلعة الجبل.

القسم الثاني : الإدارة المحلية وهي ثلاثة أقسام وهي:

أولاً: البلاد المصرية.

ثانياً: بلاد الشام.

ثالثاً: المناطق الملحقة بالمملكة: الحجاز واليمن.

اتبعت دولة المماليك الأولى التقسيم نفسه الذي كان مرعياً في العصر الأيوبي. واختلف تدريجياً حسب تخلص المماليك سواء من الحكم الأيوبي أو من الحكم الصليبي، واختلفت تسميات التقسيمات الإدارية بين مملكة وممالك وبلاد، ف قيل «الممالك الحلبية» و«الممالك الشامية». كان التنظيم الإداري يصدر كل عام سواء جرى تبديل للتقسيمات الإدارية أم لا، بدساتير يطلق على ما يخص الشام بالدساتير الشامية<sup>(١)</sup>

ويبدو هذا التقسيم ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية.

**أولاً - حدود الشام بمعناها التاريخي** فقد كانت تضم سورية التاريخية التي تضم حالياً سورية وفلسطين ولبنان والأردن. وتبلغ حدودها حتى مرتفعات جبال طوروس وهي الحد الطبيعي والتاريخي لبلاد الشام ، وحدودها مع مصر تبدأ من ميناء العقبة جنوباً وحتى مدينة رفح بالشمال الغربي على البحر الأبيض المتوسط، ومنها على الساحل الشرقي للبحر المتوسط حتى مدينة طرسوس (حالياً في الحدود التركية).

أما الحدود الشرقية فتبدأ من العقبة في جنوب بلاد الشام حتى تصل إلى مدينة الرحبة، ثم تتجه منحرفة إلى مدينة مرعش، وتتجه غرباً على سفوح جبال طوروس إلى مدينة طرسوس على ساحل البحر الابيض المتوسط.

إلا أن أقصى امتداد لبلاد الشام من الجنوب هو (٨٥٠) كم، وأقصى مدى من الشرق إلى الغرب هو (٣٥٠) كم. ويشكل طول الساحل (٧٥٠) كم. وتقدر مساحتها الإجمالية (٤٠٠٠٠٠) كم<sup>٢</sup>. وجاء في صبح الأعشى تفصيل حدود بلاد الشام مع إشارته لتحديداتها واختلافها مع صاحبي التعريف وتقويم البلدان:

( وقد اختلف في تحديده، فذكر في التعريف أن حده من القبلة إلى البر المقفر: تيه بني إسرائيل (صحراء سيناء) وبر الحجاز والسماوة إلى مرمى الفرات بالعراق. قال: وهذه المحادات كلها من جزيرة العرب.

وحده من الشرق طرف السماوة و الفرات.

وحده من الشمال البحر الرومي.

وحده من الغرب حد مصر المتقدم ذكره. وذكر في تقويم البلدان:

١ . (انظر: الفلقشندي : صبح، طبعة دار الكتب العلمية، ج ٤، ص ٩٤، \_ وانظر عباس (إحسان ) وتاريخ بلاد الشام في عصر المماليك ، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية ١٩٩٨ ص ٥٦. وسيشار إليه باسم عباس : تاريخ بلاد الشام. وانظر أيضاً الشلي بلاد الشام ص ٧٢، - عبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٢٤).



أن حده من أول رفح التي في الجفار بين مصر والشام إلى حدود تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيلة من البلقاء؛ وحدّه من الشرق من البلقاء إلى مشاريق صرخد، آخذاً على أطراف الغوطة، إلى سلمية، إلى مشاريق حلب، إلى بالس؛ وحدّه من الشمال من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم، إلى البيرة، إلى سميساط إلى حصن منصور، إلى بهنسي، إلى مرعش، إلى بلاد سيس، إلى طرسوس، إلى بحر الروم؛ وحدّه من الغرب من طرسوس المذكورة آخذاً على ساحل البحر الرومي إلى رفح المتقدمة الذكر حيث وقع الابتداء.<sup>(١)</sup>

### ثانياً - التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في العصر المملوكي:

تقسم بلاد الشام إلى ست نيابات كبيرة أضيف إليها نيابتان صغيرتان فأصبحت ثمان نيابات. على الشكل التالي:

١. نيابة دمشق: وتسمى أيضاً نيابة الشام أو الممالك الشامية.
  ٢. نيابة حلب.
  ٣. نيابة حماة.
  ٤. نيابة أطرابلس (المحدثة بعد التحرير من الصليبيين).
  ٥. نيابة صفد.
  ٦. نيابة الكرك.
  ٧. نيابة غزة (من النيابات الصغيرة).
  ٨. نيابة القدس (من النيابات الصغيرة).
- ويلاحظ أن كثيراً من المؤلفين لم يعدوا نيابة غزة ونيابة القدس من نيابات الشام، بل تابعتين لنيابات أخرى كما كانت في زمانهم ، وبعضهم اعتبر غزة نيابة ولم يعد القدس نيابة<sup>(٢)</sup>.

### ١. نيابة دمشق:

وتسمى أيضاً الشام فقد قال القلقشندي: (فإذا قال سلطاننا بلاد الشام أو نائب الشام لا يريد به إلا دمشق ونائبها).<sup>(٣)</sup>

اختلفت حدود نيابة دمشق بين الحين والآخر ولو أن هذا الاختلاف كان طفيفاً، تمتد حدودها من قرية الخيارة المجاورة للكسوة (من قرى جنوب مدينة دمشق على الطريق إلى الأردن) جنوب دمشق إلى النبك في الشمال ومن البادية شرقاً حتى الزبداني غرباً. وقد بين القلقشندي حدودها استناداً للتعريف ولما استجد في زمانه فقال:

(وقد ذكر في التعريف أن ولايتها من لدن العريش: حد مصر إلى آخر سلمية مما هو شرق بشمال وإلى الرحبة مما هو شرق بجنوب. قال: وقد أضيف إليها في عهد ابن فضل الله العمري بلاد جعبر،

١. (القلقشندي صبح : طبعة مصر ج ٤ ص ٩٧ )

٢ - ( علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٢٤ - ٢٩، دهمان : ولاية دمشق في عهد المماليك ، ص ١٢، الشلي ص ٧٣ - ١٠٢ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ١٠٢ )

٣. القلقشندي : صبح طبعة لندون ج ٤ ص ٩١. إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ١٠٣ )

وكان من حقها أن تكون مع حلب. وحينئذ فتكون ولايتها مشتملةً على الشام الأعلى المتقدم ذكره وما يليه وما يلي ما يليه، وبعض الشام الأدنى، وليس يخرج عنه من ذلك إلا حماة وما خرج مع صغد وطرابلس والكرك. قال: ويكون في نيابة نائبها نيابة غزة ونيابة حمص وبعض شيء مما يقتضي الحق أن يكون مع حلب).<sup>(١)</sup>

وقد توسعت مدينة دمشق في العصر المملوكي بعد أن نعمت بالاستقرار أثر القضاء على الصليبيين، وشهدت نشوء ضاحيتين جديدتين هما السوق في الجنوب وسوق صاروجة (سوق صاروجة) في الشمال. نسبة إلى الأمير صارم الدين صاروجا الحاكم البندقداري منشئ السوق. كما جرى توسع كبير في منطقة الصالحية .<sup>(٢)</sup>

١ - نيابة دمشق: أربع صفقات، بيّن القلقشندي حدودها ناقلاً عن صاحب التعريف، أن الحدود تبدأ من العريش: على الحدود مع مصر إلى آخر سلمية باتجاه من الشرق إلى الشمال وإلى الرحبة من اتجاه الشرق نحو الجنوب. وقد أضيف إليها إدارياً بلاد جعبر، وهي تشتمل على بر وأربع صفقات (الصفقة تقسيم إداري يأتي جزءاً من النيابة).

أما بر دمشق فهو ضواحي دمشق ويمكن تحديده بقرية الخيارة المجاورة للكسوة وما هو باتجاهها طولاً ومن الشرق الجبال الطوال (المحيطة بالنبك) إلى النبك، حيث تتجه الحدود إلى عسال أو عسان (حسب ياقوت) وما حولها من القرى إلى الزبداني. وبالاتجاه إلى الغرب فيمر خط الحدود إلى القرى المسامطة للخيارة، ويدخل في بر دمشق أيضاً مرج دمشق وغوطتها.<sup>(٣)</sup>

أما صفقاتها فهي أربع صفقات هي:

أ. الصفقة الساحلية والجبلية: وهي الغربية (من دمشق) وسماها صاحب التعريف بالشام الأعلى. ولها جهتان هما:

الجهة الأولى: الساحلية: التي بساحل الروم (شرقي الأبيض المتوسط) وتشمل أربعة أعمال وهي في زمن القلقشندي:

الأول: عمل غزة وأصبحت نيابة مستقلة (كما سنرى).

الثاني: عمل الرملة: يتبعها ميناء يافا.

الثالث: عمل لد.

الرابع: عمل قاقون وهو حصن قرب الرملة.

الجهة الثانية: الجبلية : وسميت كذلك لاشتغالها على الكثير من الجبال ، وبها ثلاثة أعمال وهي:

١ القلقشندي : صبح طبعة الذخائر، ج ٤ ص ٩٧ وانظر أيضاً العمري ( ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى) : التعريف بالمصطلح الشريف تحقيق محمد حسين شمس الدين و دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨ ص ٢٢٥ . ٢٢٦ وسيشار إليه بإسم العمري : التعريف .

٢ - دهمان ( محمد أحمد ) ولاية دمشق في عصر المماليك. دار الفكر دمشق ١٩٨٤ ص ١٥ . ١٦، وسيشار إليه باسم ولاية دمشق في عصر المماليك: دهمان. الشلي ص ٧٣ ، علي : دمشق في عصر المماليك والعثمانيين: ص ٤٥ . ٤٧،

٣ . القلقشندي : صبح، طبعة الذخائر ج ٤ ص ٩٧، الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٤٤ . ٤٥، علي : دمشق بين العهد المملوكي والعثماني ص ٢٤ ، عباس : تاريخ بلاد الشام: ص ٥٦ والعمري : التعريف ٢٢٦ والشلي ٧٣ . ٧٥ والخالدي : المقصد الرفيع ص ١٨٤.

الأول: عمل القدس. التي أصبحت فيما بعد نيابة مستقلة.

الثاني: عمل الخليل (أو بلد الخليل عليه السلام) حيث تبعت القدس إدارياً.

الثالث: عمل نابلس<sup>(١)</sup> حيث تبعت القدس أيضاً.

في التعريف: يسميها الشام الأعلى ويقول أن مدينة غزة أهم بلادها وأن النيابة بها، ولنائبها الحديث فيها، مع مراجعة نائب الشام، وأما الولاية والعزل فلنائب الشام. إلا في «مقرقيتا» و«بيت جبريل» و«الذاروم» فهي تتبع نائب غزة. إلا أن هذا الترتيب قد تبدل بإحداث نيابتي غزة والقدس كما سنرى.<sup>(٢)</sup>

٢. الصفقة القبلية: وهي الجنوبية بالنسبة لمدينة دمشق وتشمل حوران والغور وما يتبع ذلك. وتشمل على عشرة أعمال وهي:

الأول: عمل بيسان وقال في التعريف: «هي مدينة الغور وبها مقر الولاية» وهي في الأرض المحتلة حالياً .

الثاني: عمل بانياس (التابعة للقنيطرة حالياً) وفي مسالك الأبصار هي مدينة الجولان وفيها قلعة (الصيبية التي لا تزال آثارها باقية حتى الآن) ويحدد العريزي ضيع تابعة لبانياس منها كفرلا بوادي كنعان، وجب يوسف، وبيت سابر وبيت جن وهي قرى معروفة حتى الآن.<sup>(٣)</sup>

الثالث: عمل الشَّعْرَا، وحسب التعريف تكون ولايتها حيناً في قرية حان «وحيثاً آخر بقرية» القنيطرة. الرابع: عمل نوى.

الخامس: عمل أذْرَعَات، حسب التعريف، وفيها تكون ولاية الحاكم على مجموع الصفقة. ويقول العريزي أنها مدينة كورة البثنية.<sup>(٤)</sup>

السادس: عمل عَجْلُون بناها أسامة بن المنقذ في زمن صلاح الدين.

السابع: عمل البَلْقَاء.

الثامن: عمل صَرْخَد.

التاسع: عمل بُصْرَى. وهي مدينة حوران كلها. يصفها العريزي بأنها مدينة أزلية مبنية بالحجارة السود مسقفة بها، وبها سوق ومنبر. وهي من ديار بني فزارة وبني مرة وغيرهم. ولها قلعة ذات بناء متين

١ . مركز الدراسات العسكرية : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، دمشق ١٩٩٠ : وفيه مادة بانيا أنها كانت مركز الدفاع الأول عن مدينة 1 دمشق في العصر الصليبي مجلد ٢ ص ٢٢٧٦ ، وسيشار إليه باسم المعجم الجغرافي . علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٣٧ . الشلي ص ٧٦ . العمري : التعريف ص ٢٢٤ . ٢٢٦ ، القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٩٨ . ١٠٠ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٨٥ .

٢ . العمري : التعريف ص ٢٢٦ . ٢٢٧ . وانظر في الصابنة الملل والنحل للشهرستاني مادة الصابنة في الجزء الأول .

٣ . المهلب ( حسن بن أحمد ) الكتاب العريزي المعروف باسم المسالك والممالك ، تحقيق تيسير خلف، دار التكوين دمشق ٢٠٠٦ ص ٦٧ ، وسيشار إليه باسم العريزي .

٤ . العريزي ص ٦٣ .

وبساتين، وبناء قلعتها شبيه ببناء قلعة دمشق. وهي تشتهر حالياً بمسرحها الذي يعود للعصر الروماني ،  
(١)

العاشر: عمل زُرْع وفي التعريف قد يتصل عمل بصرى بأذرعَات لتشابك مزارعهما. (٢)

٣ . الصفة الشمالية: لوقوعها شمال دمشق. وتشتمل هذه الصفة على خمسة أعمال:

الأول . عمل بعلبك. قال العزيزي وهي مدينة جليلة قديمة بها مذبح تقول الصابية «الصابئة» إنه

بيت من بيوتهم عظيم جداً. وهويَني معبد بعلبك وآثارها الشهيرة (٣)

الثاني . عمل البقاع البعلبكي: لقربها من بعلبك وليس لهذا العمل مقر ولاية حسب التعريف.

الثالث . عمل البقاع العزيزي: نسبة إلى الملك العزيز ابن صلاح الدين. وفي التعريف: فمقر الولاية

في كرك نوح، وهاتان الولایتان الآن منفصلتان عن بعلبك ومجموعتان لوال مفرد بذاته. بينما في التعريف:

لبعلبك ولاية خاصة بها مضاف إليها ولايتان هما البقاعان البعلبكي والعزيزي. (٤)

الرابع . عمل بيروت: على ساحل البحر. يصفها العزيزي بأنها مدينة جليلة شرب أهلها من قناة تجر

إليها ولها ميناء جليل. (٥)

الخامس: عمل صيدا: وفي المسالك تضم صيدا نحو ستمائة ضيعة. (٦)

٤ . الصفة الشرقية: لوقوعها شرق دمشق. وهي على ضربين:

الضرب الأول: ما هو داخل في حدود الشام، وهو غربي الفرات، ويشمل خمسة أعمال وهي:

الأول: عمل حمص. ويصفها العزيزي بأنها قصبة الجند وهي من أصح بلدان الشام هواء، وبظاهر

حمص على بعد ميل، يجري النهر المقلوب وهو نهر الأرنت (العاصي بتسمية هذه الأيام). (٧)

الثاني: عمل مصياف: وهي قاعدة قلاع الدعوة «الإسماعيلية».

الثالث: عمل قازا (أو قارة حسب تقويم البلدان).

الرابع: عمل سلمية. يصفها العزيزي أنها تقع على ضفة برية كثيرة المياه والشجر، رخية خصبة. (٨)

الخامس: عمل تدمر. وقال صاحب حماه هي من عمل حمص.

الضرب الثاني: من بلاد الجزيرة بين الفرات والدجلة على القرب من الفرات وهي مدينة الرحبة.

١ . العزيزي ص ٦٨. والقلعة المذكورة جرى هدمها مؤخراً لإظهار مسرح بصرى الروماني المعروف.

٢ . العمري: التعريف ص ٢٢٧. ٢٢٨، القلقشندي: صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٠٣. ١٠٨، الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٨٥. ١٨٧،

علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٨، الشلي: بلاد الشام ص ٧٩. ٨٠.

٣ . العزيزي ص ٦٨. وانظر في الصابئة الملل والنحل للشهرستاني مادة الصابئة في الجزء الأول .

٤ . العمري: التعريف ص ٢٢٩. ٢٣٠.

٥ . العزيزي ص ٨٣.

٦ . العمري: التعريف ص ٢٢٩. ٢٣٠، القلقشندي: صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٠٨. ١١١، الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٨٧. ١٨٨،

علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٩، الشلي: بلاد الشام ص ٧٩. ٨١.

٧ . العزيزي ص ٨٦.

٨ . العزيزي ص ٩٤.

الرحبة: وهي من الثغور الإسلامية في زمن القلقشندي. وتقع على الفرات بين الرقة وعانة وتعرف برحبة مالك بن طوق، أحد قواد هارون الرشيد، وهو أول من عمرها، واليه تنسب. وبحسب السلطان عماد الدين صاحب حماه فقد خربت الرحبة وصارت قرية. إلا أن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي صاحب حمص بنى في جنوبها الرحبة الجديدة على بعد فرسخ من الفرات. <sup>(١)</sup> يقول صاحب التعريف: (وتشمل هذه الصفقة على ولاية «قاراً» وهي قبلي حمص. وولاية مدينة حمص نفسها وولاية سلمية، وولاية تدمر، وهي ما بين القريتين والرحبة وبهذه الصفقة مدينة الرحبة على الفرات). <sup>(٢)</sup>

## ٢. نيابة حلب:

حلب أهم مدن شمال بلاد الشام ، وهي في سهل منخفض من الأرض حمراء التربة. أبنيتها من حجر أصفر، لوجود مقالع الأحجار بقربها. منازلها جميلة حجرية فسيحة وأسواقها واسعة، وفيها الكثير من الخانات والمساجد والزوايا وبها بيمارستان له شهرة كبيرة ، كانت تشرب من نهر قويق ، ومن نهر شقه السلطان محمد بن قلاوون في سلطنته وخلال حكمه في حلب يسمى نهر (الساجور).

وهي أوسع نيابات الشام وأكثرهم بلاداً، متصلة ببلاد سبيس والروم وديار بكر. حدودها حسب صاحب (التعريف في زمانه) فمن القبلية المعرة وما وقع على سمتها إلى الدمنة الخراب والسلسلة الرومية (سلسلة جبال طوروس) ومجرى القناة القديمة بين الحيار وقبة ملاعب، ويحدها من الشرق البر حيث يحد برها آخذاً على جبال الثلج ثم الجلاب على أطراف بالنس إلى الفرات دائرة بحددها. ومن الشمال بلاد الروم مما وراء بهنسى وبلاد الأرمن على البحر الشامي (هكذا قال، إلا أن البحر الشامي (المتوسط) يقع في غربها، كما أدخل في حلب بلاد جعبر وهي ليست منها). <sup>(٣)</sup>

وأعمالها على ثلاثة أقسام:

### - القسم الأول ما هو داخل في حدود بلاد الشام:

وتقسم الى مدينة حلب نفسها والأعمال التابعة لها.

فأما برها فهو ضواحيها. أما أعمالها:

الأول - عمل قلعة المسلمين . المسماة في القديم بقلعة الروم وهي قلعة من جند قنسرين وهي تقع في الجنوبية الغربية من الفرات، في جهة الشمالية الغربية من حلب على نحو خمس مراحل منها، وفي الغرب عن البيرة على نحو مرحلة، وهي من القلاع الحصينة المنيعة ، ولها ربض وبساتين، ويمر بها نهر يعرف بمرزبان يصب في الفرات. قال في التعريف:

١ . القلقشندي : صبح، طبعة الذخائر ج ٤ ص ١١٥.

٢ . العمري : التعريف ص ٢٣١، القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١١٢ . ١١٤، الخالدي المقصد الرفيع ص ١٨٨ . ١٨٩، علبى :

دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٩ . ٤٠، الشلي : الدولة المملوكية ص ٨١ . ٨٣.

٣ - ابن الشحنة (محمود) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، دار الكتاب العربي سورية ١٩٨٤ ص ١٥٨ ويشار إليه باسم ابن الشحنة : الدر المنتخب، الشلي : الدولة المملوكية ص ٨٣ . ٨٥)

وكان بها خليفة الأرمن ولا يزال بها طاغوت الكفر، فقصدها الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون فنزل عليها، ولم يزل بها حتى فتحها، وسماها قلعة المسلمين. قال: وهي من جلائل القلاع. (١)

الثاني . عمل الكُخْتَا . بفتح الكاف وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف في الآخر، والألف واللام فيه غير لازمتين . هي قلعة في أقاصي الشام من جهة شمال شرق حلب، على نحو خمس مراحل منها ، وهي قلعة عالية البناء حصينة، ولها بساتين ونهر، وملطية بعيدة عنها في جهة الغرب على مسيرة يومين؛ وكركر في جهة الشرق منها، وكانت أحد ثغور الإسلام في وجوه التتار عند قيامهم . (٢)

الثالث . عمل كركر بفتح الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف مفتوحة ثانية بعدها راء مهملة ثانية أيضاً، وهي قلعة من أقاصي بلاد الشام في الشمال عن حلب على نحو خمس مراحل أيضاً، وفي الغرب من الكختا المتقدمة الذكر على نحو يوم منها؛ وهي قلعة حصينة يرى الفرات منها كالجدول الصغير، وهو منها في جهة الشرق؛ وكانت من أعظم الثغور في زمان التتار. (٣)

الرابع . عمل بهنسى . بفتح الباء الموحدة والهاء وسكون السين المهملة ثم نون وألف، وهي قلعة في شمالي حلب على نحو أربع مراحل منها، وهي قلعة حصينة مرتفعة ، بها بساتين ونهر صغير وأسواق ورساق متسعة، وبها مسجد جامع. وهي بلدة واسعة، كثيرة الخير والخصب؛ وهي في الغرب والشمال عن عينتاب؛ وبينهما نحو مسير يومين، وبينها وبين سبيس نحو ستة أيام. وهي من الثغور المتاخمة لبلاد الأرمن، والمشتعلة في الحروب؛ حشدت عسكرياً من التركمان والأكراد. ولنائبها مكانة جليلة، وإن كان لا يلتحق بنائب البيرة. (٤)

الخامس . عمل عينتاب . بفتح العين وسكون الياء المثناة تحت والنون وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف وباء موحدة . وهي مدينة من جند قنسرين شمالي حلب على نحو مرحلتين منها؛. وهي مدينة حسنة، واسعة الأرجاء، كثيرة المياه والبساتين، ذات أسواق جليلة مقصودة للتجار والمسافرين؛ وبها قلعة حصينة منقوبة في الصخر. وهي عن حلب في الشمال على نحو ثلاث مراحل منها، وعن قلعة الروم في الجنوب على نحو ثلاث مراحل أيضاً، وعن بهنسى في جهة الشرق والجنوب على نحو ثلاث مراحل. (٥)

السادس . عمل الراوندان . بألف ولام لازمتين وراء مهملة بعدها ألف ثم واو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة ثم ألف ونون . وهي قلعة حصينة من جند قنسرين تقع على جبل مرتفع أبيض، فيها عيون وبساتين وأشجار فواكه، وواد حسن؛ ونهرها من تحتها نهر عفرين متجهاً بالنسبة إليها من الشمال إلى الجنوب، وهي تقع في الشمال الغربي من حلب، وبينهما نحو مرحلتين، وفي الشمال عن حارم. (٦)

١ ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٠، الشلي : بلاد الشام ص ٨٥)

٢ ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٠، الشلي : بلاد الشام ص ٨٥)

٣ ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٠، الشلي : الدولة المملوكية ص ٨٥)

٤ ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: علي ص ٣٠، الشلي : بلاد الشام ص ٨٥ . ٨٦)

٥ ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٣٠، الشلي : بلاد الشام ص ٨٦).

٦ ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٠، الشلي : بلاد الشام ص ٨٦)

السابع . عمل الدَرَبَسَاك . بفتح الدال المهملة وسكون الراء المهملة وفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف وكاف، والألف واللام فيه غير لازمتين . وهي قلعة حصينة من جند قنسرين شمالي حلب على نحو ثلاث مراحل أو أربع منها.. وفيها عيون جارية وبساتين وكذلك من شرقها توجد بساتين واسعة جميلة وكثيرة العشب، وبها مسجد جامع، يمر بها النهر الأسود . (١)

الثامن . عمل بَغْرَاس . بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وراء مهملة وألف ثم سين مهملة. والجاري على ألسنة الناس ضم أوله؛ وهي قلعة من جند قنسرين في الجبل المطل على حارم. وهي ذات أعين وبساتين وأشجار، وبينها وبين الدربساك نحو بعض مرحلة، وهي في جهة الجنوب عن الدربساك. وبينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلاً، وبينها وبين إسكندرونة كذلك، وبينها وبين حارم نحو مرحلتين. وبغراس في الجنوب عن دربساك وبينهما بعض مرحلة، وحارم في جهة الشرق عنها. كانت لمسلمة بن عبد الملك ( ابن مروان اخ سليمان بن عبد الملك ومن قادة الجيش حاصر القسطنطينية ) وقفها في سبيل البر ، وكانت هي الثغر في تجاه الأرمن حتى استضيفت الفتوحات الجاهانية . ويتبعها رصص وهي جزء من أجزائها. ورُصَص المذكورة براء مهملة مضمومة وصادين مهملتين الصاد الأولى مفتوحة، وهي بلدة على الساحل. (٢)

التاسع . عمل القُصير تصغير قصر. قال في مسالك الأبصار: وهي قلعة غربي حلب على نحو أربع مراحل منها.

العاشر . عمل الشَّغَر وبكاس . اسمان لقلعتين قريبتين من بعضهما البعض.

فالشَّغَر . بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم راء مهملة.

وبكَّاس . بفتح الباء الموحدة والكاف ثم ألف وسين مهملة في الآخر.

وهما من جند قنسرين ، وهما مبنيان على جبلٍ مستطيل، وتحتهما نهر يجري، وبهما بساتين وأشجار وفواكه كثيرة، ولهما رستاق ومسجد جامع. وهما تقعان الى الجنوب من أنطاكية وبينهما الجبال. ويصفهما ابن الشحنة بأنهما قلعتان قريبتان حصينتان من النواحي الغربية .

والشَّغَر قلعة صغيرة قريبة من بكاس يعبر من أحدهما إلى الأخرى بجسر وهما على جانب نهر العاصي، وكانتا بيد الإفرنج فتحهما صلاح الدين. (٣)

الحادي عشر . عمل شَيْزَر (٤) بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الزاي المعجمة وفي آخرها راء مهملة. وهي مدينة من جند حمص في الجنوب الغربي من حلب على نحو ثلاث مراحل

١ ( علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٠، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٢٢، الشلي ص ٨٦ )

٢ . ( ابن الشحنة : لدر المنتخب ص ٢٢١، علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٠، الشلي ص ٨٦ . ) والفتوحات الجاهانية نسبة لنهر جيحان بتحويل للفظ سما حسب القلقشندي السلطان الأشرف لنيابة سيس بعد ان ضم اليها طرسوس وأدنة وإياس من بلاد الأرمن بين حلب والساحل .

٣ . (علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣١، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٧٥ . ١٧٦، الشلي : بلاد الشام ص ٨٦ )

٤ . ورد اسمها في رقم تل العمارنة باسم سينزار ودعاها اليونانيون لاريسا فتحها المسلمون سنة ١٧هـ.

منها، وهي مدينة ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة وأكثرها الرمان، ولها ذكر في شعر امرئ القيس مع حماة. قال في العزيري: (مدينة جليلة يشقها النهر المقلوب عليه القنطرة كثيرة الفواكه مخصبة وبينها وبين حماة تسعة أميال، وبينها وبين حمص ثلاثة وثلاثون ميلاً، وبينها وبين أنطاكية ستة وثلاثون ميلاً، ولها سور من لبن ولها ثلاث أبواب والعاصي يمر بها مع السور من شماليها).<sup>(١)</sup>

الثاني عشر . عمل حجر شُغلان بلفظ حجر واحد الحجارة وإضافته إلى شغلان بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم لام وألف ونون. وهي قلعة شمالي حلب على نحو ثلاث مراحل منها. وهي بالقرب من بغراس في جهة الشمال على مسافة قريبة جداً.

الثالث عشر . عمل قلعة أبي قُبَيْسٍ . بهمزة مفتوحة وباء موحدة مكسورة بعدهما ياء ساكنة ثم قاف مضمومة وباء موحدة مفتوحة وياء مثناة تحت ساكنة ثم سين مهملة في الآخر . وهي قلعة حصينة غربي حلب مما يلي الساحل، على نحو ثلاث مراحل قصيرة من حلب، وقد استقرت ولايةً أحياناً، وربما أضيفت إلى غيرها. وتقع على سفح واد عميق في السفوح الشرقية لجبال اللاذقية وقد لعبت دوراً مهماً في زمن الحروب الصليبية.<sup>(٢)</sup>

الرابع عشر . عمل قلعة حارم . بجاء مهملة مفتوحة وألف ثم راء مهملة مكسورة وميم في الآخر . وهي قلعة حصينة في جهة الغرب من حلب على نحو مرحلتين منها، ذات بساتين وأشجار، وبها نهر صغير وبينها وبين أنطاكية مرحلة.

الخامس عشر . عمل كُفْرطاب . بفتح الكاف وسكون الفاء وراء مهملة ثم طاء مهملة بعدها ألف وباء موحدة . على إضافة كُفْرٍ إلى طاب. وأصله من الكفر بمعنى التغطية، والمراد مكان الزرع والحرث لتغطية الحب بالزراعة كما في قوله تعالى: «كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته»<sup>(٣)</sup> «يريد الزراع» ، وهي بلدة صغيرة من جند حمص غربي حلب، على نحو ثلاث مراحل منها، على الطريق بين المعرة وشيزر . وبينها وبين المعرة وشيزر اثنا عشر ميلاً.

السادس عشر . عمل فَامِيَة بفتح الفاء وألف بعدها ثم ميم مكسورة وياء مثناة تحت وهاء في . الآخر . قال في المشترك: ويقال لها أفامية بهمزة في أولها يعني مفتوحة. وهي مدينة من أعمال شيزر، غربي حلب، على نحو أربع مراحل منها. قال في العزيري: وكورة فامية لها مدينة كانت عظيمة قديمة، على نشر من الأرض، ولها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب (العاصي) . أفامية الآن مدينة أثرية جرى العمل في إعادة ترميمها وما زال<sup>(٤)</sup>.

١ . العزيري ص ٩٤ رممها قلاوون سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م . وانظر أيضاً - جود الله (فاطمة) سورية نبع الحضارات ، دار الحصاد ودار الكلمة، دمشق ٢٠١٠ ص ٦٢٢، ٦٢٥، ويشار إليه باسم جود الله : سورية نبع الحضارات. المشاهد والآثار ص ٢٨٩، الشلي : بلاد الشام ص ٨٦.

٢ . (المعجم الجغرافي مجلد ٢ ص ٣٨ . ٣٩، الشلي ص ٨٧)

٣ . (سورة الحديد الآية ٥٧)

٤ . وقد كانت عاصمة سورية الشمالية في زمن السلوقيين، وآثارها الآن التي يجري ترميمها تشهد على عظمتها. لم يذكر الخالدي صاحب المقصد الرفيع المنشأ . وشيزر من أعمال حلب. علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٠، الشلي : بلاد الشام ص ٨٧)



السابع عشر . عمل سَرْمِين . بفتح السين وسكون الراء المهملتين وكسر الميم ثم ياء مثناة تحت ساكنة ونون بعدها. وهي مدينة في الجنوب الغربي من حلب على نحو مرحلتين صغيرتين منها، وهي غير مسورة؛ وبها أسواق ومسجد جامع؛ وشرب أهلها من الماء المجتمع في الصهاريج من الأمطار، وهي كثيرة الخصب، وبها الكثير من شجر التين والزيتون، وهي في جهة الجنوب الغربي عن حلب على مسيرة يوم منها وعملها متسع.

ومن مضافاتها مدينة الفُوعَة بضم الفاء وفتح العين المهمة. وهي مدينة على القرب من سرمين في الغرب منها. (١)

الثامن عشر . عمل الجَبُول . بفتح الجيم وضم الباء الموحدة المشددة ثم واو ساكنة ولام في الآخر . وهي بلدة شرقي حلب على نحو مرحلة كبيرة منها، وهي بالقرب من الفرات .

التاسع عشر . عمل جبل سمعان وهي في جهة الشمال من حلب على يوم منها.

العشرون . عمل عَزَاز . والجاري على الألسنة أعزاز \_ بهمة مفتوحة في أولها وسكون العين والزاي الأخيرة في الوقف؛ وهي بلدة تقع شمال شرق حلب على نحو مرحلة منها. وهي مدينة عظيمة عامرة وقد كثر بناؤها واتسع وعمرت قلعتها. (٢)

الحادي والعشرون . عمل تل باشر . بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام ثم فتح الباء الموحدة وألف بعدها شين معجمة مكسورة وراء مهملة في الآخر . وهي حصن شمالي حلب على مرحلتين منها بالقرب من عينتاب وهي ذات مياه وبساتين. تشرب من نهر الساجور ولها قلعة معمورة. (٣)

الثاني والعشرون . عمل مَنَبَج . بفتح الميم وسكون النون وفتح الباء الموحدة وفي آخرها جيم وهي بلدة من جند قنسرين شرقي حلب على نحو مرحلتين منها. بناها بعض الأكاسرة الذين غلبوا على الشام وسماها منبه فعربت منبج، وكان بها بيت نارٍ للفرس، وهي كثيرة القني والبساتين، وغالب شجرها التوت، وأكثرها خراب.

الثالث والعشرون . عمل تِيزِين . بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وكسر الزاي المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر . وهي بلدة صغيرة من أعمال حلب في جهة الغرب على نحو مرحلة منها. (٤)

الرابع والعشرون . عمل الباب و«بُزَاعِي» أو «بَزَاعَا». وضبط الباب معروف، وبزاعا بضم الباء الموحدة وفتح الزاي المعجمة وألف بعدها عين مهملة وألف مقصورة في الآخر. كذا ضبطه في تقويم البلدان: والجاري على الألسنة بإبدال الألف في آخره بهاء. وهما بلدتان متقاربتان، من جند قنسرين على مرحلة من حلب على الجهة الشمالية الشرقية. وأما بزاعا فضيعة من أعمال الباب. وكانت بزاعا ذات

١ . ( ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٤، المعجم الجغرافي مجلد ٤ ص ٤٩٠، الشلي : بلاد الشام ص ٨٧ )

٢ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٨، الشلي : بلاد الشام ص ٨٧ )

٣ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٦٩، الشلي : بلاد الشام ص ٨٧ )

٤ . (ابن الشحنة : المنتخب ص ٢٢٢، الشلي : بلاد الشام ص ٨٨ )

حصن مانع وله خندق وآثاره باقية وكان الروم قد استولوا عليه حرباً سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ . ١٣٣٧ م ثم عادوا إليها بعد عام فاستولوا عليها صلحا ولكنهم غدروا بأهلها وأجبروهم على التتصر، واستعادها عماد الدين زنكي سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م وخرب الحصن. أما الباب: فبليدة صغيرة. قال في تقويم البلدان: بها مشهد به قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وبها أسواق وحمام ومسجد جامع، وبها البساتين الكثيرة والمنتزهات وهي أكثر عمارة من بزاعا وكان فيها مغاور تعصم أهلها من العدو. وقد كثرت عمارتها حتى أصبحت مدينة كبيرة . (١)

الخامس والعشرون . عمل دَرَكُوش: بفتح الدال وسكون الراء المهملتين وضم الكاف وسكون الواو وشين معجمة في الآخر. وهي بلدة على النهر العاصي غربي حلب على نحو ثلاث مراحل منها، وأكثر زرع أرضها العنب. وبها قلعة منيعة استولى هولاكو على قلاع الشام ما عداها لم يستطع الوصول إليها. (٢)

السادس والعشرون عمل أنطاكية: وهي مدينة كبيرة شمال غربي حلب على نحو مرحلتين منها. وهي قاعدة بلاد العواصم. وهي مدينة عظيمة قديمة، على ساحل بحر الروم، بناها بطليموس الثاني من ملوك اليونان، وقيل بناها ملكٌ يقال له أنطاكين فعرفت به<sup>(٣)</sup>، ولها سورٌ عظيم من صخر ليس له نظير في الدنيا مساحة دوره اثنا عشر ميلاً. وعدد شرفاته أربع وعشرون ألفاً، وعدد أبراجه مائة وستة وثلاثون برجاً. وهي أنزه بلاد الشام بعد دمشق، ويمر بظاهرها العاصي والنهر الأسود مجموعين، وتجري مياههما في دورها ومساكنها ومسجدها الجامع، وهي مركز الكرسي البطرقي الأرثوذكسي. وقد قيل في قوله تعالى: «وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين<sup>(٤)</sup>» إنها أنطاكية وأن ذلك الرجل هو حبيب النجار وقبره بها مشهور يزار. وميناء أنطاكية يدعى السويدية. يقع عند مصب نهر العاصي. ونقل ابن الشحنة عن ابن شداد أنها تسمى دمشق الصغرى لكثرة ما فيها من سائر الفواكه. (٥)

## القسم الثاني من أعمال حلب :

### بلاد الأرمن:

قال في التعريف في مكاتبة متملك سيس: وهذه البلاد منها بلادٌ تسمى العواصم، ومنها بلادٌ كانت تسمى قديماً بالثغور، سميت بذلك لمتاخرتها الروم، وإلى مثل ذلك أشار في تقويم البلدان أيضاً.

١ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٧٢ . ١٧٤، الشلي : بلاد الشام ص ٨٨)

٢ . (الشلي : بلاد الشام ص ٨٨)

٣ . وهو الملك سلوقس نيكاتور أحد قواد الإسكندر الأكبر، مؤسس الأسرة والامبراطورية السلوقية والذي حكم سورية والشرق الأوسط حتى الهند. اسس مدينة أنطاكية سنة ٣٠٠ ق.م ودعاها أنطاكية نسبة إلى أبيه أنطيوخوس، وجعلها عاصمة دولته. عبد الملك ( د. بطرس ود. الكساندر طمسن، تحرير والأستاذ إبراهيم مطر) قاموس الكتاب المقدس: دار مكتبة العائلة الطبعة الثالثة عشر بيروت ٢٠٠٠ قاموس الكتاب المقدس مادة انطاكية.

٤ . سورة يس الآية ٢٠.

٥ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١١٦ . ١٣١، الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٨٦ . ١٩٣. ابن الشحنة : الدر المنتخب ص

١٦٦، الشلي : بلاد الشام ص ٨٨

فالعواصم بفتح العين المهملة والواو وكسر الصاد المهملة وميم في الآخر . وهي اسم للناحية وليست موضعاً بعينه يسمى العواصم.

والثغور جمع ثغر وهو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو وثغور الشام المعروفة هي أدنة وطرشوس وما معهما، ولكن استولى عليها الأرمن.

وكان هارون الرشيد في سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦ م عزل الثغور كلها من الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة إدارية واحدة وسماها العواصم.

وحدها من القبلية الجنوب بلاد بغراس وما يليها؛ وحدها من الشرق جبال الدربندات؛ وحدها من الشمال بلاد ابن قرمان؛ وحدها من الغرب سواحل الروم المفضية إلى العاليا وأنطاليا. ويشتمل على عدة نيابات، بعضها ذكره في التعريف وبعضها استجد بعد ذلك، وهي:

#### أولاً - الأعمال الكبار وهي صفتان جبلية وساحلية:

##### فأما الجبلية، فثلاثة أعمال:

الأول . عمل مَلْطِيَّة وهي مدينة تقع شمالي حلب بميلة إلى الشرق على نحو سبع مراحل منها. وهي قاعدة بلاد الثغور . وهي بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار، وهي مسورة في بسيط من الأرض والجبال ، ولها نهر صغير يمر بسورها، ولها قني تدخلها وتجري في دورها إلا أنها شديدة البرد، وهي في شمالي الجبل الدائر الذي بيسيس في غربيه في الجنوب عن سيواس، وبينهما نحو ثلاث مراحل، وفي الغرب عن كختا وبينهما نحو مرحلتين. وكان إسمها القديم مالاطيا وهي غنية كان فيها إثنا عشر ألف نول تعمل الصوف. وكانت مجال تداول في امتلاكها بين الروم والمسلمين ثم احتلها التتار وتم فتحها على يد الأمير تتكز نائب دمشق سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م، وتبعت حلب وبها نائب من قبل السلطان له فخامة ويعد من أكبر نواب ملوك الأطراف. (١)

الثاني . عمل دَرَنْدَة . بفتح الدال والراء المهملتين وسكون النون وفتح الدال الثانية وهاء في الآخر، وهي مدينة في جهة الغرب عن ملطية على نحو مرحلة، ذات بساتين وأنهار وعيون ماء تجري، وبينها وبين حلب نحو عشرة أيام. (٢)

الثالث . عمل دَبْرَكِي بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وكسر الكاف وياء مثناة تحت في الآخر. وقد يقال دوركي بإبدال الباء واوًا. وهي مدينة في جهة الشمال والغرب من حلب، على نحو عشر مراحل منها، بها بساتين وأشجار، وبينها وبين حلب نحو اثني عشر يوماً. (٣)

##### وأما الساحلية، فإن بها خمسة أعمال:

الأول . أَيْاس . بفتح الهمزة الممدودة والياء المثناة تحت ثم ألف وسين مهملة في الآخر. وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر ، وبينها وبين بغراس المتقدم ذكرها مرحلتان. قال في التعريف: وقد

١ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٩٥ . ١٩٨، الشلي : بلاد الشام ص ٨٩)

٢ . (الشلي : بلاد الشام ص ٨٩)

٣ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٣١ . ١٣٢، الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩، الشلي : بلاد الشام ص ٩٠.

جعلت نيابةً جلييلة نحو حمص، وجعل أمرها إلى نائب الشام، ثم جعلت إلى نائب حلب، وهي المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية إضافة إلى نهر جاهان المجاور لها، وهو جيحان المتقدم ذكره. وكانت استعادتها من الأرمن في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون في سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة / ١٣٣٧ . ١٣٣٨ م، ولذلك قال في التعريف: والعهد بفتحها قريب.

الثاني . عمل طَرْسُوس . بفتح الطاء والراء المهملتين جميعاً وضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية والجاري على الألسنة سكون رائها، وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل بحر الشام بالشمال الغربي من حلب، مسورة، بناها الرشيد في سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م، وأكملها في سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٩ م<sup>(١)</sup>، ولها خمسة أبواب: باب الجهاد، وباب الصفصاف، وباب الشام، وباب البحر، والباب المسدود. والنهر يشق في وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد. وهي في غاية الخصب، وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين الروم والمسلمين، وبها دفن المأمون بن الرشيد، وكانت استعادتها من الأرمن في الدولة الناصرية حسن بن محمد بن قلاوون. بينها وبين أدنة ستة فراسخ يشقها نهر البردان وتبعد عن البحر اثني عشر ميلاً. <sup>(٢)</sup>

الثالث . عمل أدنة . بهمة ودال مهملة ونون مفتوحات وهاء في الآخر. وهي من بناء الرشيد. قال ابن حوقل: وهي مدينة حصينة عامرة، وبينها وبين طرسوس ثمانية عشر ميلاً. ونقل ابن الشحنة أن أدنة مدينة من بناء الروم وجددت عمارتها في زمن العباسيين. وهي مدينة حصينة منعطفة على نهر سيحون من غربيها ولها قنطرة عجيبة البناء طويلة جداً على طاق واحد. <sup>(٣)</sup>

الرابع . عمل سِرْفَنْدَكَار . بكسر السين وسكون الراء المهملتين وفتح الفاء وسكون النون وفتح الدال المهملة والكاف ثم ألف وراء مهملة . هكذا ضبطه صاحب حماة، ثم قال: وقد يجعل موضع الفاء واواً فيقال سرونديكار والموجود في الدساتير إسفنديكار بهمة في الأول وسقوط الراء الأولى؛ وهي قلعة من بلاد الأرمن في واد على صخر، وبعض جوانبها ليس له سور للاستغناء عنه بالصخر، وهي على القرب من نهر جيحان من البر الجنوبي، في الشرق عن تل حمدون على نحو أربعة أميال.

الخامس . عمل سِيس بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت ثم سين مهملة ثانية ، ووقع في كلام صاحب كمال الدين بن العديم أن اسمها سيسة بإثبات هاء في آخرها، وكلامه في العزري يوافقه. وهي قاعدة بلاد. وهي بلدة كبيرة ذات بساتين وأشجار، ولها قلع حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل، بناها بعض خدام الرشيد وهو الذي سماها. وكانت قاعدة الثغور الشمالية وبينها وبين

---

١ . يبدو أن الرشيد أعاد بناءها فقد ذكرت أيام شلمناصر الأشوري ملك آشور سنة ٨٣٣ ق.م، وكانت عاصمة كيليكيا منذ سنة ٦٤ ق.م وكان فيها ثالث مدرسة في العالم اليوناني بعد اثنا والإسكندرية. وهي مسقط رأس بولس الرسول وذكرت في الكتاب المقدس عدة مرات . انظر قاموس الكتاب المقدس مادة طرسوس.

٢ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٣ . ١٨٤، الشلي : بلاد الشام ص ٩٠ .)

٣ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٠ . ١٨١، الشلي : بلاد الشام ص ٩٠ .)

المصيصة أربعة وعشرون ميلاً، وكانت استعادتها من الأرمن في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين. وكانت سيس في أعقاب الفتح نيابة مستقلة، ثم صارت مقدمة عسكر مضافة إلى حلب. (١)

#### ثانياً - الأعمال الصغار ببلاد الأرمن:

وهي ثلاثة عشر عملاً لثلاثة عشر قلعة، لم تجر العادة بمكاتبة أحد من نوابها عن الأبواب السلطانية، ذكر بعضها في التعريف وبعضها في التثقيف وبعضها في غيرهما من الدساتير.

الأول . عمل قلعة باري كروك بفتح الباء الموحدة وألف بعدها راء مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة ثم كاف مفتوحة وراء مهملة وواو ساكنة ثم كاف في الآخر. وهي قلعة على رأس جبل بالقرب من طرسوس في الشمال، على نحو نصف مرحلة ، استجبت في سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م. وافتتحها بيدمر الخوارزمي نائب سيس في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون.

الثاني - عمل كاؤرا بفتح الكاف وبعدها ألف وواو وراء مفتوحة مشددة وألف في الآخر. وهي قلعة في الشمال عن آياس على جبل مطل على البحر الرومي على نحو ساعة. استجبت سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ . ١٣٦٨ م.

الثالث - عمل كولاك بفتح الكاف وسكون الواو ولام ألف بعدها كاف ثانية. وهي قاعدة على رأس جبل في الشمال عن طرسوس على نحو مرحلة يسكنها طائفة من التركمان.

الرابع عمل كرزال بكاف مكسورة وراء مهملة ساكنة وزاي معجمة مفتوحة وبعدها ألف ثم لام. وهي قلعة صغيرة على رأس جبل بالقرب من كولاك المتقدم ذكرها على نحو مرحلة. استجبت في سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م .

الخامس - عمل كومي بضم الكاف وسكون الواو وكسر الميم وياء مثناة تحت في الآخر. السادس - عمل تل حمدون بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام وفتح الحاء المهملة وإسكان الميم وضم الدال المهملة وسكون الواو ونون في الآخر. وهي قلعة ببلاد الأرمن. كانت قبل أن يخربها المسلمون قلعة حصينة حسنة البناء على تل عال، ولها سور مانع وربض وبساتين ونهر يجري، وعلى القرب من جيحان في جهة الجنوب على نصف مرحلة، وبينها وبين آياس نحو مرحلة، وبينها وبين سيس نحو مرحلتين.

السابع . عمل الهارونيتين : وهما حصنان بناهما هارون الرشيد. و الهارونية مدينة صغيرة اختطها هارون الرشيد بالثغور في طرف جبل اللكام. والهارونية آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالحدود الجزرية، وبينها وبين الكنيسة السوداء اثنا عشر ميلاً. ولم يذكر ابن الشحنة سوى هارونية واحدة وقال هي حصن صغير بناه هارون الرشيد سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م. (٢)

١ . (الشلي ص ٩٠ . ٩١)

٢ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٨٦، شلي : بلاد الشام ص ٩١)

الثامن - عمل قلعة نَجْمَة بفتح النون وسكون الجيم وفتح الميم وهاء في الآخر. وهي قلعة على القرب من الفرات، بينها وبين جسر منبج خمسة وعشرون ميلاً. قال في تقويم البلدان: وهذه القلعة في السحاب. قال: وكان يقال لذلك المكان حصن منبج فصارت تعرف بقلعة نجمة. ثم قال: وهي من بناء السلطان محمود بن زنكي. قلت: وفي التعريف ما يقتضي أنها من جملة بناء المأمون. قال ابن الشحنة أن اسمها قلعة نجم، وهي ما تعرف فيه الآن، وصفت على أنها نجم في سحاب وعقاب في عقاب وهامة لها الغمامة عمامة. وكانت تعرف قديماً باسم جسر منبج وهي قلعة حصينة. (١)

وهي مدينة قديمة على شاطئ الفرات وتعتبر مركزاً للتجارة التي ترد من مصر وسائر أرض الشام في السفن إلى بغداد. (٢)

التاسع - عمل قلعة حميمص. وهي قلعة خراب صغيرة بالقرب من نهر جيحان.  
العاشر . عمل قلعة لؤلؤة . وهي قلعة شمالي كولاك استعادها العثمانيون من الأرمن.  
الحادي عشر - عمل قلعة تامرون شمالي طرسوس، بيد عيسى بن ألاس البرسقي التركماني.  
الثاني عشر - عمل سنياط شمالي طرسوس. كانت داخل المملكة استولى عليها ابن قرمان في أيام المنصور بن الأشرف شعبان.  
الثالث عشر - عمل بلسيوس: غربي طرسوس على ساحل البحر، بيد حسن بن قوسي البرسقي التركماني. (٣)

### ثالثاً - البلاد المجاورة للفرات:

من شرقيه من بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة؛ وهي ثلاثة أعمال:  
الأول . عمل البيرة بكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الراء المهملة وألف في الآخر. وهي قلعة في البر الشرقي في الشمال عن الفرات، في الشرق عن قلعة الروم على نحو مرحلة والفرات بينهما. وقد عدها في تقويم البلدان من جند قنسرين من أعمال الشام، وهي قلعة ذات ارتفاع وحصينة لا ترام. ولها سوق وعمل. وقلعتها على صخرة لها منعة وعسكر.  
الثاني . عمل قلعة جُغْبَرٍ . بفتح الجيم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدة وراء مهملة في الآخر. وهي قلعة من ديار بكر في البر الشمالي الشرقي من الفرات أيضاً، وكانت هذه القلعة تعرف قديماً بالدوسرية نسبة إلى دوسر: عبد النعمان بن المنذر، وهو الذي بناها أولاً لما جعله النعمان على أفواه الشام، ثم تملكها سابق الدين جعبر القشيري في أيام الملوك السلجوقية فعرفت به، ثم انتزعها منه السلطان ملكشاه السلجوقي. قال صاحب حماة: وهي في زماننا خراب ليس بها ديار. قلت: وذلك أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ثم عمرت بعد ذلك في آخر الدولة الناصرية أو بعدها بقليل؛ وقد أشار إلى ذلك في التعريف حين تعرض لذكرها في آخر مضافات الشام قبل ذكر حلب بقوله: وهي مجددة البنيان،

١ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٢٩ . ٢٣٠، الشلي : بلاد الشام ص ٩١)

٢ . (ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٥٩)

٣ . القلقشندي : صبح ذخائر ج ٤ ص ١٣٣ . ١٣٧، الخالدي : المقصد الرفيع ١٩٣ . ١٩٥، الشلي : بلاد الشام ص ٩١.

مستجدة الآن، لأنها جددت منذ سنوات، بعد أن طال عليها الأمد، وأخنى عليها الذي أخنى على لبد. وكان قد ذكر قبل ذلك في الكلام على تقاسيم الشام أنها مضافة إلى دمشق ثم قال: وحققا أن تكون مع حلب، وقد صارت الآن من مضافات حلب. (١)  
الثالث . عمل الرها (٢).

وهي مدينة تقع في الجهة الشمالية الشرقية من نهر الفرات وتحوي آثاراً عظيمة تعود للعصر الروماني كثيرة المياه والخضرة . وكان عليها في العصر المملوكي سور من حجارة، ولها أربعة أبواب: باب حران، والباب الكبير، وباب سبع، وباب الماء .  
وكان بها كنيسة عظيمة، وفيها أكثر من ثلاثمائة دير للنصارى. وقد تهدمت في حقبة الدولة الناصرية، ثم عمرت بعد ذلك وأصبحت عامرة أهلة. (٣)

### ٣ . نيابة أطرابلس :

#### أولاً - حاضرتها:

وهي بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة ولام مضمومتين وسين مهملة في الآخر. وقد تسقط الألف منها فرقاً بينها وبين طرابلس التي في الغرب.  
وسميت أطرابلس لأن فيها ثلاث مدن (٤). وهي مدينة ساحلية ؛ وكانت في الأصل من بناء الروم فلما فتحها المسلمون في سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م في عهد السلطان قلاوون ، خربوها وعمرها مدينة على نحو ميل منها وسموها باسمها، وهي الموجودة الآن؛ وهي مدينة متمدنة كثيرة الزحام؛ بها مساجد، ومدارس، وزوايا، وبيمارستان، وأسواق جليلة، وحمامات ؛ بناؤها بالحجر والكلس المبيض ظاهر بيوتها وباطنها، وغوطتها محيطة بها، ؛ وتسقى من نهر يأتي من الجبال التي تحيط بها وميناها من الموانئ الهامة في بلاد الشام في تجارة البحر الأبيض المتوسط حيث ترسو بها مراكب الأوربيين ، وتباع بها بضائعهم . (٥)

#### ثانياً - نواحيها وأعمالها:

يحد أطرابلس من الجنوب جبل لبنان ممتداً على ما يليه من مرج الأسد، حيث يمتد النهر العاصي؛ وحدها من الشمال قلاع الدعوة؛ وحدها من الغرب البحر ، وحدها من الشرق الجبال.  
وأعمالها على قسمين:

#### القسم الأول الأعمال الكبار: التي يكتب نوابها عن الأبواب السلطانية وهي على ضربين:

- ١ . (المعجم الجغرافي مجلد ثاني ص ٦٧٦، الشلي : بلاد الشام ص ٩٢)
٢. بضم الراء المهملة وفتح الهاء وألف في الآخر .
- ٣ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٣٧ . ١٣٩، الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩٥، الشلي : بلاد الشام ص ٩٢ . ٩٣ .
- ٤ . وهو الصحيح فهي من تري بوليس أي المدن الثلاث.
- ٥ . العمري : التعريف ص ٢٣٥، القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٤١، الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩٥ . ١٩٦، الشلي : بلاد الشام ٩٤ . ٩٥ .

## ١ - مضافاتها نفسها وهي :

عمل حصن الأكراد: (أي قلعة الحصن) ؛ وهي قلعة من جند حمص، قال في العريزي: وبينها وبين أنطربوس اثنتي عشر ميلاً<sup>(١)</sup>.

٢ - قلاع الدعوة : سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية من الشيعة المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية؛ وهؤلاء هم المعروفون في ديوان الإنشاء بالقصاد، وبين العامة بالفداوية؛ وهي سبع قلاع منيعة حصينة ، عظيمة الشأن، رفيعة المقدار؛ لا تسامى منعة ولا ترام حصانة، وكانت أولاً كلها مضافة إلى أطرابلس ثم نقلت مصياف منها إلى دمشق. وهي ستة أعمال:

الأول عمل الرصافة: بألف ولام لازمتين في أولها وراء مهملة مضمومة وصاد مفتوحة بعدها ألف ثم فاء وهاء، وهي قلعة بالقرب من مصياف تبعد عنها مسافة ست كيلومترات على طريق وادي العيون، وفي بادية الشام بلدة تعرف برصافة هشام، على أقل من مسافة يوم من الجانب الغربي من الفرات.<sup>(٢)</sup> الثاني عمل الخوابي: بفتح الخاء المعجمة والواو ثم ألف وباء موحدة مكسورة وياء في الآخر. وهي قلعة في جهة الشمال من أطرابلس على نحو مرحلتين، من منطقة تل كلخ التابعة حالياً لحمص.<sup>(٣)</sup> الثالث عمل القدموس: بفتح القاف والذال المهملة وضم الميم وسكون الواو وسين مهملة في الآخر، وهي قلعة بالقرب من الخوابي .

الرابع عمل الكهف: بفتح الكاف وسكون الهاء وفاء في الآخر. وهي قلعة بالقرب من القدموس على نحو ساعة ، تقع على جبل مرتفع عال يرى على بعد. من منطقة الشيخ بدر التابعة حالياً إلى طربوس.<sup>(٤)</sup>

الخامس عمل الميمنة: بفتح الميم وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون والقاف وهاء في الآخر، وهي قلعة بالقرب من الكهف على نحو ساعة على جبل مرتفع أيضاً. السادس عمل العليقة، بضم العين المهملة وفتح اللام المشددة وسكون الياء المثناة تحت وفتح القاف وهاء في الآخر. وهي قلعة على الجبل المذكور على نحو ساعة من الميمنة.

## القسم الثاني الأعمال الصغار:

وهي ستة أعمال:

---

١ العمري: التعريف ص ٢٣٥، القلقشندي: صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٣٩ . ١٤٠، الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٩٥ . ١٩٦، علبى: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٣ . ٣٤، الشلي: بلاد الشام ص ٩٥ . ٩٦.  
٢ . المعجم الجغرافي مجلد ٣ ص ٤٩٢)  
٣ . المعجم الجغرافي مجلد ٣ ص ٢٨٦)  
٤ . المعجم الجغرافي مجلد ٥ ص ٨٧



الأول عمل أنطَرطُوس: بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء المهملتين وضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر. وهي بلدة بالساحل. وهي ثغرٌ لأهل حمص فتحها المسلمون وخربوا أسوارها، ثم أعيد بناؤها. وكان بها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه.

الثاني عمل جُبَّة المُنَيظرة بإضافة جبة بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وتاء التأنيث إلى المنيطرة بضم الميم وفتح النون وسكون الياء المثناة تحت وفتح الطاء المعجمة والراء المهملة وهاء في الآخر. وتتبع انطَرطُوس على الساحل الشامي .

الثالث عمل الظَنِين . بألف ولام لازمتين وطاء معجمة مفتوحة مشددة ونون مشددة مكسورة وياء مثناة تحت مكسورة بعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون، وهي كورة بين مصياف وفامية، وليس بها مقر ولاية.

الرابع عمل بُشْرِيَه: بضم الباء الموحدة وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة المشددة وسكون الياء المثناة تحت وهاء في الآخر ، والجاري على الألسنة بشراي بإبدال الهاء ياء مثناة تحت. وتبعد سبع كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من القرداحة. (١)

الخامس عمل جَبلة: بفتح الجيم والباء الموحدة واللام ثم هاء في الآخر، وهي بلدة صغيرة بساحل البحر الشامي. ولها أعمال واسعة، وبينها وبين اللاذقية اثنا عشر ميلاً، وبينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعين ميلاً، وبها مقام إبراهيم بن أدهم. (وهو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور البلخي الزاهد أصله من بلخ وانتقل للشام مرابطاً ومات غازياً في بلاد الروم سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م . انظر ترجمته في كتاب الأنساب للسمعاني مادة بلخ )

السادس عمل أنفة: بفتح الهمزة المقصورة والنون والفاء وبهاء في الآخر . وهي بلدة على البحر الشامي تردها المراكب بقلة. (٢)

#### ٤ . نيابة حماة:

##### أولاً - في حاضرتها:

حماة مدينة قديمة ذكرت في العصور الآشورية وذكرت في التوراة<sup>(٣)</sup>، وهي على ضفة العاصي متينة البناء، ولها سورٌ جليل، وبيوت ملوكها وشرفاتها مطلة على النهر العاصي؛ وبها القصور الملكية، والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسواق . وبها قلعة مبنية بالحجارة الملونة؛ وبها نواكير مركبة على العاصي، تدور بجريان الماء، فترفع الماء إلى الدور السلطانية ودور الأمراء والأكابر والبساتين ؛ وقد نبه ذكر حماة خصوصاً في العصر الأيوبي وبجهود ملوكها من بني أيوب الذين

١ . المعجم الجغرافي مجلد ٢ ص ٣١٥

٢ . العمري : التعريف ص ٢٣٥ . ٢٣٦ ، القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٤٧ . ١٤٩ ، الخالدي المقصد الرفيع ص ١٩٦ . ١٩٨ ، الشلي : بلاد الشام ص ٩٦ . ٩٨ .

٣ . ذكرت عدة مرات في التوراة في سفر الإخبار الثاني وصموئيل الثاني وفي سفر الملوك الثاني وجرت بين أهلها واليهود معارك كثيرة واشتركت في معركة قرقر إلى جانب دمشق ضد شلمنصر الثالث ملك آشور انظر قاموس الكتاب المقدس مادة حماة.

أقاموا الأبنية العظيمة، والقصور الفائقة، والمساكن الفاخرة، ؛ وعظموا أسواقها وزادوا في غراسها، وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه إلى أن اكتملت محاسنها، وصارت معدودة من أمهات المدن الأيوبية<sup>(١)</sup>

### ثانياً - في نواحيها وأعمالها:

حدها من القبلية مدينة الرستن وما سامتها أخذاً بين سلمية وقبة ملاعب، إلى حيث مجرى النهر والآثار القديمة؛ وحدها من الشرق البر أخذاً على سلمية إلى قبة ملاعب؛ وحدها من الشمال آخر حد المعرة ، وحدها من الغرب مضافات مصياف وقلاع الدعوة؛ وليس بها نواب قلاع البتة ولها ثلاثة أعمال: الأول . عمل برها: وهو ظاهرها وما حولها.

الثاني . عمل بَارِين: بفتح الباء الموحدة وألف بعدها وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر . وهي بلدة على مرحلة من حماة في الجنوب الغربي منها

الثالث . عمل المَعْرَة<sup>(٢)</sup>: . وهي مدينة من جند حمص وتعرف بمعرة النعمان نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه. وهي مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثمار والخصب، وشرب أهلها من الآبار. وللمدينة سور محكم ولها سبعة أبواب منها: باب حلب، والباب الكبير، وباب شيث، وباب الجنان، وباب حمص، وغير ذلك. ويقال أن قبر شيث بن آدم عليه السلام عند الباب المنسوب إليه فيها، ودخلها قبر يوشع بن نون عليه السلام، وعلى ميلٍ منها دير سمعان الذي به قبر عمر بن عبد العزيز . .<sup>(٣)</sup>

### ٥ . نيابة صَفْد (صفت) :

وهي قسمان :

القسم الأول - حاضرتها: وهي بفتح الصاد المهملة والفاء وتاء مثناة فوق في آخرها. والمشهور على ألسنة الناس إبدال التاء دالاً مهملة؛ وهي مدينة من جند الأردن. وهي بلدة متوسطة بين الكبر والصغر، كان مكانها أولاً قرية . وأصل الصفت في لغتهم العطية، سميت بذلك لأن الفرنج أعطتها للطائفة الداوية منهم لا يشاركون فيها أحد. وقد تكون سميت بذلك أخذاً من الصغد، وهو الغل لأن صاحب الغل يمتنع من الحركة ويلزم موضعه، وكذلك هذا البلد لأنها في جبل عال لا يتمكن ساكنه من الحركة في كل وقت، وأبنيتها منتشرة، على ثلاثة جبال، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي لقلة الماء بها وسوء بناء حماماتها، وبساتينها تحتها في الوادي إلى جهة طبرية، وكل ما يوجد في دمشق يوجد فيها: إما من

١ . العمري : التعريف ص ٢٣٥، القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٤١، الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩٥ . ١٩٦، الشلي : بلاد الشام ص ٩٣.

٢ . بفتح الميم والعين المهملة ثم راء مهملة مشددة مفتوحة وهاء في الآخر.

٣ . العمري : التعريف ص ٢٣٥، القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٣٩ . ١٤٠، الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٩٥ . ١٩٦، قاموس الكتاب المقدس : مادة حماة . المعجم الجغرافي مجلد ٥ ص ٣٠٧، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٣، الشلي : بلاد الشام ص ٩٣ . ١٩٤).

بلادها، وإما مجلوب إليها من دمشق؛ ونيابتها نيابة جليلة ونائبها من أكبر الأمراء المقدمين؛ ولها قلعة حصينة ذات بساتين تشرف على بحيرة طبرية، يحف بها جبال وأودية.

ولهذه القلعة نائب مستقل من قبل السلطان يولى من الأبواب الشريفة بمرسوم شريف؛ وعادته أن يكون من أمراء الطبلخاناه، ولا حكم لنائب السلطنة بالبلد عليه بل هو مستقل بنفسه كما في نائب قلعتي دمشق وحلب<sup>(١)</sup>

### القسم الثاني : في نواحيها وأعمالها:

حدها من الجنوب الغور حيث جسر الصنبرة من وراء طبرية؛ وحدها من الشرق الملاحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حولة بانياس؛ وحدها من الشمال نهر ليطاء، وحدها من الغرب البحر. وليس في أعمالها نيابة أصلاً. وقد ذكر لها في مسالك الأبصار أحد عشر عملاً:

الأول . عمل برها: ويضم برها نحو سبع وثلاثين ضيعة. <sup>(٢)</sup>

الثاني . عمل الناصرة: بالآلف واللام اللزمتين ونون مفتوحة بعدها ألف ثم صاد مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر، وهي بليدة على ثلاثة عشر ميلاً من طبرية. في منطقة الجليل الأعلى ، ويقال إن المسيح عليه السلام ولد بها، وأهل القدس ينكرون ذلك ويذكرون أنها (السيدة مريم) ولدت به بالقدس، والمعروف أن أمه حين عادت به من مصر إلى الشام وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة نزلت به القرية المذكورة ، ويتبعها تسع قرى. <sup>(٣)</sup>

الثالث عمل طبرية: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وكسر المهملة وفتح الياء المثناة تحت وتشديدها وهاء في الآخر: وهي مدينة من جند الأردن بناها طبريون أحد ملوك اليونان البطالسة<sup>(٤)</sup>. فعرفت به ثم عربت طبرية، والنسبة إليها طبراني للفرق بينها وبين طبرستان من نواحي بلاد الشرق حيث ينسب إليها طبري؛ وهي في الغور في سفح جبل. وكان يتبعها قديماً السواد وبيسان ثم خرجا عنها. وكانت تضم في أقصى اتساعها الجغرافي تسعاً وعشرين قرية. <sup>(٥)</sup>

الرابع . عمل تبنين وهونين . يعطف الثاني على الأول. فأما تبنين، فبتاء مثناة فوق مكسورة وباء موحدة ساكنة ونون مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة ونون في الآخر. وأما هونين، فبهاء مضمومة وواو ساكنة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ساكنة ونون في الآخر، وهما حصنان بنيا بعد الخمسمائة

١ . العثماني: تاريخ صفد ص ١١٦ ، دار التكوين دمشق ٢٠٠٩. الطراونة ( طه ثلجي ) مملكة صفد في عهد المماليك ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١ ص ٨٤ . ٩٠ . وسيشار إليه باسم الطراونة : مملكة صفد. الشلي : بلاد الشام ص ٩٨ . ٩٩ )

٢ . الطراونة : مملكة صفد: ص ٩٠ . ٩٥ )

٣ ( الطراونة : مملكة صفد: ص ١٢٠ . ١٢١ -، الحميري ( محمد بن عبد المنعم ) الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق د. إحسان عباس طبعة مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠ ص ٥٧١ وسيشار إليه باسم الحميري : الروض المعطار، الشلي : بلاد الشام ص ٩٩ )

٤ بناها هيرودوس انتيباس سنة ٢٦ م وسماها على اسم الحاكم آنذاك الإمبراطور طيباريوس قيصر وقد ذكرت مرة واحدة في انجيل يوشع . انظر قاموس الكتاب المقدس مادة طبرية.

٥ . ( الحميري : الروض المعطار ٣٨٥ . ٣٨٦ ، الطراونة : مملكة صفد: ص ١٣٠ .، العثماني: تاريخ صفد ص ١٢٣. ١٢٥، الشلي : بلاد الشام ص ٩٩ )

هجريّة / ١١٠٦ م ، بين صور وبانياس بجبل عاملة (من) جبال الشام المشهورة، وتقع تبينين على بعد ٢٠ كم إلى الشرق من صور أما هونين فتقع مقابل بانياس على بعد ثلاثة فراسخ منها أي حول ٢٤ كم. ويتبع هذه الولاية نحو اثنين وثلاثين ضيعة. (١)

الخامس - عمل عثليث: بفتح العين المهملة وإسكان الثاء المثناة وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وطاء مثناة في الآخر، وهي كورة بين قاقون وعكا، عرفت أيضاً باسم الحصن الأحمر. فيها قرى متسعة وليس بها مقر ولاية، وقاقون وهو آخر الأعمال الصفدية. وهي تضم ثماني عشر ضيعة أهمها حيفا مرفأها الرئيس. (٢)

السادس - عمل عكا: بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وألف في الآخر، وهي مدينة من سواحل الشام. بناها عبد الملك بن مروان، ثم غلبت عليها الفرنج، ثم انتزعها منهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم غلبوا عليها ثانياً، ثم استرجعت. وقد خربت بعد أن استرجعها المسلمون من الفرنج في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م في الدولة الأشرفية خليل بن قلاوون؛ وبها مسجد ينسب لصالح عليه السلام، وبينها وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً، وكانت هي قاعدة هذا الساحل قبل صفد. فلما خربت أقيمت صفد مقامها وصارت هي ولاية. ويتبعها سبع وعشرون ضيعة. (٣)

السابع - عمل صور: بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر، وهي مدينة قديمة وبناؤها من أعظم أبنية الدنيا؛ وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر؛ فلما فتحها المسلمون في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م مع عكا خربوها خوفاً أن يتحصن بها العدو. ويقال إنها أقدم بلد بالساحل، وإن عامة حكماء اليونان منها (٤). قال الشريف الإدريسي: وكان بها مرسى، يدخل إليه من تحت قنطرة عليها سلسلة تمنع المراكب من الدخول. وصفها الحميري بأنها من بلاد الشام البحرية بها دار الصنعة ومنها تخرج مراكب السلطان وهي حصينة جليّة قريبة من عكا وهي أنظف من عكا سككاً ويضرب بها المثل في الحصانة. ويتبعها سبع وعشرون ضيعة وبلدة. (٥)

الثامن - عمل الشاغور: بألف ولام لازمتين وشين معجمة مشددة مفتوحة بعدها ألف ثم غين معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة وراء مهملة في الآخر. وهي كورة بين عكا وصفد والناصر؛ بها قرى متسعة، وليس بها مقر ولاية. ويتبعها ست عشر ضيعة. (٦)

١. ( الطراونة مملكة صفد: ص ٩٥ . ١٠٠ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١١٨ . ١١٩ ، الشلي : بلاد الشام ص ٩٩ )

٢. ( الطراونة : مملكة صفد ص ١٢٢ . ١٢٦ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١٢١ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٠ )

٣. ( الطراونة : مملكة صفد ص ١١٠ . ١١٥ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١٢٠ . ١٢١ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٠ )

٤. صور اسم سامي يعني صخر وهي مدينة فينيقية أسست نحو عام ٢٧٥٠ ق م وقد ذكرت في الكتاب المقدس كثيراً. وحكماء اليونان الذين ذكرهم الفيلسوفيندوني إنما هم آراميون كتبوا وعاشوا في ظل الحكم اليوناني الإغريقي. انظر معجم الكتاب المقدس ، مئة أوائل من تراثا سهيل زكار واحمد غسان سبانو طبعة دار حسان ١٩٨٨ مواد العلماء في الفترة اليونانية والبيزنطية .

٥. ( الحميري : الروض المعطار ص ٣٦٩ ، الطراونة مملكة صفد: ص ١٠٠ . ١٠٤ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١١٩ . ١٢٠ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٠ )

٦. ( الطراونة مملكة صفد ص ١١٦ . ١١٨ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١٢٣ ) .

التاسع - عمل الإقليم: بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر، وهي كورة بين دمشق والشعر والخربة، بها قرى متسعة وليس بها مقر ولاية، ويتبع الإقليم ست قرى. (١)

العاشر - عمل الشقيف: بفتح الشين المعجمة وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحت ثم فاء، ويعرف بشقيف أرثون بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو ثم نون في الآخر، وهو حصن بين دمشق والساحل، بعضه مغارة منحوتة في الصخر، وبعضه له سور. وهو في غاية الحصانة وعلى القرب منه شقيف آخر يعرف بشقيف تيرؤن بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون في الآخر، وهي قلعة حصينة من جند الأردن على مسيرة يوم من صفد في جهة الشمال. ويتبعها أربع وثلاثون ضيعة. (٢)

الحادي عشر - عمل جينين: بجيم مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة ونون مكسورة ومثناة تحت ثانية ساكنة ونون في الآخر، وهي بلدة قديمة متسعة، تقع على سفح واد لطيف به نهر ماء يجري؛ وهي في الشمال عن قاقون على نحو مرحلة، في رأس مرج بني عامر، وبها مقام دحية الكلبي: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أعمالها اللجون: بفتح اللام المشددة وضم الجيم المشددة. وهي قرية قديمة في جهة الغرب عن بيسان، على نصف مرحلة منها؛ وباللجون مقام الخليل عليه السلام. وكان معها قديماً السواد وبيسان وخرجا عنها، ثم حيفا، وهي خراب على الساحل، وقلعة كوكب، وهي التي يقول فيها العماد الأصفهاني: راسية راسخة، شماء شامخة. وقلعة الطور وهي مفردة على جبل الطور؛ بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غلبه عليها الفرنج فهدمها. (٣)

## ٦. نيابة الكرك:

وهي قسمان : حاضرتها ونواحيها:

أولاً. حاضرتها: وهي بفتح الكاف والراء المهملة ثم كاف ثانية، والألف واللام في أولها غير لازمتين. وتعرف بكرك الشوبك لمقاربتها لها. وهي مدينة محدثة البناء كانت ديراً للرهبان، ثم كثروا فكبروا بناءه وأوى إليهم من يجاورهم من النصارى، فقامت لهم به أسواق وجرت لهم فيه معاش، وأوت إليه الفرنج فأداروا أسواره فصارت مدينة عظيمة، ثم بنوا به قلعة حصينة من أجل المعادل وأحصنها، وبقي الفرنج مستولين عليه حتى فتحه صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد أخيه العادل أبي بكر. وهو بلد خصب، بواديه حمام وبساتين كثيرة وفواكه مفضلة.

١. (الطراونة مملكة صفد ص ١٠٩. ١١٠، الشلي: بلاد الشام ص ١٠٠)

٢. (الطراونة مملكة صفد: ص ١٠٥. ١٠٩، العثماني: تاريخ صفد ص ١١٨. ١١٩، الشلي: بلاد الشام ص ١٠١)

٣. (الطراونة مملكة صفد: ص ١٢٦. ١٢٨، العثماني: تاريخ صفد ص ١٢١، الشلي: بلاد الشام ص ١٠١)

## ثانياً . نواحيها وأعمالها:

حدّها من الجنوب عقبة الصوان؛ وحدّها من الشرق بلاد البلقاء؛ وحدّها من الشمال بحيرة سدوم؛ وحدّها من الغرب صحراء سيناء . ولها أربعة أعمال:

الأول . عمل برها المختص ببلادها كما في غيرها من القواعد المتقدمة.

الثاني . عمل الشوبك . بألف ولام لازمتين وفتح الشين المعجمة المشددة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وكاف في الآخر ، وهي من جبل الشرة، وهي بلدة صغيرة ذات عيون وجداول تجري، وبساتين وأشجار، وفواكه مختلفة. ولها قلعة مبنية بالحجر الأبيض على تل مرتفع أبيض مطل على الغور من شرقه. وينبع من تحت قلعتها عينان: إحداها عن يمينها والأخرى عن يسارها كالعينين للوجه يجريان للبلد، ومنهما شرب أهلها وبساتينها. وكانت بأيدي الفرنج مع الكرك وفتحت بفتحها، وأقطعها السلطان صلاح الدين مع الكرك لأخيه العادل فأعطاها لابنه المعظم عيسى؛ فاعتنى بأمرهما وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في بساتينها وتدفق أنهارها وتزيد بطيب مائها. ولها عملاق آخران.

الثالث عمل زُغَر: بضم الزاي وفتح الغين المعجمتين وفي آخرها راء مهملة، وهي مدينة قديمة متصلة بالبادية سميت بزغر بنت لوط عليه السلام.

الرابع عمل مُعَان: بضم الميم وفتح العين المهملة وألف ثم نون. قال ابن حوقل: وهي مدينة صغيرة كان يسكنها بنو أمية ومواليهم. قال في مسالك الأبصار: وقد خربت هي وعملها ولم يبق بها أحد، وتعرف بمعان بن لوط عليه السلام ، وبينها وبين الشوبك مرحلة. (١)

## ٧ - نيابة غزة:

يتبع نيابة غزة ستة أعمال وهي:

أولاً . عمل الرملة أنشأها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. يتبعها ميناء يافا الساحلي على بعد ستة أميال من غزة.

ثانياً . عمل اللد: وهي تقع شرق الرملة على بعد ثلاثة فراسخ.

ثالثاً . عمل قاقون وتبعد عن اللد مسيرة يوم.

رابعاً . عمل القدس: وتشمل عمل المدينة وما حولها حتى نهر الأردن، وإلى مدينة الرملة ومن البحر الشامي «المتوسط» إلى مدائن لوط. وقد انفصلت عن غزة وأصبحت نيابة مستقلة.

١ . العمري : التعريف ص ٢٣٧ . ٢٣٨ ، القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٥٦ . ١٥٧ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٠٠ .

٢٠١ ، علي دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٥ ، الشلي : بلاد الشام ١٠١ . ١٠٢ .

خامساً . عمل الخليل: ولكنها ضمت لنيابة القدس بعد انفصالها عن غزة.  
سادساً . عمل نابلس: كذلك ضمت لنيابة القدس. (١)

## ٨ . نيابة القدس:

أحدثها السلطان الصالح إسماعيل سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م وأضاف إليها ولاية القدس والخليل ونابلس وقاقون ولُد والرملة ونظر الحرم القدسي:  
عمل القدس: وتشمل عمل المدينة وما حولها حتى نهر الأردن، وإلى مدينة الرملة ومن البحر الشامي «المتوسط» إلى مدائن لوط. وهي تضم مقدسات الأديان الثلاث.  
ويتبعها خمسة أعمال :  
أولاً . عمل الخليل: كما تسمى بيت حبرون.  
ثانياً . عمل نابلس: وهي مدينة من جند فلسطين فيها ماء جار، وفيها بئر يعقوب عليه السلام. (٢)  
ثالثاً . عمل الرملة أنشأها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. يتبعها ميناء يافا الساحلي على بعد ستة أميال من غزة.  
رابعاً . عمل اللد: وهي تقع شرق الرملة على بعد ثلاثة فراسخ.  
خامساً . عمل قاقون وتبعد عن اللد مسيرة يوم.

---

١ . عاشور ( د. سعيد عبد الفتاح ) العصر المماليكي في مصر والشام: دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢١٩ ويشار إليه باسم عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ، زعرور ( ابراهيم ) الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي ص ٤١، العزيزي ص ١٠٢ .  
٢ . (عاشور العصر المماليكي في مصر والشام: ص ٢١٩ . زعرور الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي ص ٤١، العزيزي ص ١٠٢ )

## الفصل الرابع

### الإدارة المملوكية في بلاد الشام



## الإدارة المملوكية في بلاد الشام

### آ - دواوين الدولة المملوكية :

كان تنظيم الإدارة في الدولة المملوكية يعتمد على وجود إدارة مركزية للدولة بيدها كل السلطات والمراكز الإدارية العليا التي يرتبط بها كافة الإدارات في النيابات سواء في مصر أو بلاد الشام . فيكون تنظيم الدولة مكوناً من :

١ - الإدارة المركزية وهي في قلعة الجبل ( داخل الحضرة السلطانية ) .

٢ - الإدارة المحلية خارج قلعة الجبل ( خارج الحضرة السلطانية ) وهي تنقسم الى :

آ - الإدارة في مصر ونيابة الإسكندرية .

ب - الإدارة في نيابات بلاد الشام .

ج - الإدارة الملحقة بالدولة المملوكية في الحجاز واليمن .

ضمت الإدارة المملوكية دواوين كثيرة، اختلفت هذه الدواوين باختلاف المهمات التي أوكلت إليها، وكانت هذه الدواوين بالغالب في قلعة الجبل، ويكون لكل ديوان فروع في النيابات تقوم بإجراء العمل الموكل للديوان في النيابة، وتكون تلك الفروع متصلة بالفرع المركزي.

فقد كانت هناك دواوين تتعلق بالسلطان منها ما هو خاص بالدولة. وللوزير ديوان ولكبار الأمراء دواوينهم ولأمير الأمراء ديوان، ودواوين لنواب النيابات ولأستادار ديوان وهكذا.

حتى إن بعض الحريم كان لهم ديوان، مثل ديوان الخاتون ست الشام بنت أيوب وكان لها من يتولى هذا الديوان، وفعلت حريم السلاطين وأمراء المماليك مثل تلك الدواوين، كذلك لأوقاف السلاطين والأمراء والحريم دواوين خاصة بذلك. وكان لأبناء السلطان دواوين مثل ديوان أبناء السلطان الناصر محمد، وكان للبيمارستانات دواوين. وكان للأشراف ديوان.

ومن دواوين الدولة المملوكية ورد ذكر ديوان الجيش وديوان الإقطاع وديوان النظر وديوان مستخرج الدولة وديوان المرتجع وديوان بيت المال، وديوان المواريث بأنواع مختلفة، منها ديوان الحشوية الذي ينظر بميراث من يموت ولا وارث له أو من يموت وله وارث لا يستغرق ميراثه التركة<sup>(١)</sup> وديوان الحوالي، وديوان الزمام، وغير ذلك. وهناك دواوين أقل أهمية مثل ديوان الإهراء وهي شؤون الغلال السلطانية، وديوان الطواحين حيث يتولى صاحبه طحن الغلال، وديوان المرتجعات الذي يشرف على الأمور الخاصة بتركات الأمراء<sup>(٢)</sup> كذلك هناك دواوين تلحق بدواوين أكبر منها مثل ديوان الإسطبلات، وديوان الخزانة وديوان العمائر وديوان المستأجرات.

١ . القلقشندي : صبح طبعة مصر ج ٤ ص ٣٣ .

٢ . القلقشندي : صبح طبعة مصر ج ٤ ص ٣٣ .

ومن هذه الدواوين ما بقي وكان للديوان نشاطه الدائم والمستمر، ومنها ما كان مؤقتاً سواء لفترة معينة، أو لمناسبة، أو لتحصيل ضريبة معينة ينتهي الديوان بانتهاء السبب. أو يجري ضم أعمال ديوان لديوان آخر، أو يجري الاستغناء عن الديوان نهائياً.<sup>(١)</sup>

ونأتي على أهم الدواوين التي غالباً ما يكون مركزها الرئيس في قلعة الجبل وتكون مثيلاتها في النيابات على نظامها نفسه ولكن بشكل أصغر وأكثر محلية، وتبقى التبعية والاتصال الدائم مع الإدارة الرئيسية في قلعة الجبل.

#### ب - طبيعة الحكم والإدارة في بلاد الشام :

لعبت بلاد الشام دوراً بارزاً في حياة الدولة المملوكية، فلم تكن الشام مجرد إقليم بل كانت الذراع اليمنى للسلطنة، والبعد الجغرافي والحامية للجهة الشمالية للسلطنة التي واجهت الحروب الصليبية وغارات المغول. تبع ذلك خطر الأرمن والعثمانيين. وسبق ذلك أنها كانت ساحة الصراع مع الأيوبيين، الذين اغتصب المماليك منهم الحكم. إذ كانت الشام سبباً سمح للحكم المملوكي بالاحتفاظ بسلطته وكيانه طويلاً.

وبالوقت نفسه كانت الشام، البعيدة نسبياً عن مركز السلطنة، والتي تمتد على مساحة كبيرة، وتتشارك حدودها مع الدول المعادية للمماليك، كانت من أكثر المناطق التي تنمو فيها حركات العصيان والتمرد والانفصال، من قبل أمراء المماليك أنفسهم، ومن قبل النواب.

وكانت بلاد الشام مركز تسلط أمراء أو سلاطين سابقين للوصول للحكم أو العودة إليه بعد خلع أو إبعاد. كما كانت مسرح صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة. حيث استفاد برقوق من موقعها وتشابك ارتباطات الأمراء فيها للوصول إلى الحكم والعودة له بعد إبعاده، وفي تأسيس دولة المماليك الثانية الجركسية.

وقد أدرك المماليك قوة وضعف الوضع في بلاد الشام لذلك اتبعوا في تقسيمها الإداري منهجاً خاصاً متأنياً. وأعطوا نائب الشام مركزاً كبيراً هاماً وسلطة على باقي نواب الشام.

كانت موافقة الشام ودمشق خصوصاً على انتخاب أو إعطاء الشرعية والولاء للسلطان الجديد تعني الكثير لسلاطين المماليك. من ذلك ان السلطان بيبرس الجاشنكير لما اعتلى العرش سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ . ١٣٠٩ م لم يتمالك نفسه بعد أن حلف له نواب الشام من القول «الآن تم لي الملك»<sup>(٢)</sup> وكان السلاطين حين اعتقالهم العرش يسارعون لإبلاغ نواب الشام الخبر بانتظار تأييدهم الذي يثبت أو ينقض توليهم السلطة في أغلب الأحيان.

١ . حسن (علي إبراهيم ) تاريخ المماليك البحرية وخاصة في عصر الناصر محمد بوجه خاص ، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٥٩، ويشار إليه باسم حسن تاريخ المماليك البحرية.

٢ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢.

إلا أن هذا لا يمنع من أن أمراء الممالك في مصر والشام كانوا يقدمون المساعدات والدعم لبعضهم البعض في حالات الخطر والتهديد ويتناسون الخلافات فيما بينهم. (١)

### ج - نيابات الشام :

بتاريخ تحرر بعض النيابات من الاحتلال الصليبي، وكان تأسيس نيابة الكرك مبعثه أهميتها الخاصة كونها ملتقى الطرق بين مصر والشام والحجاز، وموقعها العسكري الإستراتيجي أثناء الحروب الصليبية.

وأصبحت الكرك نيابة سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م في عهد السلطان بيبرس. وأصبحت صفد نيابة سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م في عهد الظاهر بيبرس أيضاً. وتأخرت نيابة أطرابلس لتكون نيابة حتى تم تحريرها من الصليبيين سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م على عهد السلطان قلاوون.

أما حماه فقد أقر السلطان برقوق بقاء سلطة ملكها الأيوبي فيها وأقره على حكمها. وبقيت حماة مملكة أيوبية خاضعة للسلطان المملوكي حتى وفاة ملكها المؤيد آخر ملوكها الأيوبيين سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م، لتصبح نيابة مملوكية، في عهد المنصور أبي بكر. (٢)

أما نيابة غزة فقد تأخر تكوينها كنيابة مستقلة إدارياً في العصر المملوكي إذ كانت تابعة لدمشق، إلا أن دور دمشق في النزاعات التي وقعت بين الأمراء المماليك في الفترة الواقعة بين وفاة السلطان قايتباي سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ووصول السلطان الغوري للحكم سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م. ودورها في عملية تنصيب السلطان جعل السلطان الغوري بعد اعتلائه الحكم يقوم بفصلها عن دمشق وإعطائها صفة النيابة التي تتبع السلطان مباشرة، مع إعطاء نائب دمشق إشرافاً أدبياً عليها. وبذلك تصبح غزة النيابة السابعة في بلاد الشام في العصر المملوكي المتأخر. (٣)

ونتيجة القدس كانت من النيابات الصغيرة التابعة لدمشق، خلا بعض الفترات التي عوملت كنيابة مستقلة ولها إضافاتها. وحسب القلقشندي فإن نيابة في القدس استحدثت في سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م (٤) وقد اقتضت الظروف الخاصة ببلاد الشام التي حوت مناطق حدودية كثيرة شكلت ثغوراً للسلطنة، كما ضمت موانئ وقلاعاً هامة، أكسبتها ظروفًا خاصة. اقتضى ذلك أن تنقسم كل نيابة إلى عدد من الأقسام والنيابات الصغيرة. أطلق عليها القلقشندي تعبير «النيابات الصغار». (٥)

١. عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٢١٩ . ٢٢١.

٢. القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ١٢ ص ٦، عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٣٠٦.

٣. علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٣٣٢.

٤. ( الخالدي : القصد الرفيع ص ٢٧٥ وفيه يذكر نقلاً عن التتقيف أن السنة كانت ٧٦٧ هـ).

٥. المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ و٧٤٧، عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٣٠٥.

## ج - الإدارة في نيابات الشام :

ونبحث في نيابات بلاد الشام أولاً ثم نلحق البحث بدراسة موجزة عن القبائل البدوية العربية والقبائل التركمانية نظراً لخصوصية الإدارة فيهما .

### أولاً: نيابة دمشق:

وهي أكبر وأهم نيابات الشام وأطلق عليها القلقشندي اسم «نيابة الشام» أو «مملكة الشام» ووصفها بأنها (أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة).<sup>(١)</sup>

كان لدمشق وضعها الخاص فهي حلقة الاتصال بين الشام ومصر، ولها صلاتها الكبيرة مع آسيا ومع أوروبا سياسياً واقتصادياً، ومرفؤها «مرفأ بيروت» يعد ثاني مرفأ في السلطنة المملوكية بعد الإسكندرية. وفيها تمر الطرق التجارية البرية مع دول الشرق والغرب.

وكان يطلق على دمشق تسمية الشام في العصر المملوكي؛ فإذا قيل: الشام أو نائب الشام انصرف الأمر لدمشق وحدها. بينما سميت بلاد الشام بالبلاد الشامية.<sup>(٢)</sup>

### - الإدارة في النيابات والولايات التابعة لدمشق:

#### الوظائف الإدارية بدمشق:

كانت النيابات بشكل عام تمثل مملكة مصغرة مستقلة تماثل نظام الحكم في مصر. فالنائب يقوم بتنظيم الدواوين الحكومية والموظفين الذين يشغلون مناصبها. كما للنائب حاشيته ومماليكه وأتباعه، لذلك كان كل نائب يعد سلطاناً مصغراً في نيابته، ولكنه تابع للسلطان في مصر. وحتى لهم حق صك النقود، ولكنها تكون حاملة اسم السلطان. مثل النقود التي صكت في دمشق وحماه وطرابلس وغيرها.<sup>(٣)</sup>

ووظائف نيابة دمشق كوظائف الديار المصرية هي: وظائف عسكرية (أرباب السيوف)، ووظائف إدارية (أرباب الأقاليم)، ووظائف دينية (أرباب العمام)

#### أولاً - الوظائف العسكرية من أرباب السيوف:

وهي تشابه الوظائف العسكرية بالحضرة السلطانية في كثير منها.

وهي عدة وظائف أهمها:

#### ١. نائب السلطنة:

وهو يحكم بدمشق وما يتبعها من ريف ومن نيابات صغرى، مثل القدس وصرخد وعجلون وبعلبك وحمص ومصياف والرحبة، وكانت غزة تابعة لدمشق قبل أن تصبح نيابة مستقلة. أما الولايات التابعة لدمشق فهي: الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقارا وغيرها.<sup>(٤)</sup>

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٨٠ و ١٨٤.

٢ . ( العمري : التعريف ص ٢٢٥).

٣ . حسن : تاريخ المماليك البحرية: ص ٢١٨ . ٢١٩.

٤ .. الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢١٩ . ١٢٢٩، حسن : تاريخ المماليك البحرية: ص ٣٠٦ . ٣٠٧.

وعادة لا يجري اختيار نائب الشام إلا من الأمراء الذين يثق فيهم السلطان كثيراً، ويتوسم فيهم الإخلاص والحكمة والدراية، من الذين تفرسوا في الخدمة في نيابات أخرى أقل أهمية من نيابة الشام كنيابة حلب أو أطرابلس أو صفد.

وتعتبر وظيفة نائب الشام من أرفع الوظائف وأعلاها في السلم الوظيفي، لذلك كانت عملية عزل نائبها تعني نهاية حياته السياسية، وتكون سبباً لثورته أو محاولة الانفصال، وحتى المطالبة بالعرش، خصوصاً أن ذلك يتم في حالة وصول أمير جديد إلى السلطة بشكل مفاجئ، إذ ربما يرى نائب دمشق أحقيته بالمنصب. ولا يعادل منصب نائب الشام إذا عزل أو نقل إلا أن ينقل ليكون وزيراً أو أتابكاً للعسكر في القاهرة أو دوداراً للسلطان. إلا أنه في هذه الحالة يكون تابعاً للسلطان ويفقد نفوذه الشخصي وحرية العمل التي كسبها في موقعه في نيابة دمشق.<sup>(١)</sup>

ونياحة السلطنة فيها تعتبر أهم وأعلى سلطة من نيابات بلاد الشام وأرفعها في الرتبة، ونائبها يعادل في المرتبة النائب الكافل بالحضرة السلطانية في الرتبة والألقاب والمكاتب، ويعبر عنه في المكاتب السلطانية وغيرها بـ «كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس» ويكتب له من الأبواب السلطانية «تقليد شريف» من ديوان الإنشاء، وهو قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته. فيكتب عنه التواقيع الكريمة، ويكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند، التي ترسل إلى الأبواب الشريفة ليطلع عليها السلطان ويقرها، فيشملها الخط الشريف السلطاني، وهو يصدر كل ما يتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد المفوض إليه من السلطان.

ويتبع له ناظر البيمارستان النوري بدمشق، كما يكون ناظر البيمارستان المنصوري بالقاهرة مع أتابك العساكر، وكذلك يتبع له ناظر الجامع الأموي على أهمية مركز الجامع الأموي في العالم الإسلامي. وقد شغل منصب نائب دمشق في العصر المملوكي ثمانية وسبعون نائباً حكم بعضهم عدة مرات مثل (بيدمر الخوارزمي) الذي حكم ست مرات آخرها سنة ٧٨٣ هـ/١٥٠٤ م. وأمير علي المارديني الذي حكم ثلاث مرات.

أما مدة حكمهم فتتراوح بين من عزل قبل أن يدخل المدينة، وهو سودون العجمي سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م ومن حكم مدة طويلة مثل تنكز الذي حكم مدة تسع وعشرين سنة، وبعضهم حكم عدة شهور وأكثرهم بمعدل سنتين.

وقد انتهت نيابة بعضهم بالعزل، وآخرين انتهت بالقتل أو السجن مثل سنجر الحلبي، وطبيرس الوزيري، وأيدمر الظاهري، وتنكز، وبلغا اليحياوي وغيرهم.

وكان يسبق النائب إلى دمشق متسلمه الذي كان يمهّد له الأمور، ويقوم باستقباله مع كبار الموظفين، ثم يخلع عليه كل من القاضي الحنفي والشافعي ونائب القلعة والحاجب ثم يباشر الحكم بانتظار النائب.

١. علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٣٥، ٣٦، عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٣٠٦، ٣٠٧.

وتجري الاستقبالات والاحتفالات الرسمية والشعبية عند وصول النائب الذي يلبس خلعة النيابة بحضور السلطان في القاهرة أو ترسل إليه إلى دمشق فيخرج إلى قبة يلبغا بظاهر دمشق، وعادة لا يدخل النائب إلى دمشق ما لم تصله الخلعة التي تعتبر تأكيداً على تعيينه. وعندما يصل إلى القبة يكون باستقباله كبار الموظفين وأعيان البلد وزعران دمشق ويدخل المدينة بالموكب الرسمي. أما إذا كان النائب موجوداً في دمشق، فإنه يخرج لقبة يلبغا وتجرى الاحتفالات كما قدمنا.

وجرت العادة في دمشق أن يقوم النائب بعد لبسه الخلعة بالتوجه للمدينة ويصل إلى القلعة فيدور حولها سبع مرات، ثم يقف عند باب السر فيصلي ركعتين، وهذا رمز لخضوعه للسلطان. فإذا كانت الأوامر بسجنه فتح باب السر وأدخل النائب معتقلاً وأغلق الباب للحيلولة بينه وبين أتباعه وهو أمر لم يحدث.

وكانت أول أعمال السلطان الرسمية بعد زيارته للقضاة وحصوله على الخلع منهم، وحضورهم بالتالي للنيابة للسلام عليه وحصولهم على الخلع، كان السلطان يعلن الأمان والاطمئنان، والبيع والشراء وأن بابه مفتوح لكل مظلوم.

وعادة الموظفون التابعون للنيابة نوعان الأول تابعون للسلطان الذي يقوم بتعيينهم وهم جواسيس ومراقبون على النائب الذي يحسب لهم ألف حساب، منهم نائب القلعة والحاجب والخزندار وكاتب السر وناظر الجيش والقضاة ونقيب الأشراف والمحتسب ونواب الأقاليم وغيرهم من الموظفين. والنوع الثاني الخاصكية الذين يكونون من خواص النائب ويقوم بتعيينهم بنفسه مثل الدودار وكثير من الموظفين الذين يكونون تابعين للنائب مباشرة ويعزلون بعزله. (١)

٢. **نيابة القلعة بدمشق:** ويسمى أيضاً نائب القلعة المنصورة بالشام المحروسة أو بدمشق المحروسة. وهي نيابة مستقلة إدارياً عن نيابة السلطنة، ليس لنائب السلطنة عليه سلطة أو ارتباط وظيفي، وولايتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف يكتب من ديوان الإنشاء. وكان متوليها في مطلع العصر المملوكي مقدم ألف، ثم استقرت بعد ذلك طبلخاناه. ولم يجمع شخص واحد وظيفة نائب دمشق ونائب القلعة إلا مرة واحدة في التاريخ المملوكي وهو جان بلاط سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٩ م وتم ذلك من قبل السلطان قانصوة الغوري، لا حياً بجان بلاط ولكن تقوية لمركزه في القاهرة.

ومهمة نائب القلعة : مراقبة النائب والقبض عليه إذا أمره السلطان بذلك، وكذلك حفظ القلعة وصونها، ولا يسلم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه أو لمن يأمره السلطان بتسليمه له. ولنائبها أجناد من المماليك البحرية ( الجراكسة ) مقيمون في القلعة لخدمته وللدفاع عن المدينة عند كل خطر خارجي

١ . (علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٣٠٣ . ٣٠٧ ، انظر بحث النائب في ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٣٥ - ٣٨).

او داخلي ولتتفيذ اوامر السلطان باعتقال من يطلب اعتقاله ، ولا يحضر نائب القلعة ولا أحد من موظفيه دار النيابة بالمدينة، ولا يركبون في الغالب.

ومن مهامه مراقبة كبار الأمراء والإداريين، وسير العمل في النيابة وتقديم تقارير للسلطان في ذلك. وهو لا يقارن في سلطاته مع نائب دمشق لانه منفصل عنه تماما وظيفيا ، علاقته بالسلطان مباشرة . فالنائب مسؤول اداري ونائب القلعة مسؤول عسكري .

وإذا دخل السلطان دمشق نزل في القلعة. وبها تخت ملك كغيرها من ديار الملك. (١)

**٣ . الحجوبية:** وتعتبر في العصر المملوكي ثالث أهم وظيفة عسكرية . وكان بها في أيام الناصر ابن قلاوون ثلاثة حجاب:

. حجاب الحجاب، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمر حجاب؛ وعادة يكون مقدم ألف. وهو في المرتبة الثانية بعد النائب؛ ومن شأنه الجلوس بدار العدل، ولا يقف كما يقف حجاب الحجاب بين يدي السلطان بالديار المصرية.

وعند خروج النائب عن دمشق في مهمة أو في حالة العزل أو غير ذلك، كان هو نائب الغيبة عنه. وإذا برز مرسوم السلطان بالقبض على نائب السلطنة بها، كان هو الذي يقبض عليه ويفعل فيه ما يؤمر به من سجن أو غيره، ويقوم بأمر النيابة حتى يتم تعيين نائب آخر .

**والحاجبان الآخران:** طبخانتان أو طبخاناة وعشرة، وربما كانوا أربعة: حجاب الحجاب وثلاث طبخانات أو طبخانتان وعشرون أو عشرة أو غير ذلك؛ ورتبهم في المراكز أن يكون حجاب الحجاب والذي يليه في الرتبة ميمنة والثاني ميسرة. ثم صاروا في الأيام الظاهرية برقوق خمسة أو ستة. ولم تجر العادة بأن يكتب لأحد منهم مرسوم شريف من الأبواب الشريفة عند ولايته، ولا علاقة للنائب فيما يكتب من السلطان لأحد منهم. (٢)

**٤ . شد المهمات:** وهي رتبة جلييلة، وموضوعها التحدث في أمور الاحتياجات السلطانية، وتارة لنائب السلطنة بدمشق، وتارة لحجاب الحجاب، وتارة لبعض الأمراء المقدمين والطبخانات بحسب ما يقتضيه رأي السلطان. (٣)

**٥ . نقابة القلعة:** وهي إمرة عشرة بمرسوم شريف، يكتب له من الأبواب الشريفة.

**٦ . نقابة النقباء:** وهما نقيبان: نقيب للميمنة ونقيب للميسرة.

١ . القلقشندي : صبح ج ٤ ص ١٨٤ . ١٨٥ ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٦٢ . ١٢٦٥ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣١٣ . ٣١٤ .

٢ . ( ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٧٥ - ٧٦ ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ١ ص ٣٨٠ . ٤٠٨ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣١٣ ) .

٣ . ( الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٦٠٤ . ٦١٠ ) .

- ٧ . **الخزندارية**: ومتوليها مسؤول عن الخلع والتشريف السلطانية بالقلعة، وعادة يكون عددهم أربعة طواشية خصيان بعضهم أعلى من بعض، أحدهم في رتبة أمير طبلخاناه أو أمير عشرين، والثاني دونه، والثالث دونه، والرابع دونه؛ ويتم تعيينهم بتوقيع كريم من نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته. (١)
- ٨ . **نقابة الجيش**: وتضم عدة موظفين أكبرهم يسمى بنقيب النقباء، تارة يكون أمير طبلخاناه، وفي غالب الأوقات أمير عشرة، ودونه اثنان من جند الحلقة. وتوليهم تكون من النائب بتوقيع كريم على قدر رتبته.
- ٩ . **شد الدواوين**: واختصاص متوليها استخراج الأموال السلطانية كمساعد للوزير، كما في الديار المصرية، وكانت في الأيام المتقدمة إمرة طبلخاناه، ثم استقرت إمرة عشرة. ثم أصبحت جندياً من أجناد الحلقة، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب. (٢)
- ١٠ . **شد الأوقاف** . مهمة متوليها التحدث على أوقاف المسلمين بدمشق، وعادتها إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب. (٣)
- ١١ . **شد الخاص**: وهو برتبة طبلخاناه أو عشرة أيضاً.
- ١٢ . **شد الزكاة** : وموضوعها التحدث على متجر الكارم ونحوه، وكانت في الزمن المتقدم إمرة عشرة، ثم أصبحت جندياً، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب.
- ١٣ . **شد العشر**: لاستحصال عوائد واصل الفرنج، وكانت إمرة عشرة، ثم أصبحت جندياً، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب.
- ١٤ . **شد الطعم**: وهي بمثابة الوكالة بالديار المصرية، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم، ورتبة متوليها إمرة عشرة أو مقدم حلقة أو جندي، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب.
- ١٥ . **ولاية المدينة** . وهو صاحب الشرطة كما في سائر الولايات، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها جندي، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب.
- ١٦ . **المهمندارية**: وموضوعها تلقي الرسل الواردين، في أمور دبلوماسية كما في الديار المصرية. وكان بها في أيام الناصر ابن قلاوون في عهد نيابة الأمير تنكز مهمندار واحد مقدم ألف، ثم أصبحت في زمن الأشرف شعبان بن حسين نفرين، ثم جعلت برتبة أمير عشرة، ثم جندي، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته. (٤)

١ . ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣١٩ ) .

٢ . ( الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٦١١ . ٦١٣ ) .

٣ . ( الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٦١٠ . ٦١١ ) .

٤ . ( ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٦١ ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١١٥٣ . ١١٥٧ ) .



١٧ . أميرأخورية البريد: صاحبها هو المتحدث على خيول البريد بدمشق ونواحيها. برتبة أمير عشرة من الأيام الناصرية ابن قلاوون. (١)

١٨ . مقدمة البريد: وموضوعها التحدث على جماعة البريدية بدمشق. وكان يتولاها في أيام الناصر ابن قلاوون موظف واحد من جملة البريدية، ثم استقر فيها اثنان، إما إمرة عشرة وإمرة خمسة، أو إمرة خمسة وجندي، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر مرتبته. وكان يستعمل الجمال فأصبح يستعمل الخيل. (٢)

١٩ - شذود أخرى: يولى بها أجناد بتواقيع لهم عن النائب: كشد دار البطيخ والفاكهة، وشذ المسابك من الحديد والنحاس والزجاج وغيره، وشذ المواريث الحشرية ونحو ذلك. وكان لمطابخ السكر شد مفرد يولى بتوقيع كريم عن النائب، ثم استقر ذلك مضافاً لمن يتحدث على الأغوار من النائب أو غيره. ٢٠ - وظائف أخرى: هناك وظائف أخرى أقل أهمية يكون المتولون فيها مما هو موجود لدى السلطان أو كبار الأمراء، مثل الموجود بالحضرة السلطانية، كرأس نوبة، وأمير مجلس، وأمير سلاح، وأمير أخور، وأمير جانداز، وأستادار المباشرة، وأستادارالصحة، وشاد الشراب خاناه، والهاشكرية، ومقدم المماليك ونحوهم، فهم من أجناد النائب مثل باقي النيابات والأمراء، وليسوا من أجناد السلطان. (٣)

### ثانياً - الوظائف الديوانية (أرباب الأقسام):

تشبه الوظائف الديوانية في قلعة الجبل في بلاط السلطان. وهو أمر تقتضيه أي نيابة، ولكن قد تنقص بعض الوظائف أو الدواوين بحسب الحاجة، أو يكون عدد الوظائف أو الموظفين أقل عدداً لما تقتضيه المصلحة. وأهم الوظائف الإدارية المدنية بدمشق هي:

١ . الوزارة: وهي وظيفة رفيعة المستوى، وترتفع رتبته بارتفاع قيمة متوليها كأن يكون قد تولى قبلها ولاية وزارة بالديار المصرية أو نحو ذلك فيصرح له عندها من السلطان بلقب الوزارة. وتارة تقصر رتبته عن ذلك فيطلق عليه ناظر المملكة الشامية، ولا يسمح له من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية باسم الوزارة، ولكن العامة تطلق عليه لقب الوزير. وتجري توليته من السلطان من الأبواب الشريفة، فإن كان وزيراً كتب له تقليد، وإن كان ناظر المملكة كتب له مرسوم.

كانت الوظيفة خاصة بأرباب السيوف، فإن وقع ذلك احتاج معه إلى ناظر مملكة كما يكون ناظر الدولة مع الوزير من أرباب السيوف بالديار المصرية. (٤)

١ . (الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ١ ص ١٨٢).

٢ . (ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٦٢ - ٦٣ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣١٨).

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٨٥ . ١٨٨ ، الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٣١ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٢ . ٢٧٣ ، الشلي : بلاد الشام ١٠٤ . ١٠٦ ، ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٦٠ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٢٩٥ . ٣١٩ ، زيادة : دمشق في عصر المماليك: ص ١٥٤ . ١٥٥ .

٤ . (الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٣٢٢ . ١٣٤٢).

٢ . **كتابة السر:** وتسمية متوليها في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية «صاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس»، ولا يقال فيه: صاحب دواوين الإنشاء كما في الديار المصرية. وهي بنفس مستوى كتابة السر في الديار المصرية. ويولى صاحبها من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، ويحترز السلطان فيها على أن يكون كاتب السر من خاصته الموثوق بهم ليطالعه بخفيات أمور المملكة وما يحدث بها مما لعل النائب قد يخفيه عن السلطان. <sup>(١)</sup>

وبديوانه كتاب الدست وكتاب الدرج كما بالديار المصرية، وكان عدد كتاب الدست في أيام الناصر ابن قلاوون نفرين وعدد محدود من كتاب الدرج، ثم زاد الأمر كما في الديار المصرية. وولايات كتاب الدست وكتاب الدرج بتواقيع كريمة عن النائب دون الأبواب الشريفة.

وكاتب السر في الزمن المتقدم لا يحضر مجلس دار العدل مع النائب، وإنما كان يحضر كتاب الدست فقط فيوقعون بما يحتاج إليه في المجلس وينصرفون إلى كاتب السر فيخبرونه بما اتفق، وكاتب السر يجتمع بالنائب في أوقات مخصوصة فيما يتعلق بالأمور السلطانية فقط، وكان كاتب السر ربما أخفى عنه كتاب الدست فيما يقع بدار العدل. فلما ولي كتابة السر قاض سعى كثيراً حتى أذن له في الحضور بدار العدل والتوقيع فيه، واستمر ذلك بعدها.

٣ . **نظر الجيش .** وموضوعه إما التحدث في الإقطاعات في كتابة مربعات \* تكتب بما يعينه النائب من الإقطاعات المتوفرة عن أربابها بالموت ونحوها، فترسل بخطوط ديوانه، إلى الأبواب الشريفة ليوافق عليها السلطان، وتحمل إلى ديوان الجيوش بالديار المصرية لتحفظ هناك، وتكتب منه مربعة، بمقتضاها يخرج المنشور بموجبها ، وإما في إثبات المناشير الشريفة التي تصدر إليه من الأبواب السلطانية بديوانه حفظاً لحسابات المقطعين. ويقوم بالعمل في ذلك الديوان كاتب الدست ، ووظيفته من أكبر الوظائف. وولاياتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف، وبديوانه عدة مباشرين من صاحب ديوان وكتاب وشهود، ولايتهم عن النائب بتواقيع كريمة. وناظر الجيش هو الذي يحكم في المحاكمات الديوانية كما يحكم فيها مستوفي المرتجع بالديار المصرية. <sup>(٢)</sup>

٤ . **نظر المهمات الشريفة:** وهي وظيفة جليلة يكون متوليها من أرباب الأقلام رفيقاً لشاد المهمات من أرباب السيوف، سواء كان النائب أو حاجب الحجاب أو غيرهما. والوظيفة غير مستقرة فهي تارة تضاف إلى الوزارة، وتارة تفرد عنها بحسب ما يراه السلطان. وولاياتها من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف. ولها ديوان فيه عدة مباشرين من كتاب وشهود؛ فيوليهم النائب بتواقيع كريمة.

١ . ( ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٧٣ ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٩٠٠ . ٩٢٠ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٣٠).

٢ . ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٧٤ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٢٠ . الشلي : بلاد الشام ص ١٠٦ .

٥ . **نظر الخاص:** وموضوعه التحدث فيما يتعلق بالمتاجرات السلطانية وغيرها مما يستأجره

السلطان من أراض في الأغوار وما يجري مجراها، وربما أضيف نظرها للوزير. وفي نسخة توقيع بنظر الخاص بدمشق كتب به لأحد القضاة مفوضاً إليه فيه مباشرة الخاص الشريف والوقف السطاني. (١)

٦ . **نظر الخزنة:** وتسمى بالخزانة العالية. ومتوليها يكون رقيقاً للخازندارية من الطواشية، فيكون متحدثاً في أمر التشايف والخلع وما معها. وفي دمشق نظير ناظر الخزنة في الديار المصرية. وهي من الوظائف الديوانية الهامة يوليها النائب بتوقيع كريم. وكانت الوظيفة في دمشق تضاف أحياناً إلى ناظر الخاص الشريف بدمشق. (٢)

٧ . **نظر البيمارستان النوري:** وقد صار النظر عليه متعلقاً بالنائب، يفوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام.

٨ . **نظر الجامع الأموي:** وفي الغالب يكون مع قاضي القضاة الشافعي، مرتبطاً بالنائب، وذلك لكثرة موارد أوقافه. كما كان هناك نظار لجوامع مختلفة مثل ناظر جامع التوبة، وناظر جامع يلغا الحيواوي بدمشق. (٣)

٩ . **نظر خزائن السلاح:** وموضوعها كما في الديار المصرية، في النظر بكل أنواع الأسلحة ومتعلقاتها، وحفظها وصيانتها.

وولايتها عن النائب بتوقيع كريم. (٤)

١٠ . **نظر بيت المال:** وحكمها كما في الديار المصرية.

١١ . **نظر ديوان الأسرى:** وهو المتحدث في الأوقاف التي تقضى بها الأسرى.

١٢ . **نظر الأسواق:** وموضوعها كما تقدم في الديار المصرية من التحدث على سوق الرقيق والخيول ونحوها، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

١٣ . **نظر مراكز البريد:** ومتوليها يكون رقيقاً لأمر آخور البريد المقدم ذكره، وولايته عن النائب بتوقيع كريم.

١٤ . **نظر الحوطات:** أي ما حجز من أموال. وهو على نحو من استيفاء المرتجع بالديار المصرية ( بنفس المعنى السابق ) في تحصيل الأموال السلطانية إذ تعطى المصادرات والمرتجعات لخزينة السلطان.

أما الحكم في المحاكمات الديوانية، فيختص بناظر الجيش.

١ . ( القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ١٢ ص ٣٨٤ . ٣٨٥ ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٠٧ . ١٢١٠ ) .

٢ . ( ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٦٠ ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٠٢ . ١٢٠٦ ) .

\* ( أي ما يعطى للمالك من إقطاعات تصدر عن النائب وتحتاج لموافقة السلطان لتصدر بمنشور سلطاني ، بينما المناشير هي الإقطاعات التي تصدر عن السلطان مباشرة )

٣ . ( الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٩٢ . ١٢٩٣ ) .

٤ . ( الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٠٦ ) .

١٥ . **نظر المسابك:** ومتوليّه يكون رفيقاً لشاد المسابك ، وولايتّه عن النائب بتوقيع كريم . ويتبع كل نظر من هذه الأنظار مباشرين : من شهود وغيرهم ، يكتب للمهم منهم توقيعات كريمة عن النائب بوظائفهم .

وهناك أنظار أخرى : كناظر دار الطراز بدمشق ، وكناظر المواريث الحشرية وغيرها مما لا يتسع المقام لذكرها وعدم أهميتها .

وكان هناك نظر مطابخ السكر أبطل ، كما أهمل شدها لإضافتها إلى المتحدث في الأغوار .<sup>(١)</sup>

### ثالثاً - الوظائف الدينية (أرباب العمام):

وهي عدة وظائف أيضاً تشابه الوظائف الماثلة لها في مصر ، منها :

١ . **القضاة:** وبها أربع قضاة من المذاهب الأربعة ، أعلاهم الشافعي وهو المتحدث في القضاء والأوقاف وأكثر الوظائف ؛ ويختص بتولية النواب في النواحي والأعمال بجميع أعمال دمشق حتى في غزة ، حين كانت تابعة لنيابة دمشق .

ويليه في الرتبة الحنفي ، ثم المالكي ، ثم الحنبلي .

وكان استقرار القضاة الأربعة بها بعد حدوث ذلك بالديار المصرية ، لكن لم تستقر الأربعة دفعة واحدة كما وقع في الديار المصرية في الدولة الظاهرية ببيرس ، بل على التدرج . وأقدمهم فيها الشافعي . وولاية الأربعة من الأبواب الشريفة بتوقيعات شريفة .

٢ . **قضاء العسكر:** وبها قاضيا عسكر شافعي ، وحنفي ؛ وليس بها مالكي ، ولا حنبلي لعدم تواجد اتباع من المذهب المالكي أو الحنبلي ؛ وولايتهما من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيعات شريفة .

٣ . **إفتاء دار العدل:** وهي كما في الديار المصرية أيضاً ، وبها مفتيان شافعي

وحنفي ، كما في قضاء العسكر ، وولايتهما عن النائب بتوقيعات كريمة .

٤ . **وكالة بيت المال:** وموضوعها كما في الديار المصرية ، وولايتها من الأبواب

الشريفة السلطانية بتوقيع شريف ووكالته مثبتة على الحكام منفذة . ولكن لا جلوس له

بدار العدل كما يجلس وكيل بيت المال بالديار المصرية ، إلا أن يكون كاتب دست فيجلس بصفته هذه في جملة الموقعين لا بصفة الوكالة .

٥ . **نقابة الأشراف:** والأمر فيها للنظر في النسب الشريف وصحته وتابعة أوقاف السادة الأشراف ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

وكان الأولى أن تورد في جملة وظائف أرباب السيوف إذ يكتب في توقيع متوليها «الأميري» وإن كان متعمماً ، وإنما التغليب العرفي اقتضى ذكرها في جملة وظائف أرباب الأقاليم .

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٨٨ . ١٩٢ ، الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٣١ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٤ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٦ . ١٠٨ ، بالاشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢١١ .

٦ . مشيخة الشيوخ: وموضوعها التحدث على جميع الخوانق والفقراء بدمشق وأعمالها؛ والعادة أن يكون متوليها شيخ الخانقاه الشميصاتية بدمشق، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

٧ . الحسبة: وهي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم. ولا مجلس لمتوليها بدار العدل، كما يجلس محتسب القاهرة بدار العدل في الديار المصرية، وإليه ولاية نواب الحسبة بجميع أعمال دمشق. وكان أول العهد يجري تعيين المحتسب من أصحاب العمائم ولكن صار في أواخر عصر الدولة يعين من العسكريين، لذلك فسد حاله وأصبح بعيداً عن الأمانة وأصبح له مشاهرات من الخبازين والطحانيين وغيرهم. (١)

٨ . الخطابة: تخضع لنظر النائب، فيولى فيها بتوقيعات كريمة حتى إنه ربما كتب عنه التوقيعات بخطابة الجامع الأموي، وإن كان الغالب أنها لا تولى إلا من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، وقد صارت مضافة لقاضي القضاة الشافعي.

٩ . التدريس: وتختلف باختلاف حال من يتولاها في الرفعة وغيرها، وولايتها عن النائب بتوقيعات كريمة. (٢)

#### ١٠ . وظائف أرباب الصناعات بدمشق:

فمنها رئاسة الطب، ورئاسة الكحالين، ورئاسة الجرائحية، وكل منهم مسؤول عن تابعيه في المهنة ، وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب. أما مهتارية البيوت وما في معناها، فهي تختص بالنائب لقيامه مقام السلطان واختصاص البيوت به. (٣)

#### ١١ - وظائف زعماء أهل الذمة بدمشق:

وفيهما بطرك النصارى اليعاقبة، وبطرك النصارى الملكانية، ورئيس اليهود القرايين والربانيين، ورئيس السامرة، والمقيم بمدينة نابلس، وله نائب مقيم بدمشق. (٤)

#### - التنظيم والإدارات في دمشق:

١ - الجيش: تشبه تنظيماته ما في الديار المصرية في أن يكون الجيش من الترك والجركس والروم والروس وغيرهم .

---

١ . ( ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٤٩ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٢١ ).  
٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٢ . ١٩٤ ، الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٣١ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٣ .  
٢٧٤ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٨ . ١٠٩ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٣٢٠ . ٣٢١ ، زيادة : دمشق في العصر المملوكي : ص ١٥٥ . ١٥٨ .

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٤ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٤ . ٢٧٥ ، الشلي : بلاد الشام ص ١١٠ .

٤ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٤ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٥ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٩ .

وجندها مقسمون إلى: من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشرات، ومن بين المقدمين والطبلخانات: كأمرء السبعين والخمسين، وما بين العشرات والطبلخانات كالعشرينات ونحوهم؛ وكذلك مقدمو الحلقة وجندها.

ولا وجود فيها للممالك السلطانية لأنهم لا يكونون إلا بحضرة السلطان. وعدد الأمراء المقدمين بها كانوا في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون عشرة غير النائب بها، وربما نقضوا فيما بعد عن ذلك.

وعدد أمراء الطبلخانات بها أربعين تمت زيادتهم إلى نيف وخمسين. أما أمراء العشرات فكان بها ألفان ومائة وخمسون بما فيهم من الممالك البحرية. وكان تعداد الجيش في زمن غرس الدين الظاهري اثني عشر ألف جندي من الحلقة، وبخدمة كافلها ألفين، وبخدمة الأمراء نصف ما بخدمة الأمراء في مصر. (١)

٢ - **إقطاعاتها:** لا تقارب إقطاعات مصر، بل تكون على الثلثين منها، إلا في أكابر الأمراء المقربين بحضرة السلطان فإن إقطاعاتهم خارجة عن العادة فلا يعتد بها. وهم قليلون جداً يكاد يكون نائب دمشق هو الوحيد.

٣ - **البيوت السلطانية:** بها خزنة تخرج منها الإنعامات والخلع، وخزائن سلاح، وزردخانه، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة، حتى لو جهز السلطان إليها جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته.

وكل أمير أمر فيها أو في غيرها من الشام أو رب وظيفة ولي وظيفة من عادة متوليها لبس خلعة، أو إذا خدم أحد خدمة في مهمة من المهمات أو أمر من الأمور يستوجب له خلعة أو إنعاماً، فإن لم يخلع عليه من مصر كان من دمشق خلعته وإنعامه، ومنها تخرج أعلام الإمرة وطلائعهن وشعار الطبلخانة.

٤ - **خزائن السلاح:** بدمشق يجري تصنيع المجانيق ومختلف أنواع السلاح، ويحمل إلى نيابات الشام الأخرى وتعمر به البلاد والقلاع.

ومن قلعتها تجرد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام، وتتدب في التجاريد والمهمات. ٥ - **أما باقي البيوت:** التي توجد في مقر السلطان، كالفراش خاناه والإصطبلات السلطانية وما شاكلها، فلا وجود لها فيها مما ينسب إلى السلطان، بل يكون ذلك للنائب قائماً مقام السلطان لأنه في الحقيقة السلطان الحاضر في دمشق؛ وكان بها مطابخ العساكر السلطانية فأضيفت إلى من يتولاها في الأغوار من النائب أو غيره من الأمراء الأكابر. (٢)

## ثانياً - الإدارة في النيابات والولايات التابعة لدمشق:

١. الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٣١.

٢. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٤. ١٩٧. الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٣١.

مما هو خارج عن حاضرتها وهي قسمان الأول الإدارات البلدية، والثاني إدارة العريان:  
- القسم الأول الإدارات البلدية:

وتقسم إلى إدارات غربية وجنوبية وشمالية وشرقية:

( ١ ) إدارة الجهة الغربية وتضم نيابتين وخمس ولايات:

أ - النيابات :

١ . نيابة غزة قبل أن تصبح نيابة مستقلة:

وكانت من النيابات الصغرى التابعة لنيابة دمشق، واتخذت صفة النيابة المستقلة عهد الناصر محمد في ولايته الثالثة، حيث أرسل الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائباً لغزة سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م.

٢ . نيابة القدس قبل أن تصبح نيابة مستقلة:

كانت القدس من النيابات الصغيرة التابعة لدمشق. قبل استحداثها عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م <sup>(١)</sup>.

ب - الولايات في الجهة الغربية:

فالأولى ولاية الرملة: وكانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون من الولايات الصغار بها جندي، ثم استقر بها في دولة الظاهر برقوق كاشف أمير طبلخاناه، ثم أصبحت مكاتبته عن الأبواب السلطانية بعد ذلك.

الثانية ولاية لد: وقد كانت في الأيام الناصرين قلاوون ولاية صغيرة بها جندي، ثم أضيفت إلى الرملة حين استقر بها الكاشف المقدم ذكره.

الثالثة ولاية قاقون: وكان بها في الأيام الناصرية جندي، ثم أضيفت إلى كاشف الرملة عند استقراره.

الرابعة: ولاية بلد الخليل عليه السلام: وكان في الأيام الناصرية بها جندي، ثم أضيفت إلى القدس حين استقر النائب بها.

الخامسة ولاية نابلس: وهي باقية على حالها في الانفراد بالولاية، وواليتها تارة يكون أمير طبلخاناه، وتارة أمير عشرين، وتارة أمير عشرة. وكان فيها كاشف مضاف إلى كاشف الرملة. <sup>(٢)</sup>

( ٢ ) إدارة الجهة الجنوبية:

وفيه نيابتان وسبع ولايات.

( آ ) فأما النيابتان وهما من النيابات الصغيرة:

---

١ . في الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٥ يذكر نقلاً عن التتقيف أن السنة كانت ٧٦٧ هـ، علبي دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٢٢ .

والجندي هنا يتسلم وظيفة عسكرية وإدارية في ولايات صغيرة تشبه في زماننا رئيس مخفر في ضيعة اوحارس فيها يقوم بتصرف الأمور فيها ويكون على إتصال بما هو ارفع منه مرتبة بولايات يتبعها اعلى من ولايته مقاما ، ويقتضي الحال ان يكون الجدي أحيانا أمير عشرة استثناءا لمقتضيات المصلحة فيكون في وظيفة أمير عشرة دون حمل الرتبة وميزاتها من رواتب وإقطاعات .

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٩ . ٢٠٠ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٦ .

الأولى: نيابة قلعة صرخد: وولايتها من الأبواب الشريفة. وبصرخد قلعة عمرها الظاهر بيبرس لها والٍ خاص يستقل نائب الشام بالتولية فيها. (١)

الثانية نيابة عجلون: وقد أشار في التثقيف إلى أنها نيابة حيث قال: وعجلون إن كانت نيابة فإن نائب الشام يستقل بالتولية فيها ولم تجر له عادة بمكاتبة من الأبواب الشريفة. وفي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٨ م) في الأيام الأشرفية استقرت نيابتها طبلخانة من الأبواب الشريفة. (٢)

#### ( ب ) إدارة الولايات في الجهة الجنوبية :

الأولى ولاية بيسان: وواليتها جندي.

الثانية ولاية بانياس: وواليتها جندي تارة، وتارة إمرة عشرة. وكان فيها كاشف مضاف إلى كاشف الرملة.

الثالثة ولاية قلعة الصبيبة: وكانت ولاية صغيرة وبها جندي ثم أضيفت إلى بانياس.

الرابعة ولاية الشعرا: وكانت في الأيام الناصرية مضافة إلى بانياس، ثم أصبحت ولاية مفردة، وواليتها جندي.

الخامسة ولاية أذرعات: وبها مقر ولاية الحاكم على جميع الصفقة؛ ثم تارة يكون طبلخاناه وتكون ولايته عن نائب الشام، وتارة يكون مقدم ألف فتكون ولايته من الأبواب السلطانية.

السادسة ولاية حسان والصلت: من البلقاء. فيهما والٍ كان جندياً.

السابعة ولاية بصرى: وواليتها جندي أيضاً. (٣)

#### ( ٤ ) الإدارة في الجهة الشمالية:

وفيه نيابة واحدة وثلاث ولايات:

١ - فأما النيابة فنيابة بعلبك وقد كانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون إمرة عشرة، ثم صارت إمرة طبلخاناه، ونائب دمشق هو الذي يستقل بولايتها، وربما وليت من الأبواب السلطانية. قال في التعريف: ولها ولاية خاصة يعني غير ولاية المدينة؛ وقد كانت في الدولة الأيوبية مفردة في الغالب بملك بمفردها. (٤)

#### ٢ - إدارة الولايات في الجهة الشمالية:

الأولى: ولاية البقاع البعلبكي والبقاع العزيزي، ويجري التمييز بين البقاع وبعلبك. قال في التعريف: وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بعلبك وهما مجموعتان لوال واحد جليل مفرد بذاته؛ وهما على ما ذكره من جمعهما لوال واحد، إلا أنه تارة يليهما مقدم حلقة وتارة جندي. وذكر صاحب المقصد أنها كانت

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠٠، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٦.

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠٠، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٦.

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠٠ . ٢٠١.

٤ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠١.



تضم ولاية البقاع البعلبكي والبقاع العزيزي ولكنهما انفصلتا عن بعلبك وهما مجوعتان لوال واحد تكون توليته من نائب الشام. (١)

الثانية ولاية بيروت: وولايتها إمرة طبلخاناه. يوليها نائب دمشق بإمرة صغيرة.

الثالثة ولاية صيدا: قال في مسالك الأبصار: وهي ولاية جليلة؛ وهي على ما ذكره إلى زمان القلقشندي، تارة يليها أمير طبلخاناه، وتارة أمير عشرة. ، وكانت إمرة عشرة وولايتها من نائب الشام بإمرة صغيرة. (٢)

#### ( ٤ ) الإدارة في الجهة الشرقية:

##### آ - فأما النيابات:

الأولى نيابة حمص: وهي نيابة جليلة، وقد كانت في الأيام الناصرية فما بعدها مقدمة ألف. قال في التثقيف: ثم استقرت طبلخاناه بعد ذلك. قال: ونائب قلعتها من المماليك السلطانية. وقد تقدم الذكر أن في الزمن القديم كان لها دون حماة، وقد كانت في الدولة الأيوبية مملكة منفردة تارة، وتضاف إلى غيرها أخرى. (٣)

الثانية نيابة مصياف: وكانت أولاً من مضافات أطرابلس في جملة قلاع الدعوة، ثم أضيفت بعد ذلك إلى دمشق واستمرت على ذلك إلى زمن القلقشندي. ونيابتها تارة تكون إمرة طبلخاناه، وتارة تكون إمرة عشرة، وتوليتها من الأبواب السلطانية. وقال في المقصد الرفيع ولم يكن بحمص ممن يتولى من أرباب الوظائف الدينية والديوانية. (٤)

ب - ولاية صيدا: والغالب في نيابتها أن تكون مقدمة ألف، وأشار في التثقيف إلى أنها قد تكون طبلخاناه، قال في التعريف: وقلعتها ممالك بحرية وخيالة وكشافة وطوائف من المستخدمين. وقال في المقصد الرفيع وربما كانت إمرة عشرة وولايتها من نائب الشام بإمرة صغيرة. (٥)

#### القسم الثاني من الخارج عن حاضرة دمشق: إدارة العربان في حاضرة دمشق:

وتكون إدارتها بطريق زعماء العشائر على الطريقة البدوية ، ويتم تعيينهم من قبل السلطان مباشرة . وتفصيلهم سيأتي فيما بعد .

#### ثانياً نيابة حلب:

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠١ . ٢٠٢ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٧ .

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠١ . ٢٠٢ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٦ .

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠٢ .

٤ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠٢ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٦ .

٥ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٠١ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٦ .

وهي ثاني نيابة من نيابات بلاد الشام بالأهمية ، وأكبر نيابات الشام بالمساحة ، وهي الحدود الشمالية للدولة المملوكية ، وأبعدها عن مركز السلطة . ومهمتها مواجهة أعداء الدولة من بيزنطيين وأرمن ومغول وعثمانيين .

#### الجيش في حلب:

أما عناصر الجيش فيها فعلى ما تقدم في دمشق من اشتغال عسكريها على الترك والجركس والروم والروس وغير ذلك من الأجناس المشابهة للترك ممن يعود أصله لقبائل وسط آسيا، وبقيّة الوظائف العسكرية الكبيرة الأخرى من رتبة الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشرات ومن في معناهم من العشرينات والخمسات، وكذلك أجناد الحلقة ومقدموها؛ وإقطاعاتها على نحو ما تقدم في دمشق في المقدار؛ وربما زاد إقطاع الحلقة بها على إقطاع الحلقة بالديار المصرية بخلاف إقطاعات الأمراء بها فإنها لا تساوي مثيلاتها في مصر.

#### الإدارة في نيابة حلب:

وأما وظائفها فمثل باقي إدارات السلطنة.

#### وظائف أرباب السيوف:

وهي عدة وظائف:

١ . نيابة السلطنة وهي نيابة جلييلة في الرتبة الثانية من نيابة دمشق، ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة «بنائب السلطنة الشريفة»، ولا يقال فيه كافل السلطنة كما يقال لنائب دمشق، ويكتب عن نائبها التواقيع الكريمة بأكثر وظائف حلب وأعمالها، وكذلك يكتب عنه المربعات الجيشية بالديار المصرية، والمناشير الإقطاعية على حكمها في دمشق، وكذلك يكتب على كل ما يتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد، ويزيد على نائب دمشق ميزة خاصة؛ وهي أن نائبها يقوم بسرحتين يسرحهما للصيد، الأولى منها يسرحها في مناطق حلب من جانب الفرات الغربي لصيد الغزلان، يقيم فيها نحو عشرة أيام؛ والثانية وهي العظمى يعبر فيها الفرات إلى أراضي الجزيرة شرقي الفرات، وينتقل في نواحيها مما هو داخل في مملكة الديار المصرية وما حولها، يتصيد فيها الغزلان وغيرها من سائر الوحوش، ويقيم بها نحو شهر. وتكون هذه فرصة للاطلاع والتفتيش<sup>(١)</sup>. وكانت نيابة حلب بسبب موقعها الحدودي واتصالها مع الأرمن والروم والتتار والصليبيين، وإمكانية انفصال نوابها، كانت السلطة المملوكية تحاول دائماً ضمان ولاء نوابها. واعتبرت تحليف نائبها عند تعيين سلطان جديد عنصراً هاماً في استقرار الحكم. وكان السلاطين يكثر من زيارة نائب حلب وغالباً فجأة للتفتيش على أمورها ، من ذلك قيام السلطان بيبرس بزيارتها عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧.١٢٦٨ م وعام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩.١٢٧٠ م. وقام بحملة للأراضي الأرمنية بغية تأمين حدود نيابة حلب سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦.١٢٧٧. وقام برقوق بزيارتها

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج٤ ص ٢١٧، المقصد الرفيع ص ٢٧٧، حمزة :؛ نيابة حلب: ص ١٣ . ١٨ . ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٢٥٧ . ٢٥٨

سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م، وقام السلطان الشيخ مؤيد بزيارتها عام ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م، وقام برسباي بزيارتها عام ٨٣٦ هـ / ١٤٣٣ م، وقاتباي سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م. وعند محاولات التمرد كانوا يتابعون النائب المتمرد حتى النهاية إما بالعزل أو القتل، فقد دس السم للنائب طيغيا الطويل لمحاولة عصيانه سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨.١٣٦٩ م. وألقي القبض على النائب يلغا الناصري لمجرد الشبهة عام ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م وعزل النائب أركماس عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠. ١٥٠١ م لمخالفة السلطان الغوري.

وقد سار السلاطين في التعامل مع نيابة حلب على سياسة تبديل النواب كثيراً بحيث لا يبقى النائب في منصبه طويلاً. واعتمدوا سياسة عدم ترك النيابة طويلاً بدون نائب عند التغيير خوفاً من نائب القلعة.

٢. **نائب الغيبة:** وهو ينوب عن نائب حلب أثناء غيابه أو خلعه حتى يتم تعيين نائب جديد وهو غير نائب القلعة، وكانت له أدوار مهمة في فض النزاعات بين العربان<sup>(١)</sup>.

٣. **نيابة القلعة بحلب:** والاسم الرسمي للنائب فيها: نائب السلطنة الشريفة بالقلعة المنصورة بحلب المحروسة، أو اختصاراً نائب قلعة حلب. وهي نيابة منفردة عن نيابة السلطنة بها، وهي من الوظائف المهمة، وليس لنائب السلطنة على القلعة ولا على نائبها حكم كما تقدم في قلعة دمشق، والملاحظ أنه غالباً يجري تعيين أولاد نواب القلعة إذا كانوا صالحين للولاية. ولو لم تكن قاعدة ثابتة، وعادة نائبها أن يكون أمير طبلخاناه، ثم استقر مقمداً، ويقول ابن الشحنة: إن نائب القلعة كان من أصاغر الأمراء ثم بعد فتنة الناصري أصبح يعين أمير مائة مقدم ألف وليس في نواب قلاع القاهرة ودمشق غيرها مقدم ألف إلا نائب قلعة حلب خاصة. وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف، وفيها من الأجناد المماليك البحرية المعدين لحراستها نحو أربعين عسكرياً، مقيمون بها لا يغادرون عنها بسفر ولا غيره، يجلس منهم في كل نوبة معدة، وذلك في الباب الثاني منها من حين فتح الباب في أول النهار وإلى حين إقفاله في آخر النهار، وبها الحرس في الليل (حرسية)، وضرب الطبل على مضي كل أربع درج كما في قلعة دمشق. وقلعتها من أعظم القلاع<sup>(٢)</sup>.

٤. **أتابك (اطابك) حلب:** وهي وظيفة هامة، تولها الكثير من كبار الأمراء، وصاحبها له أهمية كبيرة لأنه يقود الجيوش عند التهديد بالحرب أو التمرد، وكان متوليها ينتقى ممن تمرس بوظائف هامة عالية. وكان صاحبها إذا نقل منها يتبوأ منصباً أعلى، مثل نائب لنيابة تكون أقل أهمية من حلب. وفي أواخر الحكم المملوكي أصبحت هذه الوظيفة تشرى بالمال<sup>(٣)</sup>.

٥. **الحجوبية:** والعادة أن يكون بها أربعة حجاب. أحدهم مقدم ألف: وهو حاجب الحجاب، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة في المكاتبات وغيرها بـ «أمير حاجب بحلب» كحاجب الحجاب بدمشق، وتسمى وظيفته بالحجوبية الكبرى، وهو ثاني نائب السلطنة في الرتبة ولا يدخل أحد دار النيابة

١. حمزة: نيابة حلب: ص ١٨.

٢. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢١٧، الخالدي: المقصد الرفيع ص ٢٧٧، حمزة: نيابة حلب: ص ١٨. ٢٢. ابن الشحنة: الدر المنتخب ص ٢٥٩، الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٥٠. ١٢٥٤.

٣. حمزة: نيابة حلب: ص ٢٢. ٢٤.

راكباً غير النائب إلا نائب الغيبة إذا خرج نائب السلطنة في مهمة أو للصيد أو غير ذلك؛ وإليه ترد المراسيم السلطانية بقبض نائب السلطنة إذا أراد السلطان القبض عليه، ويكون هو المتصدي لحال البلد إلى أن يقام لها نائب.

أما الحجاب الثلاثة الباقون فرتبهم إما ثلاث طبخانات، أو طبخانتان وعشرة، وولاية حاجب الحجاب والحاجب الثاني من الأبواب الشريفة السلطانية بغير تقليد ولا مرسوم، أما الباقون فتكون ولايتهم عن نائب حلب، وفي ترتيب النيابة منهم اثنان: واحد بالميمنة وواحد بالميسرة، فالذي في الميمنة في الغالب يكون أمير عشرة وربما كان أمير خمسة، والذي بالميسرة جندي من أجناد الحلقة. وولايتهما عن النائب كل منهما بتوقيع كريم.

وفيهما إستدار الديوان يعمل أحياناً ويبطل غالباً.

وأحياناً يطلب النائب من السلطان تغيير حاجب حلب مثل عزل حاجب حلب بسبب شكوى النائب سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥١ . ١٣٥٢ م<sup>(١)</sup>.

٦ . **شد الأوقاف:** وهي بنياية حلب رتبة جليلة أعلى من شد الأوقاف بدمشق، وعادتها مقدمة ألف أو طبخاناه، تولى عادة من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، ولمتوليها رعاية أوقاف نيابة حلب.<sup>(٢)</sup>

٧ . **المهمندارية:** وموضوعها على ما تقدم في دمشق، وبها اثنان:

فأحدهما تارة يكون أمير طبخاناه وتارة يكون أمير عشرة، والآخر جندي حلقة، وولاية كل منهما تكون دائماً عن النائب بتوقيع كريم. وعلى المهمندار إظهار قوة ورهبة السلطنة بالقيام بالعروض العسكرية خصوصاً أمام السفراء.<sup>(٣)</sup>

٨ . **شد الدواوين:** وموضوعها كما تقدم في دمشق، ويقوم بتفتيش الدواوين ويراجع حساباتها، ومن مهامه إرسال المال والغلال والذخائر إلى القلاع والحصون التابعة لحلب. أحياناً يجري تولية هذه الوظيفة إلى صاحب الوظيفة نفسها بدمشق وعادة رتبة متوليها تكون إمرة عشرة، وربما وليها جندي، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

٩ . **شد مراكز البريد:** وموضوعها كما تقدم في دمشق، وعادتها إمرة عشرة، وربما كان مقدم حلقة أو جندياً، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

١٠ . **ولاية المدينة:** وموضوعها التحدث في الشرطة كما تقدم في دمشق، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها مقدم حلقة، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

١١ . **شد الأقواد:** وموضوعها التحدث على الأموال التي تساق قوداً من المملكة في كل سنة، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها مقدم حلقة، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢١٨، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٧، حمزة نيابة حلب: ص ٢٤ . ٢٧ .

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢١٨ .

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢١٨، حمزة : نيابة حلب ص ٢٧ .

وسائر وظائف الأمراء أرباب السيوف يشغلون وظائف مثلهم ببلاط السلطان كرأس نوبة وأمير مجلس، ومن في معناهما ممن يجري هذا المجرى المختص بالنائب يكون له مثلها من أجناده لقيامه مقام السلطان هناك كما تقدم في دمشق.

١٢ . الإستدار: وهي في نيابة حلب يكون متوليها بخدمة النائب كما يعمل استدار السلطان بقلعة الجبل. (١)

### الوظائف الديوانية من أرباب الأقسام:

١ . الوزارة: ويعبر عنها في ديوان الإنشاء «بالأبواب الشريفة» في القاهرة، ولا يصرح لمتوليها باسم الوزارة بحال، وإن كان الجاري على السنة العامة تلقب متوليها بالوزير، ولم تجر العادة بأن يتولاها إلا أرباب الأقسام، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف؛ ولصاحبها الحق بإبداء النصح للنائب وكف أذاه عن أموال الرعية عند تعديه عليهم. ولديوان هذا النظر عدة مباشرين يتبعون وظيفياً لناظرها كصاحب الديوان والمستوفي والكتاب والشهود وسائر فروع الوزارة، والنائب يولي كلاً من هؤلاء المباشرين بتوقيعات كريمة. وكانت الوزارة في حلب وظيفة عالية المقام ثم انحطت رتبتها وأضيفت إلى نائبها فصار مستبدّاً بها.

٢ . كتابة السر: وصاحبها كاتب السر أو كاتم السر. ويعبر عن متوليها في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بـ«صاحب ديوان المكاتبات بحلب»، ولا يسمح له بصاحب ديوان الإنشاء بحلب كما في دمشق، ثم صار يسمى «كاتب السر الشريف بحلب المحروسة» وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف؛ كما للنائب عزله إذا أساء التصرف رغم أن تعيينه يتم من السلطان، وكثيراً ما كانت الريبة والشكوك تقوم بين النائب وكاتب سره لعلمه أن كاتب السر ينقل أسرار له للسلطان، وقد ضعفت هذه الوظيفة في أواخر الحكم المملوكي وصارت موضع بيع وشراء.

وبديوان كاتب السر: كتاب الدست وموقع الدست وكتاب الدرج نحو عشرة، كما في دمشق والديار المصرية.

٣ . نظر الجيش: والحكم فيه كما تقدم في دمشق من كتابة المربعات بما يعينه النائب من الإقطاعات وتجهيزها للأبواب الشريفة لتشمل بالخط الشريف وتحفظ وثيقة بديوان الجيوش بالديار المصرية، وكذلك إثبات ما يصدر إليه من المناشير من الأبواب الشريفة؛ وولايته من الأبواب الشريفة. ويقوم بتجنيد من يراه صالحاً للخدمة العسكرية. ومن مهماته إعلام السلطان أولاً بأول عن حالة الجيش، وكانت الوظيفة دائماً عرضة لتبدل متوليها كثيراً نظراً لخطورة مهامها.

٤ . نظر المال: وهو بمعنى الوزارة كما في دمشق إلا أنه لا يطلق على متوليه وزير البتة، وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف. وكان يتم اختياره من الأشخاص المعروفين بالنزاهة والورع لذلك كان يتم اختيارهم غالباً من الفقهاء. ولديوانه كتاب أتباع له: كصاحب الديوان والكتاب والشهود وقد ألحقت

١ . القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢١٨ . ٢١٩، حمزة: نيابة حلب ص ٣٢ . ٣٤.

بهذه الوظيفة وظيفه الخزندار ليشرف على الخزائن من نقد ومتاع. ويتبع ناظر المال وظائف أخرى أقل أهمية؛ وولاية كل منهم عن النائب بتوقيع لهم كما في دمشق.

٥ . **نظر الأوقاف:** وحكمها التحدث على الأوقاف بمدينة حلب وأعمالها كما في دمشق؛

وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

٦ . **نظر الجامع الكبير:** ومتوليها يكون مساعداً للنائب في التحدث فيه؛ وولايتها عن النائب بتوقيع

كريم.

٧ . **نظر البيمارستان:** وقد جاء في الكلام على الخدمات الصحية والبيمارستانات في مدينة حلب

تفصيلات كثيرة وأن بحلب بيمارستانين أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر يخصه؛ وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم.

٨ . **نظر الأقواد:** ومتوليها يكون رفيقاً لشاد الأقواد كما في أرباب السيوف، وولايته عن النائب بتوقيع

كريم.

٩ . **نظر الجوالي:** وكان لها ديوان اختص به موظفون من غير الحلبيين. والجوالي هو المقرر السنوي

على أهل الذمة يجبي منهم سنوياً .

١٠ . **الدودار:** ويقوم بنفس مهمة مثيله بدمشق، إضافة لإبلاغ السلطان رسائل نائب حلب وحمل

الهدايا للسلطان<sup>(١)</sup>.

### **الوظائف الدينية من أرباب العمام:**

وهي تشابه مثيلاتها في دمشق:

١ . **القضاء:** وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة كما في دمشق، إلا أن استقرار الأربعة بها كان

بعد استقرار أمثالهم بدمشق، وولاية كل منهم من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف. ويختص الشافعي منهم بتولية النواب بالمدينة وجميع أعمالها بشكل عام، وهو أجل أرباب الوظائف الدينية فيها، ويقتصر في عمله على التولية في المدينة خاصة، كما تقدم في دمشق. وقد اشترط على القضاة بحلب عدم ممارسة أي وظيفة أخرى خلال خدمتهم بالقضاء، ولكن ذلك لم يكن مرعياً دائماً.

٢ . **قضاء العسكر:** وبها قاضيا عسكر: شافعي وحنفي كما في دمشق؛ وولايتهما من الأبواب

الشريفة، ويكتب لكل منهما توقيع شريف.

٣ . **إفتاء العدل:** وبها اثنان أيضاً: شافعي وحنفي كما في دمشق؛ وولاية كل منهما عن النائب

بتوقيع كريم.

٤ . **وكالة بيت المال:** وولايتها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، ووكالته عن السلطان بمصر

قطعية نافذة بنياية حلب كما تقدم في دمشق.

---

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢١٩ . ٢٢٠ ، حمزة : نيابة حلب ص ٣٤ . ٤٤ .

٥ . نقابة الأشراف: والأمر فيها على ما تقدم في دمشق ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم. وغالباً ما جمع متولي هذه الوظيفة في حلب مع وظيفة إدارية أخرى.

٦ . مشيخة الشيوخ: وكانت تطلق على المشرف على الطرق الصوفية وكان اللقب شرفياً غالباً يطلق على شيخ الخانقاه. وعادتها أن يكون متوليها هو شيخ الخانقاه المعروفة بالقديمة؛ والحكم فيها كما في دمشق؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم، وربما كانت من الباب الشريف.

٧ . الحسبة: وهي على ما تقدم في دمشق ؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم؛ ومتوليها يولي نواب الحسبة بسائر الأعمال الحلبية. لكن وظيفته أضيفت إلى نائبها الذي استبد بها.

٨ . الخطابة بالجامع الكبير: وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

٩ . التداريس والتصادير: توليتها مرتبطة بنظر النائب وولايتها بتوقيعات كريمة على قدر مراتب أصحابها.

١٠ . إمارة الحج: ومتوليها يرافق الحج ذهاباً وإياباً، وعادة يشغلها أمير من كبار الأمراء<sup>(١)</sup>.

١١ . وظائف أرباب الصناعات:

منها رئيس الكحالين وإليه رئاسة الطب، وفيها أيضاً رئاسة الكحالين، ورئاسة الجرائحية كما في دمشق ؛ وولاية كل منهم بتوقيع كريم عن النائب.

أما مهتارية البيوت ومن في معناهم مففقودون بحلب لفقد البيوت السلطانية، وإنما مهتارية البيوت بها للنائب خاصة، لقيامه مقام السلطان بها كما في دمشق<sup>(٢)</sup>.

### الوظائف خارج حاضرة حلب:

مثل باقي ترتيب الوظائف بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب العمائم:

وظائف أرباب السيوف: وهو ثلاثة أصناف:

الصنف الأول النواب وهم قسمان:

القسم الأول ما هو داخل في حدود البلاد الشامية:

وهي إحدى عشرة نيابة:

الأولى: نيابة قلعة المسلمين: المسماة في القديم بقلعة الروم، وعادة نائبها أن يكون مقدم ألف يولى من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف. ولقبه «النائب بقلعة المسلمين المحروسة». وممن تولى نيابتها سيف

١ . القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٢٠ . ٢٢١، المقصد الرفيع ص ٢٧٧ . ٢٧٨، حمزة: نيابة حلب: ص ٢٤٢ . ٢٤٣ و ٢٥٠ . ٢٥١.

٢ . القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٢٢ ، الخالدي: المقصد الرفيع ص ٢٧٨.

\* فرقت الألقاب المملوكية الديوانية بين اضافة ال التعريف مثل نائب والنائب ، اذ تكون لأل التعريف صفة ارفع تتعلق بسمو صاحبها فالأسمي يضاف لألقابه الف التعريف، كذلك الحال في دخول الباء مثل المجلس السامي وبالمجلس السامي ، فالنائب تضاف لرفعة الوظيفة .

الدين جركس المتوفي ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤. ١٣٤٥ م، كذلك الأمير أقبية الأشرفي الذي تولاها سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م.

الثانية نيابة الكختا: ونيابتها تارة تكون طبلخاناه وتارة عشرة؛ وتوليبتها من نائب حلب.

الثالثة نيابة كركر: ونيابتها تارة طبلخاناه وتارة عشرة؛ وتوليبتها من نائب حلب.

الرابعة نيابة بهنسى: وقد ذكر في التثقيف ما يقتضي أن نيابتها طبلخاناه، وربما كانت مقدمة ألف. وقد ذكر في التعريف ما يقتضي ذلك فقال: ولنائبها مكانة جليلة، وإن كان لا يلتحق بنائب البيرة؛ وبكل حال فتوليبتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف، ويكتب إليه المجلس السامي بدون باء . \*

الخامسة نيابة عينتاب: وقد أوردتها في التثقيف في جملة نيابات العشرات ، على أنها استقرت مقدمة ألف في أواخر الدولة الظاهرية برقوق، واستقرت توليتها من الأبواب السلطانية.

السادسة نيابة الراوندان: وهي من نيابات العشرات. وقد استقر بها أخيراً جندي؛ وتوليبتها من نائب حلب.

السابعة نيابة الدربسك: من نيابات العشرات. وربما أضيفت لنائب بغراس وتوليبتها من نائب حلب.

الثامنة نيابة بغراس: وهي من نيابات العشرات؛ وولايتها من نائب حلب.

التاسعة نيابة القصير: من نيابات العشرات. وأصبحت جندياً.

العاشر نيابة الشجر وبكاس: من نيابات العشرات. وقد استقر بها أخيراً جندي، وتوليبتها من نائب حلب.

الحادية عشرة نيابة شيزر: كانت في الزمن المتقدم إمرة عشرة يستقل نائب حلب بتوليبتها فلما تسلطت عليها العربان بعد وقعة منطاش والناصرى استقرت مقدمة بولاية من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف<sup>(١)</sup>. ومكاتبها إلى المجلس الشريف وتعريفه النائب بشيزر. وممن تولى نيابتها الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي المعروف بابن العديم<sup>(٢)</sup>.

### الوظائف في النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية:

وهي قسمان:

#### القسم الأول بلاد الثغور والعواصم وما يتبعها:

والمهم فيها ثمان نيابات

الأولى نيابة ملطية: ولها أهمية خاصة في العصر المملوكي، ويتم تعيين أمراء أكفاء بها، لأن مهمتها التصدي لغارات السلاجقة والمغول والعثمانيين. ولقب متوليها «النائب بملطية المحروسة» ونيابتها طبلخاناه، وتوليبتها من الأبواب السلطانية.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٢٦ . ٢٢٧ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٠ .

٢ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٢٦ . ٢٢٧ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٠ ، حمزة : نيابة حلب: ج ٢ ص ٤٨ . ٥٢) .



الثانية نيابة دبركي: وقد ذكر في التتقيف أنها تارة تكون طبلخاناه وتارة تكون عشرة، وبكل حال فولايتها من نائب حلب.

الثالثة درندة: ونيابتها في الغالب إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، وولايتها في الحالتين من نائب حلب.

الرابعة نيابة الأبلستين: ونيابتها مقدمة ألف من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف. الخامسة نيابة آياس: وهي المسماة «بالفتوحات الجاهانية»، ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

السادسة نيابة طرسوس: ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف. السابعة نيابة أدنة: ونيابتها مقدمة ألف؛ وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف. الثامنة نيابة سرفندكار: ونيابتها إمرة عشرة، وكانت أولاً طبلخاناه \*، وولايتها من نائب حلب. التاسعة نيابة سيس: وكان فتحها في عهد دولة الأشرف شعبان بن حسين ولم تزل نيابتها منذ فتحت مقدمة ألف، وكانت قد جعلت نيابةً مستقلةً عند الفتح ثم جعلت بعد ذلك مقدمة عسكر \*\* كما في غزة. **النيابات الصغار:**

يولي بها نائب حلب أجناداً، ولا مكاتبة لها من الأبواب السلطانية: وهي نيابة قلعة باري كروك، ونيابة كاروا، ونيابة كولاك، ونيابة كرزال، ونيابة كومي، ونيابة تل حمدون، ونيابة الهارونيتين، ونيابة قلعة نجمة، ونيابة حميمص، ونيابة قلعة لؤلؤة<sup>(١)</sup>.

### **ما هو في حدود بلاد الجزيرة شرقي الفرات:**

والمهم فيها ثلاث نيابات

الأولى نيابة البيرة: ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف. الثانية نيابة قلعة جعبر: ونيابتها طبلخاناه، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف. الثالثة نيابة الرها: قال في التتقيف: وقد جرت العادة أن تكون نيابتها طبلخاناه، ثم استقر بها في الدولة المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة مقدم ألف<sup>(٢)</sup>.

### **أرباب السيوف خارج حلب من الولاية:**

وتكون ولايتهم جميعاً من نائب حلب بتواقيع كريمة والمشهور منها اثنا عشرة ولاية: الأولى ولاية بر حلب: وهي كما في ولاية بر دمشق، إلا أن والي بر حلب هو والي الولاية. الثانية ولاية كفر طاب: وواليتها جندي. الثالثة ولاية سرمين: وواليتها في الغالب جندي، وربما كان أمير عشرة.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٢٨ . ٢٢٩ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٩ ، حمزة : نيابة حلب: ص ٤٧ . ٥٦ .

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٢٩ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٩ . اي رفع مقام نائبها لمقدم ألف .

\* اي خفض مركز متوليها من أمير طبلخاناه .

\*\* اي خفضت مرتبة متوليها .

الرابعة ولاية الجبول: وواليها جندي.

الخامسة ولاية جبل سمعان: وواليها جندي، وهو مقيم بمدينة حلب، يحضر المواكب مع والي المدينة ووالي البر: لقربه منها.

السادسة ولاية عزاز: وواليها جندي، وربما كان أمير عشرة.

السابعة ولاية تل باشر: وكان لها والٍ بمفردها جندي، ثم أضيفت آخراً لعينتاب.

الثامنة ولاية منبج: وواليها جندي.

التاسعة ولاية تيزين: وهي تارة تفرد بوال يكون جندياً، وتارة تضاف إلى حارم، ويقال والي حارم وتيزين.

العاشر ولاية الباب وبزاعا: وواليهما جندي.

الحادية عشرة ولاية دركوش: وواليها جندي.

الثانية عشرة ولاية أنطاكية: وواليها تارة يكون جندياً وتارة أمير عشرة، وربما أضيفت إلى نائب القصير.

وثمة ولايات أخرى ببلاد الأرمن ونحوها ولاية متوليهام جميعها أجناد<sup>(١)</sup>.

### العرب خارج حاضرة حلب:

كما في دمشق يتم تعيين متوليهام ن أمرائهم من قبل السلطان مباشر .

### ثالثاً - نيابة أطرابلس:

أطرابلس وما نطلق عليها الآن طرابلس او طرابلس الشام، تميزاً لها عن طرابلس الغرب . من نيابات الثغور مواجهة للقوى الصليبية والبحرية الصليبية. <sup>(٢)</sup>

وهي تأتي في المرتبة الثالثة بين نيابات الشام بعد دمشق وحلب.

### الوظائف في نيابة أطرابلس:

مثل كل النيابات تتألف من وظائف عسكرية ومدنية ودينية:

### الوظائف العسكرية (أرباب السيوف):

١ . النائب: نائبها من أكبر مقدمي الألوف، وهو في الرتبة العسكرية يأتي في المرتبة الثانية مثل نظيره في حلب ومقدم في المرتبة عن نائب حماة في المطلقات ويجلس فوقه في المجالس. رغم أن حماة أقدم من أطرابلس في النيابات المملوكية، وكانت دار ملك أيوبية. ووظائف ومهام نائب طرابلس أكثر مما يتصبه نائب حماة، وعسكر أطرابلس أكثر عدداً من عسكر حماة.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٣٠ . ٢٣١ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٠ ، حمزة : نيابة حلب: ص ٤٦ . ٥٦ .

٢ . (علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٤).

وليس بها قلعة يكون لها نائب، بل نائب السلطنة هو المتسلم لجميع أمور نيابته، والمتصرف فيما لديها من أمر العسكر وغيره<sup>(١)</sup>.

٢ . الأمير الكبير: ويقوم مقام الأمير الكبير في حلب.

٣ . الحجوبية: وبها ثلاثة حجاب أكبرهم طبلخاناه وهو حاجب الحجاب ويجلس في مجلس النائب على ميمنته بعكس غيره من الحجاب من حجاب المماليك. فإنهم يجلسون على الميسرة، وهو مقدم مائتين. والحاجبان الآخران كان كل منهما أمير عشرة. ثم أصبح طبلخاناة. وحاجب رابع أمير عشرة.

٤ . الإستادار: وهو إستدار الديوان الشريف، وتضاف وظيفته أحياناً إلى الحاجب الكبير، وهو من أمراء الطبلخاناة.

ويتبعهم نواب القلاع وهم من الطبلخاناة أيضاً والقلاع هي: المرقب وصهيون وحصن الأكراد وغير ذلك.

وفي أطرابلس أيضاً من أمراء العشرينات خمسة عشر، ومن أمراء العشرات أربعة عشر، ومن الخمسات واحد وعشرون، يتبعهم صاحب جند الحلقة.

٥ . المهمندارية: وهما اثنان أكبرهما ولايته من الأبواب السلطانية.

وفيها أيضاً: نقابة النقباء وولايته من الأبواب السلطانية، وتقدمة التركمان، وولاية المدينة ومتوليها من الأجناد يعين من قبل النائب وشد الدواوين، وشد الخاص، وشد مراكز البريد، وشد المينا، وأمير أخورية، وشد الأوقاف، وتقدمة البريدية، وأمير أخورية البريد، وغير ذلك، وكلها يوليها النائب بها. وقد تلاشى أمر كثير منها وضعفت أحواله<sup>(٢)</sup>.

#### – الوظائف الديوانية:

١ . كاتم السر: ويعبر عنه بصاحب ديوان الإنشاء بطرابلس، ويسمى أيضاً «رئيس ديوان الإنشاء بطرابلس» وولايته من الأبواب السلطانية.

ولديه أتباع منهم: كتاب دست، وكتاب درج، ولايتهم من نائبها.

٢ . ناظر الجيش: ويتم توليته من الأبواب السلطانية. ولم يكن له من يكتب لديه.

٣ . ناظر المملكة: وقد أضيفت هذه الوظيفة إلى النائب. وتوليته من الأبواب السلطانية.

وليس فيها من يكتب له.

وليس فيها ولاية رؤساء الصنائع أو أهل الذمة<sup>(٣)</sup>.

#### الوظائف الدينية:

١ . (الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٤٦ . ١٢٤٧).

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٣٣، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٣.

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٣٤، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٣.

١ . **القضاة:** في طرابلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، وقاضيا عسكر شافعي وحنفي، ثم أصبح قاضياً واحداً.

٢ . المحتسب ولايته من الأبواب السلطانية ولكن وظيفته أضيفت للنائب. وفيها مفتيا دارعدل كذلك، ووكيل بيت المال، وقد أهملت تلك الوظائف، وإلى غير أولئك من أرباب الوظائف الصغيرة<sup>(١)</sup>.

### **الوظائف خارج حاضرتها:**

وهم من النواب للنيابات الصغرى، ومن الولاة للولايات التابعة. النواب وهم على قسمين نواب مضافات أطرابلس ونواب القلاع: النيابة المضافة إلى أطرابلس: وبها خمس نيابات كلهم يكاتبون عن الأبواب السلطانية في المهمات ونحوها، دون خلاص الحقوق، فإنه يختص بنائب السلطنة بها.

الأولى نيابة حصن الأكراد: ونيابته إمرة عشرة.

الثانية نيابة حصن عكار: ونيابته إمرة عشرة.

الثالثة نيابة بلاطنس: ونيابتها إمرة عشرة.

الرابعة نيابة صهيون: ونيابتها إمرة عشرة.

الخامسة نيابة اللاذقية: ونيابتها إمرة عشرة<sup>(٢)</sup>.

### **نيابات قلاع الدعوة:**

وهي نيابات خارجة عن مصياف حيث أضيفت إلى دمشق:

الأولى نيابة الرصافة: وأصل نيابتها إمرة عشرة.

الثانية نيابة الخواي: وأصل نيابتها إمرة عشرة.

الثالثة نيابة القدموس: وأصل نيابتها إمرة عشرة.

الرابعة نيابة الكهف: وأصل نيابتها إمرة عشرة.

الخامسة نيابة المنيقة: وأصل نيابتها إمرة عشرة.

السادسة نيابة القلعة: وأصل نيابتها إمرة عشرة.

السابعة نيابة اللاذقية: وقد أضافها صاحب المقصد الرفيع وهي قلعة اللاذقية.

هذه النيابة كلها يتولاها إمرة عشرة ثم تبدل بعضها ليصبحوا من مرتبة الأجناد، وبالجملة يجري

توليتهم من نائب طرابلس. <sup>(٣)</sup>

### **الولايات التابعة لأطرابلس:**

وهي ولايات يتولاها جميعها أجناد، بتعيين من نائب طرابلس.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ص ٢٣٤، الخالدي : المقصد الرفيع ٢٨٣.

٢ . (علبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٤).

٣ . (علبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٤).

الأولى ولاية أنطربوس.

الثانية ولاية جبة المنيطرة.

الثالثة ولاية الظنيين.

الرابعة ولاية بشرية أو بشراي.

الخامسة ولاية جبلة.

السادسة ولاية أنفة. (لم يذكرها صاحب المقصد الرفيع).

السابعة ولاية جبيل. (لم يذكرها القلقشندي).

الثامنة ولاية البترون. (لم يذكرها القلقشندي).

وفي أطرابلس جماعة من التركمان وأميرهم في عهد صاحب المقصد الرفيع كان أبو بكر بن صوجي. وبها من العربان بنو كلاب وهم يتنقلون من مكان لآخر<sup>(١)</sup>.

### رابعاً نيابة حماة:

تقع في وسط بلاد الشام على طريق القوافل وعلى شبكة مواصلات هامة. ورأينا أنها بقيت تابعة للبيت الأيوبي في إطار الحكم المملوكي ثم حدثت فترة الانقطاع ما بين ٦٩٨ / ٧١٠ م / ١٢٩٨ . ١٣١٠ م حيث أصبحت نيابة مملوكية . ثم عادت ملكية تحت النفوذ المملوكي لأبي الفداء ٧١٠ . ٧٣٢ هـ / ١٣١٠ . ١٣٣١ م. وبعد وفاته استلم ابنه الملك الأفضل ناصر الدين محمد على قاعدة أبيه ، وبسبب تغير سلوكه وسوء معاملة رعيته، قام الأمير قوصون بعزله، لتصبح حماة نيابة مملوكية تحتل المرتبة الرابعة من نيابات بلاد الشام بعد دمشق وحلب وأطرابلس<sup>(٢)</sup>.

### الوظائف في الولاية:

ما بحاضرتها

### وظائف أرباب السيوف:

أما جيوشها فمن الترك ومن في معناهم، وبها من أمراء الطبلخانة أربعة ومن الأمراء العشرينات أحد عشر، ومن الأمراء الخمسات عشرة وبها أجناد الحلقة. وبها من وظائف أرباب السيوف: **النائب:** ويطلق على متولي هذه الوظيفة نائب حماة أو كافل المملكة الحموية ويكون من المقدمين وهو الوحيد من هذه المرتبة. ويكون النائب فيها في المرتبة الثانية من حلب في الألقاب ولكن أقل من

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٨٣ . ٢٨٤ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٣ . ٢٨٤ ، علبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٣٤ .

٢ . سبانو (أحمد غسان ) مملكة حماة الأيوبية: دار قتيبة دمشق ١٩٨٤ ص ٩٢ . ١٣٦ ، وسيشار إليه باسم : سبانو : مملكة حماة الأيوبية.

نائب أطرابلس في الإطلاقات الكبار عليها، وكان من أكابر الأمراء المقدمين ولكنه في المرتبة الثانية دون نائب أطرابلس، وإن كان مساوياً له في المكاتب السلطانية<sup>(١)</sup>.

**الحجوبية:** وبها حاجبان: الكبير منهما طبلخاناه وهو حاجب الحجاب، والثاني عشرة؛ والمهمندارية، وبها اثنان وهما جنديان؛ وشد مراكز البريد، وبه جندي؛ وأمير أخورية البريد، ومتوليها جندي؛ وولاية المدينة، وواليها جندي؛ ونقابة العساكر، وبها اثنان وهما جنديان أحدهما أكبر من الآخر. وجميع أرباب الوظائف يوليهم النائب بها بتواقيع كريمة، وليس بها قلعة لها نائب.

### الوظائف الديوانية:

من أرباب الأقلام:

كاتب سر: ويعبر عنه في ديوان الإنشاء «بصاحب ديوان المكاتبات بحماة المحروسة»، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتباع من كتاب الدست وكتاب الدرج وولايتهم عن النائب بتواقيع كريمة.

ناظر المملكة: القائم مقام الوزير، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتباع من كتاب وشهود، وولايتهم عن النائب بتواقيع كريمة.

وكان فيها وزير ولكن انحطت مرتبته إلى ناظر المملكة، ثم أضيفت وظيفته إلى نائبها.

إلى غير ذلك من وظائف صغار يوليها النائب بتواقيع كريمة.

وليس فيها من يتولى من الأبواب من ذوي الرئاسة الصنائية، ولا أهل الذمة.

### الوظائف الدينية:

وهم من أرباب العمام أربعة قضاة من المذاهب الأربعة، وولايتهم من الأبواب السلطانية بتواقيع شريفة، وقاضي عسكر حنفي، وليس بها قضاة عسكر من المذاهب الثلاثة الآخر ولا مفتو دار عدل؛ وبها وكيل بيت المال، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ووكالة شرعية؛ ومحتسب بولاية عن النائب بتوقيع كريم، ولكن وظيفته أحييت للنائب<sup>(٢)</sup>.

### الوظائف خارج عن حاضرتها

وليس بخارجها نيابات، بل يقتصر فيه على ثلاث ولايات، ولاتها أجناد يوليهم النائب بها:

الأولى: ولاية برها كما في دمشق وحلب.

الثانية ولاية بارين.

الثالثة ولاية المعرة.

وليس بها عرب ولا تركمان تتسب إليها<sup>(٣)</sup>.

١. (الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٤٠ - ١٢٤١).

٢. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٣٨، الخالدي: المقصد الرفيع ص ٢٨٣.

٣. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٣٩، الخالدي: المقصد الرفيع ص ٢٨٣.

ويستغرب ألا يكون في حماة عرب أو تركمان كما أفاد القلقشندي وصاحب المقصد الرفيع، ويبدو أن عرب بادية الشام كان ارتباطهم الإداري بين دمشق وحلب.

### خامساً نيابة صفد او صفت :

تشكلت صفد كنيابة من نيابات الشام في العصر المملوكي بهدف التصدي للصليبيين في عكا والمناطق الأخرى التي ما زالت حينها بأيديهم، لذلك حشدت السلطات المملوكية حامية عسكرية كبيرة فيها، وبالفعل كان لهذه الحامية دورها في معارك التحرير.

وقد وصف ابن شداد طريقة تشكيل نيابة صفد من قبل الظاهر بيبرس إذ رتب السلطان فيها والياً ( .. . وجعل فيها أربعة وخمسين مملوكاً من مماليكه، وأقطعهم إقطاعاً، ...، وولى نائباً لقلعتها ، وصير نيابته في بلدها إلى الأمير عز الدين أيبك العلاني)<sup>(١)</sup>.

وشهدت صفد جميع حوادث بلاد الشام وشاركت فيها من حروب صليبية وهجمات التتار، والصراعات الداخلية، وكان السلطان تارة يولي نيابتها للأمرء غصباً أو باعتبارها منفى. أو أسترضاء لهم مثل قيام السلطان خشقدم سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م بتعيين الأمير تمتاز الأشرفي نائباً عليها. وقد تقلد نيابتها مئة وسبعة وعشرون نائباً منذ إنشائها وحتى سقوط الدولة المملوكية<sup>(٢)</sup>.

### الوظائف فيما هو بحاضرتها:

#### أولاً - الوظائف العسكرية (أرباب السيوف):

**النائب:** وكان يطلق عليه نائب السلطنة الشريفة بصفد، كذلك نائب المملكة الصفدية أو الممالك الصفدية، وكافل المملكة الصفدية. كذلك نائب السلطنة بالممالك الصفدية والشقيفية والساحلية، وكافل المملكة الصفدية. وكانت تذكر بعد حماة في المطلقات، وكانت نسبة نائب صفد مثل نسبة نائب حلب وما يقاربها، وقد أحدثت الوظيفة بعد فتح صفد، ومتوليها من أمراء المنتئين مقدم ألف وهو مسؤول عن ولايته وتوابعها، وولايته من الأبواب الشريفة. وللنائب إقطاع مخصص له للصرف على نفسه وعلى الولاية، فإذا لم يكفه كان يزداد من أموال السلطان.

وكان تحت إمرة نائب صفد مئة أمير وألف مقاتل. ولا يدخل القلعة راكباً إلا نائبها.

وكان أول نائب عن السلطان بصفد الأمير عز الدين العلاني الذي عينه الظاهر بيبرس بعد فتح صفد مباشرة في ١٨ شوال ٦٦٤ هـ / ٢١ تموز ١٢٦٦ م. وقد تعاقب على نيابة صفد منذ تأسيسها حتى سقوطها بيد العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م، حوالي مائة وستة عشر نائباً<sup>(٣)</sup>.

١. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ص ٥٠، العثماني : تاريخ صفد ص ٣. علي دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣٤

٢. العثماني : تاريخ صفد ١٤ . ١٥.

٣. (الطراونة : «مملكة صفد : ص ٢٢٧ . ٢٣٢، العثماني : تاريخ صفد ص ١٣٠ . ١٤٨، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٤٥ و ١٢٤٦).

**نائب القلعة:** وهو لا يخضع لصلاحيات نائب صفد بل يتبع السلطان مباشرة. وكان طبلخانة وأصبح من المقدمين ثم عاد طبلخانة. وأول من تولى هذه الوظيفة كان من تعيين الظاهر بيبرس يوم تحررها من الصليبيين.

وهناك قلاع كانت تتبع صفد مثل قلعة الشقيف وقلعة القرين وقلعة تنين وقلعة هونين وقلعة الطور وقلعة كوكب<sup>(١)</sup>.

**الأتابك:** وهو مقدم العسكر، ويطلق عليه أيضاً الأمير الكبير أو مقدم عسكر المملكة. وأول من شغل هذه الوظيفة فور إنشاء النيابة الأمير علاء الدين إدغي السلاح دار مقدماً لعسكر صفد<sup>(٢)</sup>.

**الحجوبية:** أو الحاجب الكبير، ومتوليها من الأمراء من مقدم المئتين وأمير ألف، وهو نائب الغيبة يتولى النيابة إذا غاب النائب لمهمة أو للصيد، وهو الذي يقبض على النائب إذا أراد السلطان ذلك، ويتولى النيابة حتى يأتي نائب جديد. ويساعده حاجبان كل واحد منهم أمير عشرة<sup>(٣)</sup>.  
**الدودار:** حامل الدواة وهي وظيفة لم تكن ثابتة في صفد بين أعمال وإهمال.

**الخرندار:** وهو المسؤول عن خزائن القلعة، ومحتوياتها من أسلحة وأعتدة، وهي أيضاً بين أعمال وإهمال.

**استدار الديوان الشريف:** وهو من أمراء العشرات، وغالباً ما أضيفت وظيفته للحسبة. وفي النيابة من أمراء الطبلخانة أربعة، ومن أمراء العشرينات أربعة ومن أمراء العشرات ستة ومن أمراء الخمسات ثلاثة، وبها جند الحلقة.

## ثانياً الوظائف المدنية:

**ناظر النظار:** أو ناظر المملكة، وهو الذي يشرف على باقي الدواوين في النيابة. يعين من قبل السلطان مباشرة ووظيفته استشارية لا تنفيذية، تعتمد على قوة شخصية متوليها. وأحياناً يدعى الوزير.

**كاتب السر:** وهو رئيس ديوان الإنشاء في النيابة، ويتبعه كتاب الدست والدرج والموقعون، ومن أشهر من تولى كتابة الدرج في هذا الديوان المؤرخ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي في أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي؛ أول منصب إداري يتولاه في حياته المهنية.

وكان في نيابة صفد ديوان بريد وديوان الجيش الذي يُعنى ناظره بشؤون الجيش ويعد قوائم الإقطاعات وكان يسند هذا المنصب لأحد القضاة إضافة لعمله كقاض. وأحياناً يجري تعيين كاشف، وديوان المال الذي يعين متوليه من السلطان مباشرة.

وهناك وظائف أخرى ثانوية مثل ناظر خزائن السلاح وناظر مراكز البريد وناظر الأحباس.

## الوظائف الدينية:

١. (الطراونة : مملكة صفد ٢٣٦، العثماني : تاريخ صفد ١٤٨ . ١٥٠).

٢. (الطراونة : مملكة صفد : ، ١٩٨١ ص ٢٣٧ . ٢٣٩).

٣. (الطراونة : مملكة صفد : ١، ١٩٨١ ص ٢٣٢ . ٢٣٤ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١٥٠).



وكان فيها أربعة قضاة للمذاهب الأربعة والأعلى منهم مفتي الشافعية.  
ويوجد مفتيين واحد للشافعية والآخر للأحناف. والمحتسب، وكان فيها من تولى شؤون الأوقاف ومن يشرف على بيت المال ومن يشرف على حفظ أموال الأيتام. <sup>(١)</sup>  
ولم يكن بها من عربان سوى عرب بن بشارة، وهم عربان، ولم يكن لهم أمير ولا مقدم وكان عليهم كاشف من قبل السلطان.

### الوظائف خارج عن حاضرتها:

وليس بأعمالها نيابة بل كلها ولايات، يليها أجناد من قبل نائب صفد؛ وهي إحدى عشرة ولاية:

الأولى: ولاية برها كما في غيرها من الممالك المتقدمة.

الثانية: ولاية الناصرة.

الثالثة: ولاية طبرية.

الرابعة: ولاية تبين وهونين.

الخامسة: ولاية عثليث.

السادسة: ولاية عكا.

السابعة: ولاية صور.

الثامنة: ولاية الشاغور.

التاسعة: ولاية الإقليم.

العاشرة: ولاية الشقيف.

الحادية عشرة: ولاية جينين. <sup>(٢)</sup>

### سادسا - نيابة الكرك:

أحدثها الظاهر بيبرس إثر استرجاعها من حاكمها الأيوبي في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦٦١ هـ / ٤ مايس . مايو ١٢٦٣ ، وعين أول نائب مملوكي عليها الأمير عز الدين أيدمر الإستادار، وأضاف إليه الشوبك وأعمالها . <sup>(٣)</sup>

١ . الفلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٤٠ . الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٤ . ٢٨٥ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١٤ . ٢٤ .

العثماني : تاريخ صفد ص ١٥١ . ١٥٤

٢ . الفلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٤٠ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٥ ، العثماني : تاريخ صفد ص ١١٧ . ١٢٨ . ٢٥٨ .

٢٦١ . الطراونة : مملكة صفد ٢٤٥ . ٢٥٧ . علي : دمشق بين عصرالمماليك والعثمانيين: ص ٣٤ . ٣٥

٣ . إمارة الكرك الأيوبية ص ٣١١ . ٣٢٨ ، في المقصد الرفيع أن بيبرس اقتلعها من عمر بن العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٧١ هـ انظر ص ٢٨٦ ، وانظر في ذلك أيضاً الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٥٤ ، وج ٣ ص ١٢٦٥ ، علي : دمشق بين عصرالمماليك والعثمانيين: ص ٣٥ .

## جيوشها:

فعلى ما تقدم في غيرها من الممالك من اجتماعها من الترك ومن في معانهم وعساكر غير مملوكية تعود في أصولها للعصر الأيوبي. وقدر ابن شاهين الظاهري عدد أجناد الحلقة بصفد بألف. ومن القوات في الكرك ممالك النائب والأمراء، وحسب ابن شاهين الظاهري كانوا ألفاً ايضاً. يضاف إلى ذلك في بعض المهمات عناصر أخرى من العرب والتركمان. وكان جيش الكرك يعتمد نظام الإقطاعات. <sup>(١)</sup> وبها من الأمراء الطبلخانات والعشرات والخمسات، وليس بها مقدم ألف غير النائب. <sup>(٢)</sup>

## الوظائف في حاضرتها:

### أولاً الوظائف العسكرية:

١ - النائب: وكانت تسميته نائب السلطنة بالكرك المحروس، وهو من نواب السلطنة بالممالك الشامية، وشاغلها من رتبة مقدم ألف يعين من قبل السلطان مباشرة.

٢ - ولاية القلعة: يعين من السلطان ايضاً وكان يطلق على متوليها نائب القلعة حيناً وواليها حيناً آخر.

وفي الكرك حبس مشهور حيث كان يوضع فيه كبار الموظفين والأمراء وقد اجتمع مرة في حبس الكرك سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م استدمر نائب حلب، وبكتمر نائب مصر، وكراي نائب دمشق، وقطلوبك نائب صفت، وقطنمز نائب غزة .

وفيها الحجوبية وحاجبها جندي حلقة. وفيها المهندارية وتقدمة البريد.

### ثانياً الوظائف الديوانية:

ناظر المال وناظر الجيش وكاتب درج؛ وولاية هؤلاء الثلاثة من الأبواب السلطانية.

### ثالثاً الوظائف الدينية:

فيها قاض واحد شافعي.

وفيها وكيل بيت المال

والمحتسب إلا أن هذه الوظيفة ألحقت بالنائب. <sup>(٣)</sup>

## الوظائف خارج عن حاضرتها:

### الولايات:

وفيها أربع ولايات تجري توليتهم من النائب:

---

١ . ( الظاهري : زبدة ص ١٠٤، الطراونة : مملكة صفد : ، ١٩٨١ ص ٢٢٧ . ٢٣٢، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٥٣ . ١٢٥٥).

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٤٢.

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٤٢، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٦.

الأولى ولاية برها كما في غيرها.

الثانية ولاية الشوبك.

الثالثة ولاية زغر.

الرابعة ولاية معان. (١)

### سابعاً . نيابة غزة

وهي ذات موقع إستراتيجي هام بين آسيا وأفريقيا، وموقع تجاري على الطريق التجاري الدولي بين آسيا والشرق الأوسط وأفريقية . ولموقعها أهمية عسكرية بين مصر والشام. (٢)

وهي من النيابات الصغرى التي كانت تابعة لنيابة دمشق، واتخذت صفة النيابة المستقلة في عهد الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م

وتأتي نيابة غزة في المرتبة السادسة من حيث الأهمية والحجم بعد نيابة صفد .

### ومن المدن والقرى التي تتبع نيابة غزة:

أطرية وهي قرية عربية. وبربرة التي تقع قرب عسقلان على بعد ٢١ كم إلى الشمال الشرقي من غزة وفيها مزار الشيخ يوسف البربراوي. وبيت جبرين وهي من حصون بيت المقدس وهو من بناء الصليبيين، وبيت دارس أو بيت داراس التي تقع بين غزة والرملة وكانت في العصر المملوكي محطة من محطات البريد بين غزة ودمشق. وبيت لهايا أو بين لاهيا. وتل الصافية أو تل الصافي وهو حصن يقع قرب بيت جبرين من نواحي الرملة من بناء الصليبيين، وجديدة وهي موقع قريب من غزة، جرجة أو بيت جرجا وهي من قرى عسقلان، والجينين وهي قرية من قرى غزة كانت محطة بريد بين غزة ودمشق، والداروم أو دير البلح وهي قلعة صليبية محررة كانت مركزاً بريدياً. ورفع على الطريق لمصر وكانت محطة بريدية، وسدود أو إسدود. وسطر كانت محطة بريدية نقل البريد منها إلى السلقة. والسلقة وهي محطة بريدية أقيم مكانها خان يونس، عجور وهي من أعمال غزة، عسقلان التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط وكانت في قبضة الصليبيين، وعمورية القريبة من الداروم، وقطرا أو قطرة من محطات البريد. وكرتيا القريبة من جبرين، ومجدل حمامة القريبة من عسقلان، وملاقس من محطات البريد، وباسور أو ياصور من محطات البريد أيضاً قبل نقل مركزها إلى بيت دارس ومن مراكز المناور بين الشام ومصر، ويبيني أو بينا وكانت من حصون الصليبيين وتقع بين يافا وعسقلان. (٣)

وكان عدد سكان غزة في العصر المملوكي لا يتجاوز عشرة آلاف نسمة أكثرهم من المسلمين وفيهم من النصارى القليل ومن اليهود عدد قليل جداً.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٢٤٢، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٨٦.

٢ . (الموسوعة الفلسطينية إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية دمشق ١٩٨٤ ج ٣ ص ٣٩٠ وسيشار إليها باسم الموسوعة الفلسطينية).

٣ . (العمرى : التعريف ص ١٩١ زبدة ص ١١٩ نيابة غزة: عطا الله ص ٦٧ . ٧٨ الموسوعة الفلسطينية حسب الترتيب الأبجدي فيها).

## أولاً الوظائف العسكرية:

النيابة: قول ابن فضل الله العمري في صلاحية نائب غزة: ولناؤها الحديث في هذه الصفقة مع مراجعة نائب الشام، وأما الولاية والعزل بها فلنائب الشام ليس إلا في قرتيا وبيت جبرين والداروم فإن نائب غزة يولي ولايتها. <sup>(١)</sup> وتارة يصرح لنائبها بولاية السلطنة حين تكون نيابة مستقلة. وناؤها أو مقدم العسكر بها لا يكون إلا مقدم ألف؛ والفرق بين الوظيفتين كبير ففي حالة ضم البلاد الساحلية والجبلية يلقب «بنائب السلطنة»، وإن اقتصر أمره على البلاد الساحلية فقد كان «مقدم عسكر». <sup>(٢)</sup>

ومهمته مراجعة كل ما يتعلق بشؤون الجيش والمال والبريد والأخبار وهو رئيس الموظفين وكل موظف في نيابته لا يتصرف إلا بأمره، وهو مقدم عسكر النيابة. ومقدم عسكرها يلقب «تقدمة العسكر المنصور». وبها أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات، وفيها من وظائف أرباب السيوف الحجوبية وحاجبها أمير طبلخاناه، وتعريفه «الحاجب بغزة المحروسة» وقد ظهرت هذه الوظيفة لأول مرة في نيابة غزة في أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وقد تولاهما كثير من مشاهير الأمراء ( انظر لائحة نواب غزة ).

وقصر النيابة في غزة من إنشاء الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي الشافعي إبان ولايته غزة ٧١١ هـ / ١٣١١ م حيث كان أول من مدنها إذ بنى فيها القصر والجامع والحمام والمدرسة الشافعية وخان السبيل والمرستان والميدان، كما بنى الكثير في القدس والرملة وأرسوف وقاقون وغيرها.

وقد بلغ عدد نواب غزة مائة وعشرون نائباً، أولهم الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي إثر هزيمة التتار في معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م حيث عين نائباً لغزة وأمر الساحل. وكانت غزة حينها من النيابات الصغار. وكان آخر نواب غزة الأمير دولاب باي حيث ضمت إليه إضافة لغزة نيابتا القدس والكرك والرملة عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م. <sup>(٣)</sup>

**ولاية المدينة:** تكون لأمر عشرة وأحياناً يتولاها جندي ويكتب بها «توقيع كريم عن النائب».

**ولاية البر:** أي ولاية المناطق المحيطة بالمدينة.

**شد الدواوين:** وكانت أمرتها طبلخاناة ثم إمرة عشرة خفضت في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي إلى إمرة جندي.

ومن الوظائف العسكرية الأخرى: المهمندارية، والأتابكية والدوادارية ونقابة النقباء وغير ذلك <sup>(٤)</sup>.

## الوظائف الديوانية:

١ . ( العمري : التعريف ص ١٧٧ ، عطا الله (محمود علي خليل ) نيابة غزة في العهد المملوكي: دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٦ ص ٦٦ ).  
وسيشار للكتاب باسم عطا الله : نيابة غزة .:

٢ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٧ ص ١٩٧).

٣ . (انظر ولاية غزة في كتاب عطا الله : نيابة غزة: الملحق رقم (١) ص ٢٧٧ . ٣١٢).

٤ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٨ ، عطا الله : ولاية غزة: ص ١٢٤ . ١٢٧)

**كاتب درج:** أو السر ويعين مباشرة من قبل السلطان ورسمياً حسب القلقشندي لا يطلق على متوليها أبداً كاتب السر إلا أن العامة درجت على تسميته بكاتب السر. (١)

**ناظر جيش:** وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع كريم وهو الذي يتحدث بالإقطاعات وهو الذي يحكم في المحاكمات الديوانية.

**ناظر المال:** وولايته من الأبواب السلطانية. وموضوعها حمل حمول النيابة إلى بيت المال في القاهرة والتصرف فيه تارة قبضاً وصرفاً وتارة بالتسويغ محضراً وصرفاً، وعادة لا يتولاها إلا من اشتهر بالعدالة والعلم والديانة. (٢)

### الوظائف الدينية:

قاض شافعي: وولايته من قبل قاضي دمشق إذا كانت غزة تقدمه عسكر وإلا فهي من الأبواب السلطانية.

وقاض حنفي: قد استحدثت هذه الوظيفة في أيام السلطان برقوق، وولايته من الأبواب السلطانية. وورد ذكر قضاة من المذهب المالكي ومن المذهب الحنبلي. وبها المحتسب، ووكيل بيت المال ومن في معناهم، وكلهم نواب لأرباب هذه الوظائف بدمشق كما في القاضي الشافعي. وليس بها قضاء عسكر ولا إفتاء دار عدل. (٣)

### ثامناً . نيابة القدس:

كانت القدس من النيابات الصغيرة التابعة لدمشق، خلا بعض الفترات التي عوملت كنيابة مستقلة ولها إضافاتها. ويذكر أنها استحدثت في سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م<sup>(٤)</sup> وأضيف لها نظر القدس والخليل. (٥) وكان يتم تعيين نائبها من قبل نائب دمشق. ثم أصبح تولية نائبها تتم من قبل السلطان مباشرة. (٦) ونيابة القدس تنقسم إلى مدينة القدس. وولاية برها.

١ . (القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١ ص ١٠٤)

٢ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٨، عطا الله : نيابة غزة: ص ١٤٠ . ١٤٢).

٣ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٨، عطا الله : نيابة غزة : ص ١٢١ . ١٤٥، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٢٤٨ . ١٢٤٩).

٤ . (في الخالدي : القصد الرفيع ص ٢٧٥ يذكر نقلا عن التتقيف أن السنة كانت ٧٦٧ هـ).

٥ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٩).

٦ . الحنبلي (مجير الدين ) الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل: طبعة مكتبة المحتسب عمان ١٩٧٣ ج ٢ ص ٢٨٢ وسيشار إليه باسم الحنبلي : الأئس الجليل. ، غوانمة : تاريخ نيابة بيت المقدس: ص ١٣ . ٢١، عطا الله (محمود علي خليل ) القدس في العصر المملوكي: ص ٣٢ . (٣٧).

**مدينة القدس :** نيابتها إمرة طبلخاناه، وقد جرت العادة أن يضاف إليها نظر مقام الخليل عليه السلام. (١)

**اما الوظائف فيها فهي:**

**أولاً الوظائف العسكرية:**

**النائب:** ومقره كان في قلعة بيت المقدس. ثم انتقل إلى زاوية الدركاه قرب البيمارستان الصلاحي، حتى بنيت دار النيابة فيها فصارت مقر النائب. وولايتها من الأبواب الشريفة، وينظر أيضاً في القدس وبلد الخليل ويعبر عنه بـ «نظر الحرمين»، كما لقب «ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل». وفي عهد الأشرف برسباي جمع له من الوظائف إضافة لنيابته كاشف الرملة وكاشف نابلس واستدار الأغوار ومتولي الصلت، وهذا ما أنعم به السلطان برسباي على نائبها الأمير طوغان العثماني سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م. وكان للنائب إقطاع خاص يشتمل عدة قرى منها مدينة أريحا في غور الأردن. (٢)

**ولاية (نيابة) قلعة القدس:** وكان واليها جندياً قبل أن تصبح ولاية منفصلة إدارياً وقد كان اسم الوظيفة أولاً والى القلعة ثم أصبحت نائب القلعة. وكانت توليتها أولاً من جهة نائب السلطنة بدمشق، إلا أن والي القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القدس من حين استقرت نيابة.

**ولاية المدينة:** وتوليتها من نائب دمشق قبل أن تكون القدس نيابة. وبعدها أصبحت التولية تتم من نائب القدس، ثم أصبحت التولية من اختصاصات السلطان مباشرة.

**ولاية بلد الخليل عليه السلام:** ونائبها يعين بمرسوم سلطاني. ويقوم في القلعة.

**الحاجب:** وكان في القدس وظيفة أمير حاجب مثل ولايات الشام وهو ينوب عن النائب في حال غيبته. وكان في النيابة أربعة حجاب رئيسهم حاجب الحجاب.

**الدودار:** وهو الذي يشرف على البريد ويبلغ الرسل عن النائب ويقدم القصص وكان النائب يكلفه بمهمات حربية.

**كاشف بيت المقدس:** من أمراء الطبلخانة يعينه نائب القدس مهمته الإشراف والكشف عن الجسور وسائر الأمور المتعلقة بأراضي الولاية.

**ترجمان القدس:** وهو من المماليك الذين اعتنقوا الإسلام مهمته تدوين أسماء الحجاج الأجانب وإرسالها للسلطان في مصر عن طريق كبير الترجمة في مصر وكان المفروض أنه يتكلم عدة لغات. وله مساعد يعمل بين يديه. وهو ناظر كنيسة القيامة ويتبعه عدد من الحراس. (٣)

١. (في الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٥ نقلا عن التتقيف ط وربما أضيف له كشف الرملة ونابلس ولم يذكر الباقي).

٢. (القلشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٣٢٠، غوانمة : تاريخ نيابة بيت المقدس: ص ٣١. ٣٠ - علي (د. علي السيد) القدس في العصر المملوكي: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ٢٠٠١ ص ٤٠. ٤١، وسيشار إليه باسم علي : القدس في العصر المملوكي).

٣. (القلشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١١٩، علي : القدس في العصر المملوكي: ص ٤٠. ٤٥ - غوانمة (د. يوسف درويش) تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، دار الحياة عمان ١٩٨٢، ص ٣٠. ٣٥ وسيشار إليه باسم غوانمة : تاريخ بيت المقدس:).

## ثانياً الوظائف المدنية:

وقد ذكر القلقشندي أن في نيابة القدس معظم الوظائف التي كانت في باقي نيابات الشام مثل دمشق وحلب والكرك وغزة وصفد. (١)

وتتم بتولية عن أرباب الوظائف بدمشق قبل أن تصبح نيابة مستقلة. وبعدها أصبحت تولية الوظائف بمعظمها من قبل نائبها حسب الوظيفة. منها:

**كاتب الدست:** وكان في القدس أكثر من كاتب دست وهو يقوم مقام كاتب السر ويرد على الكتب الواردة بعد أخذ توقيع النائب.

**ناظر بيت المال:** ومهمته النظر في أموال النيابة ومراقبتها قبضاً وصرفاً، وأحياناً يتولى الوظيفة ناظر الحرم الشريف. وكان في نيابة القدس بيت للمال.

**ناظر الجيش:** وله ديوان خاص لإثبات الإقطاعات. وصاحب الوظيفة يتتبع الإقطاعات ويدونها ويكتب بالكشف عنها بعد أخذ توقيع النائب. ثم يكتب للسلطان إلى ديوان الجيش بقلعة الجبل عن الإقطاعات المتوفرة بعد موت أصحابها. ويساعد الناظر في مهمته كتاب وعامل تنظيم الحسابات وصيرفي الذي كان يتولى قبض المال وصرفه بمعاونة الصيارفة. كذلك يوجد في الديوان شهود لإثبات وتوثيق العمليات.

ويتبع تلك الوظائف نقابة الأشراف التي هي بين الوظائف الإدارية والدينية. وولايتها تكون من نائب القدس. (٢)

## ثالثاً الوظائف الدينية:

وبها قاض شافعي ومحتسب نائبان عن قاضي دمشق ومحتسبها. (٣)  
ويضيف صاحب القصد الرفيع وظائف أكثر تفصيلاً وهي: وفيها شيخ الحرم وولايته من الأبواب الشريفة. وفيها خطيب القدس. وناظرا المدرستين الصلاحيتين، الكبرى لطلبة العلم والصغرى رباطاً للمتريدين والمجاورين. وبها قاض شافعي ولايته من الأبواب الشريفة. إضافة لناظر الحرمين الشريفين ونظر البيمارستان وعدة وظائف للتدريس (٤)

### جيش نيابة القدس:

تضم نيابة القدس جيشاً خاصاً بها مثل بقية نيابات بلاد الشام وربما يصل تعدادها إلى ألف جندي مهمته الدفاع عن النيابة وقمع الفتن والمساعدة في حروب الدولة عند الضرورة.  
وكان عناصر الجيش مثل باقي النيابات من المماليك من نفس أجناس الجيش عموماً، ويعتمد نظام الإقطاعات. ويضم أمراء وأجناد ومماليك.

١ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١١٩).

٢ . (غوانمة : تاريخ بيت المقدس: ص ٤٧ . ٥٣، علي : القدس في العصر المملوكي: ص ٤٥ . ٤٨).

٣ . (القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١١٩).

٤ . (الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٥، غوانمة : تاريخ بيت المقدس: ص ٣٦ . ٤٦، علي : القدس في العصر المملوكي: ص ٤٨ . ٥٦).

وللقدس قلعة يتولاها نائب القلعة، بنفس ترتيب باقي قلاع الدولة. وكان يتبع نائب القلعة البريد.<sup>(١)</sup>  
وأما الولايات التي تتبعها في الجهة الغربية:

فالأولى ولاية الرملة: من بناء الوليد بن عبد الملك عند توليه جند فلسطين ونزوله باللد. وأول ما بنى فيها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين وابتدأ في بناء جامعها. <sup>(٢)</sup> وكانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون من الولايات الصغار بها جندي، ثم استقر بها في دولة الظاهر برقوق كاشف أمير طبلكاناه، ثم أصبحت مكاتبته عن الأبواب السلطانية بعد ذلك.

الثانية ولاية لد: وهي بلدة قرب مدينة الرملة من أعمال بيت المقدس<sup>(٣)</sup> وقد كانت في الأيام الناصرية ابن قلاوون ولاية صغيرة بها جندي، ثم أضيفت إلى الرملة حين استقر بها الكاشف المقدم ذكره.

الثالثة ولاية قاقون: وهي حصن بفلسطين من عمل قيسارية تقع قرب الرملة وهي مدينة غير مسورة<sup>(٤)</sup> وكان بها في الأيام الناصرية جندي، ثم أضيفت إلى كاشف الرملة عند استقراره.

الرابعة: ولاية بلد الخليل عليه السلام: وكان في الأيام الناصرية بها جندي، ثم أضيفت إلى القدس حين استقر النائب بها.

الخامسة ولاية نابلس: وهي باقية على حالها في الانفراد بالولاية، وواليتها تارة يكون أمير طبلكاناه، وتارة أمير عشرين، وتارة أمير عشرة. وكان فيها كاشف مضاف إلى كاشف الرملة. <sup>(٥)</sup>

١ . ( الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٠٤ . ١٠٥ ، غوانمة : تاريخ نيابة القدس: ص ٤٩ . ٥٧ ) .

٢ . مرمجي (الاب ا. س. الدومونكي ) بلدانية فلسطين العربية عالم الكتب بيروت ١٩٨٧ ص ١٣٧ وسيشار اليها باسم بلدانية فلسطين العربية).

٣ . (مرمجي : بلدانية فلسطين العربية ١٩٨٧ ص ٢٩٩ )

٤ . (مرمجي : بلدانية فلسطين العربية ١٩٨٧ ص ٢٦١ )

٥ . (الفلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ١٩٩ . ٢٠٠ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٧٦ ) .



## ( ٢ ) - القبائل والعشائر البدوية العربية والتركمانية :

### ١ - القبائل البدوية العربية :

ينقسم سكان بلاد الشام الى حضر وبدو :

فالحضر هم سكان المدن والقرى ، وقد اشتغلوا في الزراعة والصناعة والتجارة . ونظراً لطبيعة استقرارهم المدني وطبيعة أعمالهم التي تقتضي الاستقرار والهدوء . لذلك هادنوا المماليك ولم يخرجوا عن سلطتهم بل لم يشاركوا بالثورات والعصيان الذي كان يقوم به أمراء المماليك.

أما البدو فهم سكان بادية الشام من القبائل والعشائر البدوية التي همها الترحال في نجعات قصيرة وطويلة إعتادوا عليها عبر الأجيال، تمتد من جنوب الصحراء العربية وحتى ضفاف الفرات . ونظراً لإمتدادهم الكبير هذا وإختلاف مواقع منازلهم ، فقد توزعت ولائهم لعدة سلطات حاكمة . كان من هؤلاء المماليك لفترة حكمهم . وكان للتتار حين تكون الغلبة لهم . ذلك لأنهم أرادوا دائماً الإحتفاظ بدورهم التجاري، وهو السهر على سير القوافل التجارية وقوافل الحجيج طالما حفظت حصتهم جعالتهم . وتجارة الخيول التي كانت تعتبر مع الهجن ، تجارة أسلحة ذلك العصر وكانوا أحياناً يمدون القوى المملوكية والتتار بالخيول والهجن على حد سواء . وكان للتهريب دوره في اقتصاديات البدو <sup>(١)</sup>.

وأهم مصادر دخل البدو كانت :

أولاً - الخيول وهي من أهم مصادر دخل البدو . فالخيول كانت أهم مظاهر القوة العسكرية المملوكية، وكان المماليك هم وحدهم من يتمتع بركوب الخيول . وكانت ظروف الحرب تقتضي الحصول على الخيول بكثرة وبشكل مستمر . لذلك كانت مبيعات الخيول للمماليك هائلة في الحجم . وكانوا يكسبون منها الكثير ويرفعون أثمانها عندما يجدون طلباً ، خصوصاً من السلطان . فقد حصل البدو من آل مهنا وآل فضل على هبات وأثمان عالية لخيولهم من السلطان الناصر محمد ، وتحالفوا معه وصاروا ساعده الأيمن في الحصول على الخيول العربية . ولإعطاء فكرة عن ذلك ، نرى أن السلطان الناصر محمد ترك حين وفاته ثلاثة آلاف فرس في المرعى ، وأربعة آلاف وثمانمائة في الإصطبلات ، وترك خمسة آلاف من الهجن والأصايل والنوق المريان ( من مقتنيات آل مر ) ومن القرشيات وكان يتولى العريان والأمراء تدريب هذه الخيول ، فكان يترتب على كل أمير من أمراء الألو ف تدريب أربعة رؤوس سنوياً . ذلك عدا ما كان يقدم السلطان كل سنة لأمرائه وأكابر دولته من الهدايا من الخيول الفاخرة .

وكان سعر الخيول يتراوح ما بين آلاف الدراهم وبضعها . فقد أحضر الأمير موسى بن مهنا خيولاً كان طلبها السلطان من آل فضل وتهربوا من إحضارها وقدمها هدية ، وقد أثابه السلطان عنها عزاً ومالاً . كذلك فعل الأمير موسى بن مهنا سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م وقبض ثمنها عالياً . وقبض فياض بن مهنا

١ . ( ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٨٥ ، السبكي : معيد النعم ص ٥٤ ، عاشور : مصر والشام : ص ٣١٢ ) .

ألف درهم قيمة سبعين فرساً وخمسين هجيناً وعشر مهوريات ، وذلك سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م . وقبض عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م قيمة اثنان وسبعين فرساً بسعر أقله عشر دراهم وأعله ثلاثون (١).

ثانياً \_ الهجن : وكانت الهجن تدر أرباحاً كثيرة على البدو . فهي واسطة النقل في الصحراء . وهي أساس حيوانات النقل في القوافل التجارية والحج . وحرصت السلطات المملوكية على الحصول عليها سواء وقت السلم أو وقت الحرب ، وكان البدو يحصلون على أثمان عالية . خصوصاً المهاري منها وجلب السودان وأرتيرية . وكان البدو يستغلون الظروف أثناء الحروب أو التهديد فيها خصوصاً حينما يزداد الطلب عليها هروباً من الحروب فكان البدوي يبيعها بأعلى الأثمان ويحصل على الغلال بأقلها .

ثالثاً التهريب - وكانت مرابح البدو كبيرة من عمليات التهريب ، فقد كانت تتم عمليات تهريب كبيرة تجارية لأسباب كثيرة منها :

- ١ - تخلصاً من دفع المكوس .
- ٢ - التجارة في المواد الممنوعة مثل الأسلحة والمشروبات الروحية .
- ٣ - تجارة المواد التي يحظر بيعها السلاطين أو النواب احتكاراً فترتفع أثمانها ، فيقدموها بسعر أقل .

٤ - كذلك كان البدو يستفيدون من المكافآت الجزيلة التي كانت تعطى لهم لقاء القبض على الخارجين عن السلطة أو الأشقياء المطلوبين ، أو الأمراء المطلوبين الفارين . ولعل خير مثال على ذلك حمايتهم ونقلهم للحاكم بأمر الله أحمد بن أبي علي بعد هروبه من بغداد هارباً من التتار وانتقاله من عرب لعرب حتى وصل مصر وعين خليفة فيها .

٥ - كما كان إعطاء الحماية للفارين والملاحقين وسيلة للحصول على المكافأة ، التي أحياناً يحصلون عليها لقاء الحماية يتبعها مكافأة أخرى فيقومون بتسليم ضحياتهم لجلاده (٢).

## ٢ - أصول بدو بلاد الشام :

كان العدد الأوفر من البدو القاطنين في بلاد الشام يتألف من :

- ١ - عشائر (آل فضل ) من ربيعة وقد امتدت منازلهم من حمص الى قلعة جعبر إلى الرحبة يغطون منطقة منتشرة بين العراق والشام وطرفي حوض الفرات . فكانوا بالمواجهة مع التتار . إضافة لآل علي الذين أحضرهم الناصر محمد بعد استيائه من آل فضل وطرده لهم ، إلا ان الناصر محمد أعاد آل فضل بعد أن عفا عنهم ، ورد اليهم إقطاعهم . ومنهم أيضاً آل عيسى وآل فرج ولقد كان لهم أمير يجلس مع النائب ولكل مجموعة بطون أمير .

١ . (المقريزي : السلوك ج ٢ قسم ٢ ص ٣٧٣ - ٤٥٢ وج ٢ قسم ٣ ص ٦٩٢ - ٧٧٠ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ٢٥٠ )

٢ . (المقريزي : السلوك ج ٢ قسم ٢ ص ٣٧٣ - ٤٥٢ وج ٢ قسم ٢ ص ٥٢٧ - ٥٢٨ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية ص ٢٤٩ )

- ٢ - وفي الغوطة والمرج بطون من قبيلة زبيد . والى جانبهم بطون من ثعلبة وجزم . وآل علي وآل مرة وقد جعل المماليك الأمر في جنوب بلاد الشام الى عيسى بن مهنا وأسرته كما سيرد . وفي حمص أيضا بنو خالد الذين يزعمون انتسابهم الى خالد بن الوليد .
- ٣ - وضمت غزة عدداً من القبائل العربية من بطون جزام الطاغية من جزم، ويعرفون بعرب غزة . وجزام القحطانية . وفي صفد بطون من قيس . وفي البلقاء قبيلة بني مهدي وفي الشوبك بنو زهير وهم عرب الشوبك .
- ٤ - اما في حلب فقبيلة بني كلاب التي تسكن حول حلب وطرابلس ، ويسكن طرابلس أيضاً بنو عقبة .
- ٥ - وفي الجزيرة آل يسار<sup>(١)</sup>.
- وكان لهؤلاء البدو حركات خروج عن الطاعة، سببها في الغالب مادي بحت، كقطع السلطة إقطاعاتهم ، أو عصيان أو غزو موجه إلى قوافل التجارة أو قوافل الحج أو الأرياف وأحياناً المدن ، أو انقطاع إقطاعاتهم . أو سوء الحالة الاقتصادية أو تعبيراً عن الثورة والسخط والتمرد رداً لفعل السلطة. فقد قام البدو سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م من آل فضل بحرق بساتين تدمر من زرع وأشجار بسبب قطع إقطاعهم<sup>(٢)</sup> .
- وحاول المماليك دائماً ربط البدو بالسلطة بإعطائهم الإقطاعات ، ولقبوا زعماءهم بالأمرأ لينفردوا بحكم ما يقع تحت أيديهم من مناطق في البادية أو عشائر تشغلها . من ذلك تسمية الظاهر ببيرس لعيسى بن مهنا إمرة العرب رداً على دعمه له أثناء هروبه من مصر قبل أن يستولي على السلطة .وبذلك أصبحت إمرة العرب ليست رتبة عسكرية فقط بل أصبح صاحبها ذو منصب إداري يكاد يشابه منصب النائب . ذلك في مقابل ولائهم للسلطة . وحماية قوافل التجارة والحجيج . وحماية الحدود مع التتار . وأمن الصحراء خصوصاً من الثوار ممن يقف ضد السلطة، فكان السلاطين يصدرن أوامره للبدو باعتقال هؤلاء وتسليمهم للسلطة ، وحدث ذلك مراراً. كذلك مقابل تقديم المحاربين وقت الحرب .
- فقد ساهموا مع المماليك في صد هجوم هولاكو سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م باشتراك آل فضل مع المظفر صاحب حماة . كم أنهم اشتركوا في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م إلى جانب الناصر محمد . واشتركوا بمعركة شقحب سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م .وكانت مهمتهم تتبع المغول وقتلهم ، كذلك تضليلهم في الصحراء ليموتوا جوعاً وعطشاً<sup>(٣)</sup>.

١ . ( العمري : مسالك الأبصار تحقيق كرافولسكي ص ١١٤ - ١١٦ وص ١٣٦، العمري : التعريف ص ٧٩ - ٨٠ . زكريا ( أحمد وصفي ) عشائر الشام دار الفكر ١٩٨٣ ص ٩٢ ويشار اليه باسم زكريا : عشائر الشام : ، إسماعيل الآثار الاجتماعية : ص ٢٤٣ - ٢٤٤ و علي دمشق في عصر المماليك والعثمانيين : ص ٧٤ ) .

٢ . (عاشور : مصر والشام : ص ٣١٣ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ٢٤٥ - ٢٣٦) .

٣ . (عاشور : مصر والشام : ص ٣١٤ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ٢٤٥ - ٢٤٦) .

ولم تكن علاقة البدو دائماً مع المغول بصفة الإنحياز غير المشروط للمماليك ، فقد كانت هناك علاقات مع المغول حيث يريد البدو الميل مع الكفة الأرجح حفاظاً على وجودهم ومصالحهم . فقد كانت من مظاهر هذه العلاقة قيام الأمير مهنا بن عيسى و الأمير المملوكي قرا سنقر باللجوء إلى المغول سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م ، إثر إعطاء السلطان المغولي خدابنده إقطاعات لمهنا وقرا سنقر بالعراق في محاولة لنيل مساعدة البدو في الحصول على المعلومات حول تحركات الجيش المملوكي وللحصول على الخيول والهجن وتهريب الأسلحة للمغول<sup>(١)</sup> .

إلا ان البدو لم يكونوا دائماً على الوفاق مع السلطة المملوكية ، بل لقد استغلوا وقت الضيق والمصائب لجر المنافع إليهم . فكانوا أحياناً.. وقت ضعف السلطة أو الخلافات الداخلية يشكلون خطراً على المدن والمناطق الزراعية ، وطرق التجارة والحجيج بالغزو والحرق والتدمير والسبي . ويميلون للطرف الأقوى في الصراعات العسكرية . من ذلك :

قيام عشائر من قبيلة زبيد القاطنة في ضواحي دمشق إثر موقعة عين جالوت فهاجموا المناطق الزراعية وخربوها ونهبوها، مما اضطر السلطات لمعاقتهم .

استغل البدو تمرد سنقر الأشقر فغزوا غزة ونابلس سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وسلبوا ونهبوا السكان ، مما اقتضى من السلطة المملوكية معاقتهم وشنق نحو اثنين وثلاثين من زعمائهم .

وإثر هجوم غازان على بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م قام البدو بمهاجمة وسلب وقتل فلول الجيش المملوكي العائد لمصر . مما اقتضى معاقتهم وإلزامهم برد كل المسلوبات من الجيش المملوكي والسكان .

قام الأمير سيف الدين قطايا أمير قبيلة كلاب المتواجدة في شمال بلاد الشام قبل معركة شقحب بإحداث قلاقل في مناطق حلب فاضطر نائبها لقتاله وهزيمة التي سببت التحاقه بغازان الذي حماه ، ولكنه بعد انسحاب الأخير عاد مستعظفاً نائب حلب الذي أخذ موافقة السلطان على العفو عنه . فعاد إليها سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م .

وكانت غزوة تيمورلنك والفوضى التي تبعتها وعدم الاستقرار سبباً في غارات البدو . فقد عانت حلب من هجوم بدو آل فضل مما اضطر نائبها دمرdash للاستعانة بقبائل التركمان الرضائية \* لردهم . كما قام علي آل فضل بالشغب والغزو في منطقة دمشق فقام نائب الشام بالتصدي له .

قامت قبيلة حارثة بقيادة أميرها ميتريك في مناطق صفد والجون وقاقوق بمهاجمة فلول القوات المملوكية التي انهزمت من تيمورلنك ومعها السلطان فرج بن برقوق ، فقتلوا ونهبوا منهم الكثير . فكانت النتيجة قيام نائب صفد دقماق المحمدي ، وأعانه بذلك نائب طرابلس شيخ المحمودي حينها، بقتالهم

١ . (زكريا : عشائر الشام : ص ٩٥ - ٩٦ ، إسماعيل: الآثار الاجتماعية ص ٢٥٠).

\* التركمان الرضائية ثبائل من التركمان كانت تسكن بقلعة بغراس وما حولها سميت بالرضائية نسبة لأمرهم رمضان . انظرالقول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف لابن الجيعان )

وهزيمتهم . ولكن أمير حارثة عاود غزواته فتصدى له نائب صفد الأمير سودون الحمزاوي فقتله ومثل في جثته سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م .

وفي عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م كثرت تعديات البدو على قوافل التجارة والحجاج حتى نودي في دمشق بالجهاد . ولكنهم في العام التالي هاجموا أطراف دمشق فخرجت حملة كبرى بقيادة نائب دمشق ومعه نائب البقاع ناصر الدين الحنش فردوهم وعاقبهم (١) .

### ٣ - البدو وقوافل الحجاج :

كان من أهم مهام نواب الشام خصوصاً نواب دمشق والقدس وغزة والكرك هي الحفاظ على قوافل الحج والسهر على حمايتها وأمنها وصحتها وتأمين ما تحتاجه على الطريق من مآكل ومشارب ومركوب . غير ان غزوات البدو كانت أخطر المخاوف التي كانت تواجه قوافل الحجاج , فرغم ان البدو كانوا مسؤولين عن رعاية وسلامة قوافل الحج ويتقاضون عن مرورها جعالات تدفع لكل قبيلة على الطريق , وكان يجري إحضار زعماء القبائل لنيابة دمشق لتوثيق اتفاق البدو مع السلطة على عدم مهاجمتهم للحجاج وقوافلهم لقاء مال تدفعه السلطة , من ذلك ما جاء في مفاكهة الخلان ( ومن ثم حضر الى دمشق ( مسلم ) كبير بني لام , وعساف كبير آل مري , وحلفا بدار السعادة بحضرة كبار الموظفين أن يحفظا الحجاج والطرق على ( العوائد القديمة ) وأشهد عليهما بذلك . (٢) إلا ان هذا لم يكن دائماً مرعي الإجراء , لعدة أسباب منها طمع النواب بتخفيض او عدم دفع الجعالات او تأخيرها , او يكون السبب خلافات بين البدو والسلطة , او يكون طمع البدو بالقوافل الثرية المسالمة التي تعبر الصحراء بحماية قليلة , ولم تكن غزوات البدو متعلقة بموقع معين في البادية او قبيلة معينة بل هناك احتمالات كثيرة على الطريق الذي يعبر من أراض مختلفة تقع تحت سيطرة قبائل مختلفة . ففي عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م خرج البدو في رابع قبل وصولهم مكة المكرمة فإنتهبوا القافلة بكاملها وأسرو النساء ( وفعلوا ما لا فعله تيمرلنك لما دخل الشام(٣) )

الا ان اسوء كارثة وقعت لقوافل الحجاج في العصر المملوكي كانت سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م فقد هاجم البدو القافلة بين معان والعقبة , وهرب أمير الركب مع خواصه فطمع البدو بالقافلة والضطر الحجاج ان يشتروا أنفسهم بمال كثير , وعندما وصلوا الى الحسا , نهب البدو المال والحريم , ولم يدخل دمشق من هذه القافلة جمل واحد من قافلة الحجاج وماتت نساء كثيرات برداً وجوعاً .

١ . ( إسماعيل : لآثار الاجتماعية ص ٢٤٦ ، دهمان : ولاية دمشق في عهد المماليك : ص ٧٥ - ٧٦ )

٢ . (ابن طولون الصالحي ( شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨ ج ١ ص ٣٤٠ - ٣٤٤) وسنرمز إليه باسم ابن طولون : مفاكهة الخلان , علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٢٥٣ )

٣ - ( ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٦ , علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٥٤ - ١٥٥ )

إذا كانت العلاقة بين السلطة المملوكية والبدو بين مد وجزر ، لأن ارضاء البدو لم يكن عملاً مستحيلاً ، فلم يكن البدو بقادرين على محاربة السلطة والإشتباك معها ، إلا ان سبب العداء يكون غالباً موقف نواب الشام من البدو . إذ كانوا يعتبرون أموال القبائل ومواشيها ملكاً لهم ، ويتصرفون بهم كما يشاؤون . مما يجعل البدو يثورون عليهم <sup>(١)</sup>.

## ٢ - القبائل التركمانية :

قد توزعت قبائل تركمانية في مناطق مختلفة من بلاد الشام، في شمالها في جبل الأقرع، وفي مناطق حلب منعم طائفة الروقية المنتسبة الى ياروق التركماني <sup>(٢)</sup> وسكن قسم منهم في تيزين على طريق قنسرين وفي سهل العمق وقطنوا جعبر ، حيث كان زعيمهم سالم الدوكاري او الذكري أو الذكري الذي كان يقوم بهجمات متكررة على حلب ويقوم بقطع الطرق على القوافل التجارية وينهبها ، كما وجدوا في حران وعينتاب <sup>(٣)</sup>

كما سكنوا في منطقة الجولان قادمين من المناطق التي إحتلها المغول . إلا أنهم اضطروا لمغادرة الجولان إثر معارك جرت بينهم وبين الصليبيين في صغد عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م حيث كان لوجودهم امتداد لمختلف المناطق الفلسطينية وحتى في القدس <sup>(٤)</sup> . وسكن المناطق الساحلية لبلاد الشام من أنطاكية شمالاً وحتى غزة جنوباً قبائل تركمانية . لا يزال بعضها حتى الآن . وكانت القبائل التركمانية مناصرة عموماً للمماليك ضد المغول الذين كانوا سبباً في لجوئهم لبلاد الشام ، خلا حالات اغتتموا الفرصة فيها لمهاجمة حلب أو القوافل التجارية بحثاً عن الثروة ، أو في محاولة للحصول على ثقل سياسي في المنطقة <sup>(٥)</sup> .

ومن طوائف كثيرة يوجد عدد منهم يتبعون أعمال حلب وهم:

الأولى: الدلغارية: وهم جماعة ذو الغادر .

الثانية: الأحقية: وهم جماعة أولاد رمضان .

الثالثة الأوزرية: وهم جماعة داود بن أوزر وبنيه طبلخاناه .

الرابعة الأوشربية: وهم بظاهر حلب .

الخامسة الذكزية: وهم جماعة سالم الذكري وكانوا بجعبر ثم انتقلوا إلى عجلون وأميرهم مزعل بن

دمشق خجا بن سالم الذكري .

١ - ( ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ، ١٦١ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٥٥ و ٣٥٣ - ٣٥٤ )

٢ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١١٧ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ٢٥٤ .

٣ . ابن قاضي شهبة : تاريخ بن قاضي شهبة ج ١ قسم ٤ ص ٤٦٤ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ٢٥٤ .

٤ . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ١١٦٢ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ٢٥٤ .

٥ . ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ج ١ ص ٤٦٤ ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية : ص ٢٥٤ .

- السادسة الحديدلية.
- السابعة الأغارجية: ومنازلهم قريبة من مرعش وبلادها ولم يكن فيهم أمير قائم فيهم.
- الثامنة الدرسق، وهم تركمان طرطوس.
- التاسعة القيقية: ومنازلهم ظاهر حلب ولم يكن لهم أمير قائم فيهم.
- العاشرة الكيلية.
- الحادية عشر: أولاد طيخون.
- الثانية عشر البيلية: وهم بظاهر حلب وأميرهم بيده مقدمة<sup>(١)</sup>.

---

١ . الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٨٢ .

## الفصل الخامس

### التوظيف في العصر المملوكي وقوانينه



كان للتوظيف والوظيفة والموظف تنظيمات دقيقة ليست ببعيدة عن قوانين التوظيف الحالية وهي تشمل الحقوق والواجبات والغرامات على حد سواء للموظف والإدارة التي عينته في الوظيفة. ويبدو أن هناك تنظيمًا موحدًا في الإطار العام يسري على كل الدولة في سائر نواحيها، وهناك استثناءات محددة لبعض الوظائف أو بعض الأمكنة، كما في مناطق الثغور أو أثناء الحروب، كما كان للجيش ميزات واختصاصات تختلف عن الوظائف المدنية.

وارتباط العمال وأصحاب الوظائف يكون في الديوان وهو موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال.

وهو نوعان: الديوان المركزي ودواوين النيابات، وهو يهتم بالعاملين في الدولة سواء كانوا من أرباب السيوف أو أرباب الأقلام أو أرباب العمائم، في دواوين مختلفة. ويضم الديوان أرشيف العامل الشخصي والوظيفي والمراسيم الخاصة به وأوامر الانتقال والمهمات الخاصة داخلية ومحلية وخارجية.

وقد اهتم الماوردي في بحث قوانين التوظيف في الدولة، وهو الذي توفي عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م، ودلّ على وجود نظام وظيفي كان متبعاً في الدول الإسلامية، كغيرها من الدول عامة، ولا بد أن يستمر هذا فيما بعد الماوردي وصولاً للدولة المملوكية، وبالطبع لا بد من تطوير وتبديل يقتضيه تطور الأوضاع والزمن والبيئة والمكان. وقد أبدى الماوردي اهتمامه هذا في معظم كتبه وخصوصاً كتابه الأحكام السلطانية، وكان بحثه فيه عن التعيين في الجيش والدواوين المدنية، وكان متخصصاً في بحث الوزراء في كتابه قوانين الوزارة.

ففي التعيين في الجيش يبين شروطاً في طالب التعيين: وهي سن البلوغ، والحرية، والسلامة من الأمراض، والإسلام، والمعرفة والإقدام في الحرب.

ويقتضي التعيين طلب من طالب التعيين. وإجابة في الجهة المعينة عند توفر شاغر وظيفي. وعند التعيين يقتضي تحديد شخصية المعين فإن كان معروفاً تم ذلك وإلا وجب تحديد أوصاف المعين، وشكله الخارجي، وعلاماته المميزة، لتفادي الالتباس عند دفع الراتب. وفي تحديد الرتبة يجري بالاستناد إلى شرفه القبلي وانتسابه الأسروي، أو حسب جنسه من ترك وعجم وغير ذلك ليتم تعيينه بما يتناسب مع جنسه.

أما في تعيين الراتب فهو يبين أن الراتب يجب أن يكون حسب الحاجة ويختلف بين بلد وآخر، وبين اختلاف العلماء في منح راتب أكثر من الحاجة، ثم بين حقوق المعيّنين من الراتب والتعويض العائلي، وتعويض الخسائر وبدلات السفر والمهمات، ثم بحث في الراتب التقاعدي أو راتب الوفاة للأسرة الذي يكون عبارة عن إقطاع على الغالب.<sup>(١)</sup>

١. الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٤٩. ٢٥٨.

اختص الممالك أنفسهم بكل الميزات التي يمكنهم الحصول عليها، لا من الناحية المادية فقط، بل اختصوا أنفسهم بمظاهر العظمة والقوة، ونظراً لاحتكارهم السلطة العسكرية وتوليهم المهم من الوظائف في الدولة، التي كانوا يقومون بها بصفاتهم العسكرية أيضاً، رغم أنها في بعض المواقع من الوظائف المدنية البحتة. إذ كانت مظاهر العظمة تتدرج بين العسكريين من رتبة الأمراء حتى أصغر رتبة وهي رتبة الجندي.

وقد جاء القلقشندي ببحث تلك الميزات التي يحصل عليها الأمراء ومن دونهم في الرتب في الجيش نبيها لندرك البون الشاسع بين أرباب السيوف وغيرهم ممن في خدمة الدولة، فيقول:

(واعلم أن كل أمير من أمراء المئين ( المئين ) أو الطبلخانات سلطان مختصر، في غالب أحواله، ولكل منهم بيوت خدمة السلطان من الطشت خاناه، والفراش خاناه، والركاب خاناه، والزرديخاناه، والمطبخ، والطبلخاناه، خلا الحوائج خاناه فإنها مختصة بالسلطان، ولكل واحد من هذه البيوت مهتار متسلم حاصله، وتحت يده رجال وغلما ن لكل منهم وظيفة تخصه، وكذلك لكل منهم الحواصل من إصطبلات الخيول ومناخات الجمال وشون الغلال؛ وله من أجناده أستاذار، ورأس نوبة، ودوادار، وأمير مجلس، وجمدارية، وأميراخور، وأستاذار صحبة، ومشرف).<sup>(١)</sup>

وكما أن للسلطان بيوت خدمة، فإن لكل الأمراء مثيلاتها: (وتوصف البيوت في دواوين الأمراء بالكريمة، فيقال: البيوت الكريمة كما يقال في بيوت السلطان البيوت الشريفة، وكذلك كل فرد منها. فيقال: الطشت خاناه الكريمة والفراش خاناه الكريمة، وكذا الباقي؛ ويوصف الإسطبل بالسعيد، فيقال: الإسطبل السعيد، وكذلك المناخ؛ وتوصف الشون بالمعمورة فيقال الشونة المعمورة)<sup>(٢)</sup>

أما مظاهر الركوب عندهم فهي أيضاً تشابه ركوب السلطان على شكل أصغر، وتتدنى مظاهر الركوب حسب منصب وقدرة صاحبها، فينقل القلقشندي عن مسالك الأبصار وصف الركوب فيقول: (ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث ركب، وخلفه جنيب مسرّج ملجّم، وربما ركب الأمير من أكابرهم بجنيبين سواء في ذلك الحاضرة والبر.

قال: ويكون لكل منهم طلب مشتمل على أكثر ممالكه، وقدامهم خزانة محمولة للطبلخاناه على جمل واحد، يجره راكب على جمل آخر، ( وأمير ) الألف على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك. وأمام الخزانة عدة جنائب تجر على أيدي ممالك ركاب خيل وهجن، وركابة من العرب على هجن، وأمامهم الهجن بأكوارها مجنوبة، للطبلخاناه قطار واحد وهو أربعة، ومركوب الهجان والألف قطاران وربما زاد بعضهم. قال: وعدد الجنائب في كثرتها وقلتها إلى رأي الأمير وسعة نفسه، والجنائب المذكورة منها ما هو مسرّج ملجّم، ومنها ما هو بعباءة لا غير .. .

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦٠.

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦٠ . ٦١ .

ومن عادتهم أيضاً أن الأمير إذا ركب يكون أكابر أجناده من أرباب الوظائف: كرأس نوبة والدوادر، وأمير مجلس، ومشاة الخدمة أمامه؛ وكل من كان منهم أكبر كان إليه أقرب؛ وتكون الجمدارية من مماليكه الصغار خلفه وأميرآخوره خلف الجميع، ومعه الجنائب والأوشاقية على قاعدة السلطان في ذلك).<sup>(١)</sup>

وينطبق ذلك أيضاً على مجلسهم: ومن عادة أكابر مجالس بيوتهم أنه ينصب للأمير بشتميخ (مسند خلفي) خلف ظهره من الجوخ الأحمر المزهر بالجوخ الملون، برنك ذلك الأمير وطرارز فيه ألقابه، ويجلس على مقعد مسنداً ظهره إلى البشتميخ، وربما جلس أكابرهم على مدورة من جلد ورجلاه على الأرض، وتكون الناس في مجلسه في القرب إليه على حسب مراتبهم)<sup>(٢)</sup>

كما اتخذ الأمراء والكبار من أرباب السيوف الرنوك شعاراً خاصاً بهم يضعونه على لباسهم الرسمي، وأغطية دوابه وعلى بيته، يصف القلقشندي ذلك قائلاً: (ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك (شعار) يخصه ما بين كأس أو دواة (دواة الكتابة) أو بقجة (صرة من قماش) ونحو ذلك، بألوان مختلفة، كل أمير بحسب ما يختاره ويؤثره من ذلك، ويجعل ذلك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السكر، وشون الغلال، والأملأك والمراكب وغير ذلك، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص، ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة تنقش على العبي، والبلاسات ونحوها، وربما جعلت على السيوف والأقواس والبركصطوانات للخيل وغيرها).<sup>(٣)</sup>

وكانت تبذل عناية كبيرة في رسم الرنوك. وكان ينقش رسمها على المعادن الثمينة أيضاً وعلى الزجاج والحجر والخزف والورق والنسيج والعاج والتحف. وبلغ عدد المعروف منها إلى الآن نحو خمسين رنكاً عرف مدلول بعضها. ومن أهمها شكل الكأس والمظلة والمقلة والقوس والبقجة والخونجة (المنضدة) وعصا البولو وزهرة اللوتس والصولجان. كما استخدمت أشكال الحيوانات فيها مثل النسر والأسد.

ورغم أن بعض هذه الرنوك تدل على الوظائف الصغرى مع أنها لأمرأ كبار. ولكن كان الممالك لا يأنفون من أصلهم الوضيع ويعتزون بماضيهم، لذلك حافظوا على رنوكهم حين كانوا صغاراً بعد أن أصبحوا كباراً.<sup>(٤)</sup>

وفي ركوبهم يشابهون ركوب السلطان:

(ومن عوائد أمراء العسكر بالحضرة السلطانية أنهم يركبون في يومي الإثنين والخميس في المراكب منضمين على نائب السلطنة الكافل إن كان، وإلا فعلى حاجب الحجاب، ويسيرون تحت القلعة مرات، ثم

١. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦٠ . ٦١.

٢. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦١.

٣. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦١ . ٦٢. والبركصطوانات أو البركستوان غطاء الحصان المزركش وتكون لغير الخيول كالفيلة أيضاً (دهمان) محمد أحمد (معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر دمشق ١٩٩٠ ص ٣٣ وسيشار إليه باسم دهمان: معجم الألفاظ التاريخية)

٤. حسن: تاريخ الممالك البحرية ص ١٦٨ . ١٧٠.

يقفون بسوق الخيل وتعرض عليهم خيول المنادة، وربما نودي على كثير من آلات الخيل والخيم والخركاوات والأسلحة. قال في مسالك الأبصار: وقد ينادى على كثير من العقارات، ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية على ما تقدم).<sup>(١)</sup>

ويجري تسجيل أسماء ورتب أجناد الأمراء بديوان الجيوش السلطانية، مع أنهم يكونون من مشتروات الأمراء ومخصصين لخدمتهم، إلا أن رواتبهم وإقطاعاتهم تكون على الدولة:

(ومن قاعدة هذه المملكة أن أجناد الأمراء كافة تعرض بديوان الجيوش السلطانية وتثبت أسماؤهم مفصلة فيه، وكانوا فيما تقدم يحلون بالديوان. أما الآن فقد ترك ما هنالك واكتفي بأوراق تكتب من دواوين الأمراء بأسماء أجناده وتخلد بديوان الجيوش، ثم كلما مات واحد منهم أو فصل من الخدمة عرض بديوان الجيش واحد مكانه يعبر فيه عرض من ديوان ذلك الأمير)<sup>(٢)</sup>

أما حساب نهاية الخدمة لأرباب السيوف فهي تعتمد على سني خدمته المقررة، فإذا أكملها كانت إقطاعاته تحفظ له ولذريته. فإذا مات قبل أن يكمل مدة خدمته فتحسب حصته من ريع إقطاعه بنسبة ما خدم من السنين.

(ومن عاداتهم أن من مات من الأمراء والجند قبل استكمال سنة خدمته حوسب في مستحق إقطاعه على مقدار مدته، وكتب له بذلك محاسبة من ديوان الجيوش، ويكون ما يتحصل من المغل شركة بين المستقر وبين الميت أو المنفصل على حسب استحقاق القراريط، كل شهر من السنة بغيراطين)<sup>(٣)</sup>

#### ١ - التعيين في الخدمة والفصل منها:

رأينا ان انضمام المماليك إلى الخدمة تكون بشرائهم عبر تجار المماليك. ويجري فرزهم حسب أجناسهم، ويضمون في حلقة أو حلقات يجري تعليمهم بعد إسلامهم التعاليم الدينية والشرعية. ثم يجري تدريبهم عسكرياً، وبعد انتهاء التدريب يجري ضمهم للخدمة العسكرية في الموقع المناسب. ويتم هذا التسلسل المرحلي للمماليك عامة، سواء المماليك في الجيش أو مماليك الحرس السلطاني أو مماليك السلطان الخاصة ومماليك الأمراء.

ويتم تدرج المماليك برتب الخدمة حسب قوتهم وقدرتهم وبروزهم عن أقرانهم، إضافة لمدة الخدمة.

ويكون رواتب كافة المماليك من نفقة الدولة على الغالب.

أما أرباب القلم وأرباب العمائم فيتم التعيين حسب قدرات كل منهم، إذ المفروض أن يتقدم للخدمة من أتم تعليمه بشكل فردي، إذ ليس هناك إعداد من الدولة لعمالها. ويتدرج العامل في الدولة في الوظائف حسب الجهة التي تعين فيها من أدنى الرتب وقد يصل إلى أعلاها، مثلاً من كاتب في ديوان الإنشاء إلى

١ . الفلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦٢. والخركاوات مفرداً خركاه فارسية الأصل وتعني الخيمة الكبيرة ( دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ص ٦٧ )

٢ . الفلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦٢.

٣ . الفلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٦٢.

رئيس للديوان.

وكثيراً ما تنحصر الوظائف في أسر اتخذت مهنة معينة سواء من أرباب القلم أو أرباب العمائم، فيدخل الخدمة الأب ليلحقه أولاده وأحفاده، الذين يجري تعيينهم في وظائف قليلة الأهمية يتدرجون فيها ليصلوا ربما للقمة. وقد انضم للعمل في الدواوين الإدارية المدنية الكثيرون من أهل الذمة وأسرهم. وعادة تكون فترات خدمة العاملين المدنيين أطول من العسكريين إذ لا يؤثر عليهم عمومًا تبدل السلطان الذي يسارع لتبديل الأمراء ممن سبقه في الحكم حتى ممن خدم مع والده، وهو سبب مباشر لكثير من الفتن والحروب الداخلية والصراع على السلطة. ومن النصوص الهامة التي وصلتنا في هذا الخصوص نص الماوردي في الأحكام السلطانية التي لا بد أنها كانت مراعاة في عصر المماليك، لأنها حصاد تراث إداري سبق الماوردي وتابع فيما بعد زمانه فيقول:

إن من يقوم بالتعيين لا بد أن يكون صاحب الحق في التعيين وله حق التعيين. من سلطان أو وزير مفوض. وإلا لزم عليه العودة للمسؤول لإجازة التعيين:

(من يصح منه تقليد العمال، وهو معتبر بنفوذ الأمر وجواز النظر، فكل من جاز نظره في عمل نفذت فيه أوامره وصح منه تقليد العمال عليه، وهذا يكون من أحد ثلاثة: إما من السلطان المستولي على كل الأمور. وإما من وزير التفويض. وإما من عامل عام الولاية كعامل إقليم أو مصر عظيم يقلد في خصوص الأعمال عاملاً. فأما وزير التنفيذ فلا يصح منه تقليد عامل إلا بعد المطالعة والاستئثار)<sup>(١)</sup> ويصح أن يتقلد العمالة من استقل بكفايته ووثق بأمانته، فإن كانت عمالة تفويض تفنقر إلى اجتهد روعي فيها الحرية والإسلام، وإن كانت عمالة تنفيذ لا اجتهد للعامل فيها لم يفنقر إلى الحرية والإسلام. أما العمل الذي يتقلده فيعد فيه ثلاثة أمور: تحديد الناحية بما تتميز به عن غيرها. وتعيين العمل الذي يختص بنظره، والعلم برسوم العمل وحقوقه.

ومدة العمل إما أن يقدر بمدة محصورة الشهور أو السنين، فيجوز النظر فيها والنظر بعد انقضائها. وهذا لا يلزم جهة المولي، وله صرفه واستبدال به إذا رأى ذلك صلاحاً، فأما لزومه من جهة العامل المولى، فمعتبر بحال جارية عليها، فإن كان الجاري معلوماً بما تصح به الأجور لزمه العمل في المدة إلى انقضائها.<sup>(٢)</sup>

أما إذا كان التقليد مطلقاً لا يحدد بمدة ولا عمل، فإما أن يكون مستديماً أو منقطعاً، فإن كان مستديماً فيصح نظره فيها عاماً بعد عام ما لم يعزل. وإن كان منقطعاً فهو إما لانتهاء العمل أو أن ينظر في التعيين كل عام.<sup>(٣)</sup>

١. الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٦١.

٢. أحكام الحسبة ص ٢٦١.

٣. أحكام الحسبة ص ٢٦٢.

وتكون أجور العامل حسب العمل فإذا سمي الأجر وجب بقدر العمل، فإذا حصل نقص وجب إنقاص الاجر، وإذا حصلت زيادة ففيها نظر. وإن لم يسمَّ أجرًا استحق أجر المثل. (١)

ويصح التقليد باللفظ إن كان من صاحب الشأن. ولا يصح إلا بالكتابة إذا اقتضى توقيع الأعلى في ذلك الشأن وإذا كان التقليد مقصوراً عليه لا يتعداه إلى استنابة غيره فيه إلا بالإذن. (٢)

## ٢ - رواتب العاملين في الدولة:

تختلف رواتب العاملين في الجيش المملوكي عنها في الإدارات المدنية اختلافاً كبيراً جداً، والسبب في ذلك أن الممالك شكلوا طبقة خاصة عالية تتحكم في الدولة وترعى مصالحها الخاصة، لذلك جعلت مداخيل أفرادها عالية جداً، فراتب شهر من أرباب السيوف يعادل راتب سنة من أرباب الأقلام أو أرباب العمام، وتساوي رواتب نحو ثلاثة آلاف من العامة.

والرواتب عادة تتضمن نوعين: الأول المستمر، وهو الراتب الفعلي، والآخر هو الإنعامات التي تأتي في المناسبات وهي تعم أرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب العمام.

### آ - في رواتب أرباب السيوف المستمرة:

وعادة تكون الإقطاعات التي تجري على الأمراء والجند، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراضٍ يستغلها مقطوعاً ويتصرف فيها كيف يشاء، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل، وتختلف باختلاف حال أربابها.

فأما الأمراء فيبلغ إقطاع الواحد منهم مائتي ألف دينار جيشية، وربما زاد على ذلك.

ويتناقص باعتبار انحطاط الرتبة إلى ثمانين ألف دينار وما حولها.

ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء الطبلخاناه ثلاثين ألف دينار فأكثر، وينقص إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار.

ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك.

ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمي الحلقة إلى ألف وخمسمائة دينار، وكذلك أعيان جند الحلقة إلى مائتين وخمسين ديناراً.

وأما إقطاعات الشام فلا تقارب هذا المقدار بل تكون بقدر الثلثين في جميع ما تقدم، خلا أكابر المقدمين بالديار المصرية، فليس بالشام من يبلغ شأوهم إلا نائب الشام فإنه يقاربهم في ذلك. (٣)

ولا يحق للنواب في نياباتهم التدخل في تأمير أمير عوض أمير بل إذا مات أمير صغير أو كبير طولع به السلطان فأمر فيعين من يريد من مماليكه ويرسله إلى مكان الخدمة، وأما من كان في مكان الخدمة أو ينقل إليه من بلد آخر فعلى ما يراه في ذلك.

١. أحكام الحسبة ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

٢. الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٦٤.

٣. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٠. الشلي: بلاد الشام ص ٢٧٣ - ٢٧٦.

أما جند الحلقة، فمن مات منهم استخدم النائب عوضه، وكتب بذلك رقعة في ديوان جيش نيابته، وترسل مع بريدي إلى الأبواب السلطانية فيقابل عليها من ديوان الجيش بالحضرة، فإذا وافق عليها السلطان نفذت وصدر بها منشور. (١)

ويتبع رواتب جميع الأمراء بحضرة السلطان في كل يوم: من اللحم، والتوابل، والخبز، والعليق، والزيت؛ ولأعيانهم الكسوة والشمع؛ وكذلك المماليك السلطانية وذوو الوظائف من الجند، مع تفاوت مقادير ذلك بحسب مراتبهم وخصوصيتهم عند السلطان وقربهم إليه.

فإذا ولد لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنائير وخبز ولحم وعليق إلى أن يتأهل للإقطاع في جملة الحلقة، ثم منهم من ينقل إلى العشرة أو الطبلخاناه على حسب الحظوظ والأرزاق. (٢)

وقد كان رابط المماليك الثروة والجاه. فإذا تأخر السلطان عن دفع الراتب أو قصر بالإنعامات كانت عاقبته وخيمة. من ذلك ما ذكره صاحب السلوك عن السلطان الأشرف شعبان في حوادث سنة ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦ م:

### ب - رواتب أرباب الأقاليم وأرباب العمائم :

وهو مبلغ يصرف إليهم مشاهرة. وأكبرهم كالوزير له في الشهر مائتان وخمسون ديناراً جيشية، ومن الرواتب والغلة التي تعادل نظير ذلك، ثم دون ذلك ودون دونه، ولأعيانهم الرواتب الجارية: من اللحم، والخبز، والعليق، والشمع، والسكر، والكسوة ونحو ذلك، إلى غير ذلك مما هو جار على العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأراضي المؤبدة، وما يجري مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف. (٣)

وقد ذكر المقرئ بأن راتب سودون نائب دمشق كان ٥٠٠٠٠ دينار وراتب الأمير جلبان نائب دمشق كان ٢٠٠٠٠ دينار، وراتب يشبك الموساوي نائب طرابلس كان ١٠٠٠٠٠ .

بينما كان راتب الأستاذ بدر الدين حسن محب ١٥٠٠٠ دينار ، بينما بنفس الوظيفة لا بالوقت نفسه كان راتب سيدي أبو بكر ١٠٠٠٠٠ دينار .

بينما تقاضى قضاة دمشق رواتب متفرقة؛ فعلاء الدين بن أبي بقاء السبكي الشافعي تقاضى ٢٠٠٠٠٠ درهم، أما بهاء الدين محمد بن عدنان الشافعي فقد تقاضى ٣٠٠٠٠ درهم ، وتقاضى شهاب الدين التلمساني المالكي ٥٠٠ دينار (٤).

### ٣ - الإنعامات :

وهي تتبع الرواتب ولها أوقات معينة ومناسبات خاصة. سواء مناسبات سنوية مثل التنصيب أو وفاء النيل أو العيدين. أو أن تكون طارئة مثل النصر في معركة أو الشفاء من مرض أو السلامة من مؤامرة، أو ولادة ولد للسلطان أو ظهور ابنه أو زواج ابن أو ابنة له، وغير ذلك.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٠ . ٥١ .

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥١ .

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥١ .

٤ - ( الشلي : بلاد الشام ص ٢٧٣ - ٢٧٥ )

وهي تشكل مبالغ كبيرة وصفها القلقشندي نقلاً عن صاحب المسالك: (ولصاحب مصر في ذلك اليد الطولى حتى بقي بابه سوقاً ينفق فيه كل مجلوب، ويحضر الناس إليه من كل قطرٍ حتى كاد ذلك ينهك المملكة ويودي بمتحصلاتها عن آخرها)<sup>(١)</sup> ويقوم النواب بنيايات بلاد الشام بما يقوم به السلطان ولكن بشكل مصغر. والإنعامات خمسة أنواع:

#### ( ١ ) . تشاريف أرباب السيف

وهي على طبقات أعلاها ما هو مختص بالأمرء المقدمين من النواب بتفصيلات كثيرة. ونوع أقل كلفة تكون لأصاغر أمرء المئين ومن يلحق بهم، وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك والولاية ومن يجري مجراهم.

وتصرف الخلع في مناسبات منها:

آ - إذا ولي أمير أو صاحب منصب فيلبس تشريفاً يناسب ولايته التي وليها على حسب ما تقتضيه علواً وهبوطاً.

ب - ومنها عيد الفطر، يخلع فيه على جميع أرباب الوظائف: من الأمرء وأرباب الأقاليم كالأستادار والدوادر وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم، كل منهم بما يناسبه.

ج - ومنها دوران المحمل في شوال، يخلع فيه على أرباب الوظائف بالمحمل كالقاضي والناظر والمحاسب والشاهد والمقدمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشرها ومن في معناهم.<sup>(٢)</sup>

#### ( ٢ ) . الخيول:

قد جرت عادة السلطان أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين في كل سنة: المرة الأولى : عند خروجه إلى مرابط خيوله في أواخر أيام الربيع، فينعم على الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم، وتكون خيول المقدمين منهم مسرجة ملجمة بكنابيش من زركش، وخيول أمرء الطبلخانات عرياً من غير قماش. المرة الثانية : عند لعبه الكرة بالميدان، وتكون خيول المقدمين والطبلخانات مسرجة ملجمة بلا كنابيش.

وكذلك يرسل لنواب الممالك الشامية كل واحد بحسبه، وليس لأمرء العشرات في ذلك حظ إلا ما يتفقدون به على سبيل الإنعام. قال المقر الشهابي بن فضل الله: ولخاصة المقربين من الأمرء المقدمين والطبلخانات زيادات كثيرة في ذلك بحيث يصل بعضهم إلى فرس في كل سنة.

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٢.

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٢ . ٥٤.



وله أوقاتٌ أخرى يفرق فيها الخيل على ممالكه وربما أعطى بعض مقدمي الحلقة؛ وكل من مات له فرس من ممالكه دفع إليه عوضه.

وربما أنعم بالخيول على ذوي السن من أكابر الأمراء عند الخروج إلى الصيد ونحوه. ولخيول الأمراء في كل سنة إطلاقاً أراض بالأعمال الجيزية لزرع القرط لخيولهم من غير خراج؛ وللممالك السلطانية البرسيم المزروع على قدر مراتبهم. ويكون توزيع الخيول على أرباب السيوف ما عدا الظروف النادرة، لأن أرباب الأقاليم أو أرباب العمائم يوزع عليهم البغال كل بحسبه، لاحتكار الفروسية بالممالك فقط. <sup>(١)</sup> وبما أن النواب هم سلاطين صغار في نياباتهم ، فهم يقومون بنفس التوزيعات والهدايا والأعطيات ولكن بشكل مصغر . وبمنفس الشكل يقوم الأمراء تجاه ممالكهم ، إذ كما بيّنا فكل أمير عبارة عن سلطان صغير .

### ( ٣ ) . الكسوة والحوائص :

قد جرت عادة السلطان أنه ينعم على ممالكه وخواص أهل المناصب من حملة الأقاليم في كل سنة بكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف على قدر مراتبهم. ومن عاداته أنه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرق حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين، يفرق في كل موكب ميدان على أميرين بالنوبة حتى يأتي على آخرهم في ثلاث سنين أو أربع بحسب ما تقع نوبته في ذلك. قال في المسالك: أما أمراء الشام فلا حظ لهم من الإنعام في أكثر من قباء واحد يلبس في وقت الشتاء إلا من تعرض لقصد السلطان فإنه ينعم عليه بما يقتضيه حاله. <sup>(٢)</sup>

### ( ٤ ) . الإنعامات :

وأكثر الأوقات لا ضابط لعطائه إنما يكون بحسب مزية المنعم عليه عند السلطان وقربه منه. قال في مسالك الأبصار: ولخاصة الأمراء المقدمين أنواع من الإنعامات كالعقار والأبنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار، وكساوي القماش المنوع، وفي أسفارهم في وقت خروجهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأموال. <sup>(٣)</sup>

### ( ٥ ) . المأكول والمشروب :

أعظم أسمطة السلطان تكون بالإيوان الكبير أيام المواكب. إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقاليم من الخدمة، مد السماط بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة المنوعة الفاخرة، ويجلس السلطان على رأس الخوان والأمراء يمنة ويسرة على قدر مراتبهم من القرب من السلطان، فيأكلون أكلاً

١ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٤ . ٥٥ .

٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٥ .

٣ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٥ .

خفيفاً ثم يقومون، ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة، ثم يرفع الخوان. وأما في بقية الأيام فيمد الخوان في طرفي النهار لعامة الأمراء خلا البرانيين فإنه لا يحضره منهم إلا القليل النادر. وتعدد الأسطة وأوقاتها حتى يكاد يأكل منها كل من في القلعة وكل من حضر. كما يقدم بعد الطعام المشروب من الأقسما السكرية. وأما في الليل فيبيت بالقرب من مبيت السلطان أطباقاً من أنواع المآكل المختلفة والمشروب الفائق ليتشاغل أصحاب النوب بالمأكل والمشروب عن النوم. أما في شهر رمضان فيجري تقديم لكل ذي إمرة بمصر من خواص السلطان السكر والحلوى والضحية على مقادير رتبهم. <sup>(١)</sup> كما يجري تقديم مختلف أنواع التشاريف وأحياناً مع مبالغ نقدية سواء لكبار الأمراء أو أصحاب المناصب من أرباب القلم وأرباب العمائم في مناسبات تخصهم مثل النصر في معركة أو قمع ثورة أو الحج أو الزواج لهم أو لأي من أسرهم، أو الحج أو في زيارتهم للسلطان، أو زيارة السلطان للنيابات، أو مكافأة لهم، أو اتقاء شرهم. ويتم تقديم مثل هذه التقدّمات في سائر النيابات ولكن على مستوى أقل من مستوى تقدمة السلطان نوعاً وكماً واتساعاً.

#### ( ٦ ) - تعويض الانتقال :

كما كان يجري دفع تعويض للتنقل إذا كان الموظف مرسلأ بمهمة. وتعويض للسفر والإقامة وللتنقل إن لم يتم النقل بالبريد. والدفع لهذه التعويضات تتم من قبل السلطان مباشرة أو الجهة المرسله أو الجهة المرسل إليها الموظف. أو تتم عن طريق البريدي أو مراكز البريد التي خولت هذه الصلاحيات. فقد جاء في تذكرة السلطان الناصر محمد لنائبه كتبغا المنصوري بهذا الخصوص: (إذا سير أحد من الولاة رسولاً بسبب خلاص حق من بعض قرى أعماله فيكون ما يعطى الجاندار عن مسافة سفر يوم نصف نفرة، وعن يومين درهم واحد لا غير؛ وأي جاندار تعدى وأخذ غير ذلك يؤدب ويصرف من تلك الولاية) <sup>(٢)</sup>

#### ٤ - الخدمة الصحية :

أما الخدمة الصحية. فقد كان للعسكريين بيمارستانات خاصة بهم مزودة بخزائن الأدوية، وتقدم خدماتها مجاناً.

---

١ . ابن تغري بردي : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور : تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب ١٩٩٠ ج ١ ص ١٧٦ وص ١٨١ .  
١٨٢ .، وسيفشار إليه باسم : ابن تغري بردي : حوادث الدهور . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٥٦ .  
٢ . القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ١٣ ص ٩٨ .

وتقوم البيمارستانات العامة بتقديم هذه الخدمة للموظفين والعامة على السواء مجاناً أيضاً، وغالباً يكون تمويلها من أوقاف مخصصة لها، كما بيّنا في بحث الخدمات الصحية. ويصطحب السلطان معه في أسفاره بيمارستاناً مخصصاً للأسفار مع خزانة للأدوية، حيث تقدم المساعدة الصحية لمرافقيه مجاناً أيضاً.

#### ٥ - العقوبات:

تكون العقوبات إما بسبب التقصير في الخدمة، أو استغلال الوظيفة العامة، وسرقة الأموال بدون حق. أو بوادر خيانة للسلطان، أو تأمر أو طمع في الحكم، أو الإهمال الشديد أو سوء التصرف، أو التسبب في مشكلة عامة تهدد الأمن الداخلي، أو الاتصال مع العدو الخارجي. وقد ورد في بحثنا الكثير من الأمثلة التي لا حاجة لتكرار ذكرها.

إلا أن توقيع العقوبة لا يكون إلا بالتأكد من صحة المخالفة، سواء بواسطة الجواسيس أو القصص في مجلس المظالم. أو الجرم المشهود.

ويتم إيقاع العقوبات بمحاكمة، أو أحياناً دون حاكمة.

وهذا لا يمنع من وجود دسائس ومؤامرات توصل الموظف مهما علت مرتبته ليقع عليه العقوبات دون ذنب اقترفه يقتضي العقوبة.

وتكون العقوبة بحسب الجرم المقترف منها العزل، أو المصادرة أو كلاهما.

أو فرض جزاء نقدي. أو إبعاد بمصادرة أو بدون مصادرة سواء للمعاقب أو أحياناً لأسرته. ويكون الإبعاد مع إعطاء وظيفة أخرى أو أن يبقى المبعد بطالاً.

كما يتم في بعض الظروف إيقاع عقوبات جسدية من الضرب، أو التعريع، أو التجريس، أو الحبس في مكان الجرم أو مع النفي.

وقد تصل العقوبة لقطع اللسان أو الأطراف، أو الإعدام الذي يتم بطرق مختلفة مثل الخنق والتوسيط والتسمير وقطع الرأس أو الشنق. وقد مرت معنا كثير من تلك الحوادث في هذا البحث.

ومن صور التفتيش على الموظفين ومعاقبتهم ما أورده صاحب السلوك عن الملك الظاهر عند وصوله لبلاد الشام:

وفي يوم الأربعاء آخر شهر رمضان: وصل الملك المظفر إلى ظاهر دمشق، فخيم هناك وأقام إلى ثاني شوال، فدخل إلى دمشق ونزل بالقلعة وجرد الأمير ركن الدين بيبرس إلى حمص، فقتل من التتر وأسر كثيراً، وعاد إلى دمشق.

واستولى الملك المظفر على سائر بلاد الشام كلها، من الفرات إلى حد مصر، وأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه بقطاعات الشام، واستتاب الأمير علم الدين سنجر الحلبي في دمشق، ومعه الأمير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأركشي الكردي.

وفيه قدم المخلص أخو النشو من كشف الدواليب والزراعات بالوجه القبلي فأغرى النشو السلطان بمباشري الوجه القبلي وأنهم فرطوا في مباشراتهم، وأتلفوا عدة أموال لا يليق. فتقدم أمر السلطان إلى ابن المحسني والي القاهرة أن يتحيل في كبسه وإشهاره، وأحس عبد الله بذلك، فكف عما كان يعاينه من اللعب.

وفي يوم السبت نصف رجب: قدم بدر الدين لؤلؤ الحلبي مملوك فندش . بغاء مفتوحة ونون ساكنة، ثم دال مهملة مفتوحة بعدها شين معجمة . وسيف الدين الأكز من الشام.

فأحضرهما السلطان، وطلب مباشري حلب وهم النقيب بدر الدين محمد بن زهرة الحسين والقاضي جمال الدين بن ريان ناظر الجيش وناصر الدين محمد بن قرناص عامل الجيش، وعمه المحبي عبد القادر عامل المحولات، والحاج إسماعيل بن عبد الرحمن العزازي، والحاج علي بن السقا، وغيرهم. فحاققهم لؤلؤ والي في رميهم بأخذ الأموال السلطانية، وجاهرهم بالسوء من القول بين يدي السلطان، والتزم بأنه إن مكن منهم السلطان. فبرز قرموط وواجهه ابن هلال الدولة بأنه أهمل الأمور، وبرطل بالأموال، ونحو هذا من القول، فأثر كلامه في نفس السلطان، وصرف المباشرين، وبعث إلى ابن هلال الدولة يأمره بأن يلزم بيته. وخلع على الأكز واستقر شاد الدواوين عوضاً عن ابن هلال الدولة، وخلع على بدر الدين لؤلؤ الحلبي ليكون مستخلص الأموال، وخرجا إلى دار الوزارة بالقلعة، وطلبوا الضمان والكتاب والمعاملين وأرباب الوظائف. ورتبت على ابن هلال الدولة أوراق. مما أهمله وفرط فيه، وطلب وصوله هو وجميع أزماله، وقبض على مقدم الدولة خالد بن الزراد ومن يلوذ به، فحملوا الأموال. وخلع على ابن صابر واستقر مقدم الدولة. واشتد لؤلؤ على أهل حلب وأهل مصر، وعسفهم وتجاوز المقدار في عقوبة المصادرين خصوصاً أولاد التاج إسحاق. الطبّاخين والحلاويين ونحوهم، وخلع عليه وجلس في دكة الحسبة، وعرض أرباب الدخان.

وأنزل الضياء الحلاويين والفكاهين ألا يشعلوا سرجهم في الليل بالزيت الحار، وألزم حواس الحمامات بعمل فوط سابعة طويلة، ورتب القبانين في جهات معينة، يجلس كل قباني في موضع من البلد.<sup>(١)(٢)</sup>

## ٦ - نظام التقاعد في الدولة المملوكية:

عرفت الدولة المملوكية نظاماً للتقاعد كان يطبق على سائر أرباب السيوف وعلى بعض أرباب الأقلام. وعرف هذا النظام باسم الطرخانيات. وقد عرف القلقشندي الطرخانيات فقال (المراد بها أن يصير الشخص مسموحاً له بالخَدَم السلطانية: يقيم حيث شاء، ويرتحل متى شاء: تارة بمعلوم يتناوله مجاناً، وتارة بغير معلوم.)<sup>(٣)</sup>

١ . المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ١٧٥ وما بعدها.

٢ . انظر ابن تغري بردي : حوادث الدهور ففيه الكثير من هذه الأمثلة منها في ج ١ ص ١٦٥ و ١٨٠ . ١٨٤ وفي القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١٤ ص ٣٧٣ . ٣٧٤ . وهذا غيض من فيض في ذكر العقوبات التي شكلت ظاهرة واضحة في العصر المملوكي .

٣ ( القلقشندي : صبح، طبعة دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥١ )

وكانت الطرخانيات تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية: (ولما كان فلان ممن توفر في الخدمة الشريفة قسمه، وكبر في الطاعة سنه ووهن عظمه، وعجزت عن الركوب والنزول حركته، وذهبت مواقف حربه، ولم يبق إلا أن تُلتَمَس بركته . اقتضى حسن الرأي الشريف أن يضاعف إليه الإحسان، ويعامل بوافر البر وجزيل الامتنان)<sup>(١)</sup>.

ويكتب بالطرخانات مراسيم. ويكون صيغة الطرخانية بعد البسملة والشرح والاستفاضة بأمجاد السلطان كعادة نمط الكتابات المملوكية فيكون لب الموضوع (اقتضى رأينا الشريف، ثم يقال فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر فلان طرخاناً يتصرف على اختياره، يسير ويقيم في أي مكان اختاره من بلاد المملكة وما جرى مجرى ذلك) وقد تأتي العبارة كما يلي (وأن يصرف اختياره في الإقامة حيث شاء من الممالك المحروسة والمدائن)<sup>(٢)</sup>.

وكان الطرخان لا يطلب منه أي عمل فقد جاء بمرسوم طرخاني في ذلك: (أن يستقر المذكور طرخاناً لا يطلب لخدمة في نهار ولا ليل، ولا يلزم بالقيام بنزك (النزك الطعن بالنيزك وهو الرمح الصغير) ولا خيل.<sup>(٣)</sup>

وكانت المبالغ المخصصة للطرخانات تصل إلى صاحبها في أي مكان يختار الإقامة فيه دون عناء. (وليوصل إليه هذا المرتب ميسراً لا يُكدر مورده بتأخير، وليصرف إليه مهنئاً لا يشان طوله بتقصير، ولا يحوج إلى عناء وطلب، ولا يلجأ في تناوله إلى كد وتعب، بل يرفه خاطره عما فاز به من حسن المنقلب)<sup>(٤)</sup>.

وكان مخصص الطرخانات يصرف للطرخانه كل شهر أو كل نصف شهر ما دام الطرخانة حياً ويصرف المبلغ من بعده لأولاده وأولاد أولاده. (ثم يستقر ذلك لأولاده من بعده ثم لأولاد أولاده بالسوية.<sup>(٥)</sup>

وكان يأتي دائماً بأخر نص الطرخانات عبارات تقتضي وجوب سريان مفعولها والأمر بتنفيذها من ذلك ما أورد القلقشندي: (فليمض حكم هذه الطرخانية، لا تتناول السنة الأقلام في نصه، ولا تتطرق أوهام الأفهام إلى اعتراض ما ثبت من إعفائه بنقضه ولا نقصه، وسبيل كل واقف عليه اعتماد مضمونه والوقوف عند حكمه، والانتهاه إلى حده واتباع رسمه، إن شاء الله تعالى. )<sup>(٦)</sup>

١ ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥٤ )

(٢) ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥١ . ٥٢ )

(٣) ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥٥ )

(٤) ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية، ج ١٣ ص ٥٧ )

(٥) ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥٦ )

(٦) ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥٥ )

أو تأتي الصيغة هكذا: (والخط الشريف أعلاه حجة فيه، إن شاء الله تعالى. )<sup>(١)</sup> أو (والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه. )<sup>(٢)</sup>

---

(١) ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥٧ )

(٢) ( القلقشندي : صبح، دار الكتب العلمية ج ١٣ ص ٥٣ )

## الفصل السادس

### الإدارة وخدمات البنية التحتية

#### – المنجزات الإدارية في العصر المملوكي:

قدمت الإدارة المملوكية منجزات مهمة في مختلف مظاهر الحياة، فقد سمحت لذلك الظروف السياسية وحالة الانتعاش الاقتصادي التي تبعت الحروب الصليبية، وهمم بعض السلاطين وخصوصاً السلطان بيبرس وأسرة قلاوون، الذين أكثروا من العمار والبناء.

كذلك شملت مظاهر العمل الإداري في الدولة المملوكية النشاطات البلدية، من شق طرق جديدة شملت طرق المواصلات بين مختلف المدن في مصر وبلاد الشام، وأقيمت الفنادق والخانات وأُمنّت المياه والخدمات والحراسة لتلك المواقع الخدمية وأصبحت حركة التنقل بين المدن أسهل بكثير من العصور السابقة.

وكانت الخدمات البريدية سواء البرية أو الجوية أو الضوئية تعد من أهم منجزات العصر المملوكي. وقدمت الحكومة المملوكية خدمات صحية عظيمة لمختلف طبقات السكان، وكانت تلك الخدمات تقدم العناية الصحية الخارجية بكثرة العيادات الموزعة في كل مكان، أو الداخلية من بيمارستانات . كما كانت الحركة الفكرية والتعليم وبناء المدارس سمة مميزة للعصر المملوكي .

### أولاً . الأشغال والمنشآت العامة:

كانت المنشآت العامة هذه تغطي معظم نواحي الحياة الاقتصادية والعسكرية والدينية، وكانت تلك المنشآت تُغطى تكاليفها إما من خزينة الدولة أو مال السلطان أحياناً. والمشروع إما أن يكون سلطانياً، أي يتبع الدولة ككل. ويكون مما يشترك في نفعه عدة مدن أو ضيع، أو يكون المشروع بلدياً محلياً، أي يتبع بلدة أو مدينة معينة، عندها تكون تكاليف المشروع من ريعها، وإذا زاد عن الريع جرى تقسيط وتدوير المبلغ حتى يتم سداده. وأحياناً عند الضرورة والسرعة الكلية وخطورة وضخامة المشروع يجري فرض ضرائب فورية وأتاوات تحصل على وجه السرعة. كما أن هناك مشاريع قام بها أشخاص من كبار الأمراء أو كبار الموظفين أو الأثرياء، مثل بناء مستشفى أو مدرسة أو جامع أو حفر بئر للشرب أو تعبيد طريق أو ترميم مبنى عام، أو شق قناة للشرب، وليس هذا بقليل في تلك الفترة. وكانت تجري صيانة كل منشأة، سواء جامع أو مدرسة أو جسر أو قنطرة أو بيمارستان بواسطة تخصيص أوقاف للموقع يجري من ريعها حماية وترميم الموقع مما يخفف عن السلطة الكثير من التكاليف.

#### ١ - المشاريع المائية:

هناك اختلاف طبيعي بين شطري السلطنة المملوكية مصر وبلاد الشام من ناحية المصادر الطبيعية. ففي بلاد الشام تعتمد الزراعة على الأمطار. أما الأنهار والسواقي فتكون الحاجة إليها في فصل الصيف فقط، وكانت كمية الأمطار التي تهطل كافية حينها لسقي المزروعات وتوفير إنتاج زراعي جيد، خلا بعض سنين القحط التي لا تؤخذ كقاعدة. وليس في بلاد الشام أنهار عظيمة كالنيل، إذ أكبر أنهارها هو نهر الأردن بروافده المختلفة. ولكنه يبقى أصغر بكثير من النيل، لذلك فإن مشاريع الجسور عليه ليست بحجم مشاريع مصر المماثلة.

#### آ - الجسور السلطانية

وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمر في كل سنة من قبل الديوان السلطاني.



## ب \_ الجسور البلدية:

وهي الخاصة ببلد دون بلد، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد: من الأمراء والأجناد وغيرهم، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم، ولها ضرائب مقررة في كل سنة.

قال ابن مماتي في قوانين الدواوين: (والفرق بين السلطانية والبلدية أن السلطانية جارية مجرى سور المدينة الذي يجب على السلطان الاهتمام بعمارته والنظر في مصلحته وكفاية العامة أمر الفكرة فيه، والبلدية جارية مجرى الآدر والمساكن التي داخل السور، كل صاحب دار منها ينظر في مصلحتها ويلتزم تدبير أمره فيها.)<sup>(١)</sup>

## ٢ - المنشآت العامة في بلاد الشام:

لم يكن حظ المنشآت العامة التي تمت في بلاد الشام بأقل منها في البلاد المصرية. ولو أنها غالباً أقل حجماً. فمما قام به الظاهر ببيرس في بلاد الشام في مختلف النيابات وحده مما ذكرته المصادر أنه (جدد قبة الخليل عليه السلام ورمم شعثه وأصلح أبوابه وميضأته وبيضه، وزاد في راتبه المجرى عليه وعلى قوامه ومؤذنيه، ورتب له من مال البلد ما يجري على الواردين عليه والمقيمين به، وجدد بالقدس الشريف ما كان تداعى من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها.

وأنشأ خاناً للسبيل، وبنى به مسجداً وطاحوناً وبستاناً وفرنأ، وبنى على قبر موسى عليه السلام قبة ومسجداً، وهو عند الكتيب الأحمر، ووقف عليه وقفأ، وبنى على قبر أبي عبيدة رضي الله عنه مشهدأ ووقف عليه وقفأ، وجدد بالكرك برجين كانا صغيرين فهدمهما وكبرهما وعلاهما، ووسع مشهد جعفر الطيار، ووقف عليه وقفأ زيادة على وقفه، وعمر جسر دامية بالغور، ووقف عليه وقفأ برسم ما عساه يتهدم من عمارته، وأنشأ جسوراً كثيرة بالساحل والغور، وعمر قلعة قاقون، وبنى بها جامعأ ووقف عليه وقفأ، وبنى حوض السبيل، وجدد جامع الرملة وأصلح مصالحها، وأصلح جامع زرعين وما عداه من جميع البلاد الساحلية، وجدد باشورة لقلعة صفد، بنى بربضها جامعأ حسناً، وكانت الشقيف قلعتين مجاورتين فجمع بينهما، وبنى بها جامعأ وحمامأ ودار نيابة، وجدد عمارة قلعة الصببية بعدما خربها التتار، وكان التتار هدموا شراريف قلعة دمشق ورؤوس أبراجها فجدد ذلك، وبنى الطارمة التي على سوق الخيل، وبنى حمامأ خارج باب النصر، وجدد ثلاث إصطبلات على الشرف الأعلى، وبنى القصر الأبلق بالميدان، ولم يكن مثله، وجدد مشهد زين العابدين بجامع دمشق، وجدد رؤوس الأعمدة والأساطين وذهَّبها، وجدد باب البريد وفرشه بالبلاط، ورمم شعث مغارة الدم، وجدد دور الضيافة للرسل والمتتردين مجاورة للحمام، وجدد ما تهدم من قلعة صرخد وجامعها ومساجدها، وكذلك فعل ببصرى وبعلجون والصلت، وجدد ما تهدم من قلعة بعلبك، وجدد قبر نوح عليه السلام، وجدد أسوار حصن الأكراد، وعقد قلعتها حنايا، وحال بينها وبين المدينة بخندق، وبنى عليها أبرجة بطلاقات، وجدد من حصن عكار ما كان استهدم منه وزاد أبرجته وبقي به جامعأ وكذلك بربضه، ومساجد أيضاً وبنى من قصير القفول شرقي دمشق إلى المناخ إلى قارا إلى

١ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٣ ص ٤٤٨ وما بعدها.

حمص عدة أبرجة فيه الحمام والخفراء، وكذلك من دمشق إلى تدمر والرحبة إلى الفرات، وجدد سفح قلعة حمص والدور السلطانية بها، وقلعة شميميس أنشأها بجملتها، وأصلح قلعة شيزر وقلعتي الشجر وبكاس وقلعة بلاطنس، وبنى قلاع الإسماعيلية الثمان، وبنى ما تهدم من قلعة عين تاب والراوندان، وبنى بأنطاكية جامعاً مكان الكنيسة وكذلك ببغراس، وأنشأ قلعة البيرة، وبنى بها الأبرجة ووسع خندقها وجدد جامعها، وأنشأ بالميدان الأخضر شمالي حلب مسطبة كبيرة مرخمة، وأنشأ الجسر للقلعة، وبنى في أيامه ما لم يبن في أيام غيره. <sup>(١)</sup>

وعن البداية والنهاية فقد ذكر أن من أعمال السلطان بيبرس ليس بناء الخان فقط بل الصرف على زائريه: (وبنى بالقدس خاناً هائلاً، ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر، وعمل فيه طاحوناً وفرناً وبستاناً، وجعل للواردين إليه أشياء تصرف إليهم في نفقة وإصلاح أمتعتهم). <sup>(٢)</sup>

وفي سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣ م رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بإجراء الماء من عين ببلد الخليل عليه السلام إلى القدس الشريف فامتثل ما رسم به وباشر بإجرائه وما يحتاج إليه من العمارة الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي <sup>(٣)</sup> (أبو سعيد من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون توفي سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م)، <sup>(٤)</sup> واهتم به واجتهد به إلى أن وصل الماء للقدس حيث جرى النفع به والسرور. <sup>(٥)</sup>

ولعل أهم الجسور في بلاد الشام الذي تكرر ذكر إنشائه وترميمه كثيراً في المصادر التاريخية المعاصرة للمماليك هو جسر دامية الذي يقع على نهر الشريعة:

وفي جمادى الأولى سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦ م، رسم السلطان ببناء جسر على نهر الأردن، وهو النهر الذي يشق غور الشام، ويسمونه الشريعة. وهذا الجسر هو بقرب دامية، فيما بينها وبين فراوى ورسم أن يكون خمس قناطر. فندب السلطان الأمير جمال الدين <sup>(٦)</sup> واجتمع الولاة لذلك وحصلوا الأصناف وجمعوا الصناع، وعمره على ما رسم به السلطان. فلما تكاملت عمارته وتفرق ذلك الجمع اضطرب بعض أركان

١. ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٧ ص ٤٦٧، القرمانى ( أبو العباس أحمد بن يوسف بن احمد بن سنان الدمشقي ) أخبار الدول وآثار الأول ج ٢ ص ٢٧٠ . ٢٧١، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥٢٦ . ٥٢٧ وج ٤ ص ٤٣، عن ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات مادة أعمال الملك الظاهر .

٢. ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٧ ص ٤٦٧ .

٣. ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٧ ص ٤٦٧ .

٤. انظر المنهل الصافي ترجمة سنجر بن عبد الله الجاولي والدرر ج ٢ ص ٢٦٦ الترجمة رقم ١٨٧٧ .

٥. ابن حبيب ( الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ) : تذكرة النبیه في أيام المنصور وبنیه تحقيق د. محمد محمد أمين مطبعة دار الكتاب القاهرة ١٩٧٦، ج ٢ ص ٥٤. وسيشار إليه باسم ابن حبيب : تذكرة النبیه.

٦. (وهو جمال الدين محمد بن نهار بن محمد بن رجال والي نابلس والأغوار الصالحي مصري الدار والأصل، كان من أجود الناس وأحسنهم طباعاً، تولى المهندارية في الأيام الصالحية وكان ابن قاضي دارا ناظر البيوت، ولما كبر الملك الصالح ابن قلاوون وأصبح ولياً للعهد رتب الأمير جمال الدين أستاذ داره، فتوفي هو والصالح في سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨ م وكان له همة عالية ويندبه الملك الظاهر للمهمات).

الجسر، فقلق السلطان لذلك وأنكر عليهم وأعادهم لإصلاح ذلك. فتعذر عليهم لزيادة الماء وقوة جريانه، فأقاموا كذلك أياماً وقد تيقنوا العجز عنه.

فلما كان في الليلة المسفرة عن السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨ م انقطع ماء الشريعة حتى لم يبق بها شيء منه، وكان له وللولاة وللآلات عدة شهور ينتظرون العمل فلا يتمكنون من كثرة الماء فلما كان في بعض الليالي وقع فيها تل من تلالها فانقطع الماء، وتوجه شخص ليشرب من الشريعة فلم يجد بها قطرة من الماء، فعاد وأعلم الأمير جمال الدين فقام من وقته، فتبادروا وأشعلوا النيران الكثيرة والمشاعل واغتمتوا هذه الحادثة وأصلحوا الأركان وقووها، وأصلحوا منها ما لا يمكن عمله.

وأرسلوا من يكشف خبر هذه الحادثة، فساقوا الخيل فوجدوا كتاراً<sup>(١)</sup> مرتفعاً كان يشرف على الشريعة من الجانب الغربي قد سقط في الشريعة فسدها، وانكسر الماء وتحامل على جهة الغور مما وراء الكسر. فعادوا بالخبر، وانقطع الماء من نصف الليل إلى الرابعة من النهار، ثم تحامل الماء وكسر ذلك الكتار، وجاء الماء إلى الجسر بطول رمح فلم يؤثر في ذلك البناء لإتقانه، وحمل الماء ما كان هناك من آلات العمارة. وهذه الحادثة من عجائب الاتفاق.<sup>(٢)</sup>

وكانت عمليات تنظيف الأنهار والقنوات تجري في كل بلاد الشام بشكل دوري . ففي أول الربيع من كل عام يجري تنظيف أنهار دمشق وفروع بردى وإزالة التراب والطين والأوساخ من مجاري الأنهار ، ويجري ذلك من قبل الفلاحين .

وفي حماة كان يجري تنظيف قنوات العاصي وغيرها ، وقد ذكر أبو الفداء من حوادث عام ٧٢٦ هـ / قال ١٣٢٦م/ متحدثاً عن نفسه :

( خرجت بعسكر حماة ووصلت الى القناة الواصلة من سلمية الى حماة ، وقسمتها على الأمراء والعسكر لينظفوها ، فإنها كانت قد آلت الى التلف ، بسبب ما اجتمع فيها من الطين ، فحرروها في نحو أسبوع ثم عدت إلى حماة .<sup>(٣)</sup>

### ٣ - ويجري عادة تأمين الطرق سواء الداخلية (البلدية) أو الخارجية (السلطانية):

ففي الطرق البلدية لم تكن حركة السكان والسفر مرغوبة وعلى الأخص للنساء، وخصوصاً في الليل. وكانت أبواب المدن تغلق في وقت معين فلا يسمح بالدخول أو الخروج. وعند الفتن، أو الخوف من الفتن، كان يجري منع التجول في المدينة، ويكون الجزاء حسب الخطر ما بين توبيخ وتسمير في الحالات العصبية، وما بين سجن أو تعزيز في الحالات العادية، وبالتأكيد هذا لا يشمل أوقات الصلاة سواء العشاء أو الصبح.

١ . (والإكتار شيء يشبه الجبل وليس بجبل لأن الماء يحله بسرعة كالطين).

٢ . ابن كثير : البداية النهاية ج ١٧ ص ٤٦٧، النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٨٢ . ٨٣، الوافي بالوفيات مادة المهندار .

٣ . أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر: ج ٢ ص ٤٤٢ دار الكتب العلمية.

أما في الطرق السلطانية فيجري إرسال دوريات تقف في الطرق وحول الخانات وخارج المدن وأحياناً يجري تفتيش المسافرين حتى النساء منهم.

وأهم مخاطر الطرق الكثيرة الزعر والشطار واللصوص داخل المدن وما حولها، ولمكافحتهم كان للوالي خفراء موزعون في المناطق المشبوهة. وكان له عيون يثبتها في مناطق تواجدهم. ويجري بين حين وآخر هجوماً احترازياً عليهم. وإذا جرت حادثة انتقم الولاية منهم أشنع انتقام.

أما في الطرق السلطانية فأهم مخاطر الطرق كانت غزوات الأعراب. ومع أن السلطات المملوكية أعطت لأمرأ الأعراب سلطتهم على مناطقهم المتعارف عليها في البادية وكانت تكرمهم بالعطايا والإحسان تداركاً لطمعهم في قطع الطرق أو مهاجمة الحجاج وهو أمر خطير جداً. إلا أن ذلك لا يخلو من الحوادث الفردية أو عند إظهار الأمير العصيان.

وقد أحدثت السلطة المملوكية خفراء للطرق ينصبون خيمة عليها كنقاط التفتيش في زماننا ويجري تحري وفحص الأشخاص وتفتيشهم جسدياً رجالاً ونساء وأطفالاً.

وقد وصف ابن جببر حالات تفتيش متولي المكوس في نقاط الحدود. (١)

إلا أن هذا التفتيش كما جاء في رحلة ابن جببر والعبدري، يبدو أنه كان روتينياً وسبقاً عصرياً للأيوبيين والمماليك.

ولكن هناك حالات أخرى تقتضي قطع الطريق عن شخص ما أو عصيان أو حالة ضرورة. وإذا لزم الأمر أعطى السلطان الأمر للأعراب لقطع الطرق على شخص مطلوب من ذلك أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون موسى بن مهنا (٢) في عام ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م بقطع الطرق على تتكز والي الشام منعاً من هروبه لأن السلطان عرف برغبته بالتمرد فقرر التخلص منه. (٣)

كما كان هناك حواجز للتفتيش على الطرق العامة بين المدن، ومنع للسفر أثناء الليل. من ذلك ما أورد القلقشندي إذ قال: (يتقدم إلى الولاية ويستخرج الأمثلة الشريفة السلطانية بترتيب الخفراء على ما كان الحال رتب عليه في الأيام الظاهرية: أن يرتب من البلد إلى البلد خفراء ينزلون ببيوت شعر على الطرقات على البلدين، (حواجز تفتيش) يخفرون الرائح والغادي؛ وأي من عدم له شيء يلزمه دركه، وينادي في البلاد أن لا يسافر أحد في الليل ولا يغزر، ولا يسافر الناس إلا من طلوع الشمس إلى غروبها، ويؤكد في ذلك التأكيد التام) (٤)

١. ابن جببر (محمد بن جببر الأندلسي) تذكره بالأخبار عن اتفاقات الأسفار: رحلة ابن جببر الأندلسي، حررها علي أحمد كنعان المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠١. ص ٢٢. ٢٣. ويشار إليها باسم رحلة ابن جببر.

٢. (موسى بن مهني بن عيسى بن نافع رئيس آل فضل من أمراء بادية الشام يلقب بمظفر الدين تولى الإمارة بعد موت والده سنة ٧٤٣ هـ وتوفي بتدمر. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٩٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج ١٠ ص ٧٦).

٣. المقرئبي: السلوك ج ٣ ص ٢٨٥، دهمان: ولاية دمشق في العهد المملوكي: ص ١٥٠ عن قرا سنقر وص ١٦٤ عن تتكز.

٤. القلقشندي: صبح الطبعة المصرية: ج ١٣ ص ٩٥.

وقد حرص نائب الشام تنكز على سلامة الطرق ووجود الحراسة عليها<sup>(١)</sup>.

### ثانياً - مشاريع مياه الشرب:

تعاني منطقتنا العربية من نقص المياه والتصحّر كثيراً، وهذه المعاناة ليست وليدة اليوم ولكنها تزداد جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن. فمناخ البلاد العربية مناخ متوسطي حار، تحيط وتضم البلاد العربية أكبر الصحارى في العالم ، الصحراء الكبرى والصحراء العربية، وكثير من مناطقنا الأخرى عبارة عن بواد. إذ إن أنهار ومجاري المياه في منطقة بلاد الشام قليلة بالنسبة لمساحة البلاد وتغطي البادية مساحة كبيرة من الأرض . بينما الأنهار دائمة الجريان في المنطقة يتحكم بها كمية الأمطار الهائلة ، والثلوج التي تهطل ومدى ذوبانها من أعالي الجبال . كنهر العاصي وبردى والأعوج ونهر الأردن ونهر الكبير الشمالي جنب مدينة اللاذقية ، والنهر الكبير الجنوبي الذي يصب قرب عكار ، ونهر السن الى الشمال من بانياس . ونهر الليطاني الذي ينبع من طرف جبل الباروك الشرقي ويصب في البحر الأبيض شمال مدينة صور ، ويعد نهر الفرات مشكلاً حدود بلاد الشام الى الشمال الشرقي منها ، وفائدته في بلاد النهرين أكبر . أما باقي الأنهار ومجاري المياه فهي موسمية تسيل بعد هطول الأمطار وذوبان الثلوج المحلية وتجف بانتهاؤها<sup>(٢)</sup> .

واعتمدت الزراعة في معظم مناطقنا على الأمطار وعلى شبكات الري في مواقع الأنهار. لذلك كانت وما تزال مشكلة تأمين المياه، وخصوصاً المياه الصالحة للشرب مهمة الحكام منذ مطلع التاريخ في منطقتنا.

فقد ذكرت قضايا حفر الآبار ونقب الصهاريج في صخور الجبال لجمع وحفظ الماء في الوثائق الفرعونية ووثائق بلاد ما بين النهرين ووثائق الممالك السورية.

وكثيراً ما تكون حروب وغزوات العرب في الصحراء والبدو ناتجة عن نقص المرعى والماء. ولا ننسى أن أهم الهجرات اليمنية التي أثرت على مجرى تاريخنا كانت بعد سقوط سد مأرب الذي كان إنشاؤه في تلك العصور دليلاً على أهمية المياه في منطقتنا وأهمية إدارتها.

إذن عانت الدولة المملوكية مشكلة المياه كما عانتها الدول التي قبلها والدول التي بعدها. ووجدنا كيف تم إنشاء السدود والترع والقناطر لحمل المياه وسوقها للمناطق العطشى.

فقد كان هناك نظام في مصر وبلاد الشام بتنظيف سنوي للترع والأنهار ومجاري المياه يقوم به أهل المنطقة وتفرض أتاوة أو رسم على ذلك.

وكان شائعاً جداً إنشاء سبيل في الطرقات في المدن، وفي الطرق، السلطانية وفي جميع خانات المملكة فإما أن تساق للخان قناة ماء تكفيه أو يجري حفر بئر خاصة به أو إقامة خزان مياه للشرب يجري تجميع مياه المطر فيه وعند الضرورة تجري تعبئته بواسطة الروايا بالجمال.

١ . (دهمان : ولاية دمشق في العهد المملوكي ص ١٦٦ )

٢ . الثلي : بلاد الشام ص ١١٦ .

أما في المدن فكانت تشق القنوات إذا أمكن توفر الماء، أو يتم إنشاء صهاريج حسب الحاجة، أو يتم نقل الماء بالروايا التي تحملها الجمال أو البغال ويجري بيعها. ويبقى السقا والراوية شيئاً هاماً في حياة سكان الشرق الأوسط، حيث يتم نقل الماء بواسطة الجمال أو الصهاريج.

كانت دمشق تنعم بالمياه الوفرة التي تم توصيلها لمعظم بيوت المدينة دون عناء وبالراحة، دون حاجة لرفع الماء بالنواير أو غير ذلك، مع العلم أن كانت هناك حارة في الصالحية تدعى حارة النواير كان يجري فيها رفع مياه نهر يزيد للمناطق الشمالية العالية منه. ولصيق جامع الشيخ محي الدين آخر ناعورة بقيت تعود للسلطان سليم الذي أنشأها لصيق جامع الشيخ محي الدين وإلى شماله تكيته المعروفة. إلا أن مياه دمشق وتوزيعها كان يتبع نظاماً صارماً يفوق تدخل أصحاب العلاقة حفاظاً على حق الخلف ' ورعاية لحقوق الأمة ككل. غذ كان التعامل على أساس أن المياه تتبع الأمة ككل لا الشخص أو الأشخاص بعينهم، ولا إعتبار لتفاهمه الحالي. لأن المياه ملك الأمة في كل زمان ومكان. وكان المحتسب مخولاً بالإحتراز في سياق مياه دمشق. ( فقد جرت عادة أناس في الشام أن يشتري بعضهم قدراً معلوماً من ماء نهر ثورا مثلاً، ويتحيل لصحته بأن يورد العقد على محله بما له فيه من حق الماء، وهو كذا إصبعاً، ثم يسوقه، ويحمله على مياه الناس برضى طائفة يسيرة منهم،... والواقع أن الخلق في أنهار دمشق سواء، يقدم الأعلى منهم فالأعلى، ولا يجوز بيع شيء من الماء ولا مقره، ولا يفيد رضى قوم ولا كلهم، لأنهم لا يملكون الإنتفاع، بل ولا رضى أهل الشام بجملتهم، لأن رضاهم لا يكون رضى من يحدث بعدهم من الخلق<sup>(١)</sup> . )

وفي حلب قام نائب حلب الأمير سيف الدين سودي الجمدار الأشرفي الناصري<sup>(٢)</sup> سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤ م بتوصية من السلطان محمد بن قلاوون بحفر نهر الساجور، وهو نهر صغير بمنبج التي تقع إلى الشمال الشرقي من حلب، ليصل إلى مدينة حلب التي كانت تعاني من قلة الماء، فجر النهر ليصب في نهر قويق. فما اتفق للنائب إتمام مشروعه بإيصال النهر إلى حلب. وقد كلف المشروع ثلاثمائة ألف درهم، نصفها من مال النائب ونصفها من السلطان محمد بن قلاوون، وطول النهر الذي أمر بحفر أربعون ألف ذراع وبعث ذراعين<sup>(٣)</sup>.

إلا أن العمل عاد لحفر النهر أيام الأمير سيف الدين أرغون الناصري<sup>(٤)</sup> فوصلت مياهه إلى مدينة حلب في شهر صفر سنة ٧٣١هـ / ١٣٣١ م، وتدفقت مياهه رافدة نهر قويق الذي يمر بحلب، فزاد ماؤه وطال بقاءه وتبسم الزهر من حوله ومالت إليه الأغصان، وكان قويق يسقم في الصيف، ويبرأ في أواخر

١. ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ٤٩ - ٥٠ .

٢. عين نائباً على حلب ما بين ٧١٢ . ٧١٤ هـ / ١٣١٢ . ١٣١٤ م انظر ترجمته في الدرر ج ٢ ص ٢٧٥ ترجمة رقم ١٩١٠.

٣. ابن حبيب : تذكرة النبيه ج ٢ ص ٥٨ . ٥٩، نيابة حلب: حمزة، ج ٢ ص ٢٠٠.

٤. عين نائباً لحلب في ٢٩ محرم سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م / حتى جمادى الأول ٧٣١ هـ / ١٣٣١ م حيث توفي. انظر ترجمته في الدرر ج ١ ص ٢٧٤ الترجمة رقم ٨٧٣ وشذرات الذهب ج ٦ ص ٩٥.

الخريف. وتم جر النهر بإشارة الأمير سيف الدين أرغون الناصري، وقد احتاج شق النهر لجهود كبيرة ومشاق عظيمة، وعمل استمر ستة أشهر، وجرى قطع الكثير من الصخور في طريقه، وكلف الكثير من الأموال. (وكان يوم وصوله مشهوداً، خرج نائب السلطنة المذكور والأمراء والأعيان وأهل البلد لتلقيه مشاة، وشعارهم التهليل والتكبير، ولم يمكن أحد من المطربين من الحضور، ولا أحد من أرباب الملاهي، واتفق في طريقه واديان وجبلان، فعمل على الواديين خزان يعبر الماء عليها، ونقب الجبلان، أما أحدهما فكان سهلاً، وأما الآخر فكان صخراً أصم طوله نحو أربعمئة ذراع، وعمل له فقرات منهم الضوا (أي سال النهر) وحصل النفع والسرور<sup>(١)</sup> إلا أن أرغون لم يتمتع بإنجازه فتوفي في ربيع الأول من السنة نفسها. وفي أواخر شهر رجب برز نائب السلطنة منجك إلى الربوة وأحضر القضاة وولاة الأمور ورسم بإحضار المفتيين - وكنت فيمن طلب يومئذ إلى الربوة فركبت إليها - وكان نائب السلطنة عزم يومئذ على تخريب المنازل المبنية بالربوة وغلق الحمام من أجل هذه، فيما ذكر أنها بنيت ليقضي فيها، وهذا الحمام أوساخه صائرة إلى النهر الذي يشرب منه الناس، فاتفق الحال في آخر الأمر على إبقاء المساكن ورد المرتفعات المسطرة على توره وناس، ويترك ما هو مسلط على بردى، فانكف الناس عن الذهاب إلى الربوة بالكلية<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً . الاتصالات في الدولة المملوكية:

اعتمدت الدولة المملوكية نفس طرق الاتصالات التي كانت تستخدم من قبل، إلا أنها أعطت اهتمامات زائدة لدقة سير تلك الاتصالات وسرعتها. وربما كانت للظروف الحربية وحالات الصراع الخارجي والداخلي إضافة للحاجيات والعلاقات الاقتصادية ولكل تلك العوامل مجتمعة دورها المؤثر لسد احتياجات المملكة لشبكة اتصالات جيدة وسريعة ومضمونة.

#### اعتمدت طرق الاتصالات على ثلاثة أنواع برية وجوية وضوئية:

##### ( ١ ) - البريد في الدولة المملوكية:

يهدف البريد بالأساس لإيصال رسائل الحاكم، ملكاً كان أو خليفة أو سلطاناً إلى عماله واستلام الأجوبة عليها، أو استلام رسائل النواب والأمراء وكبار رجال الجيش والإدارة للسلطان. ولم يكن البريد بوارد نقل الرسائل العادية أو الاخبار الخاصة إلا في حالات خاصة وضيقة جداً. إلا أن البريد وعماله أخذوا في القيام بأدوار أخرى جانبية، هي جمع الأخبار وإرسالها بصورة سرية إلى السلطان، ليقوم صاحب البريد بمقام مدير الاستخبارات.<sup>(٣)</sup>

١ . ابن حبيب : تنكرة النبيه ج ٢ ص ٢١٠ . ٢١١ ، حمزة : نيابة حلب: ج ٢ ص ٢٠٠ . ٢٠١ .

٢ . (دهمان : ولاة دمشق في عهد المماليك : ص ٢١٤ )

٣ . البيوزيكي ( د. توفيق سلطان ) انظر دراسات في النظم العربية و الإسلامية ، طبعة ١٩٧٧ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بغداد ص ١١٣ وما بعدها.

عرف نظام البريد منذ القديم واستخدم في زمن الأمويين والفاطميين ولكنه لم يكن بريدا منتظما بل عند حاجة الخليفة أو الحاكم ومتى أراد .

قام الظاهر بيبرس بتنظيم البريد كوسيلة لربط أجزاء دولته بحاضرتها بعد أن وحد الدولة في مصر وبلاد الشام إثر قضائه على الصليبيين. وقد أقام غلماناً وخيولاً للبريد تسير على مراحل في كافة أنحاء المملكة. ونظم سير البريد بحيث يصل القاهرة من دمشق - على سبيل المثال - مرتين في الأسبوع. وكان البريد يقطع المسافة من القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام وأحياناً في ثلاثة أيام وإلى حلب في خمسة أيام<sup>(١)</sup>.

وقد حدد المؤرخون تاريخ إتمام تجديد البريد في عهد بيبرس بعام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ . ١٢٦٢ ميلادية، بينما حدده ابن أياس بسنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ ميلادية. <sup>(٢)</sup>

وقد أنشأ السلطان بيبرس خدمة البريد السريع وكان يجزي العطاء للبريدية المتميزين، فقد حصل بريدي وصل من دمشق على (٣٠٠) درهم، وأجزل العطاء لبريدي آخر بإعطائه (٤٠٠) درهم، وكان يعطي مبالغ إضافية وخلع للبريد السريع<sup>(٣)</sup>.

ويقول سوفاجيه وهو أكثر المستشرقين اهتماماً بالبريد المملوكي: (حين تضافر استخدام الحمام الزاجل والإشارات الضوئية إضافة لاستخدام الخيل في البريد أصبحت مؤسسة البريد أكثر اكتمالاً، تتمركز حول نظم العلاقات العسكرية والسياسية والإدارية في الإمبراطورية.. وبفضل تأسيس البريد ومحطات الحمام الزاجل، ومواقع الإشارات الضوئية، باتت كل النقاط الحيوية في الإمبراطورية ترتبط بالعاصمة بطريقة منتظمة وسريعة<sup>(٤)</sup>).

وقد تمتعت إدارة البريد بقسط كبير من الأهمية في عصر المماليك وكانت تتبع ديوان الإنشاء<sup>(٥)</sup>. إلا أن البريد ضعف بضعف الدولة المملوكية بعد اجتياح التتار للبلاد الإسلامية، وقد وصف القلقشندي ذلك فقال (ولم يزل البريد مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن غشي البلاد الشامية تيمورلنك صاحب ما وراء النهر، وفتح دمشق وخرّبها وحرّقها في سنة أربع وثمانمائة، فكان ذلك سبباً لنقص جناح البريد وبطلانه من سائر البلاد الشامية). <sup>(٦)</sup>

## ٢ - أسس نظام البريد:

١ . (انظر الموسوعة الإسلامية النص العربي والإنكليزي مادة (بريد)).

٢ . ابن أياس: بدائع الزهور: ج ١ ص ١٠٨ طبعة بولاق ١٣١١ هـ، وانظر - ماجد (د. عبد المنعم ) أيضاً نظم دولة المماليك ج ١ ص ٦١ طبعة ١٩٧٩.

٣ . تورلو، ص ١١١.

٤ . J. Sauvaget، La Poste aux Chevaux dans L'empire des Mamelouks ، Paris 1941.

٥ . عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام: ، ص ٣٧٤ . ٣٧٥.

٦ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١٤ ص ٣٧٠ وعاشور : العصر المماليكي ص ٣٧٤.



المفروض أن يكون قراءة الرسائل والبريد بيد السلطان مباشرة وهو أمر لم يحدث عبر التاريخ نظراً لكثرة أشغال السلطان أو الملك، ولكنه أوكل ذلك الى متولي الديوان<sup>(١)</sup>.

إذاً تتبع إدارة البريد في العصر المملوكي ديوان الإنشاء، ويقول القلقشندي بأن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولي لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار.

يتبعه في المسؤولية كاتب السر في ديوان الإنشاء وكان عليه موظف من أرباب السيوف<sup>(٢)</sup>.

فصاحب ديوان الإنشاء المشرف الأول على المؤسسة البريدية، وهو من يوجه أعمالها وأحياناً يقوم بالتفتيش على مراكزها في مصر وسائر النيابات. يقول القلقشندي: (ولصاحب ديوان الإنشاء التتبع على مصالح مراكز خيل البريد في الديار المصرية وغيرها)<sup>(٣)</sup>.

يتبعه في المسؤولية كاتب السر وتسميه العامة (كاتب السر) لأنه يكتُم أسرار الملك، إضافة لمناصبه الكثيرة من مرافقة السلطان والجلوس للمظالم وقراءة رسائل السلطان، فإنه المسؤول عن البريد وعن رسائل الحمام والمناور، وبعبارة أخرى عن الاتصالات.

مركز البريد الرئيس يقع في قلعة الجبل (وهي مقر السلطان) في القاهرة يتبعه مراكز البريد في أنحاء السلطنة. منها التي تشكل مراكز حيوية، مثل قلعة الجبل وغزة ودمشق، ومنها مراكز محلية تتبع كل ولاية أو نيابة بإدارة محلية.

### ٣ - العاملون في البريد:

أ. يرأس المركز البريدي مقدم البريد. وهو الرئيس المباشر للبريديين.

ب. يتبعه البريديون (مفردها بريدي) وهو الذي يقوم بنقل البريد للجهة المعنية. ويبدو أن البريدي ليس من يحمل البريد للجهة المكلف إليها فقط، بل يكون كالرسول من المرسل للمكاتبات، وغالباً يكون السلطان، إلى المرسل إليه. لذلك كان يتطلب من البريدي صفات.

ولم يكن البريديون من طبقة واحدة. إذ يتدرج البريدي في وظيفته من حمل البريد العادي بين الولاية والحكم، إلى أن يحرز الثقة لدى السلطان ويصبح محل سره، فيكلفه بحمل البريد المستعجل ويحمل الرسائل الهامة للملوك<sup>(٤)</sup>.

ج. السعاة وهم من يقومون بتسليم المكاتبات للمرسل إليه، إن لم يقدّم البريدي بتسليمها شخصياً، ولهم نقيب<sup>(٥)</sup>.

### د - يتبع البريدي عمال الاصطبلات:

١. منهم السواس (جمع سائس) يقومون بالعمل في اصطبلات البريد برسم خدمة الخيل فيه.

١. القلقشندي: صبح طبعة الذخائر، ج ١، ص ١١١.

٢. انظر القلقشندي: صبح طبعة الذخائر، ج ١٤، ص ٣٧١.

٣. القلقشندي: صبح طبعة الذخائر، ج ١، ص ١١٦.

٤. القلقشندي: صبح الجزء والصفحة السابقة نفسها، حسن: تاريخ الممالك البحرية: ص ٢٥٠.

٥. انظر ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك: ١٩٧٩، ج ١، ص ٦٢.

٢ . والسُواق (مفردهما سواق أو سائق) يركبون مع من رسم بركوب خيل البريد ليسوق له فرسه، ويخدمه مدة سيره.

٣ . وسقاة خيل البريد وشحناتها وخدمها.

#### ٤ - مهمات المراكز في صرف نفقات المحمولين على البريد:

هنالك مهمة أخرى لمراكز البريد هي تأدية نفقة لبعض المبعثين من السلطان، تدفع مباشرة للمحمول على البريد بشكل يومي حسب ورقة الطريق المعطاة للمحمول على البريد السلطاني وتقتصر هذه الخدمة على الأمراء وأصحاب الجاه والشخصيات المهمة فقط، ولم تكن كل المراكز تقدم هذه الخدمة؛ فهناك مراكز لم تخول بهذه المهمة. ويقول القلقشندي في هذا الخصوص:

(وأحياناً يأتي في ورقة الطريق أمر بصرف نفقة) وكتب ذلك بعد ذكر خيل البريد: (ويصرف له من النفقة في كل يوم كذا وكذا درهماً) (ويكون ذلك لمراكز البريد التي خولت بالصرف، إذ ليست كل المراكز بمخولة بالصرف)<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - حماية البريد:

كانت السلطة المركزية توفر حماية البريد والبريدي خوفاً من تعرضه للسرقة أو القتل من قبل اللصوص وقطاع الطرق بطريقتين:

آ - ركوب خادم البريد مع البريدي لخدمته وحراسته.

ب - تقديم العون للبريدي من قبل العساكر المنتشرة بين الولايات والنيابات.<sup>(٢)</sup>  
وكان البريدي مسلحاً بالسيف لحماية نفسه وحماية البريد.

#### ٦ - ميزات البريدي:

ميز البريدي باللواح من فضة تحفظ لدى ديوان الإنشاء في عهدة كاتب السر في الأبواب السلطانية، منقوش على وجهي اللوح نقشاً مزدوجاً (أي على وجهي اللوح) فعلى الوجه الأول عبارة «لا اله إلا الله محمد رسول الله (أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)<sup>(٣)</sup>. ضرب بالقاهرة المحروسة».

وينقش على الوجه الآخر «عزّ لمولانا السلطان» .. .. ويذكر اسم السلطان .. «سلطان الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين (ويذكر اسم السلطان واسم أبيه) خلد الله ملكه».

ويكون اللوح مثقوباً من أعلاه يعلق فيه شراب من حرير أصفر (وهو لون أعلام المماليك تميزاً لها عن لون الخلفاء العباسيين الأسود) يعلقها البريدي في عنقه، فيصير اللوح أمامه تحت ثيابه والشرابة خلفه فوق ثيابه، فإذا خرج بريدي في مهمة من المهمات، أعطي لوحاً من الألواح متوجهاً إلى مقصوده، فكل من رأى الشرابة خلفه علم أنه بريدي. وبواسطة هذه العلامة، التي تشبه أمر مهمة رسمية، يتعرف عليه

١ . انظر : القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ، ج ٧ ، ص ٢٣١ . ٢٣٤ .

٢ . الشلي : بلاد الشام ص ١١٠ .

٣ . سورة الفتح الآية رقم ٢٨ .

أرباب المراكز البريدية فيسلموه خيول البريد ليصل إلى مقصوده، ويعود إلى السلطان. حيث يعيد اللوح إلى ديوان الإنشاء.

إن نظام البريد هذا لا يقتصر على المركز الرئيس في قلعة الجبل، بل يتعمم ذلك في كافة النيابات، باختلافات طفيفة يقتضيها الحال، فعلى سبيل المثال نجد أن :

آ - مركز بريد دمشق، وهي النيابة الهامة ونائبها نائب السلطان، يتبعه ولايات الشام كافة، نجد أن البريد فيها يتبع ديوان النائب، وفيها مهمندار من مهامه تلقي الرسل الواردين، يتبعه أمير آخور البريد الذي يكون مسؤولاً عن خيول البريد في دمشق ونواحيها، يكون أمير عشرة من أيام الناصر ابن قلاوون حتى عهد القلقشندي. ويتبعه ناظر مراكز البريد ومتوليها يكون رفيقاً لأمر آخور البريد وولايته تتم بتوقيع كريم<sup>(١)</sup>.

ويتبعه مقدم البريد المسؤول عن جماعة البريدية بدمشق، ويكون عادة منذ أيام السلطان قلاوون يتم اختياره من البريدية، وأصبح في عهد القلقشندي إما من إمرة العشرة يتبعه أمير خمسة. أو يكون من إمرة الخمسة يتبعه جندي. ويتم التعيين من قبل النائب<sup>(٢)</sup>.

ب - مركز بريد نيابة حلب:

فتتبع النظام نفسه تقريباً إذ يتبع البريد: كاتب السر المسمى صاحب ديوان المكاتبات في حلب، ولا يسمح أن يطلق عليه اسم كاتب ديوان الإنشاء بحلب، يتبعه المهمندار مسؤول عن البريد، ويتبعه شد مراكز البريد وعادة يكون أمير عشرة، وربما كان مقدم حلقة أو جندياً، ويتم تعيينه من قبل النائب بتوقيع كريم<sup>(٣)</sup>.

ج - مركز بريد غزة، فليس فيها أي إشارة لوجود مقدم للبريد فيها، سوى ما ورد من إشارات وردت عند غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري إذ يقول «وأما أرباب الوظائف بها فمملكته على العادة» فيفترض وجود مقدم بريد خصوصاً أن غزة كانت مركزاً بريدياً هاماً يتفرع عنه الكثير من خطوط البريد<sup>(٤)</sup> د - في صفد: ضمت صفد الكثير من مراكز البريد، وكان لا بد أن ينظر في أمرها مقدم بريد يرجع إلى كاتب السر في صفد لأن البريد يتبع ديوان الإنشاء<sup>(٥)</sup>.

ويتبع الأسلوب نفسه في المراكز البريدية الأخرى مثل دواوين الإنشاء في دمشق وحلب وغيرها، إنما تختلف كتابة ما يضرب على اللوح. كأن يكون في دمشق فيكتب (ضرب في الشام) وإن كان في حلب، كتب (ضرب في حلب المحروسة).

١ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

٢ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ، ج ٤ ، ص ١٨٧ . ١٨٨ .

٣ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ . ٢٣١ .

٤ . عطا الله (، محمود خليل ) نيابة غزة في العهد المملوكي ، منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت ص ١٠٦ . وسنشير إليها لاحقاً باسم عطا الله : نيابة غزة .

٥ . انظر ، الطراونة : مملكة صفد في عهد المماليك ، ص ٢٤٣ .

وقد بطلت تلك الألواح في زمن القلقشندي، وصار كل بريدي عنده شرابة حرير أصفر يجعلها في عنقه من غير لوح، اللهم إلا أن يتوجه البريدي إلى مملكة من الممالك النائية، فيحتاج إلى اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة<sup>(١)</sup>.

#### ٧ - وسائل نقل البريد:

استخدم البريد الخيل في معظم مراكزه واستخدم الخيل الشهارة في شبه جزيرة سيناء، واستخدم الهجن حسب الظروف.

#### ٨ - طرق البريد ومواقعه:

كان للبريد طرق خاصة تراعي السرعة في وصول البريد ولا تهتم كثيراً براحة المسافر، بينما كانت هناك شبكة طرق تجارية كان يتبعها الرحالة والمسافرون، وطرق القوافل التجارية. وهي لا تعتمد على سرعة الوصول بقدر اعتمادها على راحة المسافرين والقوافل ووجود الخانات ومراكز المياه والأسواق. ودخول المدن والبلدات والقرى.

شكلت خطوط البريد شبكة غطت السلطنة بكاملها مرتبطة بالإدارة المركزية وبين الفروع مهما صغرت أو كبرت الجهة المرسل إليها البريد.

كانت القاهرة وبالخصوص قلعة الجبل هي المركز الرئيس للبريد في السلطنة. ومنها يُتجه إلى سائر أنحاء المملكة. ووصلت خطوط البريد إلى جبال طوروس، بعد خروج الصليبيين من الشام، وقد مهدت الطرق وأقيمت الجسور سواء البلدية أو الجسور السلطانية. وأقيمت مراكز البريد التي تحتوي فندقاً وإصطبلًا وخيولاً للتبديل وكل ما يحتاجه المسافر أو البريدي من قوت وزاد وعلف، إضافة للخدم والسواس والحراس. كما يحوي المركز البريدي مسجداً للصلاة.

ساعدت الطرق البريدية التي شكلت شبكة رئيسية بين المدن الكبرى في السلطنة إضافة للطرق المتفرعة الداخلية لتشمل سائر المناطق، ساعدت تلك الشبكة في سرعة تحرك السلطان وموظفيه وفي تحركات الجند.

وكانت سرعة إيصال البريد عظيمة بحيث يصل الخبر من قلعة الجبل في القاهرة إلى الشام بأربعة أيام.

وكان هناك بريد منتظم بين القاهرة والشام بمعدل مرتين أسبوعياً، إضافة للرحلات الخاصة لتسليم بريد عاجل أو إيصال موظف مهم أو مهمة خاصة.

انتشرت خانات ومراكز البريد في كل أرجاء السلطنة، ولا تزال آثارها وآثار الطرق البريدية ظاهرة للعيان، ولا زال بعضها مستخدماً في مجال خدمات الدول الحديثة أو لأغراض سياحية. ويمكننا تقسيم طرق البريد إلى قسمين: الأول داخل مصر والآخر نحو سائر أقسام المملكة.

١. القلقشندي: صبح طبعة الذخائر، ج ١، ص ١١٥. ١١٦.

١ - أما في بلاد الشام، فإن البريد يخرج من مصر باتجاه غزة عبر صحراء سيناء، حيث يكون البريد من مسؤولية زعماء العربان ويكون للبريد إدارة مستقلة يقومون بتسييرها، إذ يعين السلطان لهم إقطاعات عليها خيول موظفة لهذه الغاية، تحضر في هلال كل شهر (أي في أول كل شهر عربي قمرى) إلى مراكز أصحاب النوبة. يجري إحضار غيرها في نهاية الشهر، لذلك تسمى (خيل الشهارة) وعلى الشهارة والى من قبل السلطان يستعرض في كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه، ويدعونها بالداغ السلطاني. وهو بمنزلة المفتش على تلك المراكز والنوب (جمع نوبة) لأن انتهاء الشهر وعدم تجديد الخيل من قبل أمراء العربان الموكلين يعني تأخر البريد وتوقفه، لأن في اكتراء أهل النوب الخيل التابعة للشهر الفائت خطراً كبيراً، لأن الخيل التي استعملت تكون تعب وغير قوية الجسم، لأن العربان كانوا لا يعلفونها كفاية مما يضعف قواها.

٢ - تبدأ حدود بريد صحراء سيناء من مركز بريد (السعيدية) إذ آخر بريد سلطاني في مصر يكون (بلبيس) ومنها إلى: (الخطارة) ومنها إلى (قبر الوالي) وقد استجد به أبنية وأسواق وبساتين حتى صار كأنه قرية. ثم إلى: (الصالحية) وهي آخر معمر الديار المصرية. ثم إلى: (بئر غزي) (وفي صبح الأعشى (بئر عفري) وفي الموسوعة الفلسطينية، (بئر غذى).<sup>(١)</sup>

ثم إلى: (القُصير) نقلاً عن (العاقورة) وقد بنى فيها كريم الدين وكيل الخاص الناصري خاناً ومسجداً ومئذنة ورتب لها زيتاً للتزوير، وعمل ساقية، إلا أن هذا كله تهدم. ثم إلى: (حَبْوة) التي لا ماء فيها ولا بناء، وإنما هي عبارة عن استراحة تستريح فيها خيل العرب الشهارة. ثم إلى: (الغرابي) وإلى: (قُطيا) ويصفها القلقشندي على أنها قرية صغيرة بها تؤخذ المرتبات السلطانية من التجار الواردين إلى مصر، والصادرين عنها. وهناك رمل في الطريق يختم في الليل. ويحفظ ما حوله بالعربان حتى لا يمر أحد ليلاً. فيكون من القاهرة إلى قُطيا اثنا عشر بريداً. ومنها وإلى (صبيحة نخلة معن) ومن الناس من يقتصر على إحدى تلك الكلمات في تسميتها. ومنها إلى: (المطيلب) إلى: (السَّوادة) وقد حوّلت عن مكانها الأول فصار المسافر لا يحتاج التعرّيج إليها. ثم إلى: (الواردة) وفيها المسجد الأشرفي على قارعة الطريق، بناء الملك الأشرف خليل رفقا بالمارة، ومنها يتجه الطريق إلى:

(بئر القاضي) والمدى بين المركزين طويل جداً يملأه السالك، فالى: (العريش) وقد أحدث فيه كريم الدين ساقية سبيل. وبنى خاناً حصيناً يلجأ إليه من يصل مساء آمناً من غدر طوارق الفرنج (أثناء الحروب الصليبية). ثم: (الخروبة) وهو آخر مراكز بريد العرب الشهارة.<sup>(٢)</sup>

وكان البريد العابر للصحراء يتوقف عند الإضطرابات أو تمرد العربان فيستعاض عنه بالبريد الجوي حتى تستقر الأحوال .

١ . (انظر الموسوعة الفلسطينية ج ١ ص ٣٨٩).

٢ . في الظاهري : زبدة كشف الممالك من قلعة الجبل إلى الغرابي ثم إلى قُطيا ثم إلى معن ثم إلى المطْلَب ثم إلى السَّوادة ثم إلى الواردة ثم إلى بئر القاضي ثم إلى العريش ثم إلى الخروبة ثم إلى الزعقة ثم إلى رفح ثم إلى السِّلقة ثم إلى غزة. ص ١١٩.

### ٣ - مراكز بريد غزة:

يعد مركز بريد غزة من المراكز الهامة والرئيسية في البريد المملوكي: وكونه مركزاً رئيساً ففيه يتفرع البريد إلى ثلاثة مناطق هي: الكرك ودمشق وصفد:

#### آ - الطريق إلى كرك:

من غزة إلى:

(ملاقص)<sup>(١)</sup> وهو مركز بريد أيضاً، ومنها إلى:

(بيت جبريل)<sup>(٢)</sup> ومنها إلى: (جنبا) ثم منها إلى: (الصافية)<sup>(٣)</sup> ومنها إلى: الكرك<sup>(٤)</sup>.

#### ب - الطريق من غزة إلى دمشق:

من غزة إلى: (الجنيين) وهي أيضاً مركز بريد ثم إلى: (بيت دارس) وبها خان بناه ناصر الدين الخزندار التتكري الذي استبدل عن موقع (بياسور لطول المدى وللمصلحة) ومنها إلى: (قطرة) وهي أيضاً مركز مستجد. (لم يأت ذكرها في زبدة كشف الممالك) ثم منها إلى: (لد) ومنها إلى: (العوجاء) ومنها إلى: (الطيرة) ومنها إلى: (قاقون) ثم إلى: (فحمة) وإلى: (جنين) على طريق صفد حيث يتشعب البريد باتجاهين:

الأول: إلى صفد عبر (تبنين) ثم: (حطين) إلى (صفد)<sup>(٥)</sup>.

الثاني نحو دمشق إلى:

(زرعين) (أو زرعين)<sup>(٦)</sup> مروراً على: (عين جالوت) وهي مركز مستجد أيضاً، ومنها إلى: (بيسان) ثم: (زخر) (لم تذكر في زبدة كشف الممالك) فالى: (اربد) ثم إلى: (طفس) فالى: (الجامع) بدلاً عن رأس الماء تقريباً للمسافة وتسهيلاً للمسافرين) فالى: (الصنمين) ومنها إلى (غباغب) فالى: (الكسوة) فالى: (دمشق)<sup>(٧)</sup>.

#### ٤ - مركز بريد دمشق:

وهو من المراكز الهامة خاصة أن دمشق ثاني أهم النيابات بعد مصر وثاني أهم المدن في الدولة المملوكية بعد القاهرة. وهي مركز نائب الشام وتتبعه كل ولايات الشام، والنائب فيها هو نائب عن السلطان وثاني أهم رجال الإدارة والحكم بعد السلطان.

١. في الظاهري: زبدة كشف الممالك بلاقس. ص ١١٩.

٢. في الظاهري: زبدة كشف الممالك حبرون. ص ١١٩.

٣. في الظاهري: زبدة كشف الممالك من جنبا إلى الزوير ثم إلى الصافية. ص ١١٩.

٤. في الظاهري: زبدة كشف الممالك: من الصافية إلى الحفر ثم إلى الكرك ومن كرك إلى الشوبك ثلاثة مراكز، ص ١١٩.

٥ - (لطفاً قارن مع رحلة قاتباي في: ابن الجيعان (أبو البقاء بدر الدين محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني) القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قاتباي إلى بلاد الشام: تحقيق د. عبد السلام التدمري منشورات جروس برس ١٩٨٤ ص ٥٠ - ٥٤)

٦. في صبح الأعشى والموسوعة الفلسطينية وزبدة كشف الممالك: زرعين

٧. في صبح الأعشى والموسوعة الفلسطينية وزبدة كشف الممالك: زرعين

يفرع من دمشق فروع بريدية كثيرة أهمها القادم من القاهرة عبر غزة كما بينا.

#### آ - الطرق من دمشق باتجاه الشرق:

طريق البيرة أو الرحبة وتعتبر آخر حد الممالك الإسلامية في الشرق:

من دمشق إلى:

(القصور) ومنها إلى: (القطيفة) حيث تتشعب الطرق البريدية باتجاهين الأول طريق البيرة: يخرج من القطيفة إلى: (القسطل) ومنها إلى: (قارا) ثم إلى: (بريج العطش) ومنها إلى: (الغسولة) حيث يتشعب الطريق إلى طرابلس أو يستمر إلى حمص حيث يتجه هذا إلى:

(سمنين)<sup>(١)</sup> ومنها إلى: (حمص). ويتابع منها إلى: (الريستن) ثم إلى: (حماة) فالإلى: (لطمين) فالإلى: (طرابلس)<sup>(٢)</sup> فالإلى: (المعرة)<sup>(٣)</sup> ومنها إلى: (أنقراتا) ثم: (إياد) فالإلى: (قنسرين) ثم منها إلى: (حلب) ثم منها إلى: (الباب) فالإلى: (الساحور)<sup>(٤)</sup> فالإلى: (البيرة) وهي في البر الشرقي. وكانت معقلاً دفاعياً قوياً ضد الفرنجة<sup>(٥)</sup>. أما طريق دمشق إلى الرحبة:

فمن (القطيفة) يتفرع الطريق إلى: (العطنة) وليس بها مركز بريدي ولكن فيها خان يوزع فيه صدقة من الخبز والأحذية ونعال الدواب. ثم إلى: (جُلجُل) ومنها إلى: (المصنع) ثم إلى:

(القريتين) فالإلى: (الحسير) فالإلى: (البيضا) ومنها إلى: (تدمر) فالإلى: (أَرَك) فالإلى: (السُخنة) فالإلى: (قُبَاقِب) فالإلى: (كَوَاثِل) (التي عطلت في زمن صاحب التعريف) فالإلى: (الرحبة) وهي والبيرة آخر حدود السلطنة المملوكية شرقاً.<sup>(٦)</sup>

ب - ومن دمشق يتشعب أيضاً:

من دمشق إلى: (بريج الفلوس) إلى: (أرنبة) إلى: (الغران) إلى: (صفد)<sup>(٧)</sup>.

ومن دمشق إلى: (خان ميسلون) إلى: (زبدان) (أو زبدل) إلى: (الحصين) إلى: (بيروت).

كذلك من خان ميسلون إلى:

(جزين) ثم إلى: (صيدا).

١. في الظاهري : زبدة كشف الممالك سمسين. ص ١١٩.

٢. جرابلس في زبدة كشف الممالك وهو الأصح: ص ١١٩.

٣. في زبدة كشف الممالك من جرابلس إلى أبعد ثم إلى أمار ثم إلى قنسرين. ص ١١٩.

٤. لم يرد ذكرها في زبدة كشف الممالك بل جاء ذكر بيت برة. ص ١١٩.

٥ - (لطفاً قارن مع رحلة قاتباي في: القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام: أبو البقاء بدر الدين محمد بن يحيى بن شاطر بن عبد الغني المعروف باسم ابن الجيعان تحقيق د. عبد السلام التدمري منشورات جروس برس ١٩٨٤ ص ٨٥ . ٩١)

٦. في الظاهري : زبدة كشف الممالك يذكر طريقاً من حمص إلى جعبر إلى المصنع ثم إلى القريتين ثم إلى البيضا ومنها إلى تدمر ثم إلى كريد ثم إلى السخنة ثم إلى قيقب ثم إلى كوامل ثم إلى الرحبة، ص ١١٩.

٧. في الظاهري : زبدة كشف الممالك من دمشق إلى البريج ثم إلى الفلوس ثم إلى الارتنبة ثم إلى نعران ثم إلى جب يوسف. ثم إلى صفد. ، ص ١٢٠.

ومن خان ميسلون طريق بريدي آخر إلى:  
(كرك نوح عليه السلام) مقر ولاية البقاع. فإلى: (بعلبك).  
وهناك طريق بريدي بين (صيدا) و(بيروت) مسافة بريدية واحدة.  
ج - ومن دمشق أيضاً إلى (الزبداني) إلى (بعلبك) التي منها يمكن توجه البريد إلى (القصبة) فإلى:  
(الغسولة) فإلى: (حمص)<sup>(١)</sup>.

وجاء في زبدة كشف الممالك ذكر طريق آخر بريدي هو:  
من الزبداني إلى بورا ثم بعلبك<sup>(٢)</sup>.

#### ٥ - من مركز حلب وما يتفرع عنه:

من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسنى وما يليهما، وقلعة المسلمين المعروفة بقلعة الروم وآياس،  
مدينة الفتوحات الشاهانية وجعبر.

فأما الطريق الموصلة إلى البيرة: فمن حلب إلى الباب، ثم منها إلى الساجور. ثم منها إلى كلناس،  
ثم منها إلى البيرة، وهي في البر الشرقي من الفرات. قال في «التعريف»: وهي أجل ثغورها.  
وأما طريق بهسنى وما يليها: فمن حلب إلى السموقة، ثم منها إلى (سندرا)، ثم منها إلى (بيت الفار)  
ثم منها إلى عينتاب، ثم منها إلى بهسنى.

ثم منها يدخل إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم، وهي بلاد الدروب.  
قال في (التعريف): وقد استضعفنا نحن «يعني أهل هذه المملكة» في هذا الحين القريب إلينا منها:  
قيسارية ودرندة، وإنما المستقر المعروف أن آخر حدّ الممالك الإسلامية من هذه الجهة بهسنى.  
وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها: فمن عينتاب المقدمة الذكر إليها، وهي وسط الفرات، وهو خلجان  
دائرة عليها. ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر، ثم إلى الكختا، وهي آخر الحد من الطرف الآخر.  
وأما طريق آياس: فمن حلب إلى أرحاب، ثم منها إلى تيزين، ثم منها إلى يغرا، ثم منها إلى بغراس؛ قال  
في «التعريف»: وهي كانت آخر الحد مما يلي بلاد الأرمن. قال: وقد استضعفنا نحن في هذا الحين ما  
استضعفنا، فصار من بغراس إلى باياس، وهي أول جبل الأرمن، وثم من باياس إلى آياس.  
وأما طريق جعبر: فمن حلب إلى الجبول، ثم منها إلى بالس، ثم منها إلى جعبر. قال في  
«التعريف»: هذه جملة مراكز حلب. أما بقايا القلاع ومقار الولايات، فمن شعب هذه الطرق، أو من  
واحدة إلى أخرى.<sup>(٣)</sup>

#### ٦ - في مركز طرابلس وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها:

فأما طريق اللاذقية:

١ . انظر القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ، ج ١٤ ، ص ٣٧٢ . ٣٧٨ . وانظر أيضاً العمري : التعريف ص ٢٣٩ . ٢٥٣ .  
٢ . الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٢٠ .  
٣ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ، ج ١٤ ، ص ٣٨٤ . و الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٩ والعمري : التعريف ص ٢٥٢ . ٢٥٣ .



فمن طرابلس إلى مرقية، ثم منها إلى بانياس، ثم منها إلى اللاذقية، ثم منها إلى صهيون (وهي قلعة جليلة كانت دار ملك) ثم منها إلى بلاطنس. قال في «التعريف»: ومن شاء فمن صهيون إلى برزية (وهو حصن سمي باسم من عمره أو عرف بملكه) ومن شاء فمن بلاطنس إلى العليقة أول قلاع الدعوة مما يلي بلاطنس، ثم منها إلى الكهف، ثم منها إلى القدموس، ثم منها إلى الخوابي، ثم منها إلى الرصافة، ثم منها إلى مصياف. قال في «التعريف»: فهذه جملة مراكز طرابلس. فأما مقار الولايات فمن واحدة إلى واحدة إلى أخرى، ثم ذكر جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة. قال: فأما من أطراف ممالكنا إلى حضرة الأردو، حيث هو ملك بني هولكو، فلهم مراكز تسمى خيل الأولاق وخيل الياح يحمل عليها، لا تشتري بمال السلطان ولا يكلف ثمنها، وإنما هي على أهل تلك الأرض، نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك<sup>(١)</sup>.

وطريق أخرى من الغسولة إلى قدس ثم إلى أقمر ثم إلى العشاء ثم إلى العراق ثم إلى طرابلس<sup>(٢)</sup>.

#### ٩ - خانات البريد:

هناك خانات بنيت أساساً للبريد، وبنيت ضمن مسافات البريد المقررة، استخدم بعضها للبريد حصراً وبعضها للبريد وللمسافرين، (وذلك حسب الموقع وسعة الخان). وقد مرّ معنا في مسرد الطرق البريدية ذكر كثير من الخانات، والقاعدة أن في كل مرحلة بريدية خاناً، لخدمة البريد والبريدية، ولاحتواء خيل البريد وخدمة البريديين وتقديم الطعام واستبدال خيل البريد، واستبدال البريدي حين الضرورة. صمم تخطيط بناء الخان لمتطلبات البريد والمسافر عموماً، واختلفت مساحات الخانات البريدية حسب أهمية الموقع وتشعب الطرق البريدية الذاهبة عنه والعائدة إليه. وبعض الخانات اكتسب شهرة كبيرة، وبعضها كان آية للعمارة الإسلامية والمملوكية.

يضم الخان على العموم طابقين، أرضي مخصص لدواب البريد وخدمته ومخازن الطعام وعلف خيل البريد، ولاستراحة خيل البريد. ومكان للطعام، ومسجد، وبئر ماء أو خزان ماء. بينما يحوي الطابق العلوي غرفاً لنوم البريديين والمسافرين والعاملين في الخان.

#### ( ٢ ) - القصاد أو السعاة:

يعد عملهم من أعظم مهمات السلطنة. وقد ذكر ابن الأثير أن أول من اتخذ السعاة من الملوك ابن بويه<sup>(٣)</sup>

والقاصد أو الساعي مهمته إيصال الرسائل والملطفات من الكتب عند تعذر وصول البريد إلى ناحية من النواحي. لحيلولة عدو في الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض.

١. ابن الجيعان (أبو البقاء بدر الدين محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني المعروف باسم ابن الجيعان) القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام تحقيق عبد السلام التدمري منشورات جروس برس ١٩٨٤ ص ٥٤. ٥٩، واختصاره ابن الجيعان: القول المستظرف).

٢. الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٢٠، الفلقشندي: صبح طبعة الذخائر ج ١٤ ص ٣٨٥ والظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٢٠.

٣- كان معز الدولة بن بويه أحد ملوك الديلم بعد الثلاثين والثلاثمائة للهجرة (٩٤١ م).

ويمشي الساعة عادة أمام السلطان في المواكب ويرافقونه في الأسفار، ويجري في سلطنة المماليك تعيين الشباب الخفاف من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدة العدو للسفر ليوصل المطلوب ويعود بالرد. وعادة ينتدبه كاتب السر بأمر السلطان، وربما يتم إرسال ساعيين أو ثلاث للغرض نفسه يجري إرسالهم بشكل متفرق، ويجهز كل واحد منهم صحبة قاصد مفرد، خوف أن يعترض واحد فيمضي الآخر في مهمته.

وعادة حين تحديدهم لمنطقة عدو يمشون ليلاً ويكمنون نهاراً، ويأخذون طرقاً ليست رئيسة وعادة يمشون وبين الساعي والآخر مسافة رمية سهم، حتى لا يسمع لهم حس، وإذا طلع النهار كمنوا متفرقين مع مواعدهم على مكان يتلاقون فيه في وقت المسير. (١)

### ( ٣ ) - حمل الثلج على الهجن:

عُدَّت مناطق سلسلة جبال لبنان الشاهقة الارتفاع، ودائمة الثلوج مركزاً وخزاناً للثلج، ينقل ويبيع في المناطق المجاورة في بلاد الشام لاستخدامها لتبريد المشروبات في فصل الصيف القاطن. وأصبحت هذه تجارة رابحة لها أصولها ولها العارفون بها. واقتضت إيجاد خزانات خاصة في مناطق التخزين الأصلية وأخرى في مناطق بيعها واستهلاكها، تلك التجارة كانت قديمة لضرورتها وفائدتها وربحياتها (٢).

واستمرت تجارة الثلج حتى الخمسينيات من القرن العشرين، إذ توقفت مع انتشار استخدام البرادات المنزلية وإنشاء معامل الثلج في منطقتنا. ولعل هذه التجارة قد عادت الآن للوجود في الغرب إذ تدرج حالياً عادة استيراد الثلج من المناطق القطبية لبيعها في المطاعم الراقية والنوادي الفارهة، وتباع بأسعار باهظة. أعار المماليك نقل الثلج اهتماماً كبيراً. إذ عاش سلاطين المماليك في رفاهية وثراء كبيرين، وكانوا يضعون الثلج في شرابهم ليصبح بارداً أيام الحر.

وكان الثلج يستحضر من البقاع وبعلبك وكان يفرض على السكان هناك، ولما اشتد الطلب عليه فرض على طرابلس في جبة بشري والمنيطرة.

يجري تحميل الثلج في البحر، إذ كان ينقل من بيروت وصيدا إلى ثغر دمياط، ثم ينقل في المراكب النيلية إلى بولاق، حيث ينقل على البغال السلطانية إلى القصر حيث يخزن في صهاريج خاصة به. كان عدد المراكب في عهد السلطان بيبرس ثلاثة وتزايدت مع الأيام حتى أصبحت أحد عشر مركباً. وكان المتداركون للثلج الواصلون على المراكب يعودون على البريد في البر.

كان يؤخذ من الثلج المجلد الجامد كبسه والمحترز عليه من الهواء. وكان يؤخذ ما استقر منه على ظهر الحملة للمشروب لأنه أنظف وأمن عاقبة، وما بقي يؤخذ للحاشية (٣).

١. انظر القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ، ج ١، ص ١٢٦. ١٢٧.

٢. انظر فرخ ( د. ماهر ) ، ثلوج لبنان ودورها في رفاهية سلاطين المماليك، مجلة تاريخ العرب والعالم العدد الثالث ١٩٨٢، بيروت.

٣. انظر العمري : التعريف، ص ٢٥٦ وما بعدها.

كما عملت الترتيبات في عصر المماليك لحمل الثلج من دمشق إلى القاهرة على الهجن، من دمشق إلى قلعة الجبل، وكان أول من قام بذلك الملك الظاهر برقوق على الهجن بعد أن كان يجري الشحن بحراً.

أصبح نقل الثلج براً يجري ما بين حزيران / يونيو إلى شهر تشرين الثاني / نوفمبر، بمعدل واحد وسبعين نقلة.

ينقل بواسطة البريد بمعية بريدي، وبيده تذكرة، ومعه ثلاج خبير بحمله ومداراته على فرس بريدي ثان (وأحياناً كان يحمل الثلج على خيل الولاية)، ويكون بمعدل خمسة جمال للنقلة. ويرصد له هجين آخر لحمل الهجان. ويتم نقله بواسطة الهجن التي هي من المناخات السلطانية.

ويتبع طريق دمشق إلى الصنمين، ثم منها إلى طفس، ثم إلى إربد ومنها (بيسان حسب التعريف وصبح) ثم إلى جينين، ثم منها إلى فاقون (أو قاقون حسب صبح الأعشى)، ثم إلى لدّ، ثم منها إلى غزة فالعريش فالإلى: الوّادة ثم إلى المطيلب فقطيا (ثم إلى القصير حسب التعريف وصبح الاعشى) فالصالحية وإلى بلبس فالإلى: القلعة.

ويكون ذلك على نفقة السلطان في مصر. وعادة يكتب لواصل الثلج رجعة من ديوان الإنشاء، مما يعني ارتباط نقل الثلج بالديوان. كما كان للمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة<sup>(١)</sup>.

#### ( ٤ ) - الاتصالات الجوية:

##### ١ - مطارات الحمام بالدولة المملوكية:

تابعت الدولة المملوكية استخدام الحمام لإيصال الرسائل الصغيرة التي أطلق عليها البطائق (جمع بطاقة) في المراسلات السلطانية خصوصاً أثناء الحروب أو في الأزمات الداخلية، أو للضرورة الملحة. والحمام اسم جنس يشمل عدة سلالات من الحمام، منها اليمام والدباسي والقماري والفواخت وأشهرها الحمام الرسائلي، وهو الذي يتخذه الملوك لحمل المكاتبات، ويسمى (الهدى) و(الهودي) ويتم التفضيل ما بين النوع الأخير الرسائلي، باختلاف ألوانها وعدد الرياش المعتبرة فيها، وهي رياش أجنحتها وأذنانها، وفراستها، وطول مدى طيرانها. وأول من اعتنى بالحمام الرسائلي الخليفة العباسي المهدي (الخليفة العباسي الثالث) والناصر. وقد انتشرت عادة اقتنائه بين أكابر القوم وحتى القضاة. وحفظ للحمام جرائد أنساب مثل شجرات أنساب الأشراف والقبائل والخيّل. وبلغ سعر المتميز منه جاء من القسطنطينة ألف دينار. وكان متوسط سعر الطائر العادي عشرين ديناراً.<sup>(١)</sup>

واستخدم المسلمون الحمام الزاجل بكثافة خلال فترة الحروب الصليبية، التي كانت تفرض مراقبة العدو وتحركاته العسكرية ونقل الأوامر العسكرية بسرعة.

١. انظر القلقشندي: صبح طبعة النخائر ج ١٤ ص ٣٩١، والعمرى: التعريف ص ٢٥٤، والظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١١٧.

وافاد صاحب التعريف والقلقشندي، أن الحمام أول ما نشأ بالديار المصرية والبلاد الشامية، كان بفضل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام في سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠ م، وتابع رعايته الخلفاء الفاطميون، الذين أفردوا له ديواناً خاصاً وجرائد بأنسابه وصدرت الكتب الخاصة بالحمام، منها كتاب الفاضل محي الدين بن عبد الظاهر المسمى (تمائم الحمام)<sup>(١)</sup>.

تختلف مسافات طيران الحمام الرسائلي حسب قدرة الطائر، فالطائر الذي بيع بألف دينار طار من القسطنطينية إلى البصرة، كما جرى إرسال الحمام من مصر إلى البصرة<sup>(٢)</sup>.

يجري إطلاق طائرين للمهمة نفسها يحمل كل منهما الرسالة نفسها، لضمان وصول الرسالة التي كان يطلق عليها اسم البطاقة، إذ ربما ضل أحد الطائرين طريقه أو تم اصطياده. وكان يكتب على البطاقة تاريخ وساعة الإطلاق كما يلي: (الله الهادي، سرح الطائر الميمون ورفيقه، هداهما الله تعالى في الساعة الفلانية من اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من سنة كذا وكذا، إلى المجلس الكريم، أو السامي (حسب رتبة المرسل إليه)، الأمير فلان والي فلانة، أو نحو ذلك، يعلمه أن الأمر كذا وكذا، ومرسومنا له أن يتقدم بكذا وكذا، فليعلم ذلك ويعتمده، والله الموفق بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى، حسبنا الله ونعم الوكيل)<sup>(٣)</sup>.

وقد ترسل البطاقة مباشرة للمرسل إليه، فإن كانت المسافة بعيدة أو لم يتوفر الطائر المطلوب أرسلت على مرحلتين أو أكثر، وفي كل مرحلة يجري كتابة المرسوم الذي يجب أن يعتمده المكلف في المركز بإرسال البطاقة للجهة المطلوبة، وهكذا حتى تصل البطاقة للجهة المقصودة.

توضع الطيور في أقفاص تخص كل بلد أحضرت منه، هذا لدمشق وهذا للقدس وآخر للإسكندرية وهكذا، وبالوقت نفسه يكون في تلك المدن طيور تخص مدناً أخرى، ويجري دائماً تجديد الطيور بشكل متواصل. إلا أن الأكثر شيوعاً وأكثر واقعية أن يكون الطيور من مركز (مطار) لمركز آخر متقارب يقع على نفس خط السير حيث يجري إرسال البطاقة من المركز للذي يليه حتى تصل الرسالة لوجهتها، ويكون تجديد الطيور من مركز لمركز آخر مجاور بشكل يومي.

ترتبط إدارة أبراج الحمام ومتعلقاتها بالأبواب السلطانية، فإن وصلت البطاقة إلى برج القلعة (فيأخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضره بين يدي الدودار الكبير فيعرضه عليه، فيضع البطاقة عن جناحيه بيديه، فإن كان الأمر لا يحتاج لمطالعة السلطان به، استقل الدودار به، وإن كان مهماً يحتاج إلى إعلام السلطان به، استدعى كاتب السر وطلع لقراءة البطاقة كما يفعل في المكاتبات الواردة)<sup>(٤)</sup>.

١. المصادر نفسها السابقة والصفحات. والمقصود هنا استخدام الحمام بنظام بريد منتظم. فقد استخدم الحمام كواسطة بريد منذ عهود قديمة ولكنه لم يكن بصفة بريد منتظم.

٢. انظر القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١٤ ص ٣٩١.

٣. انظر القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٧ ص ٣٩١.

٤. انظر القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١ ص ١١٩.

## ٢ - سبل الاتصالات الجوية (استخدام الحمام):

وقد استعملت طريقة إرسال البريد بالحمام كنوع مختلف تماماً من أنواع الأنظمة البريدية. وكان هذا النوع يكمل نظام البريد في المناطق المدنية. وكان معروفاً منذ الفترة الإسلامية وقد استفاد العرب والمماليك من تلك الطيور أعظم فائدة ممكنة، خصوصاً في المناطق الصحراوية فضلاً عن الأماكن الجبلية.

جاء ذكر مطارات الحمام وأبراجها ومساراتها في كل من (التعريف) و(صبح الأعشى) الذي نقل عن التعريف، كذلك وردت مختصرة في زبدة كشف الممالك.

تعتبر قلعة الجبل المركز الرئيس الأول لشبكة مراكز الحمام، كونها قاعدة السلطنة ومنها تنتشعب لتغطي سائر أنحاء السلطنة. وكذلك تتصل كل النيابات مع بعضها بتلك الشبكة التي تسير في معظم الأحيان شبكة مواصلات البريد.

## ٣ - في مراكز الحمام ومساراتها:

كانت هناك شبكة تصل بين قلعة الجبل إلى قوص ولكنها نظراً للخراب الحاصل في قوص توقفت منذ مدة طويلة سبقت القلقشندي بزمن طويل.

وهناك شبكة أخرى نشطة بين قلعة الجبل والإسكندرية عبر منون العليا، ودمنهو الوحش.

وشبكة من القاهرة إلى دمياط عبر مركزين، هما بني عبيد وأشمون الرمان.

وشبكة من القاهرة إلى السويس.

ومن القاهرة إلى الفرات تتجه من القاهرة، إلى بلبيس ثم الصالحية ثم قطيا ثم الواردة ثم غزة وإلى جينين ثم إلى بيسان ثم صفد.

ومن جنين يتفرع خط آخر يتجه إلى طقّين ثم إلى الصنمين ثم إلى دمشق.

ومن دمشق إلى بعلبك وإلى قارا ثم إلى حمص فحماة فالمعرة، وإلى خان تومان ثم إلى حلب.

ومن حلب إلى البيرة وإلى قلعة<sup>(١)</sup> وإلى بهسنا (أو بهسنى). ويقول صاحب التعريف «وإلى بقية ما له شأن مما حولها»<sup>(٢)</sup>

ومن حلب أيضاً إلى قباقيب وإلى: تدمر ثم إلى الرحبة. (وحسب التعريف فقد تعطل مسار السخنة إلى قباقيب وصار من تدمر إلى قباقيب فالرحبة)

ومن دمشق إلى صيدا وإلى بيروت ثم تربلة ثم طرابلس<sup>(٣)</sup>.

يتبع مراكز الحمام البراجة وخدام الطيور ولها بغال للتحميل. وللعاملين عليها مرتبات مخصصة وأرزاق. (لتصير الأخبار متصلة ساعة)<sup>(٤)</sup>.

١ . الروم - قلعة المسلمين عند القلقشندي ص ٢٥٥. . وإلى القريتين حسب القلقشندي صبح طبعة الذخائر ص ٢٥٥.

٢ . العمري : التعريف ص ٢٥٥.

٣ . القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ١٤ ص ٣٩٣ وما بعدها، و العمري : التعريف ص ٢٥٤ وما بعدها، والظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ و ١١٧.

٤ . الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٧.

#### ٤ - أبراج الحمام:

انتشرت أبراج الحمام في كل محطات طيران الحمام وفي سائر القلاع والقصور والنيابات. وبلغت أطراف الصحراء في السلطنة.

وكان بالقلعة أبراج يرسم الحمام التي تحمل البطائق، وبلغ عدتها على ما ذكره ابن عبد الظاهر في كتاب تمانم الحمام، إلى آخر جمادى الآخرة سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨ م، ألف طائر وتسعمائة طائر،. وكان بكلّ مركز حمام في سائر نواحي المملكة مصراً وشاماً، ما بين أسوان إلى الفرات، فلا تُحصى عدّة ما كان منها في الثغور والطرق الشامية والمصرية، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة إلى سائر الجهات، وكان لها بغال الحمل من الإسطبلات السلطانية، وجاميكات البرّاجين والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما لا يُحصى كثرة .

#### ( ٥ ) - في المناور:

قال في «التعريف» وهي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار. وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاء من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً و«يثار» الدخان نهاراً، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة. وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال، وتارة تكون في أبنية عالية، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، حتى إن المتجدد بالفرات إن كان بكرة علم به عشاءً، وإن كان عشاءً علم به بكرةً. ولما يرفع من هذه النيران، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها على اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها، تارة في العدد، وتارة في غير ذلك. وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم، ولهم على ذلك جوامك مقررّة كانت لا تزال دارة. قال: وكان ينور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النصاح بحجة أمر سوى التنوير، ويستتر عليهم أهل البلد حباً لملوكنا، فترى «نارة أو دخانة بخربة الروم وبالجراف أيضاً، ويرفع فيهما أو في إحداهما فيرى» من كل منهما بوادي الهيكل، ويرفع فيه فيرى «بالقناطر»، ويرفع بالقناطر فيرى الرحبة، وقاها الله، ويرفع بها فيرى كواثل، ويرفع فيها فيرى في منظره قباقيب، ويرفع فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمنظره أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة «بين أرك» وتدمر، ويرفع فيها فيرى بمنظره تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنظره البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها فيرى بجليجل، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى بثنية العقاب، ويرفع فيها فيرى بمئذنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذاراً للرعايا وضماً للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمانع، ويرفع به فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد وبجبل عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة اسم، ثم يرفع فيها فيرى بالمنور المعمول بإزاء البئر الذي برأس الجبل المنحدر إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريق البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس «نحو جبال أزيق» وما حولها، ويرفع من هذا المنور الذي برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين، ثم يرفع منه فيرى بجبل

فحمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى بأطراف أعمال نابلس، ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصاقب لمجدل «يابا»، فيرفع منه فيرى بمركز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال المطلة على غزة، فيرفع بغزة على أعالي الحذب المعروف بحذب غزة، ثم «لامنور» ولا إخبار بشأن التتار إلا على الجناح والبريد.<sup>(١)</sup>

### ثالثاً . شبكة المواصلات والخدمات البلدية:

السير في شوارع القاهرة أو دمشق أو حلب في العصر المملوكي لا يختلف عن السير في أي من تلك المدن أو أي مدينة عربية أو إسلامية أخرى حالياً. ففي المدينة تنتشر الخطوط والشوارع والأزقة والأسواق والسويقات. من الأسواق ما هو متخصص لبضاعة أو مهنة محددة، فهذا سوق الصاغة وسوق الحرير وسوق الذراع، وسوق البزورية وسوق الصوف بل وسوق الغنم، وهكذا. ومنها اختلطت الأصناف به تجد الحمامات والفنادق في كل مكان، تجد الحدائق والسبل الطرق مرصوفة بالحجارة بعض الأحياء حديثة ذات تخطيط عظيم ومساحات واسعة تحيط بأبنيتها الحدائق الجميلة تضم نباتات الزينة المستوردة من كل أنحاء العالم والأشجار الوارفة وبرك الماء. وبعض الأبنية تحاط بمحارس لكبار الأمراء ومسؤولي السلطة تسمع بين الحين والآخر عزف طبخاناتهم عند خروجهم وعند الدخول. تجد الحراسات لحفظ الأمن. سواء الخفارة الليلية أو حراسة النهار التي أبطلها بالقاهرة ومصر الظاهر ببيرس سنة ٧٦٢ هـ وكانت جملة مستكثرة، وكتب بذلك توقيماً.

وقد جرت توسعات في أحياء المدن، حتى أن بعض الأحياء خرج عن أسوار المدينة، ففي عهد نائب دمشق تنكز شهدت المدينة عهداً من الازدهار والرخاء لم تشهده من قبل فتوسع وبنى في زمانه الكثير من الأحياء وهي حي صاروجة ( ويسمى حالياً حي السويقة ) وحارة الشالق ( الشالة ) وحارة ابن صبح ( حارة قولي ) وحارة الجامع الكريمي ( حارة جامع الدقاق بالميدان ).<sup>(٢)</sup>

كما جرت توسعات كبيرة في حي الصالحية حيث وصفها العمري قائلاً ( الصالحية وتقع في سفح قاسيون ذات بيوت وجنائن ومدارس وربط وترب جليلة، وأسواق حافلة بالبز وغيره وبأعاليها من ذيل الجبل المقابر العامة، وهي مشرفة على دمشق وغوطتها وكل بساتينها وشرفها وميادينها ومجرى واديها. )<sup>(٣)</sup>

وقد ضمت الصالحية خلال العصر المملوكي ثمانية وثلاثين حارة، منها بيت الحارة وزقاق الماء وحارة رأس العلبة وحارة السهم الأعلى وحارة بيت الكويس وحارة المرادوة وحارة حمام الكلاس. وفيها زقاق المدارس الذي لانظير له. وقد حوت عشرات المدارس بمختلف المذاهب والعلوم. وفي الصالحية الكثير

١. العمري : التعريف دار الكتب العلمية ص ٢٣٩ . ٢٤٢.

٢. ( دهمان : ولاية دمشق في العهد المملوكي ص ١٦٦ )

٣. (العمري : مسالك الأبصار ص ١١٣ - ١١٤ )

من الأسواق والخانات منها عند البيمارستان القيمري الذي يقع في زقاق المدارس خان للعنب وآخر للخشب وبسوق الفاكهة ست خانات وبسوق صاروجا خانان<sup>(١)</sup> .

وتجد من يرش الطرقات للنظافة وتبريد الجو. تجد المشاعلية ينظفون الطرق وينقلون الأتربة و الأوساخ للمزابل. تجد ورشات تعبيد الطرق تصلح ما فسد من الدروب.

تجد الحوانيت تحوي سائر أنواع البضائع من الهند وإيران والحجاز ومن أوروبية أيضاً. تسمع المناداة على البضائع من كل فج وعميق. تشهد شجار أصحاب المحلات مع الباعة المجولون، يفتersh الأرض وبعضهم يتجولون حاملين بضائعهم وهم يبيعون مختلف البضائع والمأكولات والفواكه والخضراوات وسقاية الماء والخواتم والأساور ولوازم الزينة للنساء فإذا جاء الليل أشعلوا المشاعل مما يعطي بهجة للناظرين فتكون الأسواق متنزهة للعامة في ليل الصيف الجميل.

وكانت الدولة تهتم بالأسواق والصناعات في مدينة دمشق . إذ إن اتساع المدينة يقتضي جهداً كبيراً في تأمين احتياجاتها اليومية فكانت البضائع غير القابلة للتلف تصل المدينة مع القوافل من مسافات بعيدة . أما الخضار والفواكه ، فكانت الغوطتان الشرقية والغربية تمدان المدينة بإنتاجهما الزراعي من الخضر والفواكه<sup>(٢)</sup> .

ومن جهة ثانية تسير في الأحياء الثرية لتجد أسواق وحوانيت رفيعة المستوى وترى المقاهي والمطاعم على الطريق بجمالها وأناقتها. تمر بالأسواق لترى أصحاب الملاعب وسرك الحيوانات وترى المغنيات والعاهرات وبائعي الحشيش. وحوانيت القمار والخمارات وبائعي الخمر. ولكل نوع رسم وضريبة يدفعها للدولة. قد تزداد الضريبة لتصبح عبئاً ثقيلاً فيصبح المار مجبوراً على تعاطي المنكر أو الزنا أو أن يفك نفسه بمبلغ من المال. قد تكون تلك الصورة من القاهرة أو دمشق أو غيرها علنية، أو قد يجري منع تلك الموبيقات فتصبح سرية حسب مزاج وأخلاق السلطان أو الوالي أو القضاة.

وكان سكان دمشق مولعون بالأعياد والمناسبات التي كانوا يحيلونها إلى نزاهات، تشمل الفصول الأربعة من السنة دون تفريق، فلكل فصل من السنة موقعه الأمثل.

فمن الأعياد الدينية الإسلامية: عيد الفطر وعيد الأضحى وموسم عاشوراء وموسم مولد الرسول عليه السلام. ومن الأعياد المسيحية عيد الميلاد وعيد الفصح، إضافة لأعياد جلوس السلطان أو زيارته أو بشائر النصر أو الزفاف أو ظهور ولد السلطان أو أي سبب آخر. إضافة لاختلاق مواسم أخرى مثل عيد النيروز وغيره.

عندها تمتلئ الأسواق وتتلو المدينة ويقضي الناس معظم أوقاتهم خارج منازلهم أو في مناطق النزاهات حسب المناسبة والموسم.

وكانت الربوة من أعظم مناطق النزاهة بدمشق، وكانت تحوي الدكاكين وأفراناً وبائعة جوالين، وفيها التخت وهو قصر مرتفع على الجبل ينظر الناس الجالسون فيه إلى مسافات بعيدة.

١ . (ابن طولون ) محمد بن علي الصالحي ( القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . تحقيق أحمد دهمان دمشق مكتب الدراسات الإسلامية ١٩٦٥ ص ١٤٠ - ١٥٧ و يشير إليه باسم ابن طولون : القلائد الجوهريّة ، إسماعيل : الآثار الاجتماعية ص ٢١٤ . )

٢ - ( زيادة : دمشق في العهد المملوكي : ص ١٦٧ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٤٦ - ١٤٧ ) .



إلى جانب الربوة كان هناك الجبهة وقطية (وهي مقصف على نهر بردى)، والقصر الأبلق وحدائقه وباب كيسان والمرجة وبين النهرين بردى وبانياس ومنتزهاته، إضافة إلى الصالحية حيث النواير والورود والرياحين. ثم برزة والغوطة.

ولكل مكان مناسبتة بما يتلاءم مع موقعه وحالة الطقس فيه.

تلك المناسبات تدل على رفاهية تعم معظم الناس. وتشير إلى خدمات بلدية متواصلة، لبناء المنشآت ذات النفع العام والسهر على تجديدها وصيانتها. وبالوقت نفسه لتصلح ما أفسدته الجموع، وترجل ما خلفته من أوساخ. وبالوقت نفسه لتعد تلك الأمكنة للمناسبات القادمة. (١)

وقد وصف أحد الرحالة دخوله دمشق قائلاً : وهي مدينة كبيرة فيها أشياء كثيرة شهيرة بديعة ، وهي تتفوق على كل البلاد التابعة للسلطان في كل شيء<sup>(٢)</sup>.

وتتطلب تلك الجماهير والمناسبات والحياة اليومية المزدحمة خدمات عامة على مستوى الدولة وخدمات بلدية كثيرة نعد منها ما يلي:

**أولاً: شبكة المواصلات:**

**١ - الطرق البرية :**

تغطي السلطنة المملوكية شبكة مواصلات داخلية وخارجية تغطي كافة احتياجات المملكة.

وهذه الشبكة خارجية وداخلية وكل منهما إما برية أو بحرية أو نهريّة:

كانت أسباب السفر الخارجية إما التجارة وهي أهمها، أو أداء فريضة الحج أو زيارة القدس أو الرحلة العلمية أو الهجرة، ونادراً ما تكون زيارات بين الأهل والأقارب. وأخذت حركة تجارة العبيد ذكوراً وإناثاً حيزاً كبيراً في السفر البحري خصوصاً للعبيد والجواري والأسرى من دول حوض البحر المتوسط وخصوصاً في فترة الدولتين الأيوبية والمملوكية.

كانت حدود الدولة المملوكية منضبطة جداً نظراً لظروف حروب تلك الفترة. وقد عمّ نظام الثغور كل مناطق الحدود. سواء البرية منها أو البحرية. حتى الحدود الصحراوية كانت بحماية أمراء البدو ولكن كان يحيط بحدود الصحراء الداخلية مجموعات من القلاع مهمتها السهر على الحدود.

كان نظام الثغور يعتمد على بناء سلسلة من القلاع في أماكن إستراتيجية تستطيع السيطرة على المناطق التي تتبع لها القلعة التي تكون مشحونة بالرجال والذخيرة والعتاد والمؤن. تشكل مجموعة القلاع هذه سياجاً حدودياً. سواء على الساحل أو في المناطق الداخلية. وعادة يتبع هذه السلسلة سلسلة قلاع أخرى تشكل خط دفاع ثان للحماية في حال اختراق العدو الخط الأول. أما خط الدفاع الثالث فيكون أسوار المدن وقلاعها.

وكان هارون الرشيد أول من فصل إدارياً وعسكرياً الثغور عن ارتباطها الإداري بالولايات أو النيابات. ثم قام بإجراء آخر حيث فصل ثغور الجزيرة وقنشرين وسماها العواصم، أي التي تعصم الأمة

١. (علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ١٢٥ - ١٣٣).

٢. (زيادة: دمشق في عصر المماليك: ص ١٣٢).

من الأعداء. ثم فصل الثغور إلى الثغور الشامية ثم الثغور الجزرية بإدارة عسكرية مستقلة لكل منهما، واستمر هذا التقسيم حتى العهد المملوكي مع اختلاف في الحدود.

كانت القلاع تتصل مع بعضها بالرؤية المباشرة وبالحمام الزاجل وباستخدام النار ليلاً والدخان نهاراً، وكان في القلاع راصدون يرصدون كل حركة ليلاً نهاراً عدا الخفراء والحراس والدوريات.

وتبع الحصون الرباطات التي يسكنها المتصوفة والمجاهدون في سبيل الله تطوعاً للدفاع عن الثغور الإسلامية وكانوا يسمون المطاوعة وهي ما تسمى عندنا بحرس الحدود.

وكان يرسل لدعم القوات العسكرية البطالون والمنفيون، وكان للثغور نظام خاص بها يشبه ما نسميه في عصرنا بالمناطق الحدودية، فيكون ارتباط سكانها إدارياً مع نواب القلاع. ولهم امتيازات ولهم رخص نظراً لطبيعة وجودهم في المناطق الحدودية الخطرة أمنياً، ولوقوعهم عرضة للغزوات المتكررة، وما يتبعها من قتل وسبي وأسر وإتلاف بيوت وممتلكات ومصادرة للمواشي. لذلك وصف صاحب الروض المعطار بعض القرى الحدودية (لا تخلو ضيعة منها من أن يكون بها برج أو سرداب يتمتع فيه العامرون لها من العدو)<sup>(١)</sup>.

للثغور ميزانية خاصة تسمى مال الثغور. وللثغور أيضاً إضافة لقوات الجيش النظامي حرس خاص اسمه حرس الثغور. ولكل قلعة كاشف للقلعة وكاشف للثغور.

ويتم الدخول الرسمي للدولة المملوكية عبر الموانئ حيث تدخل السفينة وتفتش ويفتش الركاب والأحمال ويستتطق الركاب عدة مرات عن سبب زيارتهم.

وكان لا يسمح لأحد بدخول دولة المماليك أو الخروج منها دون أن يكون حاملاً ورقة جواز مرور التي كانت معروفة في الدولة الإسلامية، إذ أورد الطبري ما يفيد ذلك، ويستدل من وصف ابن جبير لرحلته ودخول ميناء الإسكندرية على وجود كشوف منظمة بأسماء المسافرين وصفاتهم وأماكن قدومهم، وأشار القلقشندي في هذا الخصوص، عن أوراق الجواز، بأنها تسمى في زمانه بأوراق الطريق. واهتم المماليك فيها خصوصاً السلطان المنصور قلاوون باعتبارها وسيلة فعالة لاكتشاف الجواسيس وبشكل خاص التجار الأجانب، خصوصاً أن الدولة وضعت قيوداً صارمة لعدم دخول الأجانب إلى موانئ البحر الأحمر وسواحه حماية لمصالح الدولة السياسية والاقتصادية، وللحفاظ على حياة التجار ومصالحهم. وكان موظفوا الجمارك (المكوس) هم المسؤولون عن الجوازات ومن أهم تلك المراكز في بلاد الشام قطياً (أو قطية) وهي مركز حدودي بري بين مصر وبلاد الشام، ولا يمكن لأحد بدخول مصر دون جواز الطريق. وقد وصف ابن بطوطة مروره بقطيا (ولا يجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس)<sup>(٢)</sup> ويفهم من هذا النص أن جواز الطريق يصدر عن السلطان أو نوابه. ويتطلب الجواز من كافة العابرين سواء من أهل المملكة أو من بلاد المسلمين أو الأجانب، بدليل أن الرسول البابوي ألبيرتو دي سارتانو حضر سنة ٨٤٣ هـ /

١. الحميري : الروض المعطار ص ٥٠٧.

٢. (رحلة ابن بطوطة ص ٧٢).

١٣٣٩ م إلى القاهرة والتمس من السلطان الظاهر جقمق أن يمنحه هو ورفاقه جوازاً للمرور إلى الحبشة<sup>(١)</sup>.

ووصف القلقشندي ورقة الطريق على أنها في ثلاثة أوصال في قطع يكتب أعلاها سطر واحد صورته (ورقة طريق على يد فلان بن فلان) ويكتب أيضاً بغير بسملة (رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني.. .. أن يمكن فلان الفلاني.. ويذكر ألقابه.. .. من التوجه إلى جهة مقصوده والعودة<sup>(٢)</sup>).

ولم تكن جوازات الطريق بمستوى واحد إذ تختلف حسب مكانة ومقدار المسافر، فقد أورد ابن بطوطة عند دخوله مدينة دمياط أنه إذا دخلها أحد لم يكن له السبيل للخروج منها إلا بطابع الوالي، فمن كان من الناس معتبراً، طبع له على الكاغد (الورق) يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به<sup>(٣)</sup>. ويؤكد القلقشندي ذلك (فإن كان متميز المقدار كتب، ويعامل بالإكرام والاحترام<sup>(٤)</sup>).

وأوردت في بحث البريد عن أوراق الطريق للرسميين على أنها تحتوي إضافة لما ذكرنا ما يقدم لحاملها من نفقة أو رسم أو خيل بريد ذهاباً وإياباً، أو ذهاباً فقط. ورغم ذلك يجري بعض التهريب.

أما من الحدود البرية فيجري ذلك من الطرق الدولية حيث يكون هناك حصون صغيرة على الحدود يقابلها حصون الدولة الأخرى، كما في مناطق الحدود الحالية.

أما بالصحراء، فعادة يستلم البدو المسافرين ويجري تسليمه للبلد الواصل إليها. إلا أن غالب السفر البري يكون ضمن القوافل التي تكون عادة تجارية وتسير ومعها حراستها. أما قوافل الحجيج؛ فلها نظامها الخاص وحراستها الخاصة، وعادة يرافقها والٍ أو وزير أو نائب وأحياناً السلطان نفسه.

وربما وجدت قوافل مشتركة بين الحجاج والتجار في مواسم الحج.

## ٢ - المواصلات البحرية :

أما خطوط السفن فهي تجري عادة بين السواحل للدولة المملوكية أو عبر البحر المتوسط قادمة من بلاد المغرب والأندلس أو من أوروبا، إذ كان هناك نشاط تجاري وتبادل في الزيارات حتى في فترة الحروب الصليبية، خصوصاً أن جنوه لم تقبل بمقاطعة الدولة المملوكية حفاظاً على مصالحها التجارية وتفوقها البحري.

وقد جهزت الموانئ بأرصفة لوقوف السفن والمراكب، وأنشئت مستودعات للبضائع وخانات لإقامة التجار. وأقيمت أبراج الحماية أو القلاع التي تشحن بالجنود لحماية الموانئ والتجار والسلع. سواء في

١ . المعايير (د. خالد محمد سالم ) موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك ، دارة الملك عبد العزيز ، دوت تاريخ ص ١٠٢ وانظر الحاشية رقم ٧ من الصفحة نفسها وسيشار إلى الكتاب باسم المعايير : موانئ البحر الأحمر . ) .

٢ . ( القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٧ ص ٢٥١ . ٢٥٢ ، المعايير : موانئ البحر الأحمر ص ١٠١ . ١٠٢ ) .

٣ . ( رحلة ابن بطوطة ص ٥١ ) .

٤ . ( القلقشندي : صبح طبعة القاهرة ج ٧ ص ٢٥٢ . ٢٥٣ ، المعايير : موانئ البحر الأحمر ص ١٠١ . ١٠٢ ) .

الموانئ أو على طرق التجارة الدولية مثل سلسلة أبراج الحماية على الطريق بين الطور عبر سيناء إلى مرفأ أيلة (العقبة)، منها برج الأزلم وعجروود ونخل وصولاً إلى خان العقبة<sup>(١)</sup>.

وكانت السلع تنقل بسفن البحر الأحمر إلى ميناء الطور لتتقل بالقوافل البرية إلى وكذلك البضائع الذاهبة إلى دمشق حيث تشحن براً بقوافل الجمال من أيلة (العقبة). حيث تصدر إلى أوروبا عن طريق مينائي الإسكندرية أو بيروت، حسب الجهة المصدرة إليها.

أما الموانئ الشامية؛ فقد كانت تصلها السلع الشرقية إما عن طريق ميناء جدة، حيث كانت قوافل التجار الشاميين البرية ترافق قافلة الحج لتحصل على السلع من ميناء جدة. وقد وصفت هذه القافلة بالضخامة حتى وصل عدد جمالها خمسة وثلاثين ألف جماً، وفيها نحو أربعين ألف شخصاً ما بين تاجر وحاج. وقد تصل هذه القافلة بتعداد جمالها إلى ثمانين ألف جمل. لتعود إلى دمشق محملة بالسلع الشرقية ومنها تتجه إما إلى حلب أو إلى ميناء بيروت أو طرابلس ليصار إلى تصدير السلع إلى أوروبا.

وكان تجار بلاد الشام يشتركون سنوياً بمواسم البيع (مثل معارض هذه الأيام) التي تجري في عدن وفي جدة ويتنقلون بينهما وبين مكة المكرمة. حيث تجري صفقات البيع والشراء، وقد أقام بعض تجار الشام ومصر أيضاً في تلك الموانئ واستوطنوا فيها.

وقد لعبت دمشق وحلب إضافة لمكة المكرمة دوراً هاماً في تجارة القوافل التي يأتي بعضها من الحبشة والنوبة إلى مكة أو جدة وتتجه بعدها إلى الإسكندرية أو دمشق أو حلب .

أما طريق الكارمي (التوابل و البهارات ) فكان له خط آخر عن طريق مضيق هرمز . إضافة لخط ثالث بري يأتي بقوافل منظمة . بعضها آت من التجار الفرس يحملون معهم الصمغ والسجاد والأعشاب الطبية الهندية . والأقمشة الحريرية من جيحون وبلاد فارس خصوصاً مدينة السلطانية .

وكانت القوافل تأتي من الهند وفارس إلى دمشق ومنها إلى عنجر وحمص ثم إلى الموانئ الشامية . وخط آخر يأتي من الخليج العربي عبر وادي دجلة إلى حلب ثم أنطاكية . وهذا يعد أقصر طرق القوافل التجارية .

وكانت حلب بموقعها الإستراتيجي تستقطب طرق القوافل الآتية من الخليج العربي ومن مصر لتتجه عبر حلب إلى موانئ البحر الأسود أو التي تتجه عبر حلب إلى بغداد . كما اتصلت حلب عبر قوافلها التجارية بأرمينيا وكردستان عبر بحر قزوين تلك القوافل المارة من تبريز وماردين وأورفة .

ولنتلمس كبر حجم هذه التجارة فإن عدد جمال القوافل ذات الخط المنتظم التي تأتي إلى حلب كان يبلغ لكل قافلة سبعة آلاف جمل<sup>(٢)</sup> .

١ . العمارة : موانئ البحر الأحمر ص ١١٣ .

٢ ضومط : الدولة المملوكية ص ١٨٥ - ١٨٧ .

ومن ناحية أخرى خصص ميناء أيلة (العقبة) للسلع الشرقية المتجهة لبلاد الشام قادمة من ميناء جدة. وتبقى القافلة بضعة أيام في أيلة حيث يجري فيها البيع والشراء لكمية كبيرة من البضائع، وتجري الصفقات التجارية. ومنها تتجه بعض القوافل إلى دمشق وحلب التي كانت تستقبل خمسة عشر ألف جمل. وبعضها الآخر يتجه إلى ميناء الطور المخصص للبضائع المتجهة إلى مصر.

وكان ميناء بيروت من أشهر الموانئ المملوكية على البحر المتوسط وهو الميناء الرئيس لبلاد الشام وأكثر الموانئ حيوية وازدهاراً. حيث يجتمع في بيروت التجار من كافة مدن بلاد الشام من دمشق وحلب وحماة وبلبك وغيرها. يبيعون السلع الشرقية التي أتوا بها من الهند والصين ليصدروها إلى أوروبا. وقد تعددت الفواصل الأوروبية والتجار في بيروت لإتمام الصفقات، خصوصاً أنها بعيدة عن السلطان والسلطة المكية.

وكان ميناء طرابلس يُعد الميناء الثاني بعد بيروت، وكان يؤمه التجار أيضاً من مختلف المدن الشامية، ومن أوروبا يتركز حضور البنادقة والجنوبيين والقطلونيين حيث يكون لهم وكالات تجارية. إضافة إلى ذلك هناك موانئ شامية أخرى مثل صيدا وصور وعكا ويافا. ولكنها أقل أهمية من ميناء بيروت وطرابلس رغم وجود أجانب فيها ووجود فنادق وخانات خاصة بهم. وغلبت على هذه الموانئ الثانوية تجارة تصدير القطن<sup>(١)</sup>.

وكانت مراكز الجمارك تشغل تلك الموانئ إضافة لمراكز جمركية على الطرق البرية مثل بدر وحنين وبويب العقبة وجسر الحسا لتمكيس البضائع الواردة براً. كما وجد فرع لديوان الجمر في ميناء بيروت. ولا بد من وجود فرع في ميناء طرابلس والموانئ الشامية الأخرى.<sup>(٢)</sup>

ويلاحظ أن كُتَّاب وقوات الجمارك (المكوس) تتضمن عناصر نسائية بهدف تفتيش النساء. وكانت - إضافة للرحلات التجارية - هناك رحلات للحج تتم عبر البحر ولها طريقها البحري فهي غالباً تأتي من الاندلس وشمال أفريقية ومن بعض الجزر في البحر المتوسط مما تحوي سكاناً مسلمين. وثمة نشاط بحري آخر يصنف بالنشاط التجاري وهو تجارة العبيد التي كانت ناشطة جداً في العصر الأيوبي والمملوكي. وقد وصف المقدسي في أحسن التقاسيم حركة العبيد والجواري والخدم فقال: (والخدم الذين ترى على ثلاثة أنواع: جنس يحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس، وجنس يحملون إلى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الخدم، والجنس الثالث على شبه الحبش، وأما البيض فجنسان: الصقالبة وبلدهم خلف خوارزم إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيُخصون ثم يخرجون إلى مصر، والروم يقعون إلى الشام وقد انقطعوا بخراب الثغور. وسألت جماعةً منهم كيف يخلصون فتَحَصَّل لي أن الروم يسلون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس لئلا يشغلوا بالنساء وتؤذيهم الشهوة، وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على

١. ضومط: الدولة المملوكية ص ١٩١ - ١٩٢.

٢. (المعايرة: موانئ البحر الأحمر ص ٣٤٦. ٣٤٩).

كنائسهم وأخرجوا الصبيان منها. وأما الصقالبة فإنهم يحملون إلى مدينة خلف بجانة أهلها يهود فيخصونهم(١).

ويصف من الناحية الثانية ابن جبير الأندلسي حال الأسرى المسلون في أوروبا، وأسواق بيعهم ويصف لنا كيف كان المسلمون الأثرياء يحاولون اقتداءهم خصوصاً الأسرى المغاربة، وقد تخصص تجار العبيد في تلك الفترة بشراء الأسرى المسلمين لبيعهم في سوق العبيد في الدولة المملوكية لأن السلطان والأمراء والأثرياء كانوا يسارعون لاقتنائهم ويدفعون أسعاراً أعلى مما لو بيعوا في أوروبا. قال ابن جبير:

(ومن الفجائع التي يعانيتها من حل بلادهم (الأوروبيون) أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسواقهم خلاخيل الحديد، فتتفطر لهم الأفتدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً.....)

ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل. وقد كان نور الدين، رحمه الله، نذر في مرضة إصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم، فسبق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وأخرج عوضاً عنهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يفتكهم أهلهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم. فانظر لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي.

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمانة من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لاقتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلتهما أموالهما في هذه السبيل، ينفقان أموالهما ويبدلان اجتهدتهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين، والله لا يضيع أجر المحسنين(٢). وكان كثير من نواب دمشق يهتم بفداء الأسرى فقد كان النائب تنكز يكثر من فكاكهم وكان يعطي التجار الأرباح الفاحشة لمن يفك الأسرى ويدفع المال إلى أسرهم(٣).

### ٣ - المواصلات الداخلية :

١ . البشاري : أحسن التقاسيم ص ٢٢٣ .

٢ . رحلة ابن جبير ص ٢٤١ .

٣ . ( دهمان : نواب دمشق في العهد المملوكي : ص ١٦٦ )

فتتم بواسطة الحمير أو البغال وهناك خدمة عامة للمواصلات هي خدمة المكارى التي كانت لا تتم مصر فقط بل سائر مناطق الدولة المملوكية. والمكارى هو سائق الحمار. وكان المكارية يتجمعون في مناطق محددة معروفة من قبل الجمهور وكانت لهم مواقف محددة معروفة .

وكانت النساء تركب حمير المكارية ولكن أحياناً يجري منعها من قبل السلطان أو الوالى. وكانت المكارية تستعمل في خدماتها الحمير وأحياناً الكدش، إلا أنه كان يصدر منع استخدام الكدش أحياناً، وأحياناً يمنع المكارية من إركاب الذميين.

ويبدو أن بعض المكارية آنذاك لم يكونوا يهتمون إلا بزيادة ربحهم على حساب الناس، وأحياناً لا يعجبهم الراكب فيرفضون خدمته. وهم يفضلون الفاجرات من النساء والمغانى لمغالاتهن في الكراء فإنهن يعطين من الأجرة فوق ما يعطيه غيرهن<sup>(١)</sup>.

### ثانياً - الإنارة:

هنالك طرق كثيرة للإنارة كانت تستخدم في العصر المملوكي. ولم يكن ذلك من ابتداع المماليك إذ كانت تلك هي طرق الإنارة منذ القديم. وتختلف طرق الإنارة باختلاف الاستعمال. فهناك استعمال للإنارة الداخلية وآخر للاستعمالات الخارجية:

ففي المنازل كانت تستخدم الشموع والسرج والقناديل، وفي القصور: الثريات والقناديل والشموع والسرج، وفي الطريق: الشعلة والقنديل والفوانيس، وفي المواكب: الشعلة والفانوس والقنديل والشموع الموكبية.

أما المتولي بالإنارة فيسمى أرباب الضوء والمشاعلية والطائف؛ لأنه يطوف شاعلاً أو مطفئاً أو متفقداً للمصابيح: وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى وصفاً للفوانيس والمشاعل في عهده فقال:

١ . الفوانيس جمع فانوس وهو آلة كُرِيَّة ذات أضلاع من حديد، مغطاة بخزقة من رقيق الكتان الصافي البياض، يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة في أسفل باطنه فيفيض عن ضوئها، ومن شأنه أن يحمل منها اثنان أمام السلطان أو الأمير في السفر في الليل. ومنها:

٢ . المشاعل، جمع مشعل، وهي آلة من حديد كالحقنص مفتوح الأعلى، وفي أسفلها خرقة لطيفة، توقد فيه النار بالحطب فيبسط ضوءه؛ يحمل أمام السلطان ونحوه في السفر ليلاً أيضاً. تستخدم الشعلة في حالة السير فيحملها الطائف ويحملها الشرطي وتحملها الجنود في المسيرات والاحتفالات<sup>(٢)</sup>.

٣ . القنديل يستخدم على أبواب المحلات والبيوت للإضاءة كما يمكن استخدامه في البيوت. والقناديل تعتبر العنصر الهام في النذور والتبرع للمقامات وللجوامع ولقبور الصالحين مثل المسجد النبوي وقبة الصخرة ومقام رقية ومقام السيدة زينب. وبعض هذه القناديل تكون من ذهب أو فضة أو مطلية من ذهب تصل أثمانها إلى آلاف الدنانير، فقد كسب الصليبيون من نذور القدس الكثير (وأخذوا من الصخرة

١ . السبكي : معيد النعم ص ١٩٩ . ٢٠٠ ، قاسم : عصر سلاطين المماليك ص ١٤٨ . ١٤٩ .

٢ القلقشندي صبح طبعة الذخائر ج ٢ ص ١٣٠ . ١٣١ .

والأقصى سبعين قنديلاً، منها عشرون ذهباً، في كل قنديل ألف مثقال، ومنها خمسون فضة، في كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامي، وأخذوا تتوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من الأموال ما لا يحصى<sup>(١)</sup>.

وكانت الفوانيس تستعمل في جامع دمشق مما عدّه أهل دمشق بدعة استمرت لأكثر من قرنين حتى تم إيقافها. واعتبر النويري أن إيقافها كان معجزة بسبب سعي الأمير حسام الدين النجيبى وربما بفتوى متشددة جاءت من ابن تيمية، مفسراً ذلك فقال: (ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلاً ولم يقع من نحو مائتي سنة وأكثر، أنه بطل الوقيد بجامع دمشق في ليلة النصف من شعبان، فلم يزد في وقيد قنديل واحد على عادة لياليه في سائر السنة والله الحمد والمنة).

وفرّح أهل العلم بذلك، وأهل الديانة، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء، التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد، والاستيجار بالجامع الأموي، وكان ذلك بمرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون خلد الله ملكه، وشيد أركانه .... وقد كانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨ م وإلى زماننا هذا، وكم سعى فيها من فقيه، وقاضٍ، ومفتٍ، وعالم، وعابد، وأمير، وزاهد، ونائب سلطنة وغيرهم ولم ييسر الله ذلك إلا في عامنا هذا<sup>(٢)</sup>.

كانت المدن المملوكية مضاءة في الليل. وكانت الأسواق كذلك، فقد كانت التعليمات أن يضاء أمام كل دار سراج، فبعض الأسواق يوضع في مركز السوق أو في أوله شعلة كبيرة تضيء السوق. أو يضع كل حانوت قنديلاً يضاء ليلاً:

(وفيه رسم أن يعلق على كل حانوت من حوانيت الباعة بالأسواق قنديل يضيء الليل، فعمل ذلك)<sup>(٣)</sup>.

وكان المشاة في أكثر الأحيان وكذلك راكبو الدواب يحملون فانوساً أثناء السير بالليل.

فإذا سار السلطان أو النائب أو الأمراء مشى مع موكبهم حاملو الشعلة والفوانيس.

كما أجبر أصحاب الحوانيت على تعليق الفوانيس المضاءة في الليل<sup>(٤)</sup>.

ومن مظاهر الفرح والمناسبات الخاصة التي يجري الاحتفال فيها في مناطق الدولة المملوكية وتجري إنارة أمكنة الاحتفال فيها بكثرة منها:

١ . النذور: وهي التي تقدم سواء في الجوامع الكبيرة مثل الجامع الأموي أو جامع الشيخ رسلان أو

غيرهما.

١ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٨ .

٢ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٨ ص ٥٢٤ . ٥٢٥ .

٣ . المقرئ : السلوك ج ٧ ص ٢٣٨ .

٤ . ( لا بيدوس : مدن الشام ص ١١٦ ) .



٢ . القصور: سواء كانت قصور الحكام مثل القصر الأبلق أو قصور الأمراء .  
٣ . الزينة: والتي يجبر الناس عليها في الأعياد والمناسبات التي تقررها السلطة أو في الإحتفالات الخاصة مثل أفراس الزواج أو الولادة أو الطهور .  
كانت تضرب الزينة في بلاد الشام لعدة أسباب منها أسباباً عامة ومنها أسباباً خاصة:  
أما الأسباب العامة فهي الأعياد الرسمية، منها، الإسلامية: العيدين ليلة القدر ومنها: المسيحية ،  
القبطية:  
أما المناسبات الخاصة وهي كثيرة، منها العامة ومنها الخاصة. أما العامة فمنها احتفالات:

#### آ . تنصيب السلطان:

ففي (سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣ م، قدم أمير من الديار المصرية فنزل بالقصر الأبلق، وأخبر بزوال مملكة الملك المنصور بن المظفر حاجي بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومسك واعتقل. وبويع للملك الأشرف شعبان بن حسين الناصر بن المنصور قلاوون، وله من العمر قريب العشرين، فدقت البشائر بالقلعة المنصورة، وأصبح الناس يوم الأحد في الزينة<sup>(١)</sup>  
ولما كان ثالث عشر شعبان جاء الخبر بقدوم الملك الناصر إلى دمشق، فساق إليه الأميران سيف الدين قطلوبك والحاج بهادر إلى الكرك، وحضاه على المجيء إليها، واضطرب نائب دمشق وركب في جماعة من أتباعه على الهجن في سادس عشر شعبان ومعه ابن صبح صاحب شقيف أرنون.  
وهيئت بدمشق أبهة السلطنة والإقامات اللائقة به، والعصائب والكوسات، وركب من الكرك في أبهة عظيمة، وأرسل الأمان إلى الأفرم، ودعا له المؤذنون في المئذنة ليلة الإثنين سابع عشر شعبان، وصبح بالدعاء له والسرور بذكره، ونودي في الناس بالأمان، وأن يفتحوا دكاكينهم ويأمنوا في أوطانهم، وشرع الناس في الزينة ودقت البشائر ونام الناس في الأسطحة ليلة الثلاثاء ليتفرجوا على السلطان حين يدخل البلد. وخرج القضاة، والأمراء والأعيان لتلقيه.

قال كاتبه ابن كثير: وكنت فيمن شاهد دخوله يوم الثلاثاء وسط النهار في أبهة عظيمة، وبسط له من عند المصلى وعليه أبهة الملك، وبسطت الشقاق الحرير تحت أقدام فرسه، كلما جاوز شقة طويت من ورائه، والجد على رأسه والأمراء السلحدارية عن يمينه وشماله، وبين يديه، والناس يدعون له ويضجون بذلك ضجيجاً عالياً، وكان يوماً مشهوداً<sup>(٢)</sup>.

ب - وفي زيارة السلطان لدمشق سنة ٧١٣ هـ/ ١٣١٣ م كانت له استقبالات عظيمة وازدحم الناس لمشاهدة دخوله حتى (بلغت فيه أجر البيوت مبلغاً زائداً، حتى أن بيتاً أخذت أجرته للنظر إلى السلطان في مدة من بكرة النهار إلى الظهر ستمائة درهم)<sup>(٣)</sup>

١ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٨ ص ٦٧٧

٢ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٨ ص ٩٠ . ٨٨ .

٣ . المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٨٥ .

وحين قدم السلطان محمد بن أمير حاج بن الملك محمد بن قلاوون لزيارة دمشق أقيم له احتفال عظيم لم ير الناس في هذه المدد مثله، من نجائب وجنائب ومماليك وعظمة هائلة، وكانت أمة الأطلاب قد تقدمت قبله بيوم، وحضر السلطان إلى الجامع الأموي قبل أذان الظهر، فصلى في مشهد عثمان هو ومن معه من أمراء المصريين، ونائب الشام، وخرج من فوره من باب النصر ذاهباً نحو الكسوة والناس في الطرقات والأسطح على العادة، وكانت الزينة قد بقي أكثرها في الصاغة والخواصين وباب البريد إلى هذا اليوم، فاستمرت نحو العشرة أيام<sup>(١)</sup>

أو في حالة سفر السلطان. فحين قام الملك الصالح صالح بالسفر إلى دمشق عام ٧٥٣هـ وغاب مدة سبعة وثلاثين يوماً فقام الأمراء بحفظ الأمن.

### ثالثاً . النفايات والمجاري:

أما نظافة الشوارع في المدينة فقد كانت هامة كثيراً، وقد خصص في المدينة عدة مواقع سميت كيما (مفردها كوم) كان يوضع فيها بقايا الأتربة من العمارات ومخلفات الحمامات والمعامل وسُرْبُ المجاري (بئر أوساخ أو مجرى مياه وسخة). ويقوم بهذا العمل عمال تنظيف عرفوا باسم المشاعلية (وهم أنفسهم من يقومون بتنفيذ حكم الإعدام) ولهم مقرر يسمى:مقرر المشاعلية .

وقد اهتم النواب في نظافة مجاري المدن خوفاً من الأمراض والأوبئة ، واهتموا بنظافة مياه الشرب خصوصاً بانياس وقنوات وثورة وهذه أنهار الشرب في مدينة دمشق . من ذلك أن نائب الشام

سنجر الشجاعي قام بتخريب الأبنية على نهر بانياس والجداول كلها والمسالك والسقايات ووسع الميدان الأخضر من ناحية الشمال ولم يترك بينه وبين النهر الا مقداراً يسيراً فعمل هو بنفسه والأمراء في بناء جدرانها<sup>(٢)</sup> . كما امر نائب دمشق تتكز بمسح الأوساخ في مقاسم المياه التي تتخلل الدور وفتح منافذها ، وكانت ان انسدت ، فكان يحصل الوباء بسبب ذلك ، فلما نظفت زال ما كان يعتاد أهل دمشق كل سنة أيام الصيف من كثرة الأمراض<sup>(٣)</sup> .

#### ١ . النفايات:

إضافة للكيمانات التي غالباً ما يرمى بها الأتربة ومخلفات البناء والصناعات، فإن المزابل كان يرمى بها مخلفات البيوت والمطاعم والفنادق والطرقات. وفي دمشق حارة كاملة تسمى حارة المزابل إضافة لمزبلة خارج باب كيسان وأخرى خارج باب الفراديس.

وكانت المزابل تعج بالفقراء لأخذ ما يمكن أكله، ومن الخرق ما يمكن لبسه، وكان بعض المتصوفة الزهاد يقصدونها للنوم وأخذ الطعام والملبس. فقد قيل عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: فقال المسيح للحواريين: «لأكل الخبز الشعير بالملح الجريش وليس المسوح والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة.

١ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٨ ص ٦٤٤.

٢ - دهمان : ولاية دمشق في عهد المماليك . ص ٧٩ .

٣ ( دهمان : ولاية دمشق في العهد المملوكي ص ١٦٥ )

وكان أحياناً يلقي بجثث بعض المقتولين من الأمراء إمعاناً في ذلهم لتأكلهم الكلاب من ذلك حسام الدين لاجين وغيره كثير. بل كان يجري إخراج عظام الأموات لرميها في المزابل لتأكلها الكلاب. وبالتأكيد كان ينافس البشر في المزابل الكلاب التي تعج بالمزابل وتتبع على الناس لأنهم يشاركونهم بما ربما تظن الكلاب ملكها. وبالوقت نفسه أجبر أصحاب الحوانيت على التخلص من الكلاب الشاردة<sup>(١)</sup>.  
٢ . الأقبية:

كان يقصد بالأقبية في العصر المملوكي مجاري المياه القذرة التي تتجمع في أقبية الحمامات أو المصانع، وهذه المياه تجر في سيالات وغالبها يصب في الأنهار. وفي دمشق هناك شبكة خاصة للمجاري تصب خارج البلد في نهر يسمى قليط. علماً أن كثيراً من بيوت القاهرة ومدن مصر والشام تعتمد في التخلص من مياهها وأقذارها لحفرة (جب) يجري إفراغها كلما امتلأت.

---

١ . (لابيدوس ) (إيرا مارفين ) مدن الشام في العصر المملوكي: ترجمة د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق ١٩٨٥ ص ١٦ وسيشار إليه باسم لابييدوس : مدن الشام).

## الفصل السابع

### خدمات القضاء والأمن

قدمت الإدارة المملوكية خدمات كثيرة للشعب لعل أهمها إقامة العدل بين الرعية بنظام قضائي تحكمه الشريعة . وحفاظها على الأمن الداخلي بقوات الشرطة :

### أولاً - النظام القضائي :

يقوم النظام القضائي<sup>(١)</sup> في الدولة المملوكية على القضاة والوظائف الدينية ، التي هي طبقة أرباب العمام :

#### الوظائف الدينية والقضاء في الدولة المملوكية :

اعتمدت السلطة المملوكية على الدين في الوصول للسلطة وفي الاحتفاظ فيها، خصوصاً أن الممالك قد عرفوا مركزهم بالضبط، فهم عبيد وغرباء، والكثير منهم من اصول غير إسلامية. ومع أن دخولهم في الطباقة اقتضى تحولهم، وهم في سن صغيرة، إلى الإسلام، وبعضهم كان بالفعل متديناً جداً، إلا أنهم أدركوا أن الدين هو سندهم في السلطة والبقاء لذلك عاروا الأمور الدينية أهمية كبيرة. ونقلوا الخلافة العباسية إلى مصر حيث أسبغت على حكمهم شرعية دينية، واهتموا بالحرمين الشريفين. وجاهدوا في إيجاد موقع سياسي بشكل أو آخر لهم هناك. ولعل أهم ما ساهم في شرعية صورتهم لدى العامة قيامهم بالدفاع عن الإسلام والمقدسات الإسلامية والحضارة الإسلامية بحروبهم المستمرة ضد الصليبيين والتتار وتحريرهم الأرض العربية منهم. وتباروا في إنشاء الجوامع والمدارس ونشر الثقافة الدينية. ومن هذا القبيل كان اهتمامهم بأرباب العمام من المتعممين، فأعطوهم المركز اللائق بهم والإحترام والتبجيل، وتركوا لهم السلطة الروحية الدينية دون تدخل أو سيطرة عليها، أو على الأقل في فترات قوة الدولة المملوكية ، بما يقتضيه الشرع. وحافظوا على استقلالية السلطة الدينية واحترام اختصاصاتها.

### أولاً - أرباب العمام :

يعد أصحاب العمام فئة مستقلة في المجتمع المملوكي، كغيره من المجتمعات، فلها سلطتها الروحية الدينية إضافة لأهمية الوظائف التي تتولاها من قضاء وإفتاء وتدريس وغير ذلك مما سيأتي بيانه. وهم يتحلون بالعلم والصبر والرحمة والرفق والهيبة، وهو من أسباب نجاحهم بعملهم.

وكانت هذه الفئة تختص بزي خاص يفرض الهيبة والاحترام والتميز في مختلف العصور .

فقد تميزوا في العصر المملوكي بأزياء خاصة بهم وبمركوب خاص بهم، ويختلف ذلك حسب الرتبة في العلم والوظيفة أو في الاختصاص. إذ إن مجرد ظهور أهل العمام يقتضي الهيبة والاحترام. فقد أورد القلقشندي وصفاً لملبوسهم وركوبهم، قال: (الطائفة الثانية أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء وزيهم راجع أيضاً إلى:

الأمر الأول لملبوسهم. ويختلف ذلك باختلاف مراتبهم، فالقضاة والعلماء منهم يلبسون العمام من الشاشات الكبار للغاية، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب، ومنهم من

١ . انظر ابن طولون : نقد الطالب ص ٨٧ وماحولها و ١٩٥ و ٤٥-٥٠ .

يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق، ويلبس فوق ثيابه دلقاً متسع الأكمام طويلها مفتوحاً فوق كتفيه بغير تفريح، سابلاً على قدميه. ويتميز قضاة القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتتسدل على ظهره، وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعي؛ ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار، وليس فيهم من يلبس الحرير، ولا ما غلب فيه الحرير؛ وإن كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض المطلي، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم، وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات، ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز.

الأمر الثاني مركوبهم. أما أعيان هذه الطائفة من القضاة ونحوهم فيركبون البغال النفيسة المساوية في الأثمان لمسومات الخيول، بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة، ويجعلون حول السرج قرشيناً من جوخ. قال في مسالك الأبصار: وهو شبيه بثوب السرج مختصر منه، ويجعلون بدل العبي الكتابيش من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة، ويمتاز قضاة القضاة بأن يجعل بدل ذلك الزناري من الجوخ، وهو شبيه بالعباءة مستدير من وراء الكفل ولا يعلوه بردعة ولا قوش، وربما ركبوا بالكتابيش. وأما من دون هؤلاء من هذه الطائفة فربما ركبوا الخيول بالكتابيش والعبي<sup>(١)</sup>.

وقد كان استغلال زي أرباب العمائم ظاهرة متفشية على العموم، وفي العصر المملوكي، لأن من يستغل الزي يخفي ويستتر عن الكثير. فقد أورد البصري وهو قاضي القضاة بدمشق حادثة عاناها بنفسه في صفر سنة ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م. قال: (فقد رجعت من مصر، وكان سفري بسبب واقعة وهي أنه ثبت على شخص يتزيا بزي الفقهاء، أنه يشرب الخمر ويأكل الحشيش ويخالط الفساق، ويظهر الوقعة في أهل العلم، ويتجاهر بذلك ويفتخر به، فأقيم عليه الحد للشرب. وعزر بإشهاره وحبسه على الباقي، فذهب إلى مصر وشكى للسلطان، فطلبت وذهبت، ووقع فصول وأمر<sup>(٢)</sup>).

### ثانياً: أرباب الوظائف الدينية :

اتخذت الوظائف الدينية نواحي النشاط الديني والمجالات الشرعية التي لا ترتبط بالسلطات الزمنية، وكانت الوظائف الدينية تغطي متطلبات هذه النواحي.

وعرفت وظائف دينية مهمة في عصر المماليك؛ وأهمها القضاء، والنظر في المظالم، والحسبة، ويضاف إلى ذلك وظائف دينية تتعلق بإمامة الجوامع والتدريس في المدارس وفي الزوايا والربط ونقابة الأشراف، وغير ذلك.

اعتمدت الوظائف الدينية نفس نظام الوظائف العسكرية والوظائف المدنية في تقسيمها إلى قسمين: الأول يدخل في السلطة المركزية، والثاني يدخل في إطار السلطات المحلية في مصر والشام.

١. (القلقشندي صبح طبعه مصر ج ٤ ص ٤١ . ٤٢).

٢. (البصري ( عبد الوهاب بن إسماعيل بن عمر بن كثير ) تاريخ البصري ص ٦٤، وكانت نتيجة الواقعة أن أقر قضاة مصر عقوبته).

إلا أن ما يهمننا في هذا الفصل هو القضاء والنظر في المظالم ، فالحسبة جاءت تفصيلاتها ببحث خاص ، بينما وظائف التدريس فقد وردت في بحث المدارس .  
ومع أن هذه الوظائف كانت معروفة منذ عصور سابقة إلا أنها أخذت أشكالاً جديدة في عصر المماليك.

## آ - القضاء :

فمنذ أن أصبحت مصر مركزاً للخلافة الفاطمية أحدث فيها منصب قاضي القضاة، ومقره القاهرة، بعد أن كان القضاء تابعاً لقاضي القضاة في بغداد، أي أن مصر استقلت قضائياً في عهد الفاطميين، واستمر ذلك طوال عصر الدولة الفاطمية، وحتى أوائل دولة المماليك، حيث بقي للدولة قاض واحد، وكان على المذهب الشافعي فقط، وحتى عندما عُيّن قاض ثان معه جُعل لقب قاضي القضاة لواحد فقط.

### ١ - السلطات القضائية في السلطة المركزية:

وهي التي وصفها القلقشندي بأن لمتوليها مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل.  
وتتصر في خمس وظائف هي:

#### أولاً . النظر في المظالم:

أما النظر في المظالم فيكون عند وقوع التعدي أو الفساد في الدولة الذي يعجز القضاة العاديون عن النظر فيه، فيرفع أمره مباشرة إلى صاحب السلطة العليا، فهو يشبه قضاء الاستئناف الحالي، وقد بلغ العمل بهذا النظام أوجه في عصر المماليك لكونهم طبقة عسكرية متعسفة، وكان السلطان يقوم بهذه المهمة بنفسه، ومع أن هذا المنصب من سلطة الخلفاء، إلا أن السلطان بقي يشرف عليه بنفسه حتى لما أقيمت الخلافة العباسية في مصر، وكان السلطان أحياناً يكلف من يقوم بتلك المهمة بدلاً عنه<sup>(١)</sup>.  
وأهم ما في الوظائف الدينية هو النظر في المظالم وقد وصف المقرئ تاريخ النظر في المظالم ننقل عن نصه:

(اعلم أن النظر في المظالم عبارة عن قعود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبه، وكان من شروط الناظر في المظالم أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبه، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة، وتثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفتي الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين، وهي خطة حدثت لفساد الناس، وهي كلّ حكم يعجز عنه القاضي، فينظر فيه من هو أقوى منه يداً.

وأول من بنى دار العدل من الملوك، السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمة الله تعالى عليه بدمشق، عندما بلغه ظلم نواب أسد الدين شيركوه بن شادي إلى الرعية، وظلمهم الناس، وكثرة شكاوهم إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري، وعجزه عن مقاومتهم وقد عُرف النظر في المظالم منذ

١ - ماجد : نظم المماليك: ج ١، ص: ١٠٦، ١٠٧.

عهد الدولة التركية بديار مصر والشام بحكم السياسة، وهو يرجع إلى نائب السلطنة وحاجب الحجاب، ووالي البلد ومتولي الحرب بالأعمال<sup>(١)</sup>.

## ثانياً . القضاء :

وقد أجرى السلطان بيبرس تعديلات على النظام القضائي الذي كان سائداً قبله والمتوارث من العصر الأيوبي. إذ كان يتولى منصب القضاء في الديار المصرية قاض واحد شافعي، له حق تعيين نواب عنه في الأقاليم خصوصاً في القاهرة والوجه البحري. ولكن بيبرس أراد ألا ينفرد قاضي مصر في ذلك الوقت وهو تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن بنت الأعز<sup>(٢)</sup> فأضاف معه القاضي برهان الدين السنجاري ( وهو قاضي القضاة برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي الزراري السنجاري ( ٦١٠ - ٦٨٦ هـ / ١٢١٣ - ١٢٨٧ م )، تولى الحكم بديار مصر غير مرة، وولي الوزارة أيضاً، وكان رئيساً وقوراً مهيباً، وقد باشر القضاء بعده تقي الدين ابن بنت الأعز<sup>(٣)</sup>. مقسماً مصر بين القاهرة والوجه البحري واختص بها ابن بنت الأعز، ثم الفسطاط والوجه البحري واختص بها السنجاري. الذي عزله السلطان سنة ٦٦٠ هـ فعاد ابن بنت الأعز منفرداً، وقد عرف عنه تشدده وتوقفه عند النظر في القضايا التي لا تتفق مع مذهبه الشافعي.

لذلك إتفق السلطان والأمراء على تعيين قاض لكل من المذاهب الأربعة. فأمر بيبرس ابن بنت الأعز بتكليف مدرسي المدرسة الصالحية من المذهب الحنفي والمالكي والحنبلي، في بعض القضايا، وكانت النتائج باهرة مما جعل بيبرس يكلفهم بالنظر في مختلف القضايا وجعل هذا مبدءاً رسمياً سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م. وأعطاهم الحق في تعيين نواب عنهم في الأقاليم<sup>(٤)</sup>.

اعتمدت الوظائف الدينية القضائية نفس نظام الوظائف العسكرية والوظائف المدنية في تقسيمها إلى قسمين: الأول يدخل في السلطة المركزية، والثاني يدخل في إطار السلطات المحلية في مصر والشام. أما أصحاب الوظائف القضائية في السلطة المركزية ، ولها ما يشابهها في نيابات مصر والشام ، فهي تنحصر في أربع وظائف هي:

## الوظيفة الأولى قضاء القضاة:

١ . ( تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ١٩٨٧، ج ٢ ص ٢٠٧ وانظر ما بعدها وسيشار إليه باسم المقرري الخطط).

٢ . ( وهو قاضي القضاة بالديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر ابن بنت الأعز الشافعي، وكان مولده في سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، كان ديناً عفيفاً نزهاً لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يقبل شفاعة أحد، وجمع له قضاء الديار المصرية بكمالها، والخطابة والحسبة ومشيخة الشيوخ، ونظر الأجياش، وتدريس الشافعي والصالحية وإمامة الجامع، وكان بيده خمسة عشر وظيفة، وباشر الوزارة في بعض الأوقات. - ابن كثير : البداية والنهاية تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي : طبعة دار هجر الطبعة الأولى ١٩٩٨ حوادث ٦٦٥ هـ ج ١٧ ص ٤٧١ - ٤٧٢ )

٢ . من حوادث ٦٨٦ هـ، ابن كثير : البداية والنهاية.

٤ . ( القلقشندي : صبح الطبعة المصرية ج ٤ ص ٣٥ . ٣٦، طقوش : تاريخ المماليك ص ١٥٢ . ١٥٣).



وموضوعها التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم، ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه؛ وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدراً وأجلها رتبة .

ويستقل الشافعي في مصر بأربعة أمور وهي: النظر في مال الأيتام والنظر في الأوقاف والنظر في بيت المال وتولية النواب بنواحي الوجهين القبلي والبحري لا يشاركه فيه غيره.<sup>(١)</sup> كان يجري تعيين القضاة من السلطان مباشرة ، ويكون برتبة قاضي القضاة ، ويكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض ، فيكون في دمشق ومعظم النيابات أربعة قاض قضاة . وتكون مراسم دخولة الى النيابة بعد أن يعينه السلطان ويقوم بتحليفه ويخلع عليه ، ثم يحمله كتاب تعيينه الذي يبين واجباته ، فيتجه لكان عملة ليتسلم منصبه. ففي دمشق على سبيل المثال تكون أركان الدولة في استقباله عند دخوله المدينة . ثم يتوجه الى دار النيابة ليقدم أوراقه ، ثم يتوجه للجامع الأموي ، فيقرأ كتاب تعيينه في محراب مذهبه ، وهو ما يسمى بالتوقيع . وتعتبر قراءة الكتاب مهمة لأنها بمثابة النشر بالجريدة الرسمية في زماننا ، لأنها واسطة نشر خبر التعيين والصلاحيات الموكلة فيها <sup>(٢)</sup>.

### **الوظيفة الثانية قضاء العسكر:**

كان قضاء العسكر منفصلاً عن القضاء المدني، لذلك اختص قاض بأمر العسكر ومحاكماتهم، ووظيفة قاضي العسكر وظيفة جليلة تعود لزمان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع القضاة الأربعة، ويسافر مع السلطان إذا سافر؛ وقضاة العسكر من ثلاث مذاهب فقهية هي: شافعي، وحنفي، ومالكي، وليس للحنابلة قاض للعسكر.<sup>(٣)</sup>

### **الوظيفة الثالثة إفتاء دار العدل:**

و موضوعها الإفتاء ، وبها أربعة قضاة، من كل مذهب واحد. وكانت لهم معالم (مخصصات) على الدواوين الشريفة. ولكنها توقفت وبقيت معالمهم على مدارسهم جارية.<sup>(٤)</sup>

### **الوظيفة الرابعة وكالة بيت المال:**

<sup>١</sup> . ( القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٣٤ . ٣٦ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٥١ . ٢٥٢ ، ابن كنان : حدائق الياسمين ص ١٤١ .

١٤٣ ، الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٨٦٧ . ٨٨٠ ) .

<sup>٢</sup> - ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٢١١ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٨ ) .

<sup>٣</sup> . ( القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٣٦ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٥١ ، ابن كنان : حدائق الياسمين ص ١٤٣ ، الباشا : الفنون

الإسلامية والوظائف ج ٢ ص ٨٦٦ . ٨٦٧ ، الشلي : بلاد الشام ص ١٠٨ ) .

<sup>٤</sup> . ( القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٣٦ ، القلقشندي : صبح طبعة القاهرة : ج ١١ ص ٢٠٧ ، الخالدي : المقصد الرفيع ص ٢٥١ ، ابن

كنان : حدائق الياسمين ص ١٤٣ ) .

وهي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدرة، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وآذر وغير ذلك، والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى. ولا يليها إلا أهل العلم والدين.<sup>(١)</sup>

### ثالثاً . ديوان القضاء :

وهو الذي يتولى الشؤون الإدارية للقضاء، يكون في قلعة الجبل المركز الرئيس. وهو فرع من ديوان الإنشاء.

ويكون في كل نيابة ديوانها الخاص الذي يتبع الديوان المركزي. والجميع يتولاه قاضي القضاء، سواء في مصر أو النيابات، ولقاضي قضاة مصر التقدم على الباقيين، ومن اختصاصات قاضي القضاء إضافة للقضاء والحكم الإشراف على ديوان القضاء.<sup>(٢)</sup>

### رابعاً - دور ديوان الإنشاء :

وله سلطة على الوظائف الدينية، فإليه ترجع أمور القضاء ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة في مصر والشام، فيتصرف متولي ديوان الإنشاء في أمورهم ما أحب دون رقيب، ويشاور السلطان فيما لابد من مشاورته فيه. على أن سلطاته لا تصل مرحلة فصل القضاء أو محاكمتهم.

### خامساً - تعيين النواب :

بعد توقيع القاضي، أي شهر إعلان تعيينه بالجامع الأموي، يتجه إلى دارة ويبدأ في تعيين نوابه. والنائب يتمتع بنفس صلاحيات قاضي القضاء، وقاضي القضاة مسؤول عن تصرفاتهم. ففي مدينة دمشق لكل قاض قضاة من كل مذهب أن يعين ما بين سبعة إلى خمسة عشر نائباً. أي يكون مجموع قضاة دمشق حوالي أربعين قاضياً. ولكثرة عدد القضاة في المدينة مقارنة بعدد سكان المدينة في حينها يعطي تفسيراً لسرعة التقاضي الذي كان يتم حينها. وهي خدمة إدارية هامة. ويكون تعيين النواب لداخل مقر النيابة ويحق للقاضي الشافعي فقط تعيين نواب له خارج دمشق. وعندما أصبحت وظيفة قاضي القضاة تشتري، أصبح النواب يبدلون لقاضي القضاة للحصول على وظيفتهم، فيسدد قاضي القضاة بعضاً أو كلاً مما ارتسم عليه لحصوله على الوظيفة. وكان النواب ونوابهم يجتمعون كل يوم خميس وإثنين بدار العدل مع النائب وكبار موظفي الدولة لإدارة شؤون النيابة.

### سادساً - مجلس المحاكمات :

تعقد المحاكم جلساتها إما في الجامع الأموي أو في أي جامع أو في بيت القضاء أنفسهم.

١ . (القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٣٦ . ٣٧).

٢ . (القلقشندي : صبح طبعة القاهرة ج ١٠ ص ٢٩٠ . ٢٩١، البقلي ( محمد قنديل ) مصطلحات صبح الأعشى الهيئة العامة لقصور الثقافة الذخائر الجزء ١٥ من صبح الأعشى طبع سنة ٢٠٠٤ بالقاهرة . ص ١٤٨ وسنرمز إليه بالبقلي : مصطلحات صبح الأعشى .

فيأتي المتخاصمون إليهم برغبتهم لفض نزاع. أو يكون ذلك بتقديم المدعي شكوى على خصمه فيصار لإحضاره للخصومة. أو يكون الادعاء من المحتسب أو يتم تحويل المدعى عليه من الوالي لإجراء المحاكمة.

وليس على المدعي أو كلا الطرفين في حالة التجائما لقاض معين لفض نزاع بينهما، أن يتوجه إلى قاض معين، بل له الحرية في اختيار القاضي الذي : إما أن يرى فيه النزاهة، أو يكون له وساطة عنده. وكان بعض القضاة ممن عرفوا بالنزاهة ينظرون بعدد كبير من الدعاوي، بينما بعض القضاة لا يجدون من يتقاضى عندهم. فإما أن يستقيلوا، أو أن ينتقلوا تلقائياً من مقر نشاطهم لحي آخر قد يكونون فيه أكثر قبولاً<sup>(١)</sup>.

#### سابعاً - مساعداً القاضي :

يتبع القاضي عدد ممن يتولى وظائف تساعده في إنجاز مهمته. منهم :

١ - وكيل الحكم : وهو بمثابة وكيل عن الغائب الذي لا يحضر المحاكمة، أو ممن توفي قبل أو أثناء المحاكمة.

٢ - الكاتب أو المترجم : فالكاتب يقوم بتدوين ما يجري في المحاكمة من إقرارات أو إفادات، والمترجم يستخدم في حالة وجود متخاصم لا يتكلم العربية أو قراءة وثائق وحجج كتبت بغير العربية، أو سماع شاهد لا يتكلم العربية وهناك عدة مترجمين حسب اللغة المطلوبة، خصوصاً أن الدولة المملوكية كانت تحوي خليطاً كبيراً من الأجانب ممن لا يتكلم العربية سواء من المماليك أو من السكان.

٣ - شاهدان :

للشهود أهمية كبيرة في نظام التقاضي في العصر المملوكي فقد كانا يشهدان على الدعاوي، توثيقاً لمجرياتها، ويشهدان على حكم القاضي، وعلى شهادات الشهود وعلى الإقرارات. ولهم مهمة أخرى فهم يجرون الكشف عن واقع الحال في حالات التعدي ووصف حالات التعدي في حال حصولها سواء تعديات عقارية أو غيرها، بمثابة وصف الحالة الراهنة في زماننا. كما يرافقون الخبراء أو الأطباء عند إجراء خبرة أو، فحص طبي ليشهدوا على واقع الحال. من ذلك ما أتى به ابن طولون في مفاكهة الخلان قال :

وفي عشية يوم الأحد سادس عشره ( سنة ٩٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) توفي الأمير نائب القلعة وأشاع الناس بدمشق أنه مسقي (مسمم)، فلما حضر النائب ثاني يوم بالجامع الأموي للصلاة عليه، أرسل بعض الأطباء للكشف عليه، أمسقي هو أم لا؟ مع شاهدين، فأخبر الأطباء أنه غير مسقي، فكتب ذلك، وأرسل يخبر المقام الشريف؛ ثم صلي عليه بالجامع، ودفن بتربة النائب، جوار الشيخ رسلان<sup>(٢)</sup>. ويجلس الشهود في دكاكين قريبة من مركز القاضي، منها مثلاً ما هو بجانب الجامع الأموي.

#### ٤ - النقيب :

<sup>١</sup> - (علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٢١٤).

<sup>٢</sup> - (ابن طولون : مفاكهة الخلان طبعة بيروت ص ٢١٤ - ٢١٥ )

وهو بمثابة أمين سر القاضي وأحياناً يقوم بالحكم أو إطلاق المسجونين، أو متابعة القاضي بما يوكل إليه من أعمال، وله أحياناً أن يحكم في قضايا يسمح له القاضي في الفصل بها.

#### ٥ - الرسول :

وهو من يأتي بالخصوم للمحاكمة، أي محضر في زماننا، كما يرسله القاضي في أمور المتخاصمين وأشغالهم، أو يبلغ احد الخصوم أو الشهود للحضور للقاضي لفض النزاع.

#### ٦ - الشرطي :

وهو الذي ينفذ الأحكام الصادرة عن القاضي. فهو بمثابة إدارة التنفيذ في زماننا. فيرسل المحكوم للسجن، أو يجري الحجز لصالح المدين، أو يبيع موجوداً أو عقاراً لاستيفاء حق أو دين أو عوض<sup>(١)</sup>.

#### ثامناً - صدور قرار القاضي وتنفيذه:

يصدر القاضي قراره حضورياً أمام المتخاصمين. ويكون معللاً ومفصلاً. ويكون القرار مستنداً على مذهب القاضي والمتخاصمين شافعي أو حنفي أو مالكي أو حنبلي، ويكون قرار القاضي ملزماً للطرفين، وبالوقت نفسه صالح للتنفيذ فوراً. أو غيابياً فيقوم الرسول بتبليغ الغائب الحكم.

عندها يبدأ رجل الشرطة والشاهدان بمساعدة من الرسول بتنفيذ القرار فإن كان حبساً ألقى القبض على المحكوم عليه وأودع السجن. وإن كانت عقوبة جسمية جرى تنفيذها فوراً. وإن كانت العقوبة إعداماً جرى تنفيذها. وإن كانت من الحقوق المالية جرى إجراء الحجز على الأموال المنقولة (العينية) وغير المنقولة (الرقة) بحضور الشاهدين ومن ثم يجري بيعها، وغالباً ما يجري البيع بطريقة المزاد العلني، ضمن ما كان يسمى في حلقة أو حلقات للبيع، بعد أن يقوم القاضي بحضور الشاهدين بحصر الموجودات واستلامها.

#### تاسعاً - استئناف قرار القاضي :

لم تكن أحكام القضاة سارية المفعول دائماً. فقد كانت هناك جهات يجري الاستئناف إليها، منها:

١ - السلطان : الذي يعد آخر مراحل المقاضاة، وهو يعد نفسه مندوب الخليفة الشرعي في عصور الدولة الإسلامية الأولى. ولكن السلاطين أنفسهم تركوا فسحة حرية لسلطة القضاة كانوا نادراً ما يتجاوزونها، فلا يفصلون قاض ما لم يشتهر بالرشوة والفساد.

وكان السلطان إذا نظر في قضية سبق أن نظر فيها قاض، يعتمد في حكمه على مشورة قضاة الحكم في مجلسه القضائي ويكون بحث القضية أدق وأعمق.

إلا أن الحال تغير في عهود الفساد فصار السلطان يفصل القاضي لمجرد عدم دفعه ما التزم به من مال لقاء منحه الوظيفة، وحتى صار يصدر أمر إعدامه لمجرد هذا السبب.

#### ٢ - النائب :

١ - (علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٢١٢).

وتكون سلطته أضعف كثيراً من سلطة السلطان، ما لم تأت من السلطان أوامر بذلك، ولكن النواب أخذوا يصدرن أحكامهم التي تصل للإعدام في حالات الفوضى والاضطرابات العامة، وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

### ٣ - استفتاء علماء مصر وقضاتها :

وكان يتم ذلك عند وجود خلافات فقهية تقع بين قضاة دمشق أو النيابات الأخرى، والتي لا يتم فيها البت بحكم نهائي.

### عاشراً - علاقات القضاة مع السلطات والجهات الأخرى :

تتشابك علاقات القضاة من السلطات سواء الأعلى حتى السلطان، أو الأدنى حتى الموظفين ونواب القضاة. من هذه العلاقات :

#### ١ - العلاقة بين القاضي والسلطان :

يكون القضاة من تعيين السلطان، ويتمتع القضاة بسلطة واسعة، المفروض أنها تستمد قوتها من الشرع الذي هو أهم من السلطان، لذلك كان حكم القضاة يسري على السلطان ولو خالف رأي أو مصلحة السلطان.

بينما كان السلطان يرى أنه صاحب السلطة العليا، وله الفصل والكلمة النهائية، خصوصاً إذا ظهر جور من القاضي، أو اختلاف في الأحكام بين قاض وآخر ناتج عن اختلاف في الاجتهاد نابع عن التزام القضاة بمذاهبهم الفقهية، أو أن يكون سبب الاختلاف ناتج عن خلافات شخصية ومكائد بين القضاة. وكانت سلطة القضاة في أوائل العصر المملوكي، لا يمسه سلطة السلطان أو أي سلطة أخرى بسبب فصل السلطات الذي كان مراعاةً كثيراً، وبفضل قدسية القضاء الناتج عن ورع القضاة ونزاهتهم. إلا أن العهود الأخيرة من العصر المملوكي التي أتت على نزاهة القضاة ودفعهم الأموال والرشوة للوصول للوظيفة، وقبضهم الأموال والتصرف بالأوقاف أذهب عنهم الاحترام والهالة القدسية، فأصبحوا عرضة لمساءلة السلطان وعقوبته التي لم تكن في سبيل خلل في التقاضي والأحكام بل أصبحت في سبيل سداد ما التزم به القاضي من رشوة أو بذل لحصوله على الوظيفة أمام السلطان، فكان القضاة من هؤلاء يجري اعتقالهم وعصرهم وضربهم وسجنهم.

من ذلك أن أرسل السلطان مرسوماً بمصادرة القاضي النابلسي لعدم تسليمه ما التزم به للسلطان عند تعيينه، فأحضر من القلعة في زنجير، فأخرج من المدرسة التقوية التي كان ساكناً بها عشرة آلاف دينار ومن الحلبية في الجامع الأموي عشرين ألفاً، ومن بيت والده عشرة آلاف، ومن بيت عند حمام سامي تسعة عشر ألفاً، فأصبح المجموع تسعة وخمسين ألفاً، ولكن ذلك كله لم يرفع عنه العذاب، فحاول الانتحار، ثم أدرك، وجيء به إلى النائب، فعصرت رجلاه ثم ضرب ضرباً مبرحاً، فمات بعد أيام. وبعد وفاته جاء مرسوم عاجل من القاهرة بشنقه على باب القلعة.

وأصبح السلطان يوقى الحذر في اختياره للقضاة، يحاول تعيين من يمكن التفاهم معهم، خصوصاً أن هالة احترام القضاة، صحيح أنها اهتزت سواء أمام السلطان أو العامة، إلا أنه بقيت باقية استمرت لنهاية العصر المملوكي<sup>(١)</sup>.

## ٢ - العلاقة بين القاضي والنائب :

لم تصل علاقة النواب مع القضاة لمستوى علاقة القضاة بالسلطان، فالأخير هو الذي يعين ويعزل، بينما النائب لا يملك هذا الحق ولا يجسر عليه، إلا في حالات نادرة تكون نزاهة القاضي انعدمت نهائياً. كما كانت علاقة النائب مع القضاة تتصف بالتفاهم خير من التناقض، لذلك يساير كل طرف الآخر بحدود الشرع، ما لم يكن على القاضي مأخذ في نزاهته.

إلا أن النائب أخذ تدريجياً وبالتراشق مع الفساد المنتشر وقتئذ، واضطراب الأمن في أواخر الدولة المملوكية، أخذ النواب في أخذ بعض سلطات القضاة في حالات معينة منها :

١\_ الحكم بالإعدام : وتنفيذ العقوبة بالمجرمين والقتلة دون الرجوع إلى القضاة. تحت ستار عدم تعكير الأمن والقضاء على الإجرام الذي انتشر في أواخر العصر المملوكي.

كذلك امتدت يد النواب للحكم بالسجن والمصادرة والتعذيب لنفس الحجة السابقة. إلا أن فساد النواب جعلهم يسمحون بقبول الفدية سواء من المحكوم بالإعدام أو القصاص أو حتى من السجن والمصادرة.

٢ - اختصاصهم بقضايا الحشرية : وهي إرسال رجال ( الحشرية ) من طرفهم لحصر ومصادرة من توفي ولا وارث له، فيكون إرثه لبيت مال المسلمين وبالتالي للنائب بشكل أو آخر. وبلغ الفساد أن هؤلاء الحشرية كانوا يحضرون لمصادرة أي تركة لمتوف ولو له ورثة، ليتم إعادة التركة للورثة لقاء مبلغ يتناسب مع قيمة التركة بعد صراع مرير ووقت طويل.

٣ - الرميات : وهي أن يطلب مبلغ من محلة وجد فيها قتيلاً ولم يعرف له قاتل، ويؤخذ المبلغ كفدية يدفع لورثة القتيل، وغالباً لا يصلهم كامل المبلغ.

ومع أن الشرع يقتضي قبل فرض الرمية أن يؤخذ خمسون شخصاً من المحلة فيحلفون، كل على انفراد، بأن المحلف لم يقم بالقتل ولا يعرف قاتلاً للضحية. وقد أهمل العمل بهذه القاعدة وصار يجري فرض الرمية بشكل عبثي، وأحياناً عند فقد الضحية وقبل التثبت من الوفاة.

ورغم ذلك فقد احتفظ القضاة باحترامهم وحصانتهم تجاه النواب، كما احتفظ الطرفان بعلاقة جيدة، من مظاهرها الزيارات المبذولة بالمناسبات والأعياد، وإعطاء الخلع من النائب للقضاة عند استلام مناصبهم أو في المناسبات. وتدخل النائب لفض النزاعات والخصومات ببيت القضاة.

١ - (علبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٢٠٢ - ٢٠٥ و ص ٢١٧ ) .

ولم يكن ليجرؤ النائب أو أي من كبار موظفيه، على فصل أو ضرب أو سجن القضاة ما لم يكن ذلك بأمر من السلطان. ولكن لا يخلو الأمر أحياناً من مواجهات كلامية وخصومات تنتهي بالشكايات للسلطان<sup>(١)</sup>.

### ٣ - العلاقة بين القضاة أنفسهم:

نتيجة الفساد الذي دب في سائر مرافق الدولة ووصوله لطبقة القضاة. وقيام القضاة بشراء وظائفهم بمال يلتزمون به للنائب أو السلطان، وبالنهاية يعود جزء كبير للسلطان. فقد كانت النتيجة الحتمية وجود صراع بين طبقة القضاة للحصول على المنصب أولاً، وللبقاء فيه ثانياً، ولدفع الطامعين فيه ثالثاً، خصوصاً أن القاضي أصبح يستلم بالمال والرشوة عدة مناصب معاً، فقد دفع الشهاب أحمد بن الفرفوري مبلغ اثنين وثلاثين ألف دينار للحصول على وظيفة قاضي الحنفية، فائزاً على خصمه صلاح العدوي الذي لم يستطع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف دينار، وأضيفت لوظيفة الفرفوري نظر الجيش ووكالة السلطان ونظر القلعة ومشخة الشيوخ ونظر المارستان والحرمين وخطابة الأموي.

وكان القضاة يبيعون بعض المناصب التي يحصلون عليها، خصوصاً وظائف (النظر) سواء بيعاً كاملاً أو جزءاً من الوظيفة باسم التنازل فقد تنازل أحد القضاة لابن أخته كمال الدين بن حمزة بمبلغ ٣٥٠ ديناراً عن نصف نظر المدرسة الركنية الشافعية ونصف تدريسها ونصف تدريس المدرسة الفلكية وأمضى ذلك، وحكم فيه القاضي الحنبلي. ومثل ذلك كثير<sup>(٢)</sup>. وكان القضاة يتخاصمون لدرجة التلاسن بأقبح الألفاظ. كما كانوا ينصبون شراكاً لبعضهم البعض، أو يصدرون أحكاماً خلافاً لأحكام غيرهم من القضاة.

وأحياناً تصل الخصومات لدرجة يتدخل العامة فيها أو النائب، وأحياناً تصل للسلطان الذي يفصل فيها سواء بفصل أحد القضاة أو حتى عقوبته أو مصادرته<sup>(٣)</sup>.

### ٤ - العلاقة بين القضاة ونوابهم :

كان منصب القضاء ينحصر في كثير من الأوقات في عائلة معينة تتوارثه، وكان هذا سواء قبل فساد الحكم وبيع المناصب أو بعده على السواء.

وبذلك لا يكون قاضي القضاة بأعلم من النواب ولا بأكبر سناً منهم. فعلى سبيل المثال كان عبد القادر التميمي، مؤرخ دمشق الذي كان قد بلغ ستين عاماً، يشغل منصب نائب عن القاضي الشافعي عمر النعيمي الذي كان قد بلغ من العمر ستة عشر عاماً، وكان كثير التغيب في مصر للتقرب والتزلف للسلطان وللمحافظة على مركزه<sup>(٤)</sup>.

١ - (علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٢٠٦ - ٢١٠).

٢ - (ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٣٠ وص ١٣٠، علي: دمشق بين عصرين المماليك والعثمانيين : ص ٢١٦)

٣ - ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠١ و ٣٣٤ - ٣٣٨، علي: دمشق بين العصر المملوكي والعثماني : ص ٢١٦ - ٢٢١

٤ - (علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٢١٢).

## ثانياً - الأمن الداخلي والوالي :

### ١ - معنى الوالي:

يطلق هذا التعبير عادة على أمير قطر أو حاكمه، والمصدر منها ولاية بمعنى الإمارة أو السلطة. وقد عرفت الولاية من صدر الإسلام إذ كان الخلفاء ينوبون عنهم الولاية في أقطار عرفت بالولايات، واستمر استخدام التعبير بمعناه هذا في كل العصور الإسلامية.

وكان تعبير الوالي في العصر المملوكي يدل على طبقة معينة من الحكام إضافة لمعنى الولاية العام؛ إذ كان الولاية في العصر المملوكي يقسمون إلى فئات أعلاها النواب ثم الكشاف ثم الولاية إضافة إلى أمراء العربان، وكانت بعض الولايات تزداد أهميتها فتفرع من ولاية إلى كشف.

وكان الولاية في عصر المماليك من أرباب السيوف. وهم على درجات، من أعلاها طبلخانة وتولية هؤلاء، وربما حتى مستوى العشرات من قبل السلطان، وأقلها جندي حيث التولية في هذه الحالة تكون من النواب.

ومن الولاية والي بيت المقدس والي بصرى. كما للقلاع ولاية مثل والي قلعة الصبيبة والي قلعة دمشق المحروسة.

وكان للولاية كبيرهم الذي يسمى والي الولاية، وكان والي بر دمشق والي بر حلب يسميان والي الولاية. كما كان يطلق اسم الوالي على منقلد العمل أو الإدارة أو المؤسسة، وهنا يجري إضافة اسم العمل على الولاية، فيقال: والي الأحداث والي الأسطول والي البريد والي الحسبة والي الديوان والي سوق الرقيق والي الصدقة والي الطراز والي التجار والي المظالم وهكذا. ومن ذلك كان يطلق والي الشرطة الذي كان يسمى الوالي أو والي الحرب كما كان يسمى أيضاً والي المدينة.<sup>(١)</sup>

### ٢ - الوالي والشرطة:

مع ازدياد عدد السكان وتوسع المدن وتفاوت طبقات الشعب بين غني جداً ومتوسط الحال وفقير، كان لابد بشكل طبيعي أن ينشأ منحرفون ولصوص ومجرمون. كما كان لابد نتيجة الطمع، عند بعض الناس، من نشوء احتيالات وعمليات نصب وجرائم عادية. كل ذلك يقتضي الحاجة لضابطة داخلية تستطيع قمع الجرائم والسهر على إحقاق العدل، والسهر على النظام العام والسلام الداخلي. فكان لابد من نشوء الحاجة إلى الشرطة لتقوم بهذا الواجب<sup>(٢)</sup>.

١. (الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ١٣٠٨ . ١٣٢١).

٢. (زيادة : دمشق في العصر المملوكي : ص ١٥٤).



ونظراً لارتباط وظيفة الشرطة مع المحتسب، فكانت حيناً تضاف الحسبة للوالي أو بالعكس. إذ كان الفاطميون في مصر يضيفون وظيفة الحسبة إلى الشرطة. بينما فصل المماليك كل وظيفة على حدة. إلا أن بعض المناطق أو في بعض الظروف كانت الوظائفتان تجتمعان بموظف واحد تحت أي من الاسمين. إذاً، في الواقع العملي، فالوالي هو المسؤول عن الشرطة وهو المسؤول عن المجرمين واللصوص وقطاع الطرق والحشاشين وبنات الهوى، ومسؤوليته التصدي للجريمة على ألا يتجسس على الحياة الخاصة للناس، ولا مهاجمة بيوتهم وإرعابهم لمجرد القيل والقال بل لا بد من تهمة وشبهة واضحة، رغم أن بعض الولاة تجاوز حدود الشرع في ذلك، ومنهم من تجاوزها بالتحقيق مؤدياً لموت المتهم. كانت الشرطة موجودة بكثرة في مصر والشام وفي سائر الولايات، فظروف الأمن كانت متساوية ومتشابهة في كل الولايات على الأغلب<sup>(١)</sup>.

ويكون الوالي من صنف الأجناد أي من أرباب السيوف، فهو وإن كانت وظيفته تدخل بالخدمة المدنية، فإن اختياره يكون من أمراء الجيش المملوكي. وتختلف رتبة الوالي حسب موقعه فقد يكون من إمرة الطبلخانة، أو مقدمي الألوفا أو من إمرة المائتين أو إمرة العشرات أو قد يكون جندياً.

#### ٤ - ولاة الشرطة في السلطنة المملوكية:

هناك ولاة الديار المصرية وولاة بلاد الشام. وبحسبنا يتعلق بولاة بلاد الشام :

##### ( أولاً ) - الولاة في بلاد الشام:

ولاة الشرطة في بلاد الشام من أرباب السيوف أيضاً أي من طبقة المماليك ويختلف صاحب الولاية بمرتبته بين والي المدينة ووالي القلعة وبين نيابة وأخرى وهو في الغالب أمير عشرة، وربما وليها مقدم حلقة، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

وكان هناك ولاة في كل النيابات مثل دمشق وأطرابلس وحلب وحماه والكرك وغيرها. بل هناك ولاة في مدن مثل الرملة وبصرة وطبرية وغيرها.

١ - ففي دمشق: كان هنالك والٍ للمدينة، وآخر لضواحيها، وكان هذا يسمى والي البر، يساعده جماعة يعرفون بـ(الطوفية) لطوافهم هنا وهناك بحثاً عن المجرمين ونشراً للأمن. كما كانت هناك مؤسسة الأحداث الذين كانوا يوضعون في الأماكن الهامة، وكان شيخ الأحداث مسؤولاً عن منطقتهم<sup>(٢)</sup>.

ومن الطريف الذي يشابه أيامنا، إذا حصل سلسلة من القتل كيف تستنفر الشرطة لإيجاد القاتل، فقد ذكر بدر الدين العيني في عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان في حوادث سنة ٦٩٥ هـ (ومنها أنه ظهر بدمشق قتل فاحش، فكان كل يوم يوجد اثنان وثلاثة مقتولين، ولم يدروا ذلك حتى حضر والي المدينة، وأرصد جماعة.. أبواباً للدروب، وبقي يركب طول الليل دابته ويدور البلد، والأمر في تزايد والأقاول

١. انظر علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣١٨، وانظر زيادة: دمشق في عصر المماليك ص ١٥٤. ١٥٥.

٢. (زيادة: دمشق في عصر المماليك ص ١٥٤. ١٥٥).

مختلفة، وفي بعض الليالي مسكوا فقيراً مولهاً فاعترف أنه هو الذي يقتل، فأخذه وسمروه، فسكن الناس واطمأنوا<sup>(١)</sup>.

## ٢ - معاونوا وموظفو الوالي:

### آ - المعرف

كان هناك من يعرفون باسم (المعرف) وهم الذين يعرفون اللصوص (أصحاب السوابق) فيراقبونهم، ويمنعون شرهم قبل حدوثه، وهم أيضاً يحفظون الشوارع والحارات، ويطوفون كل ليلة على رأس قوة مسلحة<sup>(٢)</sup>.

### ب - العوني والاعوان:

العوني من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف، وهو نسبة إلى العون وهو الظهير على الأمر المعاون عليه. ولم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب لوقوع العون على الواحد من أعوان (قال علي بن خلف: وهي لاحقة بعشرة الأكفاء: لأن الذين يستعين بهم الكاتب يدعون كتاباً ولا يدعون أعواناً؛ وإنما الأعوان خدام الشرطة ومن يجري مجراهم)<sup>(٣)</sup>.

### ج - الحرس:

وهو الذي يقوم باستحضار المتهمين أو المطلوبين. وتستخدم بإضافة الياء إلى الحرس.

### د - الخفراء:

منهم من أرباب الشرطة ومنهم من أرباب الجندرية خارج أسوار المدن ومهمتهم حراسة المواقع الهامة.

هـ - المشاعلي: وهو الذي يقوم بتنفيذ عقوبات الإعدام على مختلف أشكالها خنقاً وتوسيطاً وشنقاً وغير ذلك.<sup>(٤)</sup>

## (ثانياً) - من وظائف الوالي:

للوالي وظائف كثيرة تنتشعب بعدة اتجاهات إدارية وسلطوية منها احترازية ومنها قمعية. منها ما يتعلق بالشؤون البلدية ومنها ما يتعلق بالشؤون الأمنية والمخابراتية. ومنها الأمن الوطني والداخلي. ومنها السلم الداخلي وحماية المجتمع (شرطة أخلاقية) ومنها تنظيم السير والمواكب (شرطة المرور) وحماية المواكب ومرافقتها (مراسم) ويمكن إيراد أهم تلك الوظائف كما يلي:

١. العيني (بدر الدين محمود) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: تحقيق د. محمد أحمد أمين الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٧ حوادث سنة ٦٩٢هـ. / ١٢٩٣ م وسيشار إليه باسم العيني : عقد الجمان.

٢. ابن طولون ( شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحي ) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان:، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨ ج ١ ص ٢٠ وسيشار إليه باسم ابن طولون : مفاكهة الخلان، علبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ٣١٨.

٣. القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ١٨٧.

٤. ( ابن طولون : نقد الطالب لزعل المناصب ص ١٩٠ )

## ١ - أخبار حاضرتة:

جرت العادة أن والي الشرطة يستعلم متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك في كل يوم من نوابهم ممن عينوا على المحلات من قبل الولاة، ثم يكتب تقريراً «مطالعة جامعة» بذلك، وتحمل إلى النائب صبيحة كل يوم فيقف عليها. قال في مسالك الأبصار: «وأما ما يقع للناس في أحوال أنفسهم فلا.»<sup>(١)</sup>

ووالي القلعة مسؤول عن دق الطبول في القلعة:

فإليه أمر دق الطبول، يأمر بدق الطبول عند ركوب النائب في المراكب.

## ٢ - الحسبة:

كانوا في الأيام الفاطمية بالديار المصرية يضيفونها إلى الشرطة في بعض الأحيان، كما هو موجود في تقاليد الحسبة في زمانهم. ولكن المماليك فصلوا الوظائفين إلا استثناء كما قدمنا.

## ٣ - حضور مجلس المظالم:

في القلعة مع القضاة والمحتسب والأمراء كل بترتيبه ويكون جلوسه حسب رتبته. ويرد إذا استفسر منه النائب أو القاضي على القصص.

## ٤ - قمع مخالفات البناء:

إذ لكل بلد تنظيمها وحرمة للجوار والأملاك العامة والخاصة وأملاك الاوقاف ولكل منها حججه الرسمية المصدقة من الكاتب بالعدل أو القاضي الشرعي لإثبات حقوق الملكية. ومهمة الوالي منع أي تعد أو مخالفة للبناء دون مراعاة صاحب خاطر أو وظيفة مهما علا صاحبها.

## ٦ - الحفاظ على السلم الداخلي والأخلاق العامة:

من ذلك مكافحة الدعارة وشرب الخمر، وهما أمران اختلف الحكم فيهما في العصر المملوكي بين التشديد الفائق أو التسيب المتناهي، وفرضت الرسوم على البغايا والخمر في فترات كثيرة وكانت تحصل من المستحقة عليهم.

وكانت أحياناً ترد الأوامر بالتشديد نتيجة كارثة أو مصيبة حلت بالبلد أو وصول متشدد للحكم كأن يكون سلطاناً أو والياً أو نائباً أو نائب سلطنة.

## ٧ - مكافحة التنجيم:

لم يكن التنجيم مسموحاً في الدولة المملوكية، مع غض النظر عن هذا النشاط أحياناً، ولكن هذا لم يوقف المنجمين عن نشاطاتهم، ولم يوقف المتلهفين على أخبار المستقبل من تتبع المنجمين، وخصوصاً النساء، وكانت عقوبة التنجيم تصل للموت، من ذلك على سبيل المثال ما أورده ابن كثير في كتابه البداية والنهاية في حوادث سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ - ١٣٣٣ م.<sup>(٢)</sup>

١. القلقشندي: صبح طبعة الذخائر ج ٤ ص ٦٠، العمري: مسالك كرافولسكي ص ١٠٦.

٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٨ ص ٣٥٤.

٨ - تنظيم حركة السير والحشود: في المناسبات العامة ومناسبات طلوع السلطان أو النائب، أو زيارة السفراء، أو وصول المحمل من الحج، أو عند الظهور بالهيئات الرسمية، وغير ذلك من المناسبات.

#### ٩ - إجراء الإحصاء للمساكن والدور:

وكان يجري بين الحين والآخر في عصر الدولة المملوكية إحصاء للدور والمساكن والأشخاص عند الأزمات سواء مادية أو سكنية أو لفرض ضرائب جديدة، وكان يعهد إلى الشرطة للإشراف على الإحصاء الذي يتم بإشراف الولاة. فقد أورد صاحب السلوك خبراً على إحصاء جرى في المحرم سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م<sup>(١)</sup>

#### ١٠ - تنفيذ العقوبات:

كان متولي الشرطة هو الذي يقوم بتنفيذ العقوبات سواء الفردية أو الجماعية، من تلك العقوبات: حرق الأشخاص (بحفر حفرة كبيرة وإضرام النار فيها وإلقاء المحكوم فيها) والتوسيط (قطع المحكوم عليه من نصفه إلى قسمين) أو قطع الرؤوس، أو الأيدي، أو الصلب أو الشنق أو الخنق أو الخوزقة والتجريس والبسمرة وقطع اللسان. أو التعليق بأيديهم. كما حدث في فتنة عام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م<sup>(٢)</sup>. إلا أن الوالي لا يقوم بتنفيذ عمليات الإعدام إلا بحكم قاض أو أمر السلطان إلا في الحالات التي يمكن وصفها بإعلان حالة الطوارئ حيث تكون الفتن والاضطرابات الكبرى أو الثورات العارمة أو أثر وقوع مجاعة أو فيضان أو زلزال، عندها يكون الوالي مخولاً بتنفيذ الإعدام دون الرجوع لأحد بحالة الجرم المشهود.

#### ١١ - الإشراف على السجون:

(آ) - السجن: أو الحبس الذي هو أكثر شيوعاً بالاستعمال. ويكون فعل الحبس هو منع الحرية فإن في ذلك تفصيل، بين الترسيم والحبس.

فالترسيم هو توقيف مؤقت يودع الشخص المرسم في غير موضع الحبس، كأن يكون في مقر الشرطة أو القاضي (كما هو في زماننا). ويتم ذلك بشكل مؤقت ربما يوم وليلة حتى يتم عرض الموقوف على والي الشرطة (صاحب الشرطة). من ذلك ما جاء في المواعظ والاعتبار<sup>(٣)</sup>: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حبس في تهمة يوماً وليلة»<sup>(٤)</sup>.

فالترسيم هو ما نسميه في أيامنا بالتوقيف، ويكون حجز حرية شخص مؤقتاً حتى ينظر القاضي أو الحاكم في أمره. ويكون مؤقتاً لإتمام إجراء احترازي كتوقيف المصادرة أو الحوطة على أملاكه. أو بانتظار أمر القاضي بحبسه بعد النظر في قضيته. كما يكون للوالي أو رئيس الشرطة في حالة الجرم المشهود حبس أو ترسيم المتهم حسب وضوح الإثباتات في القضية.

١. المقريري: السلوك ج ٢ ص ٧٩٨.

٢. (المقريري: السلوك ج ٣، ص ٤٣ - ٤٥).

٣. المقريري: الخطط ج ٢ ص ١٨٧

٤. رواه الطبراني في الأوسط، عن نبیثة.

وللوالى أو صاحب الشرطة أن يبت في موضوع الموقوف (المرسم) إن كان غير مخالف للشرع فيصدر أمره بالتعزير أو الضرب أو ما يقتضيه الحال. أو أن يحيل الموقوف إلى القاضي الذي سيبت في الأمر، إن كانت الجريمة تستحق ذلك وغير موصوفة بالبساطة.

وللحبوس أنواع منها ما هو مخصص للأمرء يكون الحال فيه مخففاً ويكون السجين معزلاً. أما من أراد السلطان موته فإنه يوضع في حبس شاق يؤدي لموته بشكل أو آخر، ومن السجون ما هو مخصص لأصحاب الجرائم الخفيفة. ومنها لأصحاب الجرائم الكبيرة، ومنها ما هو مخصص للمحكومين بالأشغال الشاقة المؤقتة أو الدائمة، (وهم مع ذلك (المساجين) يستعملون في الحفر وفي العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة، والأعوان تستحثهم، فإذا انقضى عملهم رُدوا إلى السجن في حديد من غير أن يطعموا شيئاً. إلى غير ذلك)<sup>(١)</sup>.

ومن الحبوس ما هو مخصص لمن سينفذ فيه حكم الإعدام أو القتل (توسيط أو شنق أو أي وسيلة أخرى) ومن الحبوس ما هو للرجال. ومنها للنساء. وهناك سجون خاصة للعسكريين. تكون عادة في القلعة سواء في مصر أو الشام (مثل سجن قلعة الجبل وسجن قلعة دمشق وهكذا...).

وهناك سجون مخصصة للموت البطيء بأن يوضع السجين في أضيق سجن حتى يموت. وتكون نفقة المحبوس عليه، فإن لم يكن لديه مال أو سند من ذويه كان يجري مصروفه عن طريق الشحادة بعرض مجموعة من المساجين في الأسواق ويجري لهُ الصدقات من المارة ويذهب معظمها للمساجين الذين لا يألون جهداً لتحصيل الأموال من المسجونين. فان لم يكن لديه مال أو لم يتدبر أمره بالشحادة كان يعد ذلك ديناً عليه لا يخرج حتى يستوفى منه، ما لم يقيم السلطان أو النائب بتسديده عنه في بعض المناسبات السعيدة (تنصيب. زواج، نصر، سلامة من مرض، حج، ظهور ابنه) فيقوم بوفي الديون عن المساجين. إلا أن هناك فرق بين الحبس الذي هو منع حرية شخص إما لعقوبة مقررة أو لاحتراز لقضاء دين. والحبس السياسي الذي لا يرتبط بحدود أو قيود.

كما هناك فارق كبير بين الحبس لمنع حرية شخص ما. وبين التجويع والتعذيب الذي يجري في كثير من سجون الدولة المملوكية.

(وأما سجون الولاية فلا يوصف ما يحلّ بأهلها من البلاء، واشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان في الحديد حتى يشحنوا وهم يصرخون في الطرقات الجوع، فما تصدّق به عليهم لا ينالهم منه إلا ما يدخل بطونهم، وجميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان وأعوان الوالي، ومن لم يرضهم بالغوا في عقوبته)<sup>(٢)</sup>

١. المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٧.

٢. المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٧.

كما كان كثير من الأثرياء وأصحاب الأوقاف (نساء ورجالاً) يتبرعون لسد نفقة المساجين. يقوم السجين بدفع رسم بياته للسجن يومياً ويؤخذ منه عيناً. إذ أن الإقامة في السجن تكون مأجورة. من ذلك يقول النويري:

(وقرئ كتاب المسامحة بجامع دمشق في يوم الجمعة عاشر المحرم بحضور نائب السلطنة بدمشق ثم قرئ في يوم الجمعة التي يليها بالجامع بدمشق مثال بإطلاق ضمان السجون، وأن لا يؤخذ ممن يسجن أكثر من نصف درهم يكون أجرة السجانيين وكان قبل ذلك يؤخذ من المسجون ستة دراهم فما دونها)<sup>(١)</sup>.

ويؤكد ذلك بأن على كل سجين رسم (وهو على كل من يسجن ولو لحظة واحدة مبلغ ستة دراهم سوى ما يغرمه، وعلى هذه الجهة عدة من المقطعين ولها ضمان، وكانت تجبى من سائر السجون)<sup>(٢)</sup> وكان للسجون مقرر يجبى للسلطان مثل سائر المقررات ولها متحصل.

وعقوبة السجن تكون للعقوبات الجزائية، لا ذات الصفة المدنية. إذ لا يجوز حبس المدين على سبيل المثال، إلا في حالات استثنائية تكون كيدية في معظمها.

والسجن على العموم مكروه من الشعب ومن الفقهاء لما فيه من مهانة ومذلة. ولما يجري فيه من مخالفات شرعية. خصوصاً أن أكثر السجون لا تستوفي أبسط الأسس الشرعية، والتي نسميها في عصرنا الإنسانية. وكان هذا سبباً لاعتراض الفقهاء والكتاب على سجون الدولة المملوكية. فيقول المقرئ منتقداً (وأما الحبس الذي هو الآن، فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين، وذلك أنه يجمع الجمع الكثير في موضع يضيق عنهم، غير متمكنين من الوضوء والصلاة، وقد يرى بعضهم عورة بعض، ويؤذيهم الحرّ في الصيف، والبرد في الشتاء، وربما يحبس أحدهم السنة وأكثر ولا جدة له، وأن أصل حبسه على ضمان)<sup>(٣)</sup>.

ونزيل السجن يبقى في سجنه حتى يفرج عنه سواء بحكم القاضي أو بإرادة السلطان (شفاعة أو تبدل موقف السلطان من السجين، أو مناسبة سعيدة) من ذلك على سبيل المثال: أن السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان جزع على مرض الأمير أرغون الكامل فبعث إليه بفرس وثلاثين ألف درهم تصدق بها عنه وأفرج عن أهل السجن.

تتبع إدارة السجون الوالي أي رئيس الشرطة، وهو المسؤول عنها وعما يجري فيها. من حراسة وإدارة وتنظيم، وعليه تقديم تقرير شهري للسلطان أو النائب، حسب موقع السجن، وتابعيته الإدارية وخصوصاً لذكر حالات السجناء الذين بقوا في السجن لأمد طويلة.

وللسجون حراسها من الشرطة أو من متوليها. وللقضاة والمحتسب حق تفتيشها. ومنع المخالفات أو التصرفات الكيدية والتعذيب فيها.

١. النويري : نهاية الارب ج ٢ ص ٢١٥.

٢. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة سنة ٧١١.

٣. المقرئ : الخطط ٢ ص ١٨٧، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة سنة ٧١١.

## ( ب ) أسباب السجن :

كثيرة منها لاستيفاء دين، مع أنها حسب بعض الفقهاء مخالفة للسنة المشرفة كما ذكرنا (ومضت السنة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، رضي الله عنهم، أنه لا يحبس على الديون، ولكن يتلزم الخصمان)<sup>(١)</sup>.

أو لضمان دين أو رسم أو مقرر للدولة. أو لارتكاب جرم أو مخالفة تقتضي السجن. ناهيك عن السجن بالشكل الاعتباطي أو لمشئئة السلطان أو النائب أو لأمر سياسي.

يكون تقرير الحبس بيد الوالي في حالة وضوح الأدلة أو في حالة ما نسميه الآن «بحالة طوارئ» وهي حالة الحرب أو الحصار أو الأوبئة العامة أو الفوضى العامة أو التمرد العسكري أو الثورات الداخلية «الطوشة».

أو يكون بأمر السلطان أو النائب. أو بأمر القاضي، أو المحتسب فيما يدخل من اختصاصات عمله.

والسجون تكون موجودة في قلعة كل نيابة في الدولة المملوكية. وربما كان في كل مدينة سجناً أو أكثر حسب الحاجة وعدد السكان.

## ( ثالثاً ) - السجون في الولايات الأخرى :

كان في كل قلعة من قلاع بلاد الشام سجناً مثل قلعة دمشق وحلب والصبيبة والكرك والمرقب. كما ضمت كل ولاية عدداً من السجون لعل أشهرها:

سجن صفد، وسجن غزه والأخير كان مخصصاً لمن ينفية السلطان. بينما كانت مدينة القدس مكان نفى السلاطين المعزولة وكبار الأمراء.

إلا أن سجن الكرك كان سجناً للأمراء وكان السلاطين ينقلون المغضوب عليهم من الأمراء بين سجن الإسكندرية وسجن الكرك

## ( رابعاً ) - الخلاص من السجن :

يتم الخلاص من السجن بانتهاء السبب الذي دخل صاحبه إلى السجن. فمن هذه الأوضاع أن يكون له مدة محدودة يخرج منها من السجن لانتهاء المحكومية.

ومنها إن كان سبب السجن ديون على المسجون يجري إطلاقه بسداد الدين سواء قام بسداد الدين بنفسه أو أهله أو من أهل الخير والوقفيات التي أنشئت لهذا السبب. أو تبرعات لهذا السبب من الأمراء والنواب وغيرهم.

ويمكن استثناء بأن يتم ذلك بعفو عام يصدره السلطان بمناسبات مفرحة كاعتلائه السلطنة أو زواج أبنائه أو بناته أو ظهور صبيانه أو شفائه من مرض أو نصره في معركة أو غير ذلك. وقد يتم ذلك بشروط كأن يخرج المسجون ليبقى تحت المراقبة إما في بيته كإقامة الجبرية أو في البلد نفسه أو في بلد

١ . المقرئ : الخط ج ٢ ص ١٨٧ .

آخر، أو أن يخرج بطلاً أي محروماً من الوظائف، أو يخرج ويعين في منصب وينعم عليه، وهذه الحالات الأخيرة غالباً تخص المساجين السياسيين.

إلا أن خروج السجن يقتضي براءة ذمة المسجون من رسومات إقامته فيه كما بينا سابقاً، إلا إذا جاء نص إخراجهم من السجن بإعفائه منها أو أن يقوم السلطان بتسديدها.

قام السلطان الملك الصالح اسماعيل سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م بدفع عشرة آلاف دينار ليفي بها ديون المسجونين الفقراء عن طريق قاضي القضاة وجاء في السلوك من حوادث ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م والنجوم الزاهرة بالنص نفسه تقريباً: فلما عزم أرغون على النزول إليه مرض، فقلق السلطان لمرضه، وبعث إليه بفرس وثلاثين ألف درهم تصدق بها عنه. وأفرج عن أهل السجن، وركب السلطان لعيادته بالميدان.

### ( خامساً ) - شواهد من فساد الشرطة:

ولم تكن الشرطة أو الوالي دائماً على النزاهة المطلوبة والمفترضة. إذ كثير منهم أصبح من كبار الأثرياء. وكثير منهم أمر السلطان بالحوطة على موجوده، فكان الكثير مما غالباً ما يصادره السلطان ليضمه لماله الخاص. ولم يكن الفساد فقط لنيل المال بل كان محابة لأصحاب العز والسلطان. من ذلك ما جاء في كتاب نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر: لعماد الدين موسى بن محمد بن الشيخ يحيى المتوفى سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م:

(تنقل الأمير علم الدين سنجر الخازن من الممالك المنصورية في مختلف الوظائف وكانت له سمعة طيبة حتى أصبح والي القاهرة حيث فسدت أخلاقه. وحضر اليوسفي<sup>(١)</sup> صاحب نزهة الناظر مرة مجلسه، فجاءه شخص تتبع زوجته التي وجدها في بيت أحد الحكام فاشتكى إليه، فأرسل والي طوف وكبس الحاكم وزوجة الرجل المدعي. ولما عرف الخازن الحاكم استحق منه وأمر بترسيم (توقيف) الجميع حتى الصباح. فأحضر أحد الحرامية وألبسه لبس الأمير الحاكم وأطلق الأمير. وأفهم الحرامي القضية وعرفوه ما سيقول، ولما خرج الصباح جلس على الباب، وأجلس مملوك السلطان إلى جانبه وأوقد الفانوس واستحضر الرجل والمرأة. ولما وقفا بين يديه شرع الخازن يعنفه ويقول له «أنت رجل مستور وتحكم في العرض والفروج، وتفسد حريم ممالك السلطان، والرجل منكس الرأس، وشرع يقول بذلة وخضوع «يا خوند، ما بقي إلا سترك واصطناعك، ونحن قد أخطأنا، وعفوك يسعنا» وأخذ المملوك زوج المرأة ينظر إليه ويحقق النظر فيه، ويقول بالتركي «يا أمير، ما هو هذا الرجل» وهو يكاسر بكلامه، وآخر القضية قال له «وما بتستحي هذا الرجل الذي لقيناه مع زوجتك»، وشرع يعرفه أنه يطلع معهم إلى السلطان

١. (موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي عماد الدين المصري المعروف بابن الشيخ يحيى أحد مقدمي الحلقة بالقاهرة ولد سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م وأحب التاريخ وتعانى النظم والنثر مع عدم الاشتغال بالعربية فكان يأتي مع ذلك بالعجائب وجمع تاريخاً كبيراً في نحو خمس عشرة مجلدة سماه كثيراً من الوقائع والتراجم التي يحكيها عن مشاهدة وهو كثير التحري في النقل ما يتحققه ينقله وما لا يضيفه إلى قائله وربما تيراً من عهده واختص بجمال الكفاة ويعلم الدين ابن زنبور والقاضي كريم الدين الكبير وبدر الدين جنكلي بن البابا والحاج رقطامي وغيرهم وكان غزير المروءة كثير العصبية ومات بالقاهرة في أوائل سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م) (الصفدي (صلاح الدين) أعيان العصر وأعوان النصر حسب التسلسل الأبجدي).



ويقول «تهتك زوجتك بين خشداشيك» وما زال به إلى أن عفا عنه وقلده المائة. وبطح الرجل وضربه وقطع أكمامه وأطلقه<sup>(١)</sup>

### - مراكز الإطفاء :

مكافحة الحريق دائماً تقتضي عملاً تعاونياً. فإطفاء الحريق ومحاصرته وإنقاذ الناس والممتلكات لا يتم بعمل فردي وينجم عن ذلك إمكانية استغلال الموقف من ذوي النفوس المريضة، فيجري النهب سواء للأموال أثناء الحريق، أو أثناء إخراج الممتلكات الثمينة من مناطق الحريق، أو بعد إطفاء الحريق مما يقتضي إيجاد حراس للمنطقة. ناهيك عن استخدام طوابير من الجمال، وهي الوسيلة الوحيدة لنقل الماء، والحاجة للبنائين لإجراء الهدم.

لم يكن المماليك أول من قام بإنشاء مراكز إطفاء للحريق ثابتة. فقد سبقهم إليها الكثيرون. وكان الفاطميون يعتنون بالتحرز من الحريق فكانت في قصورهم وفي كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق في الليل. وأجبر أصحاب الحوانيت من باب الاحتراز على اقتناء دلاء ماء خوفاً من حدوث حريق<sup>(٢)</sup>.

كانت مراكز إطفاء الحريق منتشرة في كافة أرجاء السلطنة. وكانت هذه المراكز تتبع الوالي، أي صاحب الشرطة. وكان يعاونه رجال تخصصوا في إطفاء الحريق ويتبعه النجارون لاستخدامهم في نقب الأماكن المحاصرة. وكانت هناك حراس لحراسة الممتلكات خوفاً من اللصوص. وكان يجري بعد الحريق تحقيق لمعرفة الأسباب. فإن كان الباعث جرمياً لوفق الفاعل ويتم الاقتصاص منه.

---

<sup>١</sup> . اليوسفي (عماد الدين موسى بن محمد بن الشيخ يحيى) : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر بن محمد ص ٢٧٣ . ٢٧٤.

<sup>١</sup> - لابيدوس : مدن الشام ص ١١٢

## الفصل الثامن

### الخدمات العامة

تتمثل الخدمات العامة بتقديم العناية والخدمة الصحية، ثم خدمة التعليم في الدولة المملوكية :

### المبحث الأول . العناية الصحية:

ورثت الدولة المملوكية كثيراً من البيمارستانات التي ضمت أوقافاً كثيرة لتسييرها عن الدولة الأيوبية، وكان من أهم من ساهم مساهمة كبيرة في العناية الصحية نور الدين الشهيد زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك بسببين: أولهما حالة الحرب خلال فترة الحروب الصليبية وما ينتج عنها من إصابات وجراحات تتطلب معالجة سريعة وإجراء عمليات ومراعاة صحية بعد العلاج. والسبب الثاني أن ظروف التحرير بعد الحرب تطلبت إعادة الإعمار في المناطق المحررة فكانت هناك حركة عظيمة للبناء في سائر أنحاء المنطقة المتحررة، والمناطق التي كانت موقع معارك وهجمات صليبية في نقاط التماس العسكرية.

ولم تكن الحالة مغايرة في أوائل العصر المملوكي إذ تضافرت مشاكل الحروب الصليبية والحروب مع التتار لإيجاد حاجة ماسة للحفاظ وتطوير المنشآت الصحية القائمة واستحداث الجديد منها. وكان لنظام الأوقاف الإسلامية وثراء الدولة والأفراد وحبهم للخير دور كبير في استحداث مستشفيات جديدة ومراكز صحية وصيديات سواء على مستوى الدولة أو الأفراد الأثرياء والأمراء ورجال السلطة.

كان التقدم الطبي في العصور الإسلامية قد قطع شوطاً كبيراً بالمقارنة مع الدول الأخرى، وكانت العيادات الطبية ومدارس الطب منتشرة في كل مكان. وكانت البيمارستانات من أهم المؤسسات الطبية في العصور الإسلامية، وساهم المماليك بتطويرها وتقديماً واتخاذها المنحى الإنساني في طريقة معاملة الأطباء للمرضى سواء في وجودهم في المستشفى أو بعد خروجهم منها للنقاهة.

البيمارستان «بفتح الراء وسكون السين» كلمة فارسية مركبة من كلمتين «بیمار» بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و«ستان» بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان كما ذكرها الجوهري في صحاحه.

### ١ - أنواع البيمارستانات :

للبيمارستانات نوعان: ثابت ومحمول:

أ - البيمارستان الثابت هو ما كان بناءً ثابتاً مستقلاً وهذا النوع من البيمارستانات يتواجد في معظم المدن في الدولة المملوكية، ولا يزال آثار بعضها باقياً إلى الآن، كالبيمارستان المنصوري أو قلاوون بالقاهرة، والبيمارستان المؤيدي بالقرب من القلعة بالقاهرة أيضاً، والبيمارستان النوري الكبير بدمشق والبيمارستان القيمري بها أيضاً، وبيمارستان أرغون ب حلب.

ب - أما البيمارستان المحمول أو المتنقل فهو الذي ينقل من مكان إلى مكان وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشرية وملابس وأطباء

وصيادلة وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين.  
ويتواجد في:

آ - البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة أو التي يظهر فيها وباء أو مرض معد، بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها فينتقل من بلد إلى أخرى. ومنها أيضاً ما يرافق المقاتلين في الحروب والمواجهات.

ب - ومنها ما يرافق السلطان في سفره وحجه ورحلاته، وكانت العادة في دولة المماليك أن يخرج السلطان ومعه الأمراء والأعيان إلى القصور التي بنوها خارج المدن، ويقيم فيها أياماً ويصحب السلطان في السفر، سواء للحج أو الصيد أو النزهة، ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه بيمارستان لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك. والبيمارستان الثابت إما أن يكون مخصصاً للرجال، أو مخصصاً للنساء. وفي كل بيمارستان قاعات مخصصة للجراحة، وأخرى للأمراض الداخلية، وأخرى لأمراض وجراحات العين، وهناك قاعات معزولة للأمراض السارية<sup>(١)</sup>.

## ( ثانياً ) - وظائف البيمارستانات:

### آ - الوظائف الإدارية :

في البيمارستان وظائف إدارية مهمتها النظر في إدارة البيمارستان من حيث البناء والتجهيزات وأسلوب العمل فيه واستكمال نواقصه وإحضار لوازمه من أي نوع كان. ووظائف مهنية: وهي الأطباء والكحالة والجراحين ورتبهم وطرق عملهم ونوبات عملهم. ثم الصيدلية وما تضمه من الصيدلاني ومعاونيه.

١ - **ناظر البيمارستان** : يعد ناظر البيمارستان من الوظائف الهامة جداً في سائر أنحاء الدولة المملوكية وهي من أجلّ الوظائف وأعلاها؛ وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية، يكون نظر البيمارستان المنصوري «قلاوون» بالقاهرة مع أتابك العساكر عن الوظائف الكبيرة بالقاهرة.

وتكون توليته من اختصاص النائب وصار فيما بعد من اختصاص النائب النظر في البيمارستان الكبير النوري بدمشق شخصياً وله «أي نائب السلطان» أن يفوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقاليم.

ومن الوظائف في البيمارستانات أيضاً:

٢ - **صحابة ديوان البيمارستان** : وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث فيه ناظر البيمارستان.

٣ - **شاد البيمارستان**: وهو المسؤول عن البناء وصيانته، أو توسعته أو بناء بيمارستان جديد.

ب - **الوظائف العلمية** : فهي تعتبر من أجلّ الصناعات، وولاية كل منها بتوقيع كريم من النائب. والموجود منها في الديار المصرية وبالوقت نفسه يشمل كافة الولايات هي:

١. رئيس الأطباء وهو الذي يحكم على طائفة الأطباء الطبائعية (الداخلية) ويأذن لهم في التطبيب

ونحو ذلك.

١ - (زيادة : دمشق في عصر المماليك ص ١٢٣).

٢. رئيس الكحالين وحكمه في الكلام على طائفة الكحالة حكم رئيس الأطباء في طائفة الأطباء.  
٣. رئيس الجرائحية وحكمه في الكلام على طائفة الجرائحية والمجبرين كالرئيس المتقدم العالي.<sup>(١)</sup>  
وكان من الوظائف الصناعية وظيفة الطبيب الخاص وهو الطبيب الخاص بالسلطان ويتبعه طبيبان أو ثلاثة يقيمون في القلعة في بیمارستانها ويرعون السلطان ومن في القلعة، فيخرج الأستاذون «الخدم والطواشية» فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص، فيكتب لهم رقاعاً على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها وتبقى الرقاع عند مباشرتها شاهداً لهم. وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه يصرف له من الشرابخانه أو الدواء خاناه المحمولين في الصحبة.

كذلك يوجد أطباء يعملون بعيادات خاصة بهم.<sup>(٢)</sup>

وهناك ما سمي بأطباء الطريق الذين يدعون الطب.

ويتبع الأطباء القوامون والفراشون.<sup>(٣)</sup>

ثم يتبع بیمارستان الشرابخانة أي الصيدلية.

### ( ثالثاً ) - طريقة العلاج :

كان في بیمارستان طريقتان للعلاج:

١ - **العلاج الخارجي** : أي أن المريض يتناول الدواء من بیمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه في منزله، وعلاج داخلي يقيم المريض في أثنائه في بیمارستان في القسم الخاص والقاعة الخاصة بمرضه حتى يشفى. ففي الطريقة الأولى كان الطبيب يجلس على دكة ويكتب لمن يرد عليه من المرضى للعلاج أوراقاً يعتمدون عليها، ويأخذون بها من بیمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها الطبيب.

٢ - **العلاج الداخلي** : أي في داخل بیمارستان، فكان المرضى يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم، وكان لكل قسم من أقسام بیمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة أطباء بحسب السعة وكثرة المرضى، وكان إذا دعا الحال يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض للاستشارة. وكان الأطباء يشتغلون في بیمارستان بطريقة التناوب. وكانت نوبة الطبيب في الأسبوع يومين وليلتين.

والبیمارستانات في السلطنة المملوكية نوعان إما بیمارستان تعليمي يقوم بعمل الجامعة ويخرج الأطباء بعد التمرين، كنظام المستشفيات في كل أنحاء العالم حالياً، وهو الأهم والأكثر تفوقاً وتقدماً، أو مستشفى علاجي تكون مهمته علاج المرضى فقط.

أما في المستشفى التعليمي فالطبيب (وهو كالأستشاري في عصرنا) بعد زيارته المرضى المقيمين وبرفقته الأطباء المعاونين والمتدربين، فيجلس في الإيوان الكبير الموجود في بیمارستان وجميعه مفروش،

١. النهار ( د. عمار محمد ) شمس الحضارة العربية الإسلامية ، دار أفنان دمشق ٢٠٠٨. ص ١٧٤ وسيشار إليه باسم النهار : شمس الحضارة: النهار، زيادة : دمشق في عصر المماليك ص ٦٠.

٢. القلقشندي : صبح طبعة الذخائر ج ٣ ص ٤٩٦.

٣. السعيد (د. عبد الله عبد الرزاق مسعود ) المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، دار الضياء للنشر والتوزيع عمان دون تاريخ ص ٥٢، وسيشار إلى الكتاب باسم السعيد : المستشفيات الإسلامية .

ويحضر كتب الاشتغال، يشرح داء كل مريض والعلاج المقدم له وأسباب تشخيص المرض وسبب العلاج المقدم، فتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهم ومما كان يجري بينهم من الكلام في الأمراض ومداولتها وما كان يصف للمرضى. وإذا كان هناك حاجة للمصادر استخدم مكتبة البيمارستان التي تحوي مختلف كتب العلوم والمراجع، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم يجري مباحث طبية ويقرئ التلاميذ ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب الطبية مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب إلى داره.

وكانت من أهم وظائف المحتسب التدقيق في الأطباء وإجراء الامتحانات لهم حسب اختصاصاتهم، وله مراقبة المستشفيات والصيدليات وسلامة العمل فيهما، وصحة الأدوية وعدم غشها، ونظافة البيمارستانات والشراب خاناه والعاملين فيهما.

#### ( رابعاً ) - أهم البيمارستانات في بلاد الشام:

أول من أحدث البيمارستانات في الإسلام الوليد بن عبد الملك في دمشق، وأول من أحدثها في مصر أحمد بن طولون بالفسطاط. وتتابع إحداث البيمارستانات وخصوصاً في الدولة الفاطمية فالأيوبية ثم الدولة المملوكية:

#### آ - في دمشق:

##### ١ - البيمارستان النوري:

قام بعمارته السلطان نور الدين الشهيد أيام الدولة الزنكية خلال الحروب الصليبية. وقد تم بناؤه سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م وكان نور الدين قد (أسر بعض ملوك الفرنج وقصد قتله ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع وخمسمائة ألف دينار حتى أطلقه فمات في طريقه قبل وصوله مملكته)<sup>(١)</sup> وأوقف عليه أوقافاً لمصروفه وشرط أن يكون الناظر عليه قاضي دمشق الشافعي. ثم صار الناظر عليه لثائب دمشق. ووسع به بدر الدين ابن قاضي بعلبك ببضعة بيوت اشتراها وضمها إليه، وأوصل إليه الماء وزين قاعاته. أثناء استلامه لإدارته التي استمرت عدة سنين. وكان مخصصاً للفقراء ولا مانع من استفادة الأغنياء إذا احتاجوا له، وكان البيمارستان يقدم الرعاية الطبية والأدوية والغذاء للمرضى. وكان في المستشفى عدة أقسام: منها للنساء، وقسم للأمراض العقلية حيث كان المجانين يقيدون بسلاسل من حديد مع تقديم الرعاية والغذاء لهم. والبيمارستان كان مدرسة طب تدرس فيه كافة أقسام الطب وتخرج من الكثير من الأطباء العرب المشهورين.

وصفه غرس الدين الظاهري بأنه لم ير مثله في الدنيا قط، وأن النار لم تتطفئ فيه منذ عُمر. <sup>(٢)</sup> وقد زاره ابن جبير الأندلسي في رحلته عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ووصفه بأنه أفضل البيمارستانات ووصف طريقة العمل فيه. وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين.

١. المقرئزي الخطط ج ٢ ص ٤٠٨.

٢. الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٤٤ . ٤٥.

وبقي في الخدمة كمستشفى حتى عام ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م حين بُني مستشفى الغرباء بدمشق. (١)  
وللبيمارستان أهمية كبرى في تبيان تطور العمارة الإسلامية في دمشق خلال القرن الثاني عشر  
الميلادي وتأثرها بالعناصر الفنية التي أتى بها الزنكيون من بلاد الرافدين وإيران. (٢)

## ٢ - بيمارستان الصالحية أو القيمري:

البيمارستان القيمري أو مارستان الصالحية أنشأه وأوقفه الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن علي  
ابن يوسف بن أبي الفوارس ابن موسك القيمري الكندي: أكبر أمراء القيامرة ومن أبطالهم المذكورين  
وصلحائهم. ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون بالصالحية. وتم بناء البيمارستان بين  
سنتي ٦٤٦ . ٦٥٧ هـ / ١٢٥٠ . ١٢٥٩ م وبذل مشييده فيه أموالاً طائلة وأوقف له أوقافاً كثيرة من قرى  
وبساتين وطواحين.

وكانت وفاته سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥ م ودفن بالسفح في قبته التي تجاه المارستان وكان ذا مال  
وثروة. وفي سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٧ م في يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار في نهب  
الصالحية وأخربوا أماكن كثيرة ومنها المارستان بالصالحية. ثم رمم وأعيد للخدمة عام ١٠٢٧ هـ / ١٦١٨  
م. وبقي حتى منتصف القرن العشرين مستخدماً مستوصفاً وهو الآن مغلق ويقع في الصالحية في زقاق  
المدارس.

ويعد البناء من أعظم المنشآت المدنية الدمشقية في العصر الأيوبي. (٣)

وكان موقع البيمارستان على سفح قاسيون في الصالحية. وهو مطل على المدينة، وكان يتألف من  
قاعة كبيرة تركز على أعمدة يحيط بها من جهتين من جهاتها مقاصير خاصة بالمرضى وكان يصاقب  
هذه غرفتان كبيرتان واحدة للرجال والثانية للنساء مخصصتان للمصابين بالهيبضة والإسهال. وكانت ثمة  
مقصورة كبيرة تحفظ فيها الأدوية على اختلاف أنواعها. وكان للبيمارستان عيادة خارجية للمرضى  
الخارجيين تداوي بالمجان يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع. ويقدم لهم ولمرضى البيمارستان الطعام  
والشراب بالمجان أيضاً. إذ يقوم مطبخ البيمارستان بإعداد الأطعمة الخاصة بالمرضى. أطعمة عادية.  
وبالجدول التالي يبين لنا عدد ورواتب العاملين في البيمارستان مما يعطينا فكرة عن عدد الموظفين  
ونوع الوظائف والرواتب الخاصة بهم :

| الموظف | العدد | الراتب الشهري بالدرهم | حصة القمح الشهرية<br>بالمكيال للشخص الواحد |
|--------|-------|-----------------------|--------------------------------------------|
|--------|-------|-----------------------|--------------------------------------------|

١ . عيسى بك ( د. أحمد ) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: دمشق ١٩٣٩ ص ٢٥٦، وسيرمز إليه باسم عيسى : تاريخ البيمارستانات، وسيشار  
إليه باسم : السعيد المستشفيات الإسلامية ص ٢٤١ . ٢٤٦.

٢ . عبد الحق ( عادل عبد الحق وخالد معاذ ) مشاهد دمشق الأثرية، مطبعة الترقى، ١٩٥٠. ص ٣٨. وسيرمز إليه باسم عبد الحق : مشاهد  
دمشق الأثرية.

٣ . السعيد : المستشفيات الإسلامية ص ٢٧٠، تاريخ البيمارستانات: عيسى ص ٢٤٤، أبنية دمشق الأثرية ص ٤٩.

|            |   |         |                      |
|------------|---|---------|----------------------|
| الأطباء    | ٣ | ٦٠ - ٧٠ | من نصف إلى واحد      |
| ناظر       |   | ٤٠      | نصف                  |
| كحال       |   | ٤٥      | نصف                  |
| خدم        | ٣ | ١٣      | سدس                  |
| مساعداً    |   | ١٠      | سدس                  |
| صيدلي      |   | ٢٦      | ثلث                  |
| ناظر الوقف |   | ٦٠      | واحد وواحد من الشعير |
| إمام       |   | ٤٠      | ثلث                  |
| بناء       |   | ١٣      | سدس                  |
| عتالون     |   | ٨       | سدس                  |

ومن مراجعة الجدول نرى أن هناك حداً أدنى لحصة القمح الشهرية وهي السدس. بينما الرواتب تختلف بين العاملين في البيمارستان فالأطباء لهم الأجر الأعلى. بينما الكحال أجره أقل وكان يفوق قليلاً راتب الناظر الذي هو الإداري في البيمارستان. ونرى راتب الصيدلي أقل من راتب الإمام وأدنى الرواتب للعتالين. بينما نلاحظ ارتفاع راتب ناظر الوقف. لأن بيده مالية الوقف الذي يسيّر البيمارستان. وهو الذي يقوم بتحصيلها ممن يستأجر الموقوفات. وهم قد يكونون في مدن ومناطق مختلفة متباعدة<sup>(١)</sup>.

### ٣ - بيمارستان الجبل:

كان بقرية نيرب وهي قرية على نصف فرسخ من دمشق بيمارستان يسمى بيمارستان الجبل<sup>(٢)</sup> ولم يعرف شيء عن هذا البيمارستان، ولا عن أنشأه والزمن الذي أنشئ فيه، غير أن ابن شاعر الكتبي في فوات الوفيات، والذهبي في تاريخ الإسلام، قد ذكرا بعض الذين خدموا في هذا البيمارستان من الأطباء، وذكر الذهبي في تاريخه أيضاً أن التتار لما دخلوا دمشق في ١٨ جمادى الأولى سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠ م أحرقوا البلد ومنها بيمارستان الجبل.<sup>(٣)</sup>

### ب - البيمارستانات في حلب :

#### ١ - البيمارستان النوري أو العتيق:

وروى صاحب كنوز الذهب في تاريخ حلب أن المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان هو الذي وضع البيمارستان بحلب وجدّد نور الدين محمود بن زنكي عمارته. وقال في الدر المنتخب: إن البيمارستان النوري بناه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بحلب داخل باب أنطاكية بالقرب من

<sup>١</sup> - زيادة : دمشق في عصر المماليك ، ص ١٢٣ - ١٢٤.

<sup>٢</sup> . (النيرب تقع غربي ساحة الأمويين على طرفي الطريق إلى الرهوة، حيث يوجد نيربان على طرفي بردى. ولعل مستشفى المواساة حالياً تقع في الموقع نفسه على التقريب).

<sup>٣</sup> . عيسى : تاريخ البيمارستانات: ص ٢٥٦..



سوق الهواء في محلة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمة. ووقف عليه أوقافاً تكفي مصاريفه.

وفي هذا المارستان قاعة للنساء مكتوب عليها: عمر هذا المكان في دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب، بتولي أبي المعالي محمود بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي الشافعي في شهر رمضان سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وعلى إيوانه أنه عمر في أيام الأشرف شعبان، وأن هذا الإيوان وقاعة النساء الصيفية أنشأها صالح سبط ابن السفاح، وعلى الشباك الذي على بابه: أنه أحدث في سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م على يد الحاج محمد البيمارستاني. وقاعة المنسولين كانت سماوية فأسقفها القاضي شهاب الدين ابن الزهري. وهو بيمارستان مبارك يستشفى به وهو نير، شرح ومفروش من الرخام، وبه بركتا ماء يأتي إليهما الماء الحلو من قناة حبلان.

وقال القلقشندي عن حلب: وبها بيمارستان حسن لعلاج المرضى. وقال: من الوظائف الديوانية نظر البيمارستان وقد تقدم الكلام على مدينة حلب أن بها بيمارستانان، أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد ولكل منهما ناظر يخصه، وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم. ولعل العتيق منهما هو الذي أنشأه نور الدين محمود بن زنكي وهو هذا، والثاني منهما وهو الجديد هو الذي أنشأه الأمير أرغون الكاملي بحلب. (١)

## ٢ - البيمارستان الجديد بحلب أو بيمارستان أرغون الكاملي:

أنشأ الأمير سيف الدين أرغون الكاملي في سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م عمارة البيمارستان المنسوب إليه بحلب داخل باب قنسرين، وأعد له الآلات والخدم. ورتب لحفظ الصحة فيه أرباب الحكم وأباحه للضعيف والسقيم، وفتح بابه للراجل والمقيم، ورواه بالمياه الكثيرة وأنفق عليه أموالاً غزيرة، وأجرى عيون معلومة وجرايته، ووقف للقيام بمصالحه ما يزيد على كفايته.

وهذا البيمارستان هو من البيمارستانات الإسلامية الموجودة إلى اليوم في سوريا ومصر التي حفظت آثارها، فجميع نظامه بتفاصيله لا يزال سليماً وله بوابة عظيمة ذات محاريب، ودهليز ذو أعمدة وإيوانات، وبهو يشتمل على خلوات للمرضى موجود، وقد رتب فيها لقراء يقرؤون القرآن طرفي النهار، وخبزاً يتصدق به ورتب له جميع ما يحتاج إليه من أشربة وكحل ومراهم وجميع الملطافات، وكان هذا المارستان على أتم الوجوه وشرط واقفه أن يكون النظر فيه لمن يكون كافل حلب. (٢)

١. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٢٤. ٢٢٦، السعيد: المستشفيات الإسلامية: ص ٢٤٧. ٢٤٩، القلقشندي: صبح طبعة الذخائر حجار (عبد الله) معالم حلب الأثرية طبعة حلب عام ١٩٩٧ ص ١٦١. ١٦٢. وسيشار إليه بإسم: حجار: معالم حلب الأثرية.

٢. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٦٠. ٢٦٤، القلقشندي: صبح طبعة الذخائر، حجار: معالم حلب الأثرية ص ١٢٤. ١٢٦، السعيد: المستشفيات الإسلامية: ص ٢٨٧. ٢٩٠.

### ج - بيمارستان حماة:

دخل ابن جبير في رحلة إلى المشرق مدينة حماة في الضحى الأعلى من يوم السبت في ١٩ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤ م وبعد أن أسهب في وصفها قال: ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير. (١)

### د - بيمارستان حصن الأكراد:

أنشأ هذا المارستان أحد المماليك وهو بكتمر بن عبد الله الأشرفي نائب السلطنة بحصن الأكراد وأوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والوافدين وذلك في شهر سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م، وهذا المارستان لم يبق من آثاره إلا كتابة منقوشة على عتبة بابه وبعض الأحجار المستعملة الآن في أبنية أخرى. (٢)

### هـ - بيمارستان صفد:

ذكر ابن حجر أن في صفد بيمارستاناً عمره الأمير تنكز نائب الشام في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون. وقال محمد بن شاعر الكتبي: إن الأمير الكبير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بالشام عمر بصفد البيمارستان المعروف باسمه. (٣)

### و - بيمارستان عكا:

في سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م بعد أن فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس انصرف إلى دمشق واجتاز في طريقه إلى عكا، ولما وصل إليها نزل بقلعتها، ووكّل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش، ووقف دار الإشبصار نصفين على الفقهاء والفقهاء، وجعل دار الأسقف مارستاناً ووقف على ذلك كله أوقافاً دارّة. (٤)

### ز - بيمارستان الكرك:

هذا البيمارستان أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد والذي أنشأ أيضاً مارستان غزة. ولد الأمير سنجر سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥ م بآمد، ثم صار لأمر يقال له جاول في سلطنة الظاهر بيبرس فنسب إليه، ثم انتقل بعده إلى بيت السلطان وأخرج في أيام الأشرف خليل إلى الكرك ثم عمل إستاندار صحبة الناصر محمد نيابة عن بيبرس الجاشنكير واستنابه الناصر محمد بعد مجيئه من الكرك سنة ٧١١هـ / ١٣١١ م فعمّر بها قصراً للنيابة وهو أول من مدّنها، فبنى فيها القصر والجامع والحمام والمدرسة الشافعية وخان السبيل والمارستان والميدان ثم قدم إلى مصر ليكون نائباً للحوائج خاناه ثم ولي نيابة غزة. (٥)

١. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٧٥.

٢. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٤٨. ٢٤٩، السعيد: المستشفيات الإسلامية ص ٢٨٦.

٣. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٣٤، السعيد: المستشفيات الإسلامية ص ٢٨٢.

٤. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ٢٥٥، السعيد: المستشفيات الإسلامية: دص ٢٥٥.

٥. عيسى: تاريخ البيمارستانات ص ٢٤٧. ٢٤٨، السعيد: المستشفيات الإسلامية ص ٢٨٣. ٢٨٤.

### ح - بيمارستان غزة:

لما توفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وتولى الملك الصالح إسماعيل، رسم للأمير علم الدين سنجر الجاولي الفقيه الشافعي بناية غزة فحضر إليها وأقام بها مدة شرع في أثنائها في عمارة الجامع بغزة، وعمر حماماً هائلاً ومدرسة للشافعية وعمر خاناً للسبيل، وبنى بغزة مارستاناً ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافاً جليلة، وجعل النظر فيها لنواب غزة وتوفي في ٩ رمضان سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٥ م، ودفن الأمير سنجر في تربته التي على جبل الكبش ظاهر القاهرة. (١)

### ط - بيمارستان نابلس:

ذكر ابن حجر العسقلاني أن محمد بن فضل الله القبطي فخر الدين ناظر الجيش كان قد أسلم وتسمى محمداً وحج عشر مرات وزار القدس، وأحرم مرة من القدس إلى مكة وكانت صدقته في كل يوم ألف درهم، وبنى عدة مساجد وعدة أحواض لسقي الماء في الطرقات، وله مارستان بالرملة وآخر بنابلس من أعمال فلسطين. (٢)

### ي - بيمارستان الرملة:

أنشأه الأمير محمد بن فضل الله القبطي. (٣)

### ك - بيمارستان القدس:

لما فتح السلطان صلاح الدين القدس سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م أمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الإشبيتار بقرب حمامه مارستاناً للمرضى. ووقف عليها مواضع وشهر أدوية وعقاقير غزيرة. ثم حدثت زلزلة في سنة ٨٦٣ هـ / ١٤٥٨ م فجعلته أثراً بعد عين فعفيت آثاره واختلست أرضه وتصرف فيه الحكام وغيرهم من الناس بالبيع والهبة. (٤)

### ( خامساً ) - الصيدليات أو خزانة الشراب:

كان نظام الصيدليات في العصر المملوكي متشابهاً في مصر والشام. وكانت الشرابخانة من أهم الصيدليات في مصر تتبع البيمارستان (المنصوري القلاووني) قال أبو العباس القلقشندي: هذه الخزانة هي المعبر عنها في زماننا (أي زمن القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) بالشرابخانة وهي الحواصل المعبر عنها بالبيوت، وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التي لا توجد إلا فيها. وفيها من الآلات النفيسة والأنية الصيني من الزبادي والبراني والأزبار ما لا يقدر عليه غير الملوك. وقد كان لكل مارستان خزانة للشراب كاملة كما في وقفية المارستان المنصوري «قلاوون» وغيره، ولكل شراب خاناه «مهتار» يعرف بمهتار الشرابخاناه

١. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٩٢، السعيد: المستشفيات الإسلامية ص ٢٤٧.

٢. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٠٦، السعيد: المستشفيات الإسلامية: ص ٢٩١.

٣. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٦٠، السعيد: المستشفيات الإسلامية ص ٢٩٠.

٤. عيسى: تاريخ البيمارستانات: ص ٢٣٠. ٢٣٣، السعيد: المستشفيات الإسلامية ص ٢٥٠. ٢٥٤.

«، ومهتار بالفارسية بمعنى رئيس» متسلم لحواصلها له مكانة عالية وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم شراب دار .

وفي الشرابخانه الخاصة بالسلطان وظيفة الشادّ بها تكون لأمير من أكابر أمراء المئتين الخاصكية المؤتمنين، ولها مهتار يعرف بمهتار الشرابخانه متسلم لحواصلها. ووظيفة الشادّ موضوعها التحدث في أمر الشرابخانه السلطانية وما عمل إليها من السكر والمشروب والفواكه وغير ذلك، وتارة يكون مقدماً وتارة يكون طبخاناه.

وعلى الشكل نفسه كانت صيدليات بلاد الشام، وكان يتبع كل بيمارستان مما ذكرنا شراب خاناه تكبر وتصغر حسب حجم البيمارستان التابعة له. <sup>(١)</sup>

### - المبحث الثاني . التعليم في الدولة المملوكية:

ليس هدف هذا البحث دراسة التعليم في الدولة المملوكية، بل الهدف هو ما قدمته الإدارة المملوكية لقطاع التعليم، فالتعليم في العالم الإسلامي ارتبط دوماً بالمسجد وبالتعليم الشرعي، وأخذت العلوم الشرعية الحيز الأكبر في مناهج التعليم، وكان التعليم يتم من قبل المشايخ. ووظائف التعليم من الوظائف الدينية. ومنهاج التعليم يرتبط بالشرعية والعلم الديني من فقه وحديث وتلاوة وحفظ، ويتبع ذلك العربية ودراساتها لارتباطها بالقرآن الكريم وكونها وعاء العلوم الشرعية ولغة التنزيل. وهذا لا يعني عدم وجود نهضة في نواحي العلوم من حساب وكيمياء وفلك وهندسة وطب، بل كان أساس التعليم هو العلوم الشرعية وباقي العلوم كانت تكميلية لمن يختار تعلمها.

كان التعليم يجري بعدة طرق: التعليم الأهلي الذي يتم في المدارس والمساجد والربط والزوايا والخانقانات، والبيمارستانات بالنسبة للطب. ويكون التعليم هنا مجانياً إلا في حالات نادرة جداً. والتعليم العسكري الذي يجري بالقلعة في نظام الطباقي. والتعليم في القصور لأبناء السلاطين ممن يجري إعدادهم لاستلام السلطة. وهناك تعليم خاص يجري في بيوت كبار المشايخ والعلماء وغالباً يكون لقاء أجر. والهدف في بحثنا هو التعليم الأهلي.

#### أولاً - هدف التعليم:

كان هدف تنشيط العلوم الدينية بالنسبة للسلطة الزنكية ومن بعدها الأيوبية هو خدمة الدين ولاستقرار السلطة وإظهار الغيرة الإسلامية، سواء كانت من ناتج تورع وتدين بعض السلاطين، أو لإثبات التزام السلاطين بأنهم حماة الإسلام وهو ما جعلوه ذريعة لوصولهم لقمة السلطة لحماية الإسلام من الهجمات الصليبية والمغول. وللهدف نفسه جرى بعث الخلافة العباسية في مصر، فكان هذا سبباً لتبوء المماليك المركز القيادي بين الممالك الإسلامية في عصرهم.

<sup>١</sup> . القلقشندي : صبح طبعه الذخائر ج ٣ ص ٤٧٦، السعيد : المستشفيات الإسلامية : ص ٢٦٦، النهار : شمس الحضارة: ص ٢٦٦.

أما هدف التعليم لدى أهل البلاد فقد كان الوساطة الوحيدة للحصول على العمل. فالناس كانوا إما من طبقة الفلاحين وهي غالباً طبقة جاهلة أو اكتفت بما تحصله من التعليم في الكتاب فيحصلوا الكتابة والقراءة وبعض الحساب، وحفظ بعض السور الصغيرة من القرآن الكريم وخصوصاً جزء عم وبعضاً من الأمور الشرعية الأولية.

أما الصناعات وأصحاب الحرف فكان تعليمهم الفني إضافة للكتاب يجري عن طريق شيوخ الحرف أو أصحاب الصناعة التي يلتحقون بها.

بقي ما يمكن أن نسميه الطبقة المثقفة، فقد كان هدف التعليم الحصول على عمل في الدواوين الحكومية. إذ ليس مسموحاً على الإطلاق أن ينتسب السكان المحليون للجيش الذي هو اختصاص الممالك حصراً، بل يأخذ الممالك من أصحاب السيوف أيضاً المراكز الهامة في جميع الوظائف الإدارية المدنية العليا ليجري مراقبة سير العمل وعدم معارضة الجهاز الإداري للسلطة المملوكية.

كانت الوظائف الإدارية مبدولة للمتعلمين، وتكون الوظيفة أكثر رفعة في حال المتقدم إليها أكثر علماً. ومن أهم هذه الوظائف، هي الوظائف الدينية من قضاة ومحتسبين وما يتبع ذلك. أما بقية الوظائف فهي العمل في الدواوين وهي تشبه العمل في الإدارات الحكومية في زماننا. عدد الوظائف كبير جداً وهي تغطي سائر أنحاء المملكة مصرها وشامها. وهناك وظائف خاصة للعمل الإداري لدى كبار الأمراء، الذين كانت لهم دواوينهم الخاصة، التي تدير أمورهم سواء الإدارية منها أو التجارية. وهناك شروط للتوظيف تكاد تكون نفس شروط التوظيف التي تطلب في زماننا بينها في موضع آخر من دراستنا.

لهذه الأسباب كان التعليم يشكل قطاعاً كبيراً في الإدارة المملوكية، ولهذا السبب كان عدد المدارس كبير جداً ومنتشراً في كل أنحاء المملكة، وقد استفاد الممالك من النهضة العلمية التي سبقت عصرهم، خصوصاً عصر الدولة النورية ثم الدولة الأيوبية، فقد حافظوا على مدارس هذين العصرين ورمموها واستكملوا نواقصها وشحنوها بالمدرسين والأساتذة فأصبحت جزءاً من نهضتهم العلمية.

## ثانياً - المدارس:

أول مدرسة إسلامية بنيت في بلاد الشام كانت مدرسة مبرك الناقة في بصرى الشام التي بنيت سنة ٥٣٠ هـ / ١١٢٦ م.

وبدأ السلطان نور الدين الشهيد حملة لإنشاء المدارس، وهو الذي كان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وهو مذهبه، وسمع الحديث وأسمعه، وكان يعظم الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها (وبنى المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها).<sup>(١)</sup>

كان بناء المدارس في مصر والشام يتميز بالعظمة والجمال والصناعة الفنية سواء خارج البناء أو داخله. وكان البناء يحوي قبة غالباً هي مخصصة كترية لبنائه، والمدرسة عادة طابقان: الطابق الأرضي للدراسة والصفوف، والطابق العلوي لنوم الأساتذة ممن يحتاج إلى مأوى، وللطلاب الذين يأتون المدرسة

١. النويري: نهاية الارب ج ٢٧ ص ١٦٧.

من مناطق أو مدن أخرى بعيدة. ويجري عادة افتتاح المدارس بحفل كبير يحضره السلطان أو النائب وكبار الأمراء والأعيان، حيث يجري فيه تعيين القِيم عليها وتعيين المدرسين الذين كانوا يختارون من أفضل المدرسين من العلماء الصالحين، سواء من البلد نفسه أو يجري استقدامهم من جهات أخرى، ذلك في حالة النهوض العلمي قبل أن تسوء أحوال المدارس المادية والعلمية. ويختتم الحفل بالسماط والطعام مع قراءة القرآن الكريم والأناشيد الدينية.

وليس لدينا فكرة عن عدد الصفوف سوى أن في معظم المدارس يوجد فرع لكل مذهب من المذاهب الأربعة ويدرس في المدرسة العلوم الشرعية في الشكل والمنهج التقليدي. كما ليس لدينا فكرة واضحة عن عدد الطلاب وسني عمرهم. وبالطبع يتناسب عدد الطلاب مع حجم المدرسة وسعة صفوفها. تجري احتفالات في المدارس وأهمها احتفالات النصف من شعبان حيث توقد الشموع الكثيرة ويمد السماط وتذبح الخراف. وعادة يجري أخذ طلاب المدارس لحضور احتفالات الدولة الرسمية سواء في العاصمة أو بقية المدن في المملكة.

كما ونجد في كثير من المدارس أنه يجري بها إقامة الصلوات الخمسة وبعضها صلاة الجمع وتجرى خطبة الجمعة فيها.

وللمدرسة إضافة للأساتذة قيّمها الذي غالباً يكون مديرها، وتنتقل قوام معظم المدارس موارثة في المدرسة نفسها ولعدة أجيال.

ويتبع الإدارة في المدرسة شاد العمارة الذي لا يكون متخصصاً بالمدرسة فقط، ولها مؤذنها في حالة إقامة الصلاة فيها، ولها خدمها، وبعض المدارس لها طواشية يمنعون الغرباء من الدخول إليها. ولكل مدرسة أوقافها الكافية للصرف عليها وعلى العاملين فيها، و بعض المدارس تصرف على طلابها. وكانت أوقاف المدارس غنية. وعادة يكون الوقف أكثر من حاجة المدرسة للصرف الذي كان يصرف على رواتب المدرسين، فقد كان عدد المدرسين في كثير من المدارس يزيد عن ثلاثين مدرساً. إضافة لمصروفات خدم وحراس المدرسة ونفقاتها اليومية. وبعض المدارس كانت تقدم الكتب والطعام. وأحياناً الملبوس<sup>(١)</sup>.

وكانت المدرسة الجوانية ذات أوقاف عامرة، فرواتب العاملين فيها تعطينا فكرة عن ثرائها، وعن مستوى رواتب المدرسين فقد كانت رواتب مدرسيها الخمسة والعشرون ١٣٠ درهماً شهرياً لكل واحد منهم، وإضافة إلى كيل من القمح وآخر من الشعير لدابته. وكان ناظر المدرسة يتقاضى عشر مدخول المدرسة لقاء تعبه في تحصيل أموالها ومراقبة الدخل والصرف وإدارة أعاليها. وقد خصص مبلغ ٨٠٠ درهم سنوياً للصرف على الاحتفال بليلة النصف من شعبان<sup>(٢)</sup>.

١ - زيادة : دمشق في عصر المماليك ، ص ١٢٠.

٢ - زيادة : دمشق في عصر المماليك : ص ١٢٠.

وتكون الأوقاف عادة من وقف سوق خاص بها فيكون مصروفها من إيرادات السوق أو من بساتين أو حصة من تجارة، أو من مزارع. فعلى سبيل المثال كان وقف المدرسة الريحانية مكوناً من بساتين وقطعة أرض وبساتين للخضار وخمسة أسداس مزرعة وإسطبل. وتكون أوقاف المدارس بإشراف ناظرها الذي يضبط وقفها ودخلها ومصروفها. وعادة يكون اختياره من أهل العلم كقاضي قضاة أو ما شابه ذلك. وغالباً تكون هذه الوظيفة متوارثة<sup>(١)</sup>.

وفي كثير من المدارس مكتبة عامرة تسمح الإعارة فيها لكل إنسان وبعضها فقط للطلاب، وبعضها لا يسمح بإخراج الكتب خارج المدرسة.

يختار الطالب أو وليه دروسه وشيوخه ومدرسته أو مسجده للدراسة وذلك حسب العلماء الذين يقومون بالتدريس. وعادة تكون دراسة المسجد دراسة عالية تأتي بعد الكتاتيب والمدارس، ويتخرج الطالب من المسجد حيث يعطى إجازة كانوا يسمونها «إجازة العراضة».

وتحتوي المدرسة حديقته التي تحيط ببحرة الماء ذات النوافير في معظم الحالات، لتعطي جمالاً للمدرسة ورطوبة بالصيف. وقد وصف البديري الدمشقي المدارس في دمشق في منطقة الشرف الأعلى والشرف الأدنى المسميين بالشرفين قائلاً: (ومن محاسن الشام شرفها وما حويا من المناظر والقصور، وما فيهما من الولدان والهور. وتقرب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس، رغبة في جوار المجدد الفقير البائس. ورتبوا له من الخبز واللحم والطعام، والزيت والخلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام. فيجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن، فكيف لا ينبعث إلى طلب العلم ويتحرك من فهمه ما سكن. ويقال أن بمدرسة الكجانية قبة بها طاقات بعدد أيام السنة، والشمس دائرة على تلك الطيقان ولا تدخل إليها وهذا من حسن الهندسة).

وكانت مدارس المماليك تتسم بالفخامة والعظمة والجمال. وكانت المدارس في ضواحي المدن تتصف بالسعة والفساحة. مثل المدرسة العمرية والضيائية والأتابكية والصاحبة في ضاحية الصالحية<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً - أسباب النشاط العلمي:

قلنا أن الدولة المملوكية أصبحت قبله العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة العباسية إليها، وأنه جرى هجرة الكثير من العلماء والأدباء والشعراء إليها. وقد ساهم هؤلاء مع سكان البلاد في النهضة العلمية التي ساهرت النهضة الثقافية والحضارية في البلاد وما رافق تلك الفترة من ثراء ونشاط تجاري ورواج للتبادل التجاري والثقافي والحضاري. وقد كانت لهذه النهضة عوامل كثيرة نعدد أهمها:

١. وقوع كثير من البلاد الإسلامية بيد التتار مما أدى إلى هجرة العلماء الأدباء إلى مصر خوفاً على حياتهم<sup>(١)</sup>.

١ - زيادة: دمشق في عصر المماليك : ، ص ١٢١.

٢. (البديري (ابو البقاء) نزهة الأنام في محاسن الشام المصدر وفيه ترجمة المنوه عنه: تقي الدين البديري الدمشقي وهو أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد أبو البقاء تقي الدين البديري الدمشقي الوفائي ولد بدمشق سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م وسكن القاهرة كان يتكسب بالتجارة له عدة مؤلفات ومات بغزة عانداً من الحج سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م، : زيادة: دمشق في عصر المماليك ص ١٢١).

- ٢ . قيام التتار بقتل الكثير من العلماء والأدباء وحرق المكتبات والآثار الثقافية، وإلقاء مكاتب بغداد من المساجد ودور العلم والعلماء بدجلة، بأوامر من هولاكو حتى تغير لونه.
- ٣ . إحياء الخلافة في مصر مما أدى إلى عودة الوعي الديني والعربي.
- ٤ . الغيرة الدينية التي أثارها الحقد الصليبي والتتري ضد الإسلام والمسلمين وثقافتهم وإنتاجهم الفكري. فقد كان الظاهر بيبرس يخشى الشيخ عز الدين عبد السلام فلما مات قال «ما استقر ملكي إلا الآن».
- ٥ . هجرة العلماء للدولة المملوكية كما بينا، منهم على سبيل المثال، ابن خلكان الأربلي صاحب وفيات الأعيان، وابن خلدون المغربي صاحب كتاب العبر، وابن منظور الأفريقي صاحب لسان العرب.
- ٦ . التزام العلماء بواجب إحياء التراث والتنافس في ميدان التعليم والتأليف.
- ٧ . الغيرة الدينية لدى الحكام وتعظيمهم للعلماء.
- ٨ . إنشاء المدارس ودور العلم ورصد الأوقاف عليها.
- ٩ . إنشاء جوامع كثيرة في كل أنحاء المملكة، اهتمت بالتعليم كجزء من رسالتها في الهداية وأنشأ أهل الخير عدداً ضخماً من المدارس، وأوقفوا عليها الأوقاف الكافية.
- لم تكن للدولة خطة وسياسة تعليمية تشرف عليها وتتفدها، وكانت الأوقاف الوسيلة التي أبقت على المدارس والنهضة، حيث كان يتم دفع الرواتب للمدرسين وللخدم وللطلاب أحياناً، وتكاليف صيانة وترميم المدرسة وأوقافها.
- ١٠ . إنشاء دور الكتب: التي ظهرت في كافة أنحاء المملكة سواء في القصور وفي الجوامع أو في المدارس، عدا ما امتلكه بعض الأثرياء والعلماء، منهم القاضي نجم الدين يحيى بن حجي إذ ترك عند موته عام ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م مكتبة من ٣٠٠٠ مجلد نفيس.
- . اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة وذلك بسبب أن الشعب يتكلمها، ولأن المماليك ليسوا كلهم ممن يتكلم لغة واحدة، ولأن العربية لغة القرآن الكريم، وفيها يتم التدريس.
- نتج عن ذلك:**

- ١ . اتساع حركة التعليم فقد ذكر المقرئزي أنه في عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م كان عدد الفقراء والمنقطعين للدراسة في الأزهر ٧٥٠ رجلاً من العرب والعجم والريف والحضر ومن المغاربة وكان يساعد الأزهر تبرعات المحسنين.

- ٢ . كثرة العلماء والأدباء<sup>(٢)</sup>

١ . زيادة : دمشق في عصر المماليك : ص ١٨٤ ) .

٢ . سليم ( محمود رزق ) الأدب العربي في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث : مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٥٧ ص ٨ . ١٣ .



كانت الدولة تضم العدد الكبير من المدارس لا في العاصمة وحدها ولكن في غالب المدن والقرى. وقد ذكر المؤرخون عن العديد من المدارس في الإسكندرية وقوص ودمشق وحلب وغيرها. وتكون المدارس بشكل عام من إنشاء السلطان، فقد بنى السلطان نور الدين الشهيد الكثير من المدارس، وعلى سبيل المثال بنى لابن عسرون القاضي المفضل عنده، مدارس أخذت اسم العسرونية في كل من حلب وحماه وحمص وبعلبك، وبنى ابن عسرون لنفسه مدرستين. كما بنى مدرسة أخذت اسم النورية في دمشق والموصل وبعلبك، وبنى في حران مدرسة إكراماً للشيخ حامد بن محمود بن حامد بن محمد بن أبي عمرو الحراني. وكذلك فعل السلطان صلاح الدين الأيوبي ومعظم أفراد أسرته. تلك المدارس التي تعتبر مقدمة للنهضة العلمية التي أُنِعت في زمن المماليك. فقد تابع معظم سلاطين المماليك في إنشاء المدارس والرباطات ودور الحديث ودور القرآن والزوايا والخانقانات والبيمارستانات، وكل هذه الإنشاءات إنما هي مراكز علم وثقافة.

لم يكن السلاطين وحدهم من قام بإنشاء المراكز العلمية بل قام النواب أيضاً بالعمل نفسه، وكذلك فعل الأمراء والأثرياء ولم تُقَصِّر النساء أيضاً بهذا الواجب كما سنرى.

**رابعاً - طرق التدريس في المدارس**

عرفت دمشق في العصر المملوكي عدداً كبيراً من العلماء في مختلف الاختصاصات العلمية من هؤلاء ، يوسف بن عبد الهادي الذي عرف باسم ابن المبرد والمتوفي سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ / وكان أستاذ ابن طولون وترك الكثير من المؤلفات في مختلف أنواع العلوم .

وعلاء الدين البصراوي المتوفي سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٩ م ، وترك كتاباً في تاريخ دمشق نقل عنه ابن طولون في كتابه مفاكهة الخلان . ومن علماء الحديث في دمشق وفي علم الكلام ومن علماء الفقه وغيرهم كثير <sup>(١)</sup>. وقد شهد العصر المملوكي تخصصاً دقيقاً في العلوم بحيث أصبح التفريق بين الوظائف صعب جداً . وكان هذا مما أفاد المدرسين لأنهم أصبحوا يشغلون عدة وظائف بنفس المدرسة مما يعني عدة رواتب يحصلونها . فأصبحت حالتهم الإجتماعية جيدة . وحين أصبحت الوظائف تباع وتشترى ، سواء من قبل المدرسين أو القضاة الذين أصبحوا يقومون بالتدريس . فقد إشتري زين الدين الحسيني نائب القاضي الحنفي بدمشق عدة وظائف منها تدريس السبكية ، والجامع الجديد ، والجوهريه ، والنورية بمبلغ دفعه . وقد وصف ابن المبرد حال بعض المدرسين قائلاً " لا يهتم إلا أن يتعلم ما يجادل فيه ، ويكبر عمامته ، ويسرح لحيته ، ويقلب على وظائف التدريس ، ويأكل الأوقاف " <sup>(٢)</sup>

وكانت لمدارس تتبع تخصصات كثيرة منها مدارس القرآن ومدارس الحديث وعلوم النحو والطب والفقه . وتتنوعت المدارس الفقهية بين المذاهب الأربعة أو التي تجمع مذهبين فقهيين . علماً بأن تلك الوظائف

<sup>١</sup> - (علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٦٠ - ١٦١ )

<sup>٢</sup> - ( ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٢١ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٨٢ - ١٨٣ )

كان يجري توريثها الى الأبناء والأحفاد بشرط أن يقرأها قاضي القضاة وغالباً ما يتم ذلك . ما لم تكن هناك خصومة بين القاض والمدرس<sup>(١)</sup> .

#### ١ - مناهج التعليم : وكانت تنقسم الى ما يمكن ان يوصف بالمراحل التالية :

أ - المرحلة الابتدائية او الأولية ' وغالباً تأت بعد إنتهاء الطالب من مرحلة الكتاب . فيقوم الطالب بتعلم تلاوة ثم حفظ القرآن الكريم . ولا يسمح له بكتابة نصوص من القرآن الكريم على الألواح تنزها له . وبعد قطع الطلاب شوطاً بالحفظ يجري تعليمهم الخط من كتب الأشعار حتى يستقيم خطهم . ثم ينقلون الى تعلم الحديث الشريف وبعده علوم الشريعة . تلك كانت المرحلة الأولية للتعليم التي قال عنها ابن طولون , كما نقل عنه العلي , "إن المعلم إن أمسك عن تعليمهم هذه العلوم فهو أحوط " .

ب - وفي المرحلة الثانية من التعليم يصار الى تعليم الطلاب الكتب العامة في علوم القرآن والحديث والفقه والتفسير والنحو وغيرها .

ج - تأت المرحلة الثالثة من التعليم و حيث يدرس الطلبة أمهات الكتب في كل العلوم المعروفة . ومنهم من يشرع في التأليف .

وكان الطالب إذا ختم حفظ القرآن الكريم يجري له إحتفال كبير مكلف أحياناً ويصلي به في الجامع الأموي في شهر رمضان . وكان متوسط عمر الطالب عموماً حينها بين السابعة والثانية عشر<sup>(٢)</sup> . وقد جاء في نص من ( كتاب في التاريخ لعلاء الدين البصري ) يشرح الطريقة والمنهج السليم في التعليم حينها :

أ - ان على الشيخ ان يعيد الشرح لمن لم يفهم , ولا ينبغي له أن يقول للطالب : هل فهمت ؟ إلا إذا أمن من قوله (نعم) قبل أن يفهم .

ب - على المدرس ألا يظهر ميله لأحد الطلبة . لأنه يوغر بذلك صدورهم .

ج - عليه ألا ينادي ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره .

وهذه مصيبة يبتلي بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم .

وكان هناك نظامين للتعليم الأول التعليم الخارجي , والثاني التعليم الداخلي حيث يقيم الطلاب في المدرسة . وكان هذا النظام أكثر فائدة واعظم مردوداً لإتباعه نظام فرض ساعات معينة للدراسة تحت أنظار مشرفون مختصون , وتنفيذ مبدأ المكافآت والعقوبات للإنجاز والتقدم في الدراسة . مثل إعطاء مكافآت مالية او هدايا وحلويات او إعطاء عينية<sup>(٣)</sup> .

#### ٢ - وظائف التدريس :

<sup>١</sup> - ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٧١ وص ١٨٣ , زيادة : دمشق في عصر المماليك : ص ١١٩ )

<sup>٢</sup> - ( ابن طولون : الفلك المشحون ص ٧ , علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٨٣ - ١٨٤ )

<sup>٣</sup> - ( علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٨٣ - ١٨٦ )

أما وظائف التدريس فهي كما قلنا كثيرة ومتشعبة الإختصاص ومن أهمها عموماً :

- ١ - المحدث : الذي يختص بعلم الحديث ويعرف المحدثين في منطقته ومستوى كل واحد منهم .
  - ٢ - شيخ الرواية : وهو الذي يدقق أقوال المحدثين وصحة روايتهم .
  - ٣ - الحافظ : وهو الحافظ للقرآن الكريم والذي يقوم بتحفيظه للطلاب .
  - ٤ - المفسّر : وهو الذي يفسر القرآن الكريم للطلاب .
  - ٥ - المدرس : الذي يلقي الدروس على الطلبة ويفهمهم معناها .
  - ٦ - المعيد : الذي يعيد الدرس للطلاب .
  - ٧ - المفيد : الذي يجمع الفوائد المستخلصة من الدرس ، حتى لا تغيب عن ذهن الطالب .
  - ٨ - المنتهي : وهو المختص بالبحث والمناظرة .
  - ٩ - الفقيه ، وهو المختص بقضايا الفقه وهو أقل مرتبة من المنتهي .
  - ١٠ - كاتب الغيبة : وهو الذي يسجل الغياب ، فيحرم من لم يقتنع بعذره من جزء من راتبه ، وقد يبرر الغياب لقاء مبلغ معلوم .
  - ١١ - ضابط أسماء الطلاب ويرصد من سمع منهم ومن لم يسمع .
  - ١٢ - معلم الكتاب : وهو معلم الصبيان للعقيدة الإسلامية .
  - ١٣ - القاص : وهو معلم الناس في المحلات العامة ويروي لهم العبر والمواعظ .
  - ١٤ - قارئ الكراسي وهو كالقاص ولكنه يجلس على كرسي خارج المسجد ويقرأ من كتاب .
  - ١٥ - الواعظ : الذي يعظ الناس بالقصص والأشعار والحكم وغالب رواده من النساء<sup>(١)</sup> .
- ( ٣ ) - رواتب المدرسين : فقد كان معظمهم يجمع أكثر من وظيفة واحدة في آن . ولكن كانت الرواتب تعتمد على تحديد الواقف فالأشرف قاتباي خصص لمدرسته التي في القدس ، وجعل فيها ستين نفراً لكل منهم خمسة عشر درهماً ، ولكل طالب خمسة وأربعون وللشيخ خمسمئة في الشهر<sup>(٢)</sup> .
- وفي وقف التربة المنجية خصص للإمام خمسة وأربعون درهماً وللربوب ستون ولكل قارئ خمسة عشر وللايتام خمسمئة درهماً لكسوتهم ، وخمسون درهماً ثمن حبر وأقلام ، وثلاثون درهماً بالشهر لمحصل الأوقاف<sup>(٣)</sup> . وكان وقف المدرسة الريحانية مكوناً من بستانين وقطعة أرض وبساتين للخضار وخمسة أسداس مزرعة وإصطبل ، وكان وقف المدرسة الجوانية<sup>(٤)</sup> .
- ( ٤ ) - الإجازات العلمية :

<sup>١</sup> - (ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص ١٥٢ - ١٦١ ، السبكي : معبد النعم ص ١٠٥ - ١١٤ ، علي : دمشق بين عصر

المماليك والعثمانيين : ص ١٨٠ - ١٨٢ ، زيادة : عصر المماليك ص ١٢١ )

<sup>٢</sup> - ( الحنبلي : الإنس الجليل ص ٦٢٨ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٦٤ )

<sup>٣</sup> - ( ابن طولون : مفاكهة الخلان طبعة القاهرة ج ١ ص ١٤٩ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٦٤ )

<sup>٤</sup> - ( زيادة : دمشق في عصر المماليك ص ١٢٠ )

وهي بما يعادل الشهادات في زماننا , وكان الطلاب يتبارون في الحصول على أكبر عدد منها .  
وبعضهم يسافر للحصول عليها , او قد يتم بعضها بالمراسلة كما سنرى وهي عدة أنواع ومستويات :

١ - **السماعات** : ومفردها سماع , وهي تشهد بسماع الطالب لكتاب من مدرسه , ويسجل السماع إما على كتاب الطالب الذي سمعه , أو على كتاب الأستاذ حيث يسجل اسماء كافة الطلاب ممن سمع الكتاب , كما يكتب الجزء الذي لم يجر سماعه بأن يكتب " مع فوت " .

٢ - **الإجازة بعرضة الكتب** : وتكون بأن يحفظ الطالب كتاباً فيتقدم الى أستاذه بالوقت الذي يختاره ليسمعه حفظه , فيختار الأستاذ عينات يجري إتيار الطالب فيها لتثبت حفظه الكتاب , ويكون الحفظ من غير تلثم او توقف . فيكتب الأستاذ بعد الفحص إجازة تثبت حفظ الكتاب ودرايته والسماح له بروايته . ومن صورها : ما كتبه شيخ الشافعية نقي الدين بن قاضي عجلون لابن طولون حين كان في الرابعة عشر من عمره : " عرض علي الولد المبارك اللبيب الأديب .. عرضاً حسناً محرراً متقناً دل على حفظه لجميع الكتب المذكورة , أعانه الله على درايتها كما وفقه لروايتها " (١)

٣ - **الإجازة العامة** : وهي أعلى مستويات الإجازات وتعطى للتخصصات الدقيقة في مختلف أنواع العلوم , وتؤهل صاحبها للإفتاء والتدريس . والإجازة تشهد بجدارة صاحبها بتدريس نوع من العلوم أو أكثر كتدريس المذهب الشافعي مثلاً أو الحنبلي أو غيره ومن أمثلتها " أذن لفلان .. أن يدرس مذهب الإمام ... وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه .. وأن يفيد ذلك لطالبه , حيث حلّ وأقام , وكيف شاء , ومتى شاء , وأين شاء .

.. وأنه يفتي من قصد إستفتاءه خطأ ولفظاً على مقتضى مذهبه الشريف .. لعلمي بديانته وأمانته ... فليثق الله ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم ... فذلك قول سعد قائله , وحسبنا الله ونعم الوكيل ... " وإذا تمت الإجازة دون حضور طالبها او عن بعد , فيشترط في طالبه أن يقدم كتاباً او رسالاً ليجري فحصها , عندها تكون صيغة الإجازة كما يلي :

" ... ولما كان الشيخ الإمام فلان ... ممن نظم وكتب ... فأراد أن يشرف قدري , ويعرف شكري .. طلب الي الإجازة مني وأنا الأحق بالأخذ عنه ... فنع , قد إستخرت الله تعالى , قوأجزت له ما يجوز لي تسميعه . " (٢) وفي كثير من تلك الإجازات مجاملة كبيرة للأولاد , او لأبائهم .

١ - (ابن طولون : الفلك المشحون ص ٧ , القلقشندي : صبح طبعة القاهرة ج ١٤ ص ٣٢٧ : علي : دمشق في العصر المملوكي والعثماني ص ١٩١ )

٢ - (ابن طولون : الفلك المشحون ص ٧ , القلقشندي : صبح طبعة القاهرة ج ١٤ ص ٣٢٢ - ٣٢٥ وص ٢٢٨ , علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٩٠ - ١٩٢ )

كما جرت العادة أن يطلب الإجازة ممن يزور دمشق أو غيرها من النيابات للحصول على الإجازات , خصوصاً من الشيوخ المشهورين , لضمها لشهادات وإجازات الطالب الذي قد يكون من مشاهير علماء الأمصار .

#### ٥ - ميزانيات التعليم :

اعتمدت ميزانيات التعليم في الدولة المملوكية كسابقاتها من دول العالم الإسلامي على الأوقاف لتمويل الحركة العلمية ,

فقد كان الحكام يدفعون مبالغ طائلة ويوقفون الكثير من المحلات والبساتين والدور لأوقاف المدارس . كما كان الأثرياء وطالبي العلم والعلماء . وقد تكون هذه التقدّمات في سبيل الله , أو إكراماً لعالم مشهور , كما هي الحال مع ابن عسرون على سبيل المثال كما سنرى .

وكانت الأوقاف تحبس لمصلحة المدارس والمساجد والزوايا والخوانق والمستشفيات وأماكن البر رغبة بالثواب , ولكونها صدقة جارية , جارية الثواب . ومن الأوقاف ما يوقف للذرية ومن بعدهم للمدارس و على قاعدة الوقف على شرط الواقف .

لذلك اختلفت أوقاف المدارس كمّاً وحجماً . فمن المدارس ما كانت أوقافه تزيد عن متطلباته فعاش وعمر , ومنها ممن ليس له أوقاف إنتهى بسرعة .

وكان الوقف من هذا النوع يقتضي عمارة المدارس , وصيانتها , ودفع متطلبات المدرسين وخدمة المدرسة وموظفيها , كما كانت , حسب إستطاعة الوقف وشرط الواقف , تعطي الطلاب مصاريف للعيش والسكنى التي غالباً ما تكون في المدرسة . وتعطي ثمن الكتب , وأحياناً تقيم حفلات التخرج وفي المواسم خصوصاً ليلة النصف من شعبان .

وكانت صكوك الأوقاف يجري تثبيتها وتوثيقها في المحاكم الشرعية التي تحتفظ بصورة عنها . ثم يجري تعيين ناظر الوقف ومعاونوه , ثم تثبت شروط الواقف في نوع الدراسة التي تتم في المدرسة من ناحية العلوم أو المذهب الفقهي . وعدد المدرسين والطلبة والإداريين ورواتبهم وجوائزهم .

ومع ان الوقف شرعاً لا يجوز بيعه او التصرف به اوابجارة لمدة تزيد عن ثلاث سنوات حسب المتعارف عليه وحسب شروط كثير من الواقفين . ورغم عدم جواز تسليمه لغاصب او من يُخشى منه . او إستبدال الوقف او بيعه او توريثه او هبته , ورغم انتهاء صيغة صكوك الوقف غالباً بالآية الشريفة " فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ " (١) وتزييل صك الوقف بتوقيع الشهود والقاضي . فإن أوقاف المدارس والجوامع نهبت في معظمها سواء بمسعى السلاطين وما دون من أمراء وحكام ونظار وقف , أو بتلاعب نظار الأوقاف او دوائرها , وذلك بحجج كثيرة واهية منها الإستبدال أو المنفعة للوقف او

<sup>١</sup> - (سورة البقرة / الآية رقم ١٨١ )

المصلحة . فبيعت الأوقاف واستبدلت بما هو دون قيمها كثيراً , وضمت لأموال ناظرية أو صودرت . ولم ينفع المقام ورود لجان تفتيش من القاهرة أحياناً للكشف عن الأوقاف لمنع التلاعب فيها <sup>(١)</sup>.

## ٦ - تقويم التعليم :

ومع ان التعليم كان لا بُس به في العصر المملوكي بسبب كثرة مصادر التعليم من كتاب ومدارس وجوامع وزوايا وبیمارستانات وغيرها , إلا انه يغلب على العلوم الحفظيات والتكرار . فتكون نتائج الطلاب في المراحل الأولى باهرة تنخفض في المراحل اللاحقة عدا بالطبع من له الموهبة والحافز والرغبة في الإبداع .

## خامساً - مدارس بلاد الشام:

تميزت بلاد الشام بنهضة علمية كبيرة بدأها نور الدين الشهيد. إذ أنشأ الكثير من المدارس في مختلف أنحاء بلاد الشام، واستقدم العلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامي، واقتدى به أهل بيته. ومن بعده جاء السلطان صلاح الدين مرمماً المدارس القديمة، ومحدثاً مدارس جديدة كثيرة، موقفاً لها الجرايات والأوقاف، لتشمل لا المعلمين فقط بل الطلاب الذين تقدم لهم المدرسة الطعام واللباس والمأوى والكتاب. وقد ذكر ذلك ابن جبير داعياً أهل الأندلس والمغرب لطلب العلم في الشام قال: (فمن شاء الفلاح من نشأة (يعني الناشئة) مغرباً فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها. فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويق، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، إنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي. فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد، وتقرع سن الندم على زمن التضييع). <sup>(٢)</sup>

## آ - مدارس دمشق:

كان التعليم في دمشق يتم ضمن الجوامع وفي المدارس التي أنشئت خصيصاً للتعليم وهي كثيرة العدد.

## ١ - الجامع الأموي:

قبل الحديث عن مدارس دمشق لا بد من التحدث عن دور جامع بني أمية الذي لعب أدواراً هامة في حياة دمشق عبر تاريخها. فالجامع الأموي يعد عالمياً ومسجلاً في مجموعة غينيس للأرقام القياسية

<sup>١</sup> - (علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٦٢ - ١٦٤ )

<sup>٢</sup> . رحلة ابن جبير ص ٢٢٢ . ٢٢٣ .

على أنه أقدم معبد ما زال يستخدم للعبادة في العالم. وكان حتى الثمانينيات من القرن العشرين أكبر معبد في العالم. وهو بالنسبة للعالم الإسلامي فقد كان من أقدم المساجد في بلاد الشام. ولم يستطع الجامع الأموي بلوغ مركز الأزهر في مصر، بل ظل تأثيره محلياً لا يتجاوز مدينة دمشق وما حولها.

وقدم الجامع الأموي خدمات كثيرة لمدينة دمشق سواء من الناحية الدينية والاجتماعية والثقافية. وبما أن بحثنا يختص بالتعليم، فقد كان للجامع الأموي دوره في التعليم. إذ ضم ضمن بنائه الكثير من المدارس الذي تشترك معه في البناء وتتفصل في أوقافها الخاصة، وهي تشغل مناطق محددة من بنائه ومن فناءه. ومن هذه المدارس: دار الحديث القوصية، ودار الحديث الحمصية، ودار الحديث العروية، والزاوية المالكية، والمدرسة الرواحية، والمدرسة الغزالية، والمدرسة التاجية والمدرسة السيفية والمدرسة العزية الحنفية.

وللمسجد حلقات تدريس في فنون العلم ففيه المحدثون والوعاظ وجماعات مختصة بتحفيظ القرآن الكريم.

وللمسجد دور علمي آخر فقد كان مقر استقبال العلماء الوافدين إلى دمشق حيث يقومون بالتعليم فيه بعد اجتيازهم الامتحان الدمشقي المعروف، حيث يحضر الناس الدرس الأول للعالم الزائر ويكثرون من الأسئلة المشكلة ليعرفوا مدى علمه، بغض النظر عن شهرته وتآلفه ومسموعياته. (١)

## ٢ - المدارس بنيابة دمشق:

كان في دمشق في زمن المماليك أربع وثمانون مدرسة. بعضها أنشئ قبل العصر المملوكي. وعرفت أيضاً ثلاث مدارس طبية إحداها تدرس الهندسة أيضاً. عدا دور القرآن والحديث، وبعضها يقوم بالتدريس على أكثر من مذهب في منهاج التعليم. ففي بلاد الشام ودمشق، فالشافعي والحنفي هما المذهبان الأكثر انتشاراً، وتتبعهما أكثر المدارس ثم يأتي بعد ذلك المالكي والحنبلي والأخير هو أقلهم. وتنقسم المدارس إلى خمس وثلاثين شافعية، وأربع وثلاثين حنفية، وثمان مالكية وسبع مشتركة لمذهبيين، وسبع مدارس حنبلية. وكان في دمشق أيضاً سبع دور للقرآن الكريم.

وكان لهذه المدارس أوقاف غنية، تكفي خدمة وصيانة المدرسة وأساتذتها والعاملين فيها وخدمة تسييرها. وكثير منها تعطي نفقات للطلاب إضافة إلى تقديم وجبات الطعام وخصوصاً في رمضان والعديد واحتفال النصف من شعبان الذي يعد من أهم الاحتفالات الموسمية ويجري فيه البذخ الكثير.

وهي على العموم مدارس ذات أبنية ضخمة متينة مبنية على طرز شرقية إسلامية رائعة. وما زال الكثير منها باقياً حتى الآن وبعضها لا يزال التعليم فيها جارياً. (٢)

١. (علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ١٦٥ . ١٧١).

٢. زيادة: دمشق في عصر المماليك ص ١١٩ . ١٢٠، النهار: شمس الحضارة الإسلامية: ص ١٦٣ . ١٦٥، الشلي ص ٢٠٩ . ٢١٠، حطيط: قضايا من تاريخ المماليك: ص ٢١٤ . ٢١٥.

وقد وصف ابن جبير مدارس دمشق في رحلته سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م قائلاً: (وبهذه البلدة نحو عشرون مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما)<sup>(١)</sup>

امتازت مدارس دمشق خصوصاً في العصرين الأيوبي والمملوكي خلال الحروب الصليبية بالتقشف وقد جاءت أوصاف المدارس في تلك الفترة: (وتكاثرت المدارس خلال حكمهم (الأيوبيون) وكانت تشبه بعض الشيء، بتخطيطاتها وتوزيع غرفها وواجهاتها، مدارس عهد نور الدين، وكانت الغاية من إنشائها تعليم الطلاب الفقراء وإسكانهم. لهذا فإن الأمراء الأيوبيين، وأعيان المدينة كانوا يبنونها ويجعلونها على أشكال مكعبية فوقها قباب واطئة، ومحاطة بجدران خالية من الزخارف. وهي بصفاتها هذه تعكس نقشف هذا الزمن الحربي، وتمنح دمشق منظر المدينة العالمية المجاهدة، وتعد الزمن الكلاسيكي في تاريخ الفن الدمشقي. أما داخلها فقد كانت له باحة متوسطة تنتظم حولها غرف الدرس، ولا يخلو كل ذلك من روعة لمئاته بنائها، واتساق تأليف منهاجه، الذي يتفق مع حياة الفكر اللائنة في أفيائها)<sup>(٢)</sup>

أول مدرسة أنشئت بدمشق، حسب النعمي، تعود إلى عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م أسسها رشا بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي المتوفى عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م عرفت باسم دار القرآن الرشائية.<sup>(٣)</sup> وفي عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م أنشأ الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله مدرسة عرفت باسمه المدرسة الصادرية اختصت بتعليم المذهب الحنفي.

وفي عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م أنشأ أمين الدولة كمشتكين مدرسة عرفت باسمه «المدرسة الأمينية» كانت مخصصة لتدريس الفقه الشافعي. وتقع جنوب باب جامع أمية القبلي المسمى باب الساعات وما تزال تعمل في دمشق وكنت أحد طلابها عام ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م.

وفي فترة العصر الزنكي قام نور الدين الشهيد بإنشاء أول مدرسة للحديث لأهل السنة في دمشق. عرفت باسم «دار الحديث النورية الكبرى» وكانت بداية انطلاق المدارس في بلاد الشام.

#### آ - من مدارس الشافعية بدمشق:

وكان في دمشق في العصر المملوكي ثلاث وستون مدرسة شافعية منها:

١. المدرسة الأتابكية: بالصالحية أنشأتها بنت نور الدين أرسلان بن أتابك صاحب الموصل وزوج الملك مظفر الدين موسى. وتربتها فيها وتوفيت سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م.

٢. المدرسة الجاروخية التي أسسها سيف الدين التركماني سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م في حارة السبع

طوالع.

١. رحلة ابن جبير ص ٢٢٠.

٢. عبد الحق : مشاهد دمشق الأثرية ص ٣٤ . ٣٥.

٣. النعمي (عبد القادر محمد ) الدارس في تاريخ المدارس: تحقيق جعفر الحسيني دمشق ١٩٤٨ . ١٩٥١ ص ١٢ . ١١. وسنرمز إليه باسم النعمي : الدارس.



٣ . مدرسة الكلاسة: أخذت اسمها من موقع الكلاسة المحازي للبواب الشمالي للجامع الأموي حيث كان موضع الكلس وورشات بناء الجامع في زمن الوليد. أسسها نور الدين الشهيد عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م.

٤ . المدرسة الباذرائية: عند الباب الشرقي للجامع الأموي أسسها نجم الدين عبد الله الباذرائي سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م، وأعطت الحي اسمها.  
المدرسة النجيبيية: بناها الأمير آقوش بن عبد الله النجيبى نائب دمشق سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م في سوق الخياطين.

٥ . المدرسة الظاهرية الجوانية: من إنشاء السلطان السعيد بركة لوالده الظاهر بيبرس تخليداً لذكراه سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م شمال الجامع الأموي. وتعتبر واجهتها من أجمل ما بنى المماليك.<sup>(١)</sup>  
٦ . المدرسة الطقطنائية: من إنشاء الأمير طقطأي دودار يلغا اليحياوي عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م داخل باب الصغير.

٧ . المدرسة الشامية البرانية: تقع بين سوق صاروجا والعقبة في منطقة كانت تعرف بالعونية، بنتها ست الشام الأيوبية أخت صلاح الدين والعادل وتعرف بالحسامية لأن حسام الدين لاجين ابن ست الشام دفن فيها. وكانت للمدرسة أوقاف كثيرة تفيض عن حاجتها<sup>(٢)</sup>.

#### ب - من مدارس الحنفية:

كان للأحناف بدمشق اثنان وخمسون مدرسة منها:

١ . المدرسة الخاتونية البرانية: من إنشاء الست زمرد خاتون عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م غربي دمشق.  
٢ . المدرسة النورية الكبرى: أسسها نور الدين الشهيد في سوق الخواصين سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٦ م  
٣ . المدرسة النورية الصغرى: من تأسيس نور الدين الشهيد عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م داخل الجامع الأموي.

٤ . المدرسة اليعمورية أسسها الأمير جمال الدين موسى بن يغمور عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م غربي جبل قاسيون.

٥ . المدرسة المنجكية: أسسها الأمير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري عام ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م في غربي دمشق.

#### ب - من المدارس الشافعية الحنفية المختلطة:

١ . المدرسة الدماغية: غربي باب الفرع قرب باب القلعة الشرقي أسسها جد ابن شداد فارس الدين ابن الدماغ سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ . ١٢٤١ م فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية.  
٢ . المدرسة الأسدية أسسها الأمير أسد الدين شيركوه الكبير بن شاذي عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م بالشرف القبلي بظاهر دمشق.

<sup>١</sup> . عبد الحق : مشاهد دمشق الأثرية ص ٥٩.

<sup>٢</sup> . (علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ١٧٣ . ١٧٥).

٣ . المدرسة العذراوية: أسستها عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م داخل باب النصر .

٤ . المدرسة الجهاركسية: أسست عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م في الصالحية منسوبة إلى الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحي .

### ج - من مدارس الحنابلة:

وكان بدمشق إحدى عشرة مدرسة منها:

١ . المدرسة الحنبلية الشريفة: أسسها عبد الوهاب بن عبد الواحد الحنبلي عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م وهي أولى مدارس الحنابلة بدمشق في العمارة الجوانية .

٢ . المدرسة الصاحبية: أسستها الصاحبة ربعة أيوب بن شاذي أخت السلطان صلاح الدين عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م في الصالحية ودفنت فيها .

٣ . المدرسة الصدرية: أسسها صدر الدين أسعد بن عثمان بن منجا عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م قرب الجامع الأموي .

### د - من مدارس المالكية:

ولم يكن بدمشق سوى أربعة مدارس مالكية منها:

١ . الزاوية المالكية أمر بإنشائها السلطان صلاح الدين عام ٥٨٠ هـ / م ١١٨٤ م في الجهة الغربية من الجامع الأموي .

٢ . المدرسة الشرابيشية: أنشأها نور الدولة علي بن محاسن الشرابيشي عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م في درب الشعارين داخل باب الجابية .

٣ . المدرسة الصمصامية: أسسها شمس الدين غبريال الأسمرى عام ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م في محلة الذهب .

وذكر النعمي كثيراً من المدارس منها الأسعدية والأسدية والأصفهانية والإقبالية والأكرية والبادرائية والتقوية والحمصية والحلبية الخليلية والرواحية وغير ذلك كثير .

وقد ظهرت نهضة علمية بدمشق إثر هجرة آل قدامة وتأسيس الصالحية . حيث بدأ الشيخ ابن قدامة ببناء منزل له ولأبنائه، ومدرسة كانت عامرة وفيها مكتبة عظيمة، وكانت تقدم خدماتها للجمهور أيضاً من غير طلابها . لا يزال بناء المدرسة قائماً يجري ترميمه حالياً . وكانت هذه المدرسة من أكبر مدارس دمشق وأغناها، فقد كانت توزع ألفاً من الأرغفة كل يوم وكانت تقدم طعام الإفطار المجاني لمئات من الناس في رمضان<sup>(١)</sup> .

وأخذت أسرة ابن قدامة في البناء بسفح قاسيون إلى جهة الشرق فكان تأسيس حي الصالحية الذي حوى زقاق المدارس حيث ضم عشرات المدارس مما أسهم بالنهضة العلمية العظيمة .

<sup>١</sup> - زيادة : دمشق في العصر المملوكي : ص ١٢٢ .

## هـ ومن المدارس الهامة في دمشق أيضاً:

- ١ - المدرسة العادلية: غربي الجامع الأموي يشغلها المجمع العلمي العربي حالياً بدأ بتشييدها الملك العادل سنة ٥١٦ هـ / ١٢١٥ م وأتمها ابنه الملك المعظم ومات قبل أن يراها ودفن فيها. <sup>(١)</sup>
- ٢ - المدرسة الجقمقية: بناها نائب الشام الأمير سيف الدين جقمق سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م وصرف عليها أموالاً كثيرة ووقف عليها أوقافاً كثيرة فكانت من أوائل أبنية دمشق في القرن الخامس عشر. <sup>(٢)</sup>

ومن المدارس التي اندثرت: المدرسة العزيزية وتربة صلاح الدين وقد بناها الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين على إثر وفاة والده في قلعة دمشق ودفنه مؤقتاً فيها سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، ثم نقلت بعد ثلاث سنوات رفاته إلى تربته المعروفة واندثر بناء المدرسة. <sup>(٣)</sup>

### و - من دور الحديث:

- وفي دمشق ست عشرة داراً للحديث، وقد أورد النعيمي في كتابه الدارس في أخبار المدارس أسماء دور الحديث ومؤسسيها منها:
- ١ . الرشائية: بدرب الخزاعية بباب الناطفين أنشأها رشاً بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي في حدود سنة أربع مائة هجرية (١٠١٠ م).
  - ٢ . دار الحديث النورية: وهي أول دار للحديث بدمشق وأسسها نور الدين الشهيد، وقيل إن واقفتها عصمة زوج صلاح الدين.
  - ٣ . دار الحديث الأشرفية الجوانية: بناها الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل الأيوبي جوار باب القلعة الشرقي غربي العسرونية.
  - ٤ . دار الحديث الأشرفية البرانية وتقع بسفح جبل قاسيون على ضفة نهر يزيد بناها الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل.
  - ٥ . دار الحديث الدوادية: أسسها عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادر المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م وهي دار حديث ومدرسة ورباط. داخل باب الفرع.
  - ٦ . دار الحديث السكرية: وتقع بالقصاعين داخل باب الجابية وبها خانقاة.
  - ٧ . دار الحديث البهائية: داخل باب توما أسست سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م أسسها بهاء الدين القاسم بن بدر الدين المظفر.
  - ٨ . دار الحديث النورية: وهي أول دار للحديث تنشأ في دمشق ضمت قبر منشئها نور الدين زنكي.

<sup>١</sup> . عبد الحق : مشاهد دمشق الأثرية ص

<sup>٢</sup> . ( عبد الحق : مشاهد دمشق الأثرية ص ٦٠).

<sup>٣</sup> . ( عبد الحق : مشاهد دمشق الأثرية ص ٤٦).

ويعدد النعيمي دور حديث أخرى نكتفي بذكرها وهي: الحمصية والدودارية والسامرية والشقينية والعروية والفاضلية والقلاصية والقوصية والكروسية والنفسية والناصرية. وهذا يبين مدى التقدم الفكري في ظروف لم تكن مثالية.

#### ز - دور القرآن :

يضاف إلى تلك المعاهد التعليمية دور القرآن التي كان عددها في دمشق سبعا منها:

١ . السنجارية: تجاه الجامع الشمالي المسمى الناطفانيين أسست سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م أسسها علاء الدين علي بن إسماعيل بن محمود السنجاري.

٢ . الجزرية بدرب الحجر أسسها محمد بن محمد بن يوسف الحافظ ابن الجزري سنة ٨٣٤ هـ / ١٤٣١ م.

٣ . الدلامية: أسسها أحمد بن المجلس الخواجكي زين الدين دلامة، أحد أعيان الشام ووقفها سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م ورتب لها أوقافاً، وتقع بالقرب من الماردانية بالجسر الأبيض وفيها تربته.

٤ . الخضيرية: بالقصاعين أنشأها عام ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م قطب الدين محمد بن محمد بن عبد الله ابن خضير الخضيرى الدمشقي الشافعي.

ودار القرآن السنجارية والصابونية والوجيهية.

وهناك دور تجمع بين القرآن والحديث مثل:

٥ . دار القرآن والحديث الصبانية التي أنشأها ابن الصبان، وهو الصدر الحنبلي شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أبي العز الحرائي التي افتتحت في رمضان من سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م.

٦ . المدرسة المعبدية للقرآن والحديث.

وكذلك الكثير من الخانقاة الصوفية. والرباطات.

#### ح - مدارس الطب بدمشق وهي ثلاث:

١ . المدرسة الداخورية: أنشأها عبد الرحيم بن علي الداخوري عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م.

٢ . المدرسة اللبودية: أنشأها يحيى بن محمد اللبودي عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٧ م خارج دمشق وكانت تدرس الهندسة أيضاً.

٣ . المدرسة الدنيسرية وتقع إلى الغرب من باب المرستان النوري.

وكان بدمشق ثلاث مستشفيات (بیمارستانات) وهي بیمارستان النوري الذي أنشأه نور الدين الشهيد، والبیمارستان القيّمري بالصالحية، وبیمارستان باب البرید.<sup>(١)</sup>

١ . (كما جاء في بحث الرعاية الصحية) ، ( حطيط : قضايا من تاريخ المماليك: ص ٢١٥ . ٢٢٢ ، علبی : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ١٧١ . ١٧٩ ) .

وكان في دمشق تسع وعشرون خانقاة، وثلاثة وعشرون رباطاً. ونحو مئة تربة يجري التعليم فيها، ونحو ثلاثمئة وأربعين مسجداً، منهم أربعون مسجداً جامعاً تجري فيه صلاة الجمعة. ويجري في جميع هذه الجوامع التدريس الديني. (١)

#### ب - المدارس في حمص:

المدرسة النورية التي أسسها نور الدين الشهيد، وهي أولى المدارس الإسلامية في حمص، وكانت في حي تحت القلعة بمواجهة باب القلعة، وأشرف عليها ودرس بها ابن عسرون الذي إكراماً له بنيت المدرسة ، ولابد أنه تم بناء مدارس أخرى؛ إذ أشار ابن جببر إلى ثلاث مدارس وبیمارستان في حمص وإحدى هذه المدارس هي المدرسة النورية.

وفي حمص بيمارستان كبير أنشأه الملك المجاهد. (٢)

#### ج - المدارس في بعلبك:

المدرسة النورية بظاهر مدينة بعلبك. وفيها مدارس أخرى.

#### د - المدارس في حلب:

حلب مثل باقي النيابات ضمت الكثير من المدارس، منها الزنكية ثم الأيوبية، حيث أنشئ في عصرهم عدد كبير من المدارس وأخيراً في إطار بحثنا المملوكية، ولعل أهمها:

١ . المدرسة المقدمة: وتقع إلى الغرب من جامع البهرمية، وتعرف بمدرسة خان التتن، وكانت كنيسة قديمة حولها القاضي ابن الخشاب إلى مسجد عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م، وحولت مدرسة عام ٥٦٤ هـ / ١١٢٤ م، وهي أقدم مدرسة في حلب وثاني مدرسة في سورية بعد مدرسة مبرك الناقبة في بصرى.

٢ . المدرسة النورية وتعرف أيضاً باسم النفري نسبة إلى حمام يقع إلى جانبها نسبة إلى أبي الحسن محمد بن عمر بن يحيى النفري الكاتب، وتعرف أيضاً باسم ابن عسرون، وهي مدرسة شافعية وحنفية. أنشأها السلطان نور الدين الشهيد سنة ٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م، وأقام لها أوقافاً كثيرة وتقع داخل السور، وتقع مقابل المدرسة صاحبية، في محلة الساحية في الزاوية الغربية من الجنية المعروفة بجنية الفريق، تولاها أيام نور الدين: العلاء الغزنوي الذي توفي سنة ٥٩٨ هـ. وقد اندثرت آثارها تماماً حوالي سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م.

٣ . المدرسة العسرونية: تقع إلى الشرق من خان الوزير وإلى الشمال من جامع الحيات، وقد تهدمت، ومكانها الآن مديرية الأوقاف، تعود المدرسة لزمن نور الدين الشهيد واستقدم ابن عسرون للتدريس فيها وافتتحت عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م.

١. (علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ١٧٧. ١٧٩).

٢. رحلة ابن جببر ص ٢٠٠، الحائك ( منذر ) مملكة حمص في العصر الأيوبي: دار طلاس دمشق ٢٠٠٠ ص ٢٦١. ٢٦٢ وص ٢٨٨.

٤ . المدرسة الظاهرية البرانية: وتقع إلى الجنوب من باب المقام، تعتبر المثال الأكمل لفن العمارة زمن الظاهر غازي، بنيت عام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م وفيها قطع خشب في البناء وضعت خصيصاً لمقاومة الزلازل.

٥ . جامع ومدرسة الفردوس: ويقع إلى الجنوب الغربي من المدرسة الظاهرية، بنتها ضيفة خاتون زوجة الملك الظاهر غازي أيام وصايتها على حفيدها يوسف الثاني، وهي ابنة الملك العادل ولدت عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م في قلعة حلب. والمدرسة شافعية المذهب.

٦ . المدرسة الأتابكية أو الكتاوية: وتقع قرب باب الحديد في حارة الكتاوية، وتنسب إلى الأتابك عبد الله طغرل شهاب الدين عتيق الظاهر غازي، وقد بناها ابنه كمدفن له عام ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م وهي مدرسة للحنفية ويكون طلابها حنفية وألحق بها رباط. ومات عبد الله ولم يدفن فيها عام ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م.

٧ . المدرسة الكاملية: وتقع إلى الشرق من الظاهرية ربما من بناء فاطمة خاتون ابنة الملك الكامل، ويقدر زمن بنائها بين عامي ٦٢٥ . ٦٣٤ هـ / ١٢٢٨ . ١٢٣٧ م.

٨ . المدرسة الدقاقية: أنشأها مهذب الدين أبو الحسن علي بن فضل الله بن الدقاق سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ . ١٢٦٤ م.

٩ . المدرسة الناصرية: كانت معبداً لليهود إلا أن أصوات اليهود فيها كانت تشاغب على قاضي القضاة كمال الدين بن الزملكاني وهو يلقي الدروس في المدرسة العسرونية فحكم بتحويله مدرسة. وعندما سمع السلطان الناصر محمد بذلك أمر ببناء منارة لها على أن يخطب ويصلى الجمعة فيها.

١٠ . المدرسة الطرنطائية: شرقي خندق الروم في باب النيرب. وتنسب للأمير سيف الدين طرنطاي بن عبد الله، وهو من أمراء دمشق، ولي حجابة الحجاب بدمشق عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م، وقتل سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠. وجددت بعد تدميرها إثر هجوم هولاكو على حلب عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م.

١١ . المدرسة السلطانية: لأنها تحوي تربة الملك غازي بن صلاح الدين سلطان حلب وتقع مقابل مدخل القلعة، بنيت سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م. تخصصت للشافعية والحنفية.

ومن المدارس الأخرى في حلب: المدرسة الصلاحية للمذاهب الأربعة، والمدرسة السفاحية موقوفة على الشافعية وبشرط عدم دخول أصحاب المذهب الحنفي إليها إلا للصلاة، والمدرسة الدلغادرية الموقوفة على الحنفية.

١٢ . المدرسة الحلوية: وهي كاتدرائية حلب العظمى كانت بيزنطية الطراز، مخصصة للسيدة العذراء، بناؤها يعود للقرن الخامس الميلادي هدمها كسرى عام ٥٤٠ م وجدها جوستنيان. تم تحويلها لمسجد سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م، وكان في حلب القاضي أبو الحسن ابن محمود بن يحيى بن الخشاب الذي رد على تخريب الصليبيين دور حلب وجوامها وقبور المسلمين خارج أسوار حلب، فحول أربع كنائس إلى جوامع وتحولت هذه الكنائس بالنهاية إلى مدارس، منها المدرسة الحلوية عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٩ م التي خصصت للمذهب الحنفي، وسميت الحلوية لأنها كانت توزع الحلوى.

١٣ . المدرسة الشاذبختية: وتعرف باسم مسجد الشيخ معروف بن جمر، وتقع في الطرف الجنوبي من سوق الزرب، وقد وقفها شاذبخت عتيق الملك العادل محمود زنكي في سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وهي مدرسة وتربة.

١٤ . المدرسة الشرفية: جنوبي سوق حاتم وإلى الشرق من الجامع الأموي أسسها شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم المسمى بابن العجمي وخصصها للمذهب الشافعي. بنيت بين سنتي ٥٩٥ . ٦٣١ هـ / ١١٩٩ . ١٢٣٤ م وبانيها بنى المدرسة الزجاجية التي تعتبر أول مدرسة إسلامية في حلب ولكنها اندرست.

١٥ . المدرسة صاحبية: أنشأها أحمد بن يعقوب بن صاحب عام ٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م وتسمى أيضاً جامع الفستق وتقع إلى الغرب من واجهة خان الوزير.

١٦ . المدرسة الإشبكية: أسسها الأمير يشبك بن عبد الله اليوسفي المؤيدي عام ٨٢٠ هـ / ١٣٩٧ م ودفن فيها بعد مقتله. وتقع بسوق العبي.

#### هـ - وفي حلب من البيمارستانات:

١ . البيمارستان النوري: في الجنوب الشرقي من جامع الهرمية، وهو أقدم الأبنية الإسلامية في حلب، بناه محمود بن آق سنقر، وكان متولي العمارة عتبة بن أسعد الموصلي. وهناك كتابة أخرى في البناء تشير إلى أن المدرسة بنيت في عهد السلطان صلاح الدين بن يوسف بن العزيز محمد سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٤٧ م. وثالثة تقول بأن البناء تم في زمن الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٦ هـ . ٧٦٨ هـ / ١٣٦٥ . ١٣٦٧ م.

٢ . البيمارستان الأرغوني الكامل، تم بناؤه سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م من قبل الأمير أرغون ابن طيجو الكامل الذي تولى نيابة حلب سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م ومات بالقدس سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م عن عمر دون الثلاثين عاماً بعد أن تقلب كثيراً في المناصب المملوكية، ونسبة الكامل كونه أحد ممالك الملك الكامل شعبان. تم البناء في السنة نفسها التي عزل فيها، وسجن في الإسكندرية دون أن يرى ثمرة عمله الخير. واشترط الواقف أن يقرأ القرآن في البيمارستان ليلاً نهاراً، وجعل له خزانة دواء، نجد من الغرف مفردات للحالات الصعبة متميزة عن القاعات الجماعية. كما خصصت قاعات لاستقبال زائري المرضى. وللبيمارستان ناظر يعين من قبل النائب بتوقيع كريم.

ولم يكن في نيابة حلب بيمارستانات خارج المدينة. (١)

#### ز - المدارس في أطرابلس:

قال عبد الغني النابلسي المتوفى ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ أي بعد مائة عام من المماليك يتذكر مدارس عصر المماليك يقول:

١ . حجار : معالم حلب الأثرية ص ٤٥ . ١٦٢ . حمزة : نيابة حلب: ج ٢ ص ١٩٢ . ١٩٦ و ج ٢ ص ٢٣٩ . ٢٤٠ .

واعلم أيضاً أن ببلدة إطرابلس المحميّة مدارس وزوايا ومساجد لا تعدّ ولا تحصى.  
(وسمعنا أنّه كان بها ثلاثمائة وستون مدرسة، ولكن الآن أكثرها متهدّم وغالبها مهجور. والجوامع التي تقام فيها الآن الجمعة اثنا عشر جامعاً)<sup>(١)</sup>

### ح - المدارس في اللاذقية:

المدرسة الإينالية باللاذقية تقع إلى الجهة الغربية من الجامع المنصوري وقد تم بناؤها في ١٢ شعبان ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م بناها نائب طرابلس الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله النوروزي من ممالك نوروز الحافظي والمتوفى سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م. وقد شغل البناء بالمدرسة الشرعية في عصرنا.<sup>(٢)</sup>

### ط - المدارس في حماة:

قام نور الدين ببناء مدرستين واحدة للحنفية في بستان الثريات غربي الجامع والأخرى للشافعية سميت بالعصرونية لأن مدرستها ابن عصرون المقرب من نور الدين، وتقع في محلة الباشورة. ثم المدرسة المظفرية التي شادها المظفر تقي الدين عمر. ثم المظفرية المحمودية أنشأها المظفر الثاني محمود قرب الجامع الكبير والمدرسة المنصورية التي تسمى أيضاً مدرسة التربة، أنشأها الملك المنصور الأول محمد فوق تربة والده. ثم المدرسة الجلدية ومدرسة ابن المشطوب والمدرسة الصيونية والمعزية والطواشية والخاتونية والمؤيدية المعروفة باسم الخطيبية، والمخلصية المعروفة بالقرنافية ومدرسة دار القرآن. وفي حماه مركزان للطب: الأول في قلعة حماة، والثاني البيمارستان النوري الذي أنشأه نور الدين الشهيد عام ٥٥٠ هـ / ١١٦٤ م.

وفي حماه الكثير من المكتبات منها مكتبة القصر، وفي الجناح الشرقي للجامع النوري مكتبة عامة ضمت نحو سبعة آلاف كتاب، واشتهرت مكتبة قاضي حماة ابن البازي، وقد قدر ثمنها في حينه بمائة ألف درهم.<sup>(٣)</sup>

ذكر ابن جبير في رحلته أثناء زيارته لحماة سنة ٥٨٠ هـ / ١٣٧٨ م قال (ولها جامع أحسن من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير)<sup>(٤)</sup>

### ك - المدارس في غزة:

أشار غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري لوجود مدارس في غزة. وأهم مدارس غزة المشهورة:

- ١ - المدرسة الشافعية التي أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي الشافعي نائب غزة.
- ٢ - مدرسة الكجكي: من إنشاء الأمير شاهين بن عبد الله الكجكي عام ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م.
- ٣ - المدرسة البرديكية: بناها الأمير بردبك الدودار عام ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م.

<sup>١</sup> . القياياتي : نفحة البشام في رحلة الشام:.

<sup>٢</sup> . بيطار (عيد إلياس) اللاذقية عبر العصور: دار المجد للطباعة والنشر دمشق ٢٠٠١ ج ٢ ص ٢٥٦).

<sup>٣</sup> . سبانو : مملكة حماه الأيوبية: ص ١٨٢ . ١٨٣، مجلة العمران الصادرة عن وزارة البلديات السورية عدد ٢٩ . ٣٠ مقال شوقي الكيلاني تطور

التعليم في حماة ص ١٦٧ . ١٦٨، ومهرجان أبي الفداء مقال إحسان العظم ص ١٦٧ . ١٦٨.

<sup>٤</sup> . رحلة ابن جبير ص ٢٠٠.



٤ - مدرسة الأشرف قاتبأي من إنشاء السلطان قاتبأي<sup>(١)</sup>.

#### ل - المدارس في القدس:

بعد أن فتح صلاح الدين مدينة القدس يوم الجمعة في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ٢ أكتوبر / تشرين الأول ١١٨٧ م قام بإصلاحات لإعادة المسجد الأقصى والقبّة المشرفة لسابق عهدهما الإسلامي، وقام ببناء أو توسعة لبيمارستان يعد من أعظم المستشفيات في الإسلام كان يداوي فيه الجرحى والمرضى من الجنود والأهلين من غير أجر ولا عوض. وأنشأ الخانات الصلاحية مسجداً ورباطاً للصوفيين. وأنشأ المدرسة الخشنية بجوار المسجد الأقصى والمدرسة الصلاحية على بعد أمتار منها سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ووقفها للفقهاء الشافعية ورباطاً للصوفيين. وهي الآن متحف وكنيسة، والمدرسة الميمونية وقفها الأمير فارس الدين أبو سعد ميمون بن عبد الله القصري خازن صلاح الدين سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م واندثرت مع الزمن، وأعاد الأتراك بناءها ثانية. وفي عهد السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بنيت المدرسة الجراحية الكائنة بالحي المعروف بالشيخ جراح، وقفها الأمير حسام الدين حسين شرف الدين يحيى الجراحي<sup>(٢)</sup>

وفي العصر المماليكي كان القدس من اهتمامات السلطان بيبرس حيث جدد مسجد الصخرة وجدد قبة السلسلة وزخارفها. وفي عهده أوقف الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين محمد أبي القاسم الهكاري:

١. دار الحديث: وتقع بجوار التربة الجاليقية على طريق باب السلسلة.
٢. المدرسة الأباصيرية: بجوار باب الناظر، أوقفها الأمير علاء الدين آيدوغدي (٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م)، ودفن فيها.
٣. رباط قلاوون: ويسمى أيضاً الرباط المنصوري أنشأه السلطان سيف الدين قلاوون سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م وأوقفه على الفقراء.
- وفي عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قامت المنشآت التالية:
٤. رباط الكرد: أمام المدرسة الأرغونية بباب الحديد أنشأه المقر السيفي كرد سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م.
٥. المدرسة الدوادرية في مدخل باب الدوادرية.
٦. المدرسة السلامية بباب شرف الأنبياء، وقفها الخوجا مجد الدين أبو الفدا إسماعيل السلامي سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م.
٧. المدرسة الوجيهية: عند باب الغوانمة وقفها الشيخ وجيه الدين محمد عثمان بن أسعد النجا الحنبلي المتوفى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م.
٨. المدرسة الموصلية: بباب شرف الأنبياء وقفها الخوجا فخر الدين الموصلية.

<sup>١</sup> (الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ٤٢، عطا الله: نيابة غزة: ص ٢٤٥. ٢٤٦)

<sup>٢</sup> سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م.

- ٩ . المدرسة الجالقية: أنشأها الأمير ركن الدين بيبرس الجالقي الصالحي سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م.
- ١٠ - المدرسة الجاولية: قريبة من درج الغوانمة، وقفها مدرسة الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة والقدس في ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م.
- ١١ - المدرسة التنكيزية: بباب السلسلة أنشأها الأمير تنكز الملكي الناصري في ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م.
- ١٢ . المدرسة الأمينية إلى الغرب من باب شرف الأنبياء أنشأها صاحب أمين الدين عبد الله سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م.
- ١٣ . الخانقاة الفخرية: مجاورة لجامع المغاربة، وقفها القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله في سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م.
- ١٤ . المدرسة الملكية: شمال الحرم وتسمى أيضاً مدرسة «الجوكندار» عمرها الحاج الجوكندار سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م.
- ١٥ . المدرسة الفارسية: وقفها الأمير فارس الدين البكي بن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطان سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م.
- ١٦ . المدرسة الأرغونية: عند باب الحديد وأنشأها الأمير أرغون الكاملي سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م وأتمها الأمير ركن الدين بيبرس بعد سنة.
- ١٧ . المدرسة التشتيرية: بباب الناظر وقفها الأمير تشتير السيفي سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م.
- ١٨ . المدرسة الخاتونية: بباب الحديد وقفها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية في سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م. وأكملت عمارتها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م.
- ١٩ . المدرسة البلدية: وتعرف أيضاً بالمنكلية أوقفت سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م.
- ٢٠ . المدرسة الطشتيرية: في باب السلسلة بناها الأمير طشتير العلاني سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م.
- ثم المدرسة الأسعدية ودار القرآن الكريم والمدرسة المنجية والمحدثية والحسنية والطازية والبارودية والحنبلية والمدرسة للؤلؤية والجهاركسية والطولونية، فالمدرسة النصيبية والفنرية والكاملية والباسطية والقادرية فالعثمانية.
- وشهدت القدس حركة بناء واسعة خصوصاً في المدارس في زمن الأشرف قاتباي (٨٧٣ . ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ . ١٤٩٥ م) فتم بناء:
- ١ . المدرسة المزهرية بباب الحديد وقفها الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م.
- ٢ . المدرسة الأشرفية: بالقرب من باب السلسلة وتسمى أيضاً السلطانية. بناها بالأصل الأمير حسن الظاهري.

٣. المدرسة الزمينية: غربي الحرم أنشأها الخودجي الشمسي محمد الزمرد خان سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م. باسم الملك الظاهر خشقدم سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م ودعيت السلطانية. ولكن عندما مات الملك الظاهر نسبت إلى الأشرف قايتباي، ولكنه أمر بهدمها حين رآها وبإعادة بنائها سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م. وكانت من أجمل المدارس التي بنيت في العصر المملوكي ولعلها آخر المدارس المملوكية.<sup>(١)</sup> ويلاحظ كثرة المدارس في القدس وتمركزها في منطقة الحرم القدسي. وربما يعود ذلك لوجود كثير من الغرباء وخصوصاً المغاربة الذين جاؤوا الحرم ودرسوا في مدارس القدس.

#### خامساً - الكتاب:

كان هذا النوع من التعليم الأولي منتشراً في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم أول مرة الكتاتيب، بشكل أو آخر، حين سمح لافتناء أسرى بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

بدأ انتشار الكتاتيب في الإسلام بطيئاً. وازداد الطلب على الكتاتيب في هدف تعليم الصغار القرآن الكريم وتحفيظه، ومع انتشار الفتوحات الإسلامية ازداد الطلب على الكتاتيب وأصبح الكتاب يعلم اللغة العربية لغير العرب. وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من بنى بيوت الكتاب ورتب الرجال فيها للتعليم والتأديب. وكان المعلم في المكتب يسمى معلم الصبيان أو معلم الكتاب أو الشيخ أو المؤدب. وبقي نظام الكتاب في منطقتنا حتى أواسط القرن العشرين.<sup>(٢)</sup>

وكان هناك نوعان من الكتاتيب: منها العامة وهي مجانية يصرف عليها أصحاب الجاه والثراء. ومنها الأهلية التي يتم التعليم فيها لقاء أجر.<sup>(٣)</sup>

#### ومن أهم الكتاتيب في العصر المملوكي:

##### الكتاتيب في دمشق:

١. كُتَاب أوقفته زوجة تنكز نائب دمشق حينها ضمن تربتها.
٢. كُتَاب الأيتام في باب قلعة دمشق الذي أوقفه الطواشي ظهير الدين مختار البكنسي الخزندار. وبذلك نرى أن للنساء في العصر المملوكي دورهن في الحركة التعليمية وفي إنشاء المدارس، وقد ذكرنا في بحثنا من هؤلاء النساء خوند تتر الحجازية وزوجة تنكز نائب الشام، وأغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية وأصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه وغيرهن كثير.

#### سابعاً - انحسار النهضة العلمية:

ارتبطت النهضة العلمية في عصر المماليك بالازدهار الاقتصادي فقد انتشر الثراء بين طبقات المجتمع، ورافق ذلك فترة هدوء سلمي في المنطقة، وأمان داخلي سمح بالتنقل والسفر سواء في طلب

١. العارف (عارف محمد) تاريخ القدس من أقدم الأزمنة إلى اليوم: دار أسمر باريس ٢٠٠٥. ص ٧٦. ١٠٠.

٢. النهار: شمس الحضارة العربية الإسلامية ص ١٦٥.

٣. حطيط: تاريخ المماليك: ص ٢٢١. ٢٢٢.

العلم، أو نشر العلم بتقديم الناتج العلمي للعلماء إلى السلاطين والحكام للحصول على المكافآت والوظائف.

ورأينا أن السلاطين وكبار الأمراء والأثرياء وحتى النساء ساهموا جميعاً في بناء المدارس وتنشيطها. كان من أهم عوامل نجاح المدارس، ربط الأوقاف التابعة لها التي تكفي لمصاريف المدرسة الإدارية وصيانة الأبنية ودفع مبالغ للطلاب في أكثر الأحيان. كانت تلك الأوقاف أحياناً تفيض كثيراً عن متطلبات المدرسة. وكانت هذه الأوقاف لا ترتبط بالضرورة بموقع المدرسة الجغرافي، فبعض المدارس في مصر كان من أوقافها عقارات في شمال سورية على سبيل المثال أو في الصعيد، وكان الناظر يسافر كل عام لتحصيل عائدات الوقف. وكان ناظر المدرسة هو المسؤول عن أوقافها وعن الصرف عليها، وأصبحت تلك الوظيفة متوارثة جيلاً عن جيل ولأجيال طويلة.

إلا أن التهديم الكبير الذي حصل نتيجة الحروب الصليبية والهجمة المغولية التي هدمت الكثير من المدارس وقتلت الكثير من المدرسين. يضاف إلى ذلك الهزات الأرضية الكبيرة التي حصلت في المنطقة تلك الفترة والتي هدمت الكثير وقتلت خلقاً كثيراً، منهم من المدرسين والعلماء. فرغم الترميمات التي حصلت خلال فترة الازدهار الاقتصادي، إلا أن الأثر بقي ظاهراً خصوصاً للمدارس التي لم يكن لها أوقاف أو كانت أوقافها قليلة.

وأسباب اختلال المدارس يعود لأمر كثيرة منها:

. تبدل الحالة السياسية، فقل الدعم المادي والاهتمام بالمدرسة. وهو ما حصل في أواخر عهد محمد بن قلاوون ومن بعده.<sup>(١)</sup>

. انقراض الناظرين على المدرسة واستخدامها في غير أغراض الدراسة:

فالمدرسة السنقرية عندما انقرض ناظروها جرى استخدامها لمبيت البريدية إضافة لكونها مدرسة. (ولم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرية الواقف إلى سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م، ثم انقرضوا. وهي من المدارس المليحة، وكنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام وغيرها لا ينزلون إلا في هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم، وقد بطل ذلك من سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م)<sup>(٢)</sup>

. تسلط السلاطين المتنفيين على المدرسة كما حصل للمدرسة الحجازية التي كانت من المدارس

المعدودة، ولا يتولى النظر فيها إلا الأمراء الأكابر، صار يليها الخدام وغيرهم واستخدمت سجنًا،<sup>(٣)</sup> . تبدل النفوس وظهور الطمع مما أفسد نظام الأوقاف: إذ النعمة أصبحت نقمة: فبعد أن تهالك الناس لجمع المال دون رادع من ضمير، وضعفت النفوس والذمم جاءت طبقة من القضاة وناظري المدارس أكلت الأوقاف بالاستبدال وبالتصرف وسرقة متحصل الأوقاف. إذ استولت على المدارس أيدي المتشبهين بالفقهاء فأظهروا فيها أنواع المفاسد.

١. المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٣٨١.

٢. المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٣٩٠.

٣. المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٣٨٢ . ٣٨٣.

. وتبعت المدارس الانحطاط العام للسلطنة المملوكية التي اتجهت نحو الضعف والانحطاط، نتيجة الصراع على السلطة، وتنصيب أولاد السلاطين الصغار سلاطين دمی، يتبارون من خلفهم للوصول إلى الجاه والمال والسلطان. وتعتبر المئة سنة الأخيرة من حكم المماليك فترة ضعف وركاکة الأدب العربي.

## الفصل التاسع

### كيف احتفظ الممالك بالسلطة

## أولاً . السلطة في العصر المملوكي:

كان الحكم المملوكي يعتمد على الطبقية اعتماداً مطلقاً استمر منذ نشوء الدولة وحتى انحلالها، اعتمد على طبقتين رئيسيتين الأولى السلطان وينضم إليه جهازه الحاكم بجناحيه العسكري والمدني، والثاني الرعية من أبناء الدولة في مصر وبلاد الشام، وانعزلت كل طبقة عن الأخرى انعزالاً كرسه وقائع الأيام وانعزال الحكام وتميزهم عرقياً وثقافياً وتكويناً. وسارت كل طبقة مسيرتها وعاشت حياتها مستقلة. الأولى لها كل المميزات والثروات ولها الحكم والإدارة، والثانية عليها الإنتاج ودفع الضرائب والخضوع المتكرر للظلم والضرائب الباهظة والابتزاز. وكان لكل طبقة من الطبقتين طبقات ثانوية ميزت بينهم اجتماعياً واقتصادياً. (١)

وكان رسوخ دولة المماليك واحتفاظهم بالسلطة مدة طويلة يعود لأسباب خارجية ودولية. ولأسباب داخلية تنظيمية.

أما الأسباب الداخلية: فأهمها استمرارهم لضم بلاد الشام إلى مصر، حيث كانت بلاد الشام خط دفاع هام بالنسبة إليهم، ومسرح حروب. إذ من العسير على سورية أن تخضع خضوعاً تاماً؛ لكونها ميدان حروب العالم. ولم تستطع في معظم تاريخها أن تسير على خطة سياسية مستقلة متحدة، ولم يفكر أحد مطلقاً في جعل هذا الحكم في أيدي أبناء البلاد.

وكان البدو يحمون الصحراء ويعيشون حياتهم المنعزلة الخاصة التي جعلت من ترحالهم الدائم سمة حياتهم الخاصة ومنعتهم من الاستقرار في أي مكان دائم.

إضافة إلى ذلك ضم المماليك المدن المقدسة لأسباب نفسية دينية جعلتهم حامين للمقدسات الإسلامية. كما أضافوا وأخضعوا بلاد الأرمن إتماماً للسدود الأمنية.

كما اتبعوا سياسة خارجية اعتمدت أسلوب (عدو عدوك صديقك)، فاتفقوا مع البيزنطيين ومع القبيلة الذهبية من التتار، وأجروا اتفاقات مع دول مدن إيطاليا وجزر البحر الأبيض، وبلغت هذه الاتفاقات روما. وهو ما يفسر سبب جعل سيادة مصر المملوكية طويلة الأمد. (٢)

والسياسة في الدول الإسلامية مرتبطة بالشرعية، فيقول المقرئ عن أحكام السياسة: (اعلم أن الناس في زمننا، بل ومنذ عصر الدولة التركية بديار مصر والشام، يرون أن:

**الأحكام على قسمين:** حكم الشرع، وحكم السياسة. ولهذه الجملة شرح، فالشرعية هي ما شرع الله تعالى من الدين وأمر به، كالصلاة والصيام والحج وسائر أعمال البر أما السياسة ويقال: ساس الأمر

١. قاسم (قاسم عبده) عصر سلاطين المماليك: التاريخ السياسي والاجتماعي: ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٨ ص ١٢٠١١ وسيشار إليه باسم قاسم : عصر سلاطين المماليك.

٢. موير : تاريخ دولة المماليك ص ٢٠٥ . ٢٠٦.

سياسة، بمعنى قام به. وهو سائس من قوم ساسة وسوس، وسوسة القوم. جعلوه يسوسهم، والسوس الطبع والخلق.

فيقال: الفصاحة من سوسه، الكرم من سوسه، أي من طبيعه. فهذا أصل وضع السياسة في اللغة. ثم رُسِمَتْ بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال. والسياسة نوعان: سياسة عادلة تُخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الأحكام الشرعية، علمها من علمها، وجهلها من جهلها. وقد صنف الناس في السياسة الشرعية كتباً متعدّدة. والنوع الآخر سياسة ظالمة، فالشريعة تحرّمها وليس ما يقوله أهل زماننا في شيء من هذا، وإنما هي كلمة مُغلّية، أصلها ياسه، فحرّفها أهل مصر وزادوا بأولها سينا فقالوا سياسة، وأدخلوا عليها الألف واللام فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية، وما الأمر فيها إلا ما قلت لك.

واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام. وذلك أن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان وصارت له دولة، قرّر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب، سمّاه (ياسه)، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسه، ولما تم وضعه كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ، وجعله شريعة لقومه فالتمسوه بعده حتى قطع الله دابرهم. وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره، فصار الياسه حكماً بئاً بقي في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه).<sup>(١)</sup>

قام نظام الممالك الرسمي على أساس الحكم المشترك لنخبتين: كان الوجهاء المحليون أوصياء على قيم المجتمع الإسلامي، وأنيط بهم مسؤولية المسائل المحلية، بينما أنيط بالممالك مهام الدفاع وتنظيم الاقتصاد المدني، وخلق هذا التركيب المؤلف من قوة الممالك القمعية والاقتصادية، ومن مهارات التجار الاجتماعية والعلماء الذين كانوا متعاونين أحياناً ومتعادين أحياناً أخرى أسس السلطة المملوكية. واستند الممالك في تثبيت سلطتهم لمؤسسات وهيئات اجتماعية ساندتهم في ذلك.

كان لاستيلاء الممالك على السلطة واحتكارهم لها أثر كبير على نظام الحكم في فترة الممالك التي استمرت طويلاً، فقد شغل الممالك دوراً مركزياً في نظام الحكم والدولة المملوكية، استقرت هذه الطبقة في القلعة في القاهرة كمركز رئيس للنظام، تقوّعت فيها وانعزلت عن محيطها وعن العامة بدعوى السلامة والحماية، وشكلت طبقة غنية جداً من الجند امتلكت السلطة العسكرية القمعية والثروة التي تعتبر سلطة لا تقل عن القوة العسكرية، استأثرت بالمنافع والثروات لدرجة كبيرة جداً، فعلى سبيل المثال كان دخل الأمراء وأسرهم كبير جداً، فبينما كان العامل أو الموظف الديني الصغير يكسب درهمين في اليوم، أي نحو سبعمائة وثلاثين درهماً في السنة، كان دخل الأمير في القرن الرابع عشر يصل إلى نصف المليون أو المليون درهم في السنة، أي ما يساوي الدخل السنوي لألفي عامل، وكان دخل الأمراء الكبار يساوي دخل

١. المقرئزي: الخطط، ج ٢ ص ٢٢٠ .. ٢٢١.



السكان العاملين جميعاً في مدينتهم، ولم تظهر ثروات الأمراء إلا من المصادرات أو اكتشاف الثروات المخبوءة بعد وفاتهم.

تبع ذلك تشكيل طبقة من الجند والخدم والكتاب والموظفين والشيخ وأسرهم، ممن والى السلطة من الشعب، عن طريق الزواج تارة وعن طريق القبول بالمنافع المشتركة تارة أخرى، لتساهم هذه الطبقة في حماية النظام من جهة، وفي صراعات النظام الداخلية من جهة أخرى. فطبقة المماليك تم إحضارهم في فترة دولة المماليك البحرية من مناطق آسيا من القبائل التركية والتترية وأسكنوا في جزيرة الروضة فسموا بالمماليك البحرية، وشكلوا دولتهم التي أخذت اسمهم.

ثم جاءت الفترة الثانية من العصر المملوكي حيث جرى إحضار مماليك من الجركس وأسكنوا في أبراج في القلعة فسموا بالمماليك البرجية.

وكان الأهل لا يجدون غضاضة من بيع أولادهم للنخاسين الذين يعدوهم بحياة رغيدة ومستقبل عظيم بدلاً من حياة البؤس التي يعيشونها، وكان لهؤلاء النخاسين شهرة واسعة، وكان هؤلاء العبيد المماليك ينتسبون إليهم. وزاد في تدفق العبيد في معظم فترة المماليك كثرة الحروب مثل الحروب الصليبية وحروب التتار، وحروب قبائل البدو في الشرق والغرب. وأكثر الأيوبيون من شراء العبيد وكذلك فعل المماليك. واختلفت أسعار العبيد والجواري بين سعر بخس وأسعار باهظة.<sup>(١)</sup>

كان المماليك يرسلون للتعليم في الطباغ بعد إسلامهم فيتعلمون المبادئ الدينية والقرآن الكريم، والفلسفة والفقه والعلوم. ثم يجري تدريبهم عسكرياً ليتقنوا الفروسية واستعمال الأسلحة، ليكونوا جديرين بالوظائف السامية وولاية الأمور. وتبقى رابطتهم مع أستاذهم، أي سيدهم، رابطة قوية تستمر حتى بعد وفاته ولأجيال بعدها، وإليه ينتسبون، وكثير منهم كان ينتسب لتاجر العبيد ولمالكهم بأن واحد.<sup>(٢)</sup>

وكان المماليك يستخدمون في الجيش وفي حراسة سيدهم. وبعد استيلائهم على السلطة، ولشعورهم بأهميتهم وتقوقهم، أصبحوا متصفين بالوقاحة وشراسة الأخلاق وكثرة هياجهم وثوراتهم وبطشهم بالجمهور وتعذيبهم للناس بوحشية كبيرة، وتخريبهم للبيوت والمنشآت، واغتصابهم للحريم والأموال، وكانوا ينغمسون بشهواتهم.

وهم يشكلون أحزاباً وفاقاً وحلقات حسب انتسابهم، ولكنهم أحياناً يثورون على سيدهم، الذي يصبح عاجزاً عن كبح جماحهم وفي كثير من الأحوال يقتلونه، إذ لا انتماء لهم.

وكان المماليك في الفترة الأولى محصورين في القلعة أو في المعسكرات العسكرية، إلى أن سمح لهم بالسكنى في القاهرة والمدن فكانوا أكثر فوضى وأذى للسكان من جميع النواحي.

وكان اعتماد المماليك للاحتفاظ بالسلطة على الجيش سواء في القمع العسكري أو في فرض السلطة واستلام أصحاب السيوف لكافة الوظائف الهامة، سواء العسكرية منها أو المدنية. والفصل بين السلطة العسكرية التي تتبع السلطان عن السلطة المدنية التي تتبع النائب المحلي أو الوالي. واختصاص وعدم

١. موير : تاريخ دولة المماليك: ص ٣٨ . ٣٩.

٢. المصدر السابق نفسه والصفحات.

تبعية نائب القلعة في النيابات للنائب بل للسلطان مباشرة مكلفاً بالتجسس على النائب والموظفين والأمراء.

وكان إعطاء الاقتطاعات لأرباب السيوف تستعمل وسيلة ضغط وسيطرة عليهم أيضاً. كذلك اعتمادهم على الوحدة العسكرية المختارة التي تتمثل بحرس السلطان، وهي من ممتلكاته الخاصة غالباً وممن يثق بهم السلطان. وإعطائهم ميزات كبيرة واختصاصات كثيرة. وقيامهم بحصر السلاح بيد السلطة، فقد كان يمنع على العامة والموظفين المدنيين من ركوب الخيل الذي كان يعد سلاحاً هاماً. ويمنع تداول الأسلحة غير الشخصية العادية ومصادرتها من الجمهور عند أي أزمة داخلية أو خارجية.

وكانت حرمة السلطان الناصر محمد ومهابته قد تجاوزت الحد، حتى إن الأمراء إذا وقفوا بالخدمة لا يجسر أحد منهم أن يتحدث مع رفيقه بكلمة واحدة، ولا يلتفت نحوه، خوفاً من مراقبة السلطان له. وكان لا يجسر أن يجتمع مع خشداشه في نزهة ولا غيرها، من رمي الشباب ونحوه، فإذا بلغه اجتماع أحد مع آخر أسر ذلك في نفسه، وأمسكه أو نفاه.

وخرب السلطان الناصر عدة مرار مرامي الشباب، ومنع المماليك من الرمي، وأغلق حوانيت البندقانيين وصناع قسي الشباب وقسي البندق، ونادى من عمل قوس بندق شنق. وخرب مرة دكاكينهم، من أجل أن مملوكاً رمى بالبندق فوقعت في عين امرأة قلعتها.

و من أسباب بقاء المماليك في السلطة إظهارهم صنوف القوة والبطش: سواء بإظهار القوة العسكرية بالعروض العسكرية أو الظهور العلني في المناسبات، مثل فتح الترع، والمناسبات التي تسمى الهيئات. أو بالشنق العلني أو وسائل الإعدام الوحشية العلنية مثل البسمرة أو التنصيف أو قطع الأعضاء وتحميلها للمحكوم عليه، وغير ذلك من طرق إرهابية.

وهناك ميزتان للمماليك: إحداهما أنهم كانوا طبقة مثقفة مقارنة بسواد الشعب تلقت تعليماً رفيعاً في الحلقة، إضافة للتدريبات العسكرية القاسية، وكانوا يسيطرون على معظم الوظائف الحساسة في الدولة. ولم يكن يستطيع منافستهم سوى الأقباط الذين أخذوا معظم الوظائف الإدارية ولكنهم لم يستطيعوا تشكيل طبقة مناهضة على الإطلاق، وكانت هناك فئة أخرى كان بإمكانها مناهضتهم، تلك هي الفئة الدينية التي تبوأ المناصب الدينية والقضاء، الذي كان له كلمة مسموعة فيه، وحافظ في كثير من المناسبات على حياده، إلا أن القضاة كانوا دوماً خاضعين إدارياً للسلطان الذي يستطيع عزل أي قاض أو رجل دين.

والميزة الثانية للمماليك هي عدم عنايتهم بالوراثة للعرش في معظم الحالات؛ فكان المملوك المحبوب يخلف سيده في كثير من المناسبات، أو المملوك الذي تأمر على سيده فقتله، عندها له الحق باستلام السلطة من بعده. أو المملوك الأشد قوة والأقوى نفوذاً والأكثر مكرراً بل أكثرهم شذوذاً ووحشية. وكانت الوراثة في السلطة محصورة وقليلة، وكان الناصر محمد فقط هو الوحيد الذي استمر الحكم في أسرته طويلاً، فشمّل عدداً من أبنائه وأحفاده. ويبقى سر تعلق المماليك بمواليهم، الثروة الكبيرة التي استحوز عليها أساتذتهم، التي انتزعت من أيدي الناس، والإقطاعات التي كانوا يملكونها ويتداولونها، والقصور

الفخمة والممتلكات والتجارة التي امتلكوها، ومع أن كل ذلك يتصف بالبقاء، ولكنه لم يتصف على الإطلاق بالشبوت. (١)

فيقول المستشرق بولياك: (إن النظام الإقطاعي للممالك كان ذا أهمية عظيمة لا لأنه استمر ٢٦٧ عاماً في الدولة صاحبة القيادة في العالم العربي، حيث ترك علامات بارزة في التطور الاجتماعي والاقتصادي والنفسي لمصر وسوريا وفلسطين، بل لأنه كان يمثل نتاج امتزاج ثلاثة أنظمة إقطاعية هي: المغولي والإسلامي والأوروبي الوسيط). (٢)

كانت قوة الممالك الاقتصادية وسيلة كبيرة للاحتفاظ بالسلطة إضافة إلى قوتهم العسكرية التي كانت تعتمد القمع في الخلافات والانشقاقات الداخلية والثورات. كذلك كان اعتمادهم أيضاً على قوة الشرطة التي كان يترأسها الوالي، وكان الوالي وقواته أدوات قمع وتتبع وتنفيذ في سائر المشاكل والطوارئ الداخلية، ومنع الفتن والثورات الشعبية واستئصال رؤوسها.

كذلك اعتمد الممالك داخلياً وخارجياً على شبكة من الجواسيس، اعتمدت العنصر النسائي والذكوري، وكانت الجواري عنصراً هاماً في هذا الجهاز الذي يرتبط برئيس الديوان وحاجب الحجاب. وكان السلطان يشرف شخصياً على هذا الجهاز وعلى إعداد أفرادها، وكان يشترك شخصياً في اختيار أشخاصه وملبوس من يرسل بمهمة تجسسية خارجية. واعتمد الممالك على استخدام أكثر من نوع من المخابرات والجواسيس، فإضافة لما ذكرنا فقد اعتمدوا على عمال البريد الذين يقدمون تقاريرهم الدورية الدائمة عن أحوال ومسيرة الموظفين الذين لهم ارتباط بالبريد ومسيره. كما اعتمدوا على الفصل بين النائب ونائب القلعة الذي يكون من مهامه التجسس على النائب والموظفين والأمراء. كما اعتمدوا على تشجيع مختلف أنواع الموظفين لتقديم التقارير عن الآخرين من رجال الدولة، سواء العسكريين أو المدنيين.

## ثانياً - وسائل الحفاظ على السلطة :

١ - اعتمد الحكم المملوكي للحفاظ على السلطة على طبقة التجار التي كانت تمثل قوة اقتصادية كبيرة لها دورها في السيطرة على الشعب بالسيطرة على قوته وتحكمها بالأسعار، سواء لخدمة أغراضها في جمع الثروة، أو خدمة للسلطان والأمراء الذين كانوا شركاء كبار في هذه اللعبة الاقتصادية السياسية، وقد بلغت ثروات التجار آفاقاً لم يخرقها سوى السلاطين وكبار الأمراء، وامتلكوا العقارات والمزارع والقصور، فقد قدر الباحثون ثروات التجار لتصل ما بين مائة إلى أربع مائة ألف دينار إضافة للسلع الأخرى والعقارات، ونقل أحد الزوار الأوربيين الذين زاروا القاهرة ويدعى «ثيود» في نهاية عصر الممالك أن منتي تاجر كان عندهم ثروة تقدر بمليون دينار ذهبي، وأن ألفي تاجر كانت ثروة الواحد منهم وسطياً مائة ألف سيراف ذهبي وهو يتجاوز ثروات الأمراء. وشاهدنا الوحيد الأكيد على ثراء التجار، تلك

١. موير : تاريخ دولة الممالك: ص ٢٠٤ . ٢٠٥.

٢. الحجي ( حياة ناصر ) بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة الممالك. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثالثة والعشرون الرسالة ١٨٩ لعام ٢٠٠٢-٢٠٠٣ ص ١٩.

المصادر التي تجري لبعضهم والتي تأتي بالأرقام الحقيقية لثرواتهم. تلك الثروات التي امتلكها التجار، تحولت لقوة اجتماعية لها دورها السياسي. وهذا لم يمنع أحياناً حين يبلغ طمعهم حد بلوغ الانفجار لدى العامة من تدخل السلطان لخفض الأسعار، ومنع الاحتكار بل ومصادرة المحتكرين، استرضاء للعامة ومنعاً لتطور الغليان من أن يكون ثورة عارمة.<sup>(١)</sup>

وكان لتجار الكارم: مركز خاص في بناء الدولة الاقتصادي والسياسي، واستقرار السلطنة المملوكية، فإضافة لثرائهم المميز بين التجار وتشابك العلاقات بينهم وبين السلطان والأمراء الذين هم غالباً شركاء لهم. كانوا على صلات مع العالم الخارجي والدول الأخرى في الشرق مثل الهند وسيلان وفارس، ومع العالم الغربي مثل دول المدن الإيطالية وجزر البحر المتوسط وأوروبا. وكانوا خاضعين للمعاهدات التجارية وحالات الحرب والمهادنات مع الدول المعادية. وكان لهم دور مصرفي كبير سواء في تحويل العملات أو تحديد سعر الصرف، كذلك في إعطاء القروض التي كانت تمول العمليات التجارية الكبيرة وخصوصاً ذات الصلة الدولية. وكانوا يشكلون مقرات استثمار للأثرياء من التجار والأمراء والأثرياء من الإداريين أو العلماء، فقد وظف أحد الأمراء مبلغاً وصل إلى مائة ألف دينار في حملة إلى اليمن ولكنها فقدت في البحر. كما عملوا كصراف للرواتب في مكاتب الدولة، ويعملون في مسائل الدولة كدفع غرامات موظفي دمشق الذين نقلوا إلى القاهرة.

وكانت هناك إيداعات متروكة للحماية، وأخرى متروكة للاستثمار، وشغل الصرافون دوراً هاماً في تنفيذ سياسة الممالك المالية ودعم الأسعار المالية وجمع وتوزيع النقود القديمة والجديدة. وكان من أهم معاملاتهم المالية عمليات الإقراض. فقد قدموا القروض حتى شملت السلاطين، فكان السلطان الناصر محمد مديناً لتجار من أوروبا بمبلغ ستة عشر ألفاً من الدنانير سددها بتحويل على تجار الكارم. وقام تجار الكارم أيضاً بتمويل الحملات العسكرية مثل استدانة السلطان برقوق مبلغ مائة ألف دينار لتغطية مصاريف إحدى حملاته العسكرية، وتجاوز إقراضهم للمتعاملين المحليين لإقراض الأجانب، فقد أعطوا قرضاً لسلطان مالي، ودعموا حاكم اليمن لدفع فديته البالغة أربع مائة ألف دينار ومائة ألف دينار لسفره عائداً لليمن تم تسديدها فيما بعد. وقد شارك التجار والأثرياء في بعض الأوقات تجار الكارمية في مثل تلك العمليات المصرفية. وكانت تجري عمليات ابتزاز من السلاطين والأمراء في تسديد القروض التي يجري إلغاؤها أو تسديدها بالمصادر أو فرض تسديدها بعملات أقل قيمة من قيمتها الأصلية. وكانوا أحياناً يقدمون الرشوة للسلطان أو للأمراء أو الإداريين لتسيير أمورهم.<sup>(٢)</sup>

وكان المقرضون يحصلون على فوائد عالية، رغم أن الفائدة على الإقراض محرمة في الشريعة الإسلامية، وكان قد اشترك نائب الكرك والتجار وابن هلال الدولة والنشو على شراء الخلع التي يوزعها السلطان ويقومون ببيعها للسلطان بفائدة النصف، أي خمسين بالمائة، فتراكم من جراء ذلك ديون على

١. لايبديوس : مدن الشام ص ١٨٧ . ١٨٨ .

٢. لايبديوس : مدن الشام ص ١٩١ . ١٩٣ .

السلطان بلغت مائة وخمسين ألف درهم وكلها فوائد، وهي من أسباب نكبة هؤلاء واستعادة الأموال منهم.<sup>(١)</sup>

٢ - اعتمدت سلطة الممالك في البقاء بالسلطة على أرباب الوظائف الدينية: إذ كان العلماء الصفوة الإدارية والاجتماعية والدينية؛ لأن الشريعة الإسلامية لم تكن مختصة بالعبادة بل نظمت كل شؤون الحياة بمختلف مظاهرها الحياتية، من الشؤون الدينية والعائلية والتجارية والتعليمية والإدارية والسياسية. وحتى تصبح تصرفات السلطة المملوكية شرعية اعتمدوا على الفقهاء والعلماء لإصدار الفتاوى والتفويضات لإصباح تلك الشرعية. فكما نظم العلماء القضايا الدينية والمدنية نظموا الأعمال السياسية والتجارية والإدارية، وكان للمحتسب وهو من أرباب المهن الدينية التأثير الكبير في الشؤون الحياتية والاقتصادية وكان دوره في الرقابة والتفتيش ذو فعالية عالية.

وكان العلماء يشكلون طبقة متداخلة مع الطبقات الأخرى، مما جعلهم يتبوؤون دوراً حاسماً في الحياة في العصر المملوكي وكثيراً ما تخالطوا مع الأمراء بالزواج والعلاقات الأسرية. وقام بعضهم بالتجارة والانخراط في الحياة الاقتصادية، وكان اتصالهم بالتجار وثيقاً إذ كان من بين عينة تم دراستها تقارب الستمائة تاجر، كان فيهم مائتان وخمس وعشرون عالماً دينياً. وكثير من أبناء هؤلاء العلماء وصلوا لمراكز وظيفية إدارية كبرى. وكان لهؤلاء العلماء والمفتين دور كبير في استقرار الحكم المملوكي، بإصدار الفتاوى التي إنما تصدر عن مفتي السلطان بدون أي وازع من دين أو ضمير ويثبتون فكرة الولاء للحاكم، بإتباع النظرة الفقهية التي تقول بوجوب الطاعة لأولي الأمر.

كذلك سيطروا على المدارس والتعليم، وما نتج عن ذلك من ترسيخ للمبادئ الإسلامية في الخضوع في كثير من الحالات لأولي الأمر. وشكلوا مع التجار والموظفين والممالك مع المدارس كحماة لها سنداً سياسياً للسلطة المملوكية.<sup>(٢)</sup>

٣ - اعتمد الممالك أيضاً على الذميين: باعتبارهم المسيطرين على الأعمال الديوانية، وكانوا يشكلون العدد الأكبر في كثير من الوظائف الإدارية. وقد بلغ كثير منهم قمة تلك الوظائف، فأساء بعضهم استعمال نفوذه لتحقيق مكاسب مالية، وأساء بعضهم بالإجحاف على العامة وقسوة تصرفهم تجاههم، مما استدعى السلطان للتدخل إما بالمصادرة مثلما فعل السلطان على سبيل المثال مع ابن السلعوس، أو بطرد الذميين من الوظائف الإدارية حين تصل سوء تصرفاتهم لدرجة من العمومية والاتساع لتهدد بثورة شعبية عارمة. ونرى الطرد قد يكون للذميين في المؤسسات الإدارية، إما في مصر أو في سائر أنحاء السلطنة المملوكية.

٤ - استخدام الممالك وسيلة التعيين المحدد المدة: وإعادة التعيين كل عام. وسيلة لعدم استقرار الموظفين والأمراء في مواقعهم فترة طويلة ليقوموا بترتيب مراكز قوة خاصة بهم.

<sup>١</sup> . اليوسفي ( موسى بن محمد بن يحيى ) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر : ، تحقيق الدكتور أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦ ص ١٨٧ وإشار إليه باسم اليوسفي : نزهة الناظر .

<sup>٢</sup> . لايبديوس : مدن الشام ص ١٧٩ . ١٨١ .

٥ - استخدام الممالك مواد المعيشة للضغط الداخلي: إذ كان إلهاء العامة سياسة متبعة، فإن لم تكن الحروب الخارجية على كثرتها في ذلك الوقت فبالتوترات الداخلية أو افتعال الأزمات مثل رخص الفلوس أو احتكار مواد معيشية وارتفاع الأسعار التي كان السلاطين طرفاً في إحداثها. وفي فقد بعض مواد المعيشة، أو مصادرة السكان للخدمة العامة، أو فرض ضرائب باهظة. ومن وسائل السيطرة التي اتبعها الممالك، إعطاءهم الحاشية ظروفاً للاغتناء ولو بشكل غير مشروع للقبض عليهم عند ازدياد نفوذهم والبطش فيهم، سواء بالمصادرة أو الإبعاد أو السجن أو الإعدام بالوسائل الوحشية.

#### ٦ - توحيد صفوف الممالك ضد العدو المشترك :

فقد كان الممالك يوقعون خلافاتهم إذا داهمهم خطر خارجي مشترك و وقد رأينا خلال البحث نماذج كثيرة حول هذا لموضوع ،

#### ٧ - دور النيابات في الدفاع عن السلطة المملوكية وخصوصاً دور دمشق :

لم يحتفظ الممالك بقوى كبيرة في بلاد الشام خوف تمردهم على السلطة وإتفاق نواب الشام ضد السلطان ، بل كانت سياسة الممالك لسلامتهم الخاصة يقومون ببعثت القوات وتفريقها ، كذلك اتبعوا سياسة إرسال تجريدات من مصر لتنفيذ مهام معينة كرد إعتداء خارجي او القضاء على ثورة أو تمرد ، لا تلبث تلك التجريدات من أن تعود لمصر ، قاعدتها الأساسية .

ولعل إرسال قاتباي لدوداره يشبك بحملتين دفاعاً عن دولة الممالك خصوصاً أن قاتباي لم يكتف بإرسال دوداره بل أمر جميع نواب الشام للإنضواء تحت لوائه بما لديهم من جند وعتاد ، الا دليل على قيام دمشق وبلاد الشام والقوات المتواجدة فيها على قتلها بواجب الدفاع عن دولة الممالك <sup>(١)</sup>

. وحين قامت الفوضى السياسية بين سنة ٩٠١ وسنة ٩٠٦ هـ / ١٤٩٦ وسنة ١٥٠١ م وتحطمت معظم القوات المملوكية عند أسوار دمشق لجأ السلطان الغوري لإنشاء قوة عسكرية جديدة من الجلبان وأبقاها على مقربة منه ليستعملها عند الحاجة . وحينما أرادها أن تذهب للشام لقتال العثمانيين وزع قانصوه الغوري على الجلبان آلة الحرب ولباسها . إلا ان الجلبان تدافعوا للحصول على ما يرونه جيداً لهم دون الإلتفاف على ما يوزعه السلطان ، فكثر فسادهم وسببوا له قهراً كبيراً ، وبذل لهم الأموال الكثيرة . وعند وصول هذه القوات الى حلب فتك هؤلاء الجلبان بأهل حلب مما دعى السلطان لسحبهم . وهو مثال جيد على فساد الجيش المملوكي الذي يعد من أهم أسباب سقوط دولة الممالك <sup>(٢)</sup>.

<sup>١</sup> - (علي : دمشق بين عصر الممالك والعثمانيين : ص ٣٦٠ ، عبد التواب ( عبد الرحمن محمود ) قاتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٨ ص ١٤٥ - ١٤٦ )

<sup>٢</sup> - ( ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٠٠ وما بعدها و علي : دمشق بين عصر الممالك والعثمانيين : ص ٣٦٠ - ٣٦١ ، عبد التواب : قاتباي المحمودي ص ١٤٥ - ١٤٦ )

ولم يكن موقف الجلبان هو الموقف العسكري الوحيد المتخاذل لجيش للماليك , فقد تمرد ممالك نائب دمشق سيباي عليه , وتحصنوا بالجامع الأموي بسبب إختلافهم معه على المبلغ الذي سيصرف لهم قبل الحرب , فقد أراد سيباي ان يصرف لكل واحد منهم خمسين أشرفياً و فرساً أي أقل مما أنفق الغوري على الجلبان بثمانين أشرفياً , فرفضوا ذلك , وارادوا ايقاع فتنة وقصدوا النهب , ولما بلغ الأمر لسيباي أراد الإيقاع بهم فهربوا ثم توسط بين الطرفين جماعة وإتفقوا على مبلغ رضي فيه الطرفان . وأنفق السلطان طومان باي خمسون ديناراً على مماليكه المعينين مع الغزالي لتجريدة غزة , إلا أنهم رفضوها وطلبوا دفع مائة دينار , ومع ذلك لم يسافروا بل طلبوا ستة دنائير ثمن جمل وطلبات أخرى . وبعد أن دفع لهم ماطلبوا نادى المنادي بالسفر . ..

ولما حل شهر ذي القعدة أنفق لكل منهم ثلاثين ديناراً , فألقوها في وجهه . وقالوا لن نساfer حتى يقبض كل منهم مئة دينار , فرد عليهم السلطان : بأنكم أخذتم من السلطان الغوري مئة وثلاثين أشرفياً ولم تقاتلوا , ثم قال لهم لم يبق في الخزائن شيء , وأن العثمانيين سيقضون علينا وعليكم معاً ومع ذلك لم يلتفت أحد منهم الى قوله <sup>(١)</sup>.

---

<sup>١</sup> - ( ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦ , علبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ٤١٤ - ٤١٥ )

## الخاتمة

### تقويم الإدارة والفساد

### وانحلال السلطنة المملوكية

في هذه الدراسة تبين أن الإدارة في السلطنة المملوكية اتبعت نظاماً دقيقاً، وكان تنفيذ هذا النهج سليماً، وقد سارت الدولة سيراً حثيثاً في التقدم والثراء، وخاضت حروباً مصيرية شرسة كما رأينا، ورأينا حركة العمران التي لم تترك قطعة أرض بالمدن إلا عمرتها، وأن المساحات المزروعة نتيجة رعاية الدولة للزراعة وبناء السدود والترع والشعور أصبحت أضعاف العهود السابقة، وجرى التقدم في الحياة الاجتماعية وقدمت



الدولة كما رأينا الكثير من الخدمات الجيدة في مختلف مسارات الحياة، وشهد الشرق والغرب لدقة وقوة التنظيم الإداري في المملكة. مع حفاظها على قوة عسكرية رادعة وأمن داخلي قوي. (١)

واعتمدت الدولة المملوكية على موارد مالية كبيرة نتجت عن اقتصاد سليم اعتمد على صناعة قوية وزراعة متنوعة وتجارة عالمية سواء بالتصدير للمنتجات المحلية، أو التجارة والتتارنيت بين آسيا وأوروبا وأفريقية، إضافة لموارد ضريبية ومحلية كبيرة.

فقد كانت المرحلة الأولى للعصر المملوكي فترة إرساء لقواعد الاستقرار وقد امتدت من سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م إثر النصر في معركة عين جالوت مروراً بمعركة استرجاع عكا عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م وحتى عام ٧١٦ هـ / ١٣١٧ م حيث تم تحقيق السلام الدائم بعد انتهاء الحروب مع الصليبيين والتتار والتخلص من النزاعات الداخلية.

وعلى الرغم من التخفيضات الكبيرة في الضرائب التي أجريت نتيجة انتهاء حالة الحرب، بقي الوضع المالي الناتج عن سعر صرف وحدة النقد والثبات الدائم والطويل في قيمة الذهب والفضة، وفي أسعار المنتجات الغذائية الرئيسة مثل القمح والشعير والفول غير مستقر.

وكان التبادل التجاري بين المدن الشامية رائجاً ومربحاً من جهة، وبين القاهرة ودمشق من جهة أخرى، وصدرت بلاد الشام لمصر الزيت والصابون والشموع والفواكه والأغنام والخيول والحديد والخشب وأنتجت دمشق الأواني الخزفية والزجاج والمعادن والسلع القماشية الفاخرة، وكان التبادل يتم عبر الطريق البحري من مرفأى صيدا وبيروت، وفي الطريق البري عبر محطات الجمارك في قطية على الحدود الشامية المصرية التي كان دخلها من الجمارك يومياً ألف دينار، وقامت في القاهرة الأسواق الخاصة بالشوام، وما لبث أن انتقل الصناع والتجار الشاميون لمصر.

كذلك نشطت التجارة الخارجية عبر خط يتجه إلى بغداد وبلاد فارس في الشرق، وإلى الأناضول وموانئ البحر الأسود في الشمال، واتجهت القوافل أيضاً نحو أرمينيا. وعقد سلاطين المماليك معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية مثل المعاهدة مع شارل صاحب أنجو وألفونس أمير إشبيلية، وجيمس ملك أرجونة، وكذلك منذ عهد قلاوون وخلفائه تمت المعاهدات مع جنوه والبندقية التي حظيت بعدة امتيازات سهلت لها طرق التجارة مع المماليك. استمر الأمر كذلك حتى سقوط عكا إذ شرعت البابوية بانتقامها بحرب اقتصادية، فمنعت تصدير ما يمكن أن يستخدم في المعدات الحربية، مثل الحديد والخشب، والمواد الغذائية مثل الحبوب والزيتون لمصر. وساند القراصنة الأوروبيون والقبارصة في هذا الحصار بقيامهم بالقرصنة ضد التجارة مع الدولة المملوكية في البحر الأبيض. تلك الظروف أثرت على السوق في دولة المماليك وأدت لرفع أسعار المواد الغذائية التي تؤدي عادة لزعة الاستقرار الداخلي، والحالة النقدية صرفاً وإبدالاً عموماً. (٢)

١. عاشور : ممالكي ص ٣٦٦.

٢. ( محمد ) ( سامح عبد الرحمن فهمي ) القيم النقدية في الوثائق المملوكية . عصر المماليك البحرية : ، مكة المكرمة ١٩٨٤ ص ١٧ . ١٩ ، الذهبي الكامل ( منصور بن بعة ) كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية : تحقيق عبد الرحمن فهمي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٨ .

وبسبب انتقال الثقل العسكري المملوكي من دمشق إلى حلب، بسبب انتهاء الحروب، وقيام حلب بواجب الدفاع عن الحدود، أخذ الثقل التجاري ينتقل إليها، وأخذت حركة البناء تزداد فيها، وعلى العكس بدأت دمشق تتباطأ نتيجة ذلك ونتيجة وقوعها في قلب عواصف النزاعات الداخلية على السلطة خصوصاً بعد موت الناصر محمد بن قلاوون.<sup>(١)</sup>

إلا أن انتهاء مرحلة الحروب لم يكن عاملاً مساعداً في إبقاء هذا النظام على حسن سيره، فبعد هذه الفترة بدأ ارتقاء العرش يتم من سلاطين ضعاف أو صغار، وأصبحت الحاشية بقوة لم تلبث أن أجبت الصراعات بين أطرافها التي تتسابق على الغنائم، لدرجة أصبحت الحاشية تلجأ للقوة لحسم نزاعاتها، وأصبح السلاطين ألعوبة بأيديها، وكانت فترة حكم المماليك البحرية أقوى وأكثر التزاماً من فترة المماليك البرجية. وبدأت تلك المساوى تبدأ بالظهور من وفاة الناصر محمد وبداية حكم السلطان كتبغا (٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م). وازدادت كثيراً في عهد السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧ م) وأججها أكثر وصول السلطان برقوق للحكم (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م) نتيجة الصدام بين المماليك البحرية والمماليك البرجية.

### – أسباب انحطاط النظام المملوكي وانتهائه :

تعود تلك الأسباب لأسباب مباشرة ولأسباب غير مباشرة :

#### أولاً – الأسباب المباشرة :

العوامل المباشرة لسقوط الدولة المملوكية هي خيانة أمراء المماليك في بلاد الشام للسلطان الغوري، فقد كانت بلاد الشام امتداداً استراتيجياً للسلطة المملوكية ساهمت في حمايتها ونقل الصراعات الخارجية عموماً لأرضها، حيث كانت حروب الصليبيين والمغول في معظمها فيها. وقد بينا أن سلاطين المماليك كانوا يعولون الكثير على بلاد الشام ونوابها والأمراء فيها عند استلام سلطان جديد.

كما بينا بالوقت نفسه، أن بلاد الشام كانت ببعدها عن مركز السلطة بؤرة للتمرد والعصيان. عانت السلطة المملوكية الكثير من المتاعب التي تعود أسبابها لبلاد الشام جعلتها تخسر الكثير من الجنود والأموال والجهود، مما أضعف الاقتصاد المملوكي وأنهك السلاطين والدولة. وكانت بلاد الشام حرب استنزاف للسلطة، ولسنا هنا في معرض دراسة التفاصيل إلا أن تلك الحرب بدأت برفض المماليك القيمرية بالاعتراف بسلطة شجر الدر. ثم تحالف أمراء الشام مع الأيوبيين بوقوفهم إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي، وكانت بلاد الشام مأوى لأمراء المماليك الذين فروا إليها بعد قيام أيك بقتل أقطاي وهم بيبرس وقلاوون وبيسري وسنقر. حيث بقوا فيها ثلاث سنوات (٦٥٢ – ٦٥٥ هـ / ١٢٥٤ – ١٢٥٧ م).

١. (لايدوس : مدن الشام ص ٤١ - ٥٥).

ثم تتالت مشاكل بلاد الشام على السلطة المملوكية من النواب المماليك أنفسهم، فعلم الدين سنجر الحلبي ثار ضد بيبرس وشمس الدين أقوش البقرغلي ووطد سلطته في حلب متمرداً أيضاً على الملك الظاهر بيبرس.

وخرج شمس الدين سنقر والي الشام ممتعاً عن مبايعة السلطان قلاوون سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م وعندما شعر بالتهديد اتصل بالتتار للمساعدة. وتكاثرت مشاكل بلاد الشام إثر موت قلاوون وأثناء فترة حكم أسرته.

وكان سلالر وبيبرس الجاشنكير سبباً لإعلان السلطان ناصر بن محمد تنازله عن الحكم. والمشاكل التي سببها تعيين السلطان الناصر محمد لقراسنقر المنصوري نائباً على دمشق أدت لهرب قرا سنقر وأقوم الأفرم نائب طرابلس إلى التتار بسبب المماليك الأشرفية.

كما كان لتعيين تنكز نائباً لدمشق وإعطائه الصلاحيات الواسعة ممهداً لمحاولته العصيان وكانت سبباً لمقتله رغم مصاهرته المزوجة مع السلطان الناصر محمد.

وقام بيدمر الخوارزمي بشق عصا الطاعة مرتين في دمشق، الأولى بعهد السلطان صلاح الدين محمد بن حاجي، والثانية في عهد الأشرف شعبان.

وتتابعت تلك الاضطرابات في الدولة الجركسية فثار الأمير طشتمر الدودار سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م. وكانت بلاد الشام مسرحاً للنزاع بين الترك والجراكسة في عهد برقوق. ثم تجددت تلك الاضطرابات بعد وفاة برقوق في عهد ابنه فرج .

وبعد هجوم تيمورلنك ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج. ومن بعدهما ثار نائب حلب الأمير جكم. ثم انضم نائب الشام بوروز إلى نائب حلب شيخ وهاجما فرج قرب دمشق سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م وقتل فرج بعد مدة.

وكان أمراء بلاد الشام باشتراكهم مع أمراء من مصر سبباً في خلع أربعة سلاطين وهم :  
الأول : بركة خان الذي خلع بسبب خلاف وقع بينه وبين أمراء من مصر والشام.  
والثاني : السلطان كتبغا عندما استنار أمراء الشام بتعيين مملوكه أغرلو العادلي بدلاً عن أيبك الحموي، ولم يقدّم الهدايا إليهم عند زيارته دمشق على عادة السلاطين.

الثالث : بيبرس الجاشنكير لعدم رضا أمراء الشام عنه.

الرابع : السلطان علاء الدين كجك بن الناصر محمد، حيث قاموا بخلعه سنة ١٣٤١ م <sup>(١)</sup>.

وتتتابع تلك الحوادث في بلاد الشام ليكون خاتمتها السبب المباشر لسقوط دولة المماليك.  
فقد كانت أولى بوادر الخيانات هرب خشقدم شاد الشون للسلطان الغوري مع عشرة من ممالিকে إلى السلطان سليم وأخذ بتحريضه ضد الغوري مبيناً أفعاله ومظالمه للرعية، وأعطاه تفصيلاً كاملاً على أحوال

<sup>١</sup>. (عاشور : مصر والشام : ص ٢٣٠ - ٢٣١ )

الدولة وجيشها والموانئ البحرية، وهو الأمر الذي جعله السلطان سليم من أسباب هجومه على الغوري لإحقاق الحق ومنع الظلمة. وربما خشع هذا ساعد على إجراء الاتصالات العثمانية مع خاير بك وجانبردي الغزالي نائب حماة فيما بعد <sup>(١)</sup>.

ولعل أهم أسباب هزيمة المماليك في مرج دابق كانت خيانة خاير بك الذي كان السلطان محمد بن قاتباي قد أرسله رسولاً بعد موت والده عام ١٤٦٩ م إلى السلطان بايزيد الثاني في القسطنطينية ليعلمه بوفاة والده واستلامه السلطة. وربما كانت تلك السفارة أول خيوط المؤامرة والخيانة التي كانت من خاير بك <sup>(٢)</sup>.

وظهرت خيانة خاير بك نائب حلب بإرساله رسالة تطمين للسلطان الغوري بخصوص نوايا السلطان العثماني الذي كان يجري الاستعدادات لاحتلال الدولة المملوكية، مبيناً أن الأخبار الواصلة للسلطان الغوري غير صحيحة، وأن السلطان سليم إنما يجري هذه الاستعدادات لمحاربة الشاه إسماعيل الصفوي <sup>(٣)</sup> ولم يصدق السلطان الغوري رسالة خاير بك بل استمر في استعداداته. وحين كان التأهب لمعركة الريدانية وصلت رسالة أخرى من خاير بك مرفقة برسالة من السلطان سليم تطالب بالتعايش السلمي محملة بالتعابير الودية والمحبة. وعندما بدأت معركة مرج دابق كشف خاير بك النقاب عن خيائته فأشاع بين الجند بأن السلطان يأمرهم بعدم التقدم حتى صدور أوامر أخرى، ثم لم يلبث أن أشاع بأن السلطان الغوري خرّ قتيلاً، وذلك قبل موته الفعلي، وانسحب من ميدان المعركة مسبباً انهيار الجيش المملوكي وتسارعه للفرار من المعركة التي لم يستطع الغوري وقف فرار الجند فمات قهراً. وقد لقب السلطان سليم الثاني خاير بك باسم خاين بك، لأن الخيانة مرفوضة من الجميع <sup>(٤)</sup>.

كما شارك في الخيانة نائب حماة جانبردي الذي كانت له مراسلات في القسطنطينية مع السلطان العثماني مثل خاير بك.

وقد التحق خاير بك وجانبردي الغزالي بالسلطان العثماني بعد معركة مرج دابق. وكانا من المحرضين للسلطان على شق طومان باي، بعد وقوعه بالأسر نتيجة خيانة أحد مشايخ الأعراب واسمه حسن بن مرعي من أعراب مديرية البحيرة، الذي لجأ إليه طومان بأي طالباً حمايته، خصوصاً أنه كان قد أخرجه من السجن في عهد الغوري، فتنكر له وسلمه للعثمانيين <sup>(٥)</sup>.

## ثانياً - الأسباب غير المباشرة :

ويعود ذلك لعدة أسباب أهمها الفساد الإداري، والفساد العسكري والاقتصادي ثم الأخلاقي :

<sup>١</sup> ( ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٢٢٦ وج ٤ ص ١٨٤ ، الشلي : بلاد الشام ص ٢٤٨ و ٢٥١ )

<sup>٢</sup> ( ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٧١ - ٤٧٤ ، علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٣٨٠ - ٣٨١ ، عاشور : مصر والشام : ص ٣٦٨ - ٣٦٨ ، الشلي ص ٢٤٨ و ٢٥٠ )

<sup>٣</sup> ( ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢٤ وما بعدها ، عاشور : مصر والشام ص ٢٥٨ - ٢٥٩ )

<sup>٤</sup> ( ابن زنبيل ص ٣٠ ، عاشور : مصر والشام : ص ٢٦٩ - ٢٦١ ، الشلي : بلاد الشام ص ٢٥٩ - ٢٦٠ )

<sup>٥</sup> ( ابن زنبيل ص ١٠٦ ، عاشور : الأيوبيون والمماليك : ص ٢٦٣ الشلي : بلاد الشام ص ٢٦٤ )

## آ - فساد النظام الإداري :

بدأ النظام الإداري يفقد قوته تدريجياً، وبدأ نتيجة ضعف السلاطين، واضطرابهم لمسايرة الأمراء والوزراء والأتابكية بإعطائهم الأموال، وغض النظر عن الإساءات بل وإعطائهم صلاحيات واسعة هي من اختصاص السلاطين بالأساس ودون الرجوع إليهم ومن وزراء وأتابكية، أساء هؤلاء السلطة واستثمروا الأوضاع لمصلحتهم في سبيل الثراء الواسع، وفي سبيل إزاحة خصومهم ليستبدوا بالسلطة والثروة لأنفسهم وتابعيهم. وتكون سبباً لقوتهم مما يجعلهم يثبون على السلطان نفسه سواء بحجره أو عزله أو قتله. أدت الفوضى السياسية والنزاعات على السلطة إلى تدمير شامل استمر قرناً من الزمن أدى لانتهيار الدولة المملوكية. وأدت تلك النزاعات لانتهيار اقتصادي تام.

وكان لضعف مركز الوزارة سبب آخر للفساد الإداري فقد توزعت مناصب الوزير إلى ثلاث جهات، فأعطت الأتابكية مركزاً أعلى، وأصبح الإستاندار يتمتع بصلاحيات استباح فيها كل محرم، وتابع الوزير الذي أصبحت صلاحياته وإقطاعه أقل، يسير على طريق الفساد.

وسبب آخر لفساد النظام الإداري أن سمح السلاطين للحجاب بالقضاء بين الناس اعتباراً من عام ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م فساد الظلم والاعتصاب والتسلط على أرباب الاقتصاد.

ومما يلفت النظر في نظام الممالك عامة عدم الاستقرار في الوظائف، وكثرة العزل، والحبس والإعدام، ففي دراسة أجريت على (٢٢٠) موظفاً كبيراً في عصر المماليك، وُجد أن (٨٤) منهم أعدموا، و(٥) ماتوا في السجن، و(٨) قتلوا، و(٢) ماتا في الخارج بعد الخروج على السلطان الحاكم، و(١٦) ماتوا في قتال العدو، و(٨٨) ماتوا موتاً طبيعياً في أثناء توليهم الوظيفة، و(٦) أحيوا إلى النقا. (١) وكثرة التغيير والتولية والعزل هذه أصابت أكثر ما يكون نواب السلطنة، جرّاء خوف السلطان منهم في منافسته أو التآمر والانقلاب عليه.

وبتفحص مسيرة أربعة وثمانين نائباً من بلاد الشام تبين أن تسعة عشر منهم قاموا بثورات ضد السلطان، واعتلى العرش منهم اثنان، هما السلطان لاجين والسلطان شيخ، واستطاع اثنان منهم الفرار خارج البلاد وخمسة شملهم عفو السلاطين، وخمسة سجنوا ثم أطلق سراحهم وأربعة عشر أعدموا. (٢)

وقد فاقت الإسكندرية كل النيابات في تبديل نوابها، فرغم حداثة النيابة فقد تم تبديل أكثر من ثلاثة وثمانين نائباً خلال فترة ثمانية وخمسين عاماً سنة ٧٦٧ . ٨٢٥ هـ / ١٣٦٥ - ١٤٢٢، وفي كثير من الأحيان يجري تبديل النائب ثلاث مرات في السنة الواحدة، وغالباً ما كان يعود نائباً لعدة مرات متتالية المدة.

وعندما انقضت دولة المماليك البحرية، الأتراك وأولادهم. كانت مدّتهم مائة وستاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر وتسعة أيام، أولها يوم الخميس عاشر صفر سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م، وآخرها يوم الثلاثاء في الثامن عشر من شهر رمضان سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م.

١. حسن : تاريخ المماليك البحرية: ، ص ٢٦٢.

٢. ضومط : الدولة المملوكية ص ٧٨ . ٨٢.

وعَدَّتْهم أربعة وعشرون ذكراً، ما بين رجل وصبي، وامرأة واحدة، وأولهم امرأة هي شجر الدر وآخرهم صبي وهو الصالح حاجي.

بينما ضمت الدولة البرجية اثنين وعشرين سلطاناً خلال مدة مائة وتسع وثلاثين سنة هجرية من ٧٨٤ . ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ . ١٥١٦ م عدا سنتين، فترة عودة السلطان الصالح حاجي مرة ثانية ما بين ٧٩١ . ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ . ١٣٩٠ م. بما يعادل مائة وخمس وثلاثين سنة ميلادية ما بين ١٣٨٢ . ١٥١٧ م.

وتميزت مرحلة المماليك البرجية بسرعة تبدل الحكام، ونشوء ظاهرة السلاطين الصغار، ففي سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م حكم فيها أربعة سلاطين: حكم في أولها إلى يوم الإثنين ثامن المحرم الملك المؤيد شيخ، ثم ابنه، الملك المظفر أحمد إلى تاسع عشرين شعبان، ثم الملك الظاهر ططر إلى رابع ذي الحجة، ثم ابنه الملك الصالح محمد إلى آخرها وإلى شهر ربيع الآخر من سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م. وعلى الرغم من أن الثروة كانت ما تزال تغدق على المماليك، إلا أن توزيعها لم يكن عادلاً، وكانت سبباً يزيد في الصراع على السلطة والحكم. ولم يؤثر ذلك على الأخلاق العامة والنزاهة بين السكان حاكماً ومحكوماً فقط، بل أثرت على المنجزات العمرانية وعلى هيكلية المدن أيضاً، وقد وصف المقرئ حالة القاهرة بعد هذا الانحطاط الذي جاء بعد رفعة قائلاً:

(قد تقدم من الأخبار جملة تدل على عظم ما كان بمدينة فسطاط مصر من المباني وكثرتها، ثم الأسباب التي أوجبت خرابها، وآخر ما رأيت من الكتب التي صنف في خطط مصر كتاب «إيقاظ المتغفل واتعاط المتأمل» تأليف: القاضي الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيري رحمه الله، وقطع على (أي توقف عند) سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م:

فذكر من الأخطاط المشهورة بذاتها لهذه اثنتين وخمسين خطأ، ومن الحارات اثنتي عشرة حارة، ومن الأزقة المشهورة: ستة وثمانين زقاقاً، ومن الدروب المشهورة: ثلاثة وخمسين درباً، ومن الخوخ المشهورة: خمساً وعشرين خوخة، ومن الأسواق المشهورة: تسعة عشر سوقاً، ومن الخطط المشهورة بالدور: ثلاثة عشر خطأ، ومن الرحاب المشهورة: خمس عشرة رحبة، ومن العقبات المشهورة: إحدى عشرة عقبة، ومن الكيمان المسماة: ستة كيمان، ومن الأقباء: عشرة أقباء، ومن البرك: خمس برك، ومن السفائف: خمساً وستين سقيفة، ومن القياسر: سبع قياسر، ومن مطابخ السكر العامرة: ستة وستين مطبخاً، ومن الشوارع: ستة شوارع، ومن المحارس: عشرين محرساً، ومن الجوامع التي تقام فيها الجمعة بمصر، وظاهرها من الجزيرة، والقرافة: أربعة عشر جامعاً، ومن المساجد: أربع مائة وثمانين مسجداً، ومن المدارس: سبع عشرة مدرسة، ومن الزوايا: ثمانين زوايا، ومن الربط التي بمصر والقرافة: بضعاً وأربعين رباطاً، ومن الأحباس والأوقاف كثيراً، ومن الحمامات: بضعاً وسبعين حماماً، ومن الكنائس وديارات النصارى: ثلاثين ما بين دير وكنيسة، وقد باد أكثر ما ذكره ودثر).<sup>(١)</sup>

١ . المقرئ: الخطط ج ١ ص ٣٢٤.

ويمكن إجمال أسباب الفساد الإداري في الحكم المملوكي إلى ما يلي :

### أولاً - فساد السلاطين :

ويقال أن فساد السمكة يبدأ من رأسها، فقد انتقل الفساد من الحكام والأمراء وبتأثيرهم إلى الشعب، فابتلي المجتمع المصري في عصر المماليك بأمراض اجتماعية انتشرت بين مختلف فئاته، منها الرشوة التي عمت بين الحكام والمحكومين، يقول المقرئزي: (فلما كانت سلطنة العادل كتبغا... وجارت حاشية السلطان ومماليكه على الناس وطمعوا في أخذ الأموال والبراطيل والحمايات)<sup>(١)</sup>

ويروي أيضاً أنه في عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م قصد عدة من أطراف الناس باب الوزير للسعي في الوظائف بمال، فلم يرد أحداً وكثر طعن الأمراء فيه بسبب ذلك.<sup>(٢)</sup>

ويروي أن الأمير أرغون العلاني (بعث رجلاً إلى أحد الموظفين ومعه حيّاصة<sup>(٣)</sup>) من ذهب وأمره أن يقول عنه: «أنت ما بقيت تعطي شيئاً إلا ببرطيل، وهذه الحيّاصة ببرطيلك، خذها واقض شغل هذا الرجل»<sup>(٤)</sup>

وهكذا فإن الوظائف لم تكن تطل في كثير من الأحوال إلا ببرطيل (رشوة)، وانتشر ذلك بين أصحاب المناصب أنفسهم كما مر في قصة أرغون، وكان في أيام قراسنقر بحلب مستوفٍ على الأوقاف يهودي، فضايق الفقهاء وأهل الأوقاف وشدد عليهم، فشكوه إلى قراسنقر فعزله، إلا أن اليهودي سعى وبرطل، إلى أن تولى ثانية وعاملهم أشد من المرة الأولى.

وهذه الظاهرة تستلفت النظر إذ نرى في عصر انحطاط دولة المماليك أن كثيراً ممن يتولون منصباً عالياً، وزيراً أو ما دون كانوا يصادرون ويهانون ويسجنون ثم لم يلبثوا أن يعودوا للخدمة في وظائفهم نفسها، وإن لم يكن ذلك فبوظائف أعلى مرتبة.

وقد انتشرت طريقة بيع الوظائف إلى النواب أيضاً تحت سمع وموافقة السلطان متخذة صورة التلزييم. وقد جاء في مفاكهة الخلان في حوادث سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م: وفي يوم الإثنين سابع عشره فوض نائب الشام نيابة صفد لحاجب الحجاب يلبي بمبلغ عشرين ألف دينار، عوضاً عن نائبها مملوك السلطان أينال الخسيف، الذي كان أميراً كبيراً بحلب، وهو رفيق جاني بك الطويل دودار السلطان يومئذ بدمشق، فإنه قد استقر في مشدية شراب خاناة المقام الشريف بمصر، وكان السلطان رسم لنائب الشام بشنقه بسبب تسببه لموت نائب قلعة صفد، ثم سامحه وذلك بمقتضى مرسوم شريف إليه أن يقرر نيابتها من يقع اختياره عليه بالمبلغ المذكور من: سودون الطويل الذي كان في الحج الشريف، ومن يونس، ومن يلبي حاجب الحجاب، فإنه وقع الاختيار فيها على يلبي المذكور ودخل فيها، يقرر في الحجبوية مكان

١. المقرئزي : إغاثة الأمة : ، ص ٦١.

٢. المقرئزي : السلوك، الطبعة المصرية، ج ٢، ق ٣، ص: ٧٦٩.

٣. الحيّاصة هي الحزام، انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة (حيص).

٤. المقرئزي : الخطط ، الطبعة المصرية، ج ٢، ق ٣، ص: ٦٦٣.

من يقع اختياره عليه من الغائبين، بمبلغ عشرة آلاف دينار، لكونهم قد نقصوا فعلهم في التجريدة، ثم تبين أن إينال الخسیف المذكور استقر في الحجوبية الكبرى بدمشق وأن مملوك السلطان جاني بك قد استقر في الحجوبية الثانية بدمشق أيضاً، وفي إمرة مسيرة التي كانت بيد يوسف بن جلبان، وأطلق ابن جلبان المذكور من المقشرة على ستة آلاف دينار. <sup>(١)</sup>

ومن صور ثراء السلطان والحاشية مما ذكره المؤرخون، وهي كثيرة، مثل حفل زفاف ابن السلطان محمد بن قلاوون:

(في سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م دخل الملك آنوك بن السلطان محمد بن قلاوون على زوجته بنت الأمير سيف الدين بکتمر الساقی الناصري وكان شوارها (مهرها) بما قيمته ألف ألف دينار مصرية وكان حدثاً (احتفالاً) مهماً حمل فيه أكثر من ثلاثة آلاف شمعة، وذبح فيه من الخيل والبقر والغنم والأوز والدجاج فوق عشرين ألف رأس، واستعمل فيه من السكر للحلو وغيرها ثمانية عشر ألف قنطار بالمصري وصرف فيه ما يفوق الحصر) <sup>(٢)</sup>

وقد مر معنا الكثير من هذه الشواهد في الاحتفالات على مختلف أنواعها من زواج وظهر وشفاء وغير ذلك.

وقد بلغت مالية السلاطين أرقاماً كبيرة جداً، لم تكن بالطبع بالطرق الشريفة، بل بطرق عدة تنفي أي نزاهة أو تنظيم إداري. فمن مالية الأمراء وجد عند سلال ثمانمائة ألف دينار غير الجواهر والحلي زنة خمسة آلاف. <sup>(٣)</sup>

وأهمل السلاطين مهامهم الأساسية، فوجدنا بعضهم انشغل بتحصيل الثروات وبعضهم في معاقرة الخمر والشهوة من النساء وبعضهم من الغلمان، ومن شغله الغناء واللعب بالحمام. وأقلهم من ترك أهم مظاهر الملك من الجلوس للنظر في المظالم.

## ثانياً - الاحتكار :

أصبح احتكار السلاطين مبدأ لهم لتحصيل المزيد من الثروة التي تصرف بغير محلها، وكان يحتكر السلطان أهم المنتجات ذات الطلب العالي والسعر المرتفع، إضافة لتدخله في البضائع الأخرى الرائجة أو التي تعاني أزمة. فقد كان في موانئ مصر للسلطان نحو ألف وثمانمائة مركب يتبعهم مراكز لحفظ المواد وقوافل التجارة وجماعة تعرف باسم تجار السلطان لخدمة تجارته، ولديه موظف خاص يعرف باسم «شاد المراكب» (وهو ما يسمى في عصرنا وكيل السفينة) وكان من أصناف ما يحتكره السلطان الحطب الذي له أهميته في الوقود وتشغيل المصانع والتدفئة والحمامات، وهو يعادل بالأهمية البترول في زماننا، وسمك البوري والبطارح وصيد السمك في الإسكندرية. <sup>(٤)</sup>

١. ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ٦٣ . ٦٤)

٢. ابن حبيب : تذكرة النبیه ج ٢ ص ٢٢١.

٣. ( ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٧).

٤. الظاهري : زبدة كشف المسالك ص ٢٧، منعم : نظم الممالیک ج ١ ص ٧٨.



ومن أهم قطاعات الاقتصاد التي اعتاد السلاطين وضع ثقلهم في احتكارها مادتا الكارمي والسكر: فتعتبر تجارة الكارمي التي استطاعت مصر أن تكون مركز تجارتها العالمي، بين الشرق في مناطق إنتاج التوابل والبهارات والفلفل في الهند وسيلان وغيرها في آسيا، وبين الغرب حيث يجري بيعها لدول أوروبا بأسعار مرتفعة جداً، عبر موانئ مصر والشام خصوصاً ميناء الإسكندرية الذي كان الميناء الرئيس لها، وتتبع السلاطين، إضافة لميناء الإسكندرية، موانئ منشئها وسير طرق بواخر شحنها، مثل ميناء «سواكن» وميناء «زليح» وهو أهم ميناء للحبشة على النيل. فلم يكتفوا بفرض الرسوم العالية على حركة هذه التجارة، وفي إحدى كتب تولية السلطان لوال الصعيد (واحرص على الجزء الكبير من الوادي لأنه باب اليمن والحجاز.. وأكرم قدوم من يرد عليك من الكارم.. واجعل شكرنا دأب ألسنتهم.. وسبباً لاستجلاب رفاقهم)<sup>(١)</sup>

بل كانوا يقومون باحتكارها. ولم يكن تجار الكارمية من العرب فقط، بل دخل بعض تجار اليهود هذا القطاع المربح بعد تحولهم للإسلام وأخذوا بالسيطرة عليها، وكانت هذه التجارة تنحصر بعوائل محدودة تتوارث العمل فيها دائماً. وأصبحت ثرواتهم لا تحصى فقد كان مدخول تاجر الكارم يصل إلى مليون دينار وأكثر سنوياً، بينما مثيله من التجار في مصر أو الشام يبلغ مدخوله ما بين عشرة آلاف إلى ثلاثين ألف سنوياً، مما خلق لتجار الكارم نفوذاً كبيراً وجعلهم يمدون يدهم للإحسان فقاموا ببناء الفنادق والخانات والمدارس والخوانق والبيمارستانات على طول طريق هذه التجارة، وكانوا كما رأينا يقدمون القروض لتمويل الصفقات أو تمويل مشاريع الدولة، أو تمويل الحروب التي تقوم بها الدولة، وحتى قدموا قروضاً للسلاطين نادراً ما يتم إعادتها.

إلا أن السلاطين كانوا أكثر باعاً بقيامهم كثيراً من الحالات والطرح، فيقومون باحتكار هذه التجارة بأنفسهم وحصرها بهم. من ذلك ما ذكره المقرئ في حوادث سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م، إذ قام السلطان برسبأي باحتكار هذه التجارة:

(وفي هذه الأيام: أوقعت الحوطة على فلفل التجار بالقاهرة ومصر والإسكندرية، ليشتري للسلطان من حساب خمسين ديناراً الحمل، وكان قد أبيع عليهم فلفل السلطان في أول هذه السنة بسبعين ديناراً الحمل، ورسم بأن يكون الفلفل مختصاً بمتجر السلطان، لا يشتريه من تجار الهند الواردين إلى جدة غيره، ولا يبيعه لتجار الفرنج القادمين إلى ثغر الإسكندرية سواه، فنزل بالتجار من ذلك بلاء كبير)<sup>(٢)</sup>

كما احتكر السلاطين السكر ففي شهر ذي الحجة سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م في: (ثامن عشرينه: ختم على مطابخ السكر، وألزم من يدولب طبخ السكر ألا يتعرض أحد منهم لعمله، ومنعت باعة السكر وباعة الحلوى من شراء السكر إلا من سكر السلطان. وعمل لذلك ديوان، وأقيم له جماعة ليدولبوا السكر،

١. الفلقشندي: صبح الطبعة المصرية ج ١١ ص ٤٣٧، ضومط: الدولة المملوكية ص ٢١٢. ٢٢٠.

٢. المقرئ: السلوك ج ٧ ص ٢٣٤، حطيط ص ١٩٩. ٢٠٩، الحجى: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية ص ٢٥٠. ٢٥١.

فامتنع كل أحد من بيع السكر، إلا السلطان، ومن شراء إلا من سكر السلطان، فضاق الناس ذرعاً بذلك، وتضرر به جماعة عديدة<sup>(١)</sup>

### ثالثاً - خلعة الاستمرار:

ومن أسباب انحطاط وسقوط الدولة المملوكية، ابتداع السلاطين وسيلة مستحدثة بهدفين: الأول استرجار البذل والهدايا ممن يعينونهم من الأمراء وأرباب القلم وأرباب العمائم، ولعدم تمكينهم في وظائفهم فترة طويلة مما يجعلهم أصحاب نفوذ وجاه، قد يؤثر على السلطان، أو إن كانوا من أرباب السيف، يمهّد لهم الطريق للعصيان أو عزل السلطان، قام السلاطين بابتداع بدعة جديدة هي إعطاء المنصب والوظيفة متضمناً تحديد المدة التي هي سنة واحدة يعزل تلقائياً بعدها، ما لم يقرر السلطان إبقاءه في منصبه، ويكون ذلك بإرادة سلطانية حسب وظيفة الممدد له وإعطائه خلعة، غلبت على تسمية التمديد فسميت العملية بها، هي «خلعة الاستمرار». وكان تسليم الخلعة يتم بمراسيم ربما أفخم من مراسيم التعيين. ولخلعة الاستمرار أنواع، منها خلعة الاستمرار العادية، وخلعة الاستمرار الكاملة بسمور، وخلعة الاستمرار الكاملة بغرو وسمور، حسب المنصب المستمر به.

وقد شمل قانون الاستمرار كل الوظائف، وقد ورد في المصادر عن الموضوع ذكر الوظائف التالية: الخليفة والأتابك ونظر الجيش والوزير ونواب النيابات والمحتسب ونظر الخاص والولاية وشاد الدواوين وشد الأموال والقضاة حتى شمل قضاة الحجاز.

وكانت فكرة خلعة استمرار الخليفة في عصر الأيوبيين على شكل ضيق، فقد جاء في حسن المحاضرة:

(وقد كان الخليفة المستضيء أرسل إليه في سنة أربع وسبعين خلعاً سنياً جداً، وزاد في ألقابه «معز أمير المؤمنين». ثم لما ولي الخليفة الناصر (صلاح الدين الأيوبي) في سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م أرسل إليه خلعة الاستمرار، ثم أرسل إليه في سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م يعاتبه في تلقيبه بالملك الناصر، مع أنه لقب أمير المؤمنين، فأرسل يعتذر إليه بان ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء، وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب، فهو لا يعدل عنه، وتأدب مع الخليفة غاية الأدب)<sup>(٢)</sup>

ومن شواهد خلعة الاستمرار ما جاء في: إنباء الغمر بأبناء العصر، عن القاضي بهاء الدين أبو البقاء الذي كان ذاهباً للحج، وفي الطريق استغنى عن الحج لاستلام خلعة الاستمرار:

(وفيها في أواخر شهر رجب قرر القاضي بهاء الدين أبو البقاء في قضاء الشام عوضاً عن كمال الدين المعزي، فبلغه ذلك فسافر إلى الحج، ثم استغنى أبو البقاء فأعفي، وأرسلت إلى المعزي خلعة

١. المقريزي: السلوك ج ٧ ص ٨٦.

٢. السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠.

الاستمرار، فبلغه ذلك بعد أن وصل إلى بصرى، وأن البريدي واصل إليه بخلة الاستمرار، فترك الحج ولاقى البريدي ولبس الخلة واستمر في قضاء دمشق<sup>(١)</sup>

### رابعاً - ديوان البذل :

ومع شيوع الفساد وانتشاره، حتى أصبح أمراً عادياً، وكان المستفيدون من الفساد كثيرين، أراد السلطان احتكار الفساد نفسه لشخصه، فجرى ابتداء أسلوب ينظم ويشرع البذل والبرطلة بإحداث ديوان لهذا الموضوع سمي « ديوان البذل » وقد أحدثه الأمير أغزلو السيفي للسلطان الكامل شعبان لاستمرار الأموال له، وحسب ما جاء في « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة »:

( اغزلو السيفي كان (مملوكاً) لبهادر المعزي، ثم استخدمه بكتمر الساقى، ثم بشتاك، ثم ولي أشموم ثم نيابة الشوك ثم ولاية القاهرة، ثم شد الدواوين. وهو أول من أحدث ديوان البذل في سلطنة الكامل شعبان، فكان يأخذ على الإقطاعات والوظائف من كل أحد، وأفرد لذلك ديواناً، وهو ممن قام في سلطنة المظفر حاجي وضرب أرغون العلاني في وجهه، ثم نيابة طرابلس ثم عاد إلى القاهرة. وعظم أمره جداً إلى أن أخذ في مأمنه، فقتل في مستهل شهر رجب سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م. ويقال إنه باشر قتل ثلاثين أميراً في مدة أربعين يوماً، ويقال أن العامة أخرجوه من قبره وأقاموه في الصفة التي كان فيها، ثم نوعوا به النكال وصلبوه، لما كان في قلوبهم له من البغض لشدة ظلمه، فبلغ ذلك السلطان فأنكر عليهم وأرسل الأوجاقية فأوقعوا بالعوام وأذاقوهم من الضرب والقطع ما لا مزيد عليه فكان كما يقال ظالم في حياته مشؤوم في موته<sup>(٢)</sup>

وكانت تختلف المبالغ المطلوبة لإعطاء صاحب الطلب الوظيفة، وكان الموضوع غالباً متروكاً لقرار السلطان الذي يتناسب مع المتقدم لهذه الوظيفة، وكانت بعض الوظائف تعطى لأول متقدم ولو أن مبلغه المعروض كان تافهاً، وكان قد دفع سابقاً للوظيفة نفسها مبالغ طائلة. <sup>(٣)</sup> وعلى سبيل المثال كانت وظيفة الوزير تتطلب تقديم مائة وخمسين ألف درهم، وهو ما دفعه كريم الدين بن الرويهب سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م، بينما قبض على الوزراء صاحب أبو الفرج والصاحب سن إبرة والصاحب سعد الدين بن البقري سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ وألزموا بدفع مائة وخمسين ألف درهم. مما يعني عدم دفعهم لمثل تلك المبالغ عند استلامهم المنصب. <sup>(٤)</sup>

### خامساً - فقدان هيبة الدولة :

وانفطر عقد هيبة الدولة بفقد مظاهر القوة فيها التي كانت الهيئات من أهم مظاهرها. وجاء في خطط المقريري : (إلى أن استبدت بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق، فالتزم ذلك أيضاً (الجلوس للمظالم)، إلا أنه صار يجلس فيه إذا طلعت الشمس جلوساً يسيراً يُقرأ عليه في بعض قصص لا لمعنى سوى إقامة

١. العسقلاني ( ابن حجر ) إنباء الغمر بأبناء العمر : تحقيق حسن حبشي طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة ١٩٦٩ ص ١٤ .

٢. العسقلاني : الدرر الكامنة في أعوان المائة الثامنة ج ١ ص ٣٩٠ .

٣. أحمد ( أحمد عبد الرزاق ) البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك . الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ . ص ١٣١ .

٤. ( أحمد : البذل والبرطلة ص ٧٤ ) (وفي ذيل هذا الكتاب جدول بالوظائف وأسماء متوليها وتاريخ التولية والمبلغ المدفوع برطلة للحصول عليها).

رسوم المملكة فقط، وكان من قبله من ملوك بني قلاوون إنما يجلسون بالإيوان سحراً على الشمع، وكان موضع جلوس السلطان في الإيوان للنظر في المظالم، فأعرض الملك الظاهر عن ذلك وجعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالإسطبل السلطاني للحكم بين الناس، وصار الإيوان في أيام الظاهر برقوق وأيام ابنه الملك الناصر فرج، وأيام الملك المؤيد شيخ، إنما هو شيء من بقايا الرسوم الملوكية لا غير<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ أن السلطان بدأ بجمع الأموال أيضاً باسم أولاده وزوجته، من ذلك أن تعهد له الأشرف إينال محمد بعد تولية السلطان له إمارة مكة المكرمة بعد موت الشريف بركات، سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م وبذل له خمسين ألف دينار، عجل منها بعشرين ألفاً وتعهد بدفع الباقي على نقداً متفرقة، عدا ما غرمه لأرباب الدولة المصرية، ولولد السلطان وزوجته، التي صار لها على تعبير ابن بردي (لها نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة)<sup>(٢)</sup>

#### ١ - فساد السلطان :

وبسبب ذلك إنتشر الفساد في أنحاء المملكة وعم كل الوظائف والموظفين تقريباً على مختلف مراتبهم، سواء في مصر أو الشام، وقد وصف ذلك المقرئزي قائلاً:  
(شهر ربيع الآخر (سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م)، أوله الأحد:

وأهل هذا الشهر، وفي جميع أرض مصر، أعلاها الذي يقال له بلاد الصعيد، وأسفلها الذي يعرف بالوجه البحري، وحاضرتها، وفي القاهرة ومصر، من أنواع الظلم ما لا يمكن وصفه بقلم، ولا حكايته بقول، من كثرته وشناعته، فجملته أن الحكام بالقاهرة وأعمالها ما بين محتسب، ووال، وحجاب، وقضاة، ونائب الغيبة، والأمير فخر الدين الأستاذار، فالمحتسب بالقاهرة والمحتسب بمصر كل ما يكسبه الباعة مما تغش به البضائع وما تغبن فيه الناس في البيع يجبي منهم بضرائب مقررة لمحتسبي القاهرة ومصر وأعاونهما، فيصرفون ما يصير إليهم من هذا السحت في ملاذهم المنهى عنها، ويؤديان منه من استداناه من المال الذي دفع رشوة عند ولاياتهما، ويؤخران منه بقيه لمهاداة أتباع السلطان، ليكونوا عوناً لهما في بقائهما (١).)

#### ٢ - فساد الوزراء :

ولم يكن السلطان فقط من أصحاب الثروات الهائلة، فقد كان للوزراء وكبار الأمراء دورهم في ذلك، وقد مر معنا أخبار بعضهم مثل النشو وغيره، وكان الاعتقاد السائد بأن من يتولى وظيفة بالدولة لا بد أن يعمل على تحصيل الأموال الطائلة، واقتناء الأشياء الثمينة وامتلاك العمارات المختلفة<sup>(٣)</sup>،

#### ٣ - فساد الولاة :

١ . المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٢٠٦.

٢ . المقرئزي : السلوك: الطبعة المصرية ج ٣ ص ٦٦٠، أحمد : البذل والبرطلة ص ٦٧.

١ - ( المقرئزي : السلوك - الطبعة المصرية ج ٤ قسم ١ ص ٣٨٨ )

٢ . الحجي : السلطة والمجتمع: ص ١١٥.

٣ - ( المقرئزي : السلوك - الطبعة المصرية ج ٤ قسم ١ ص ٣٨٩ - ٣٩١ )

كما شمل الفساد الولاية، ويقول القلقشندي في ذلك :

(وأما والي القاهرة، ووالي مصر، وغيرهما من سائر ولاية النواحي، فإن جميع ما يسرق من الناس يأخذونه من السارق، إذا ظفروا به، فلا يأتون بسارق معه سرقة إلا أخذوها منه، فإن لم تكن السرقة معه ألزموه مالاً، ويتركوه لسبيله، وقد تيقن أنه متى عثر عليه صانع عن نفسه، وتخلص. وصار كل من يقطع من السارق يده، إنما يقطع لأحد أمرين، إما لقوة جاه المسروق منه، أو عجز السارق عن القيام للولاية بالمال، ويزيد ولاية البر على والي مصر والقاهرة بأخذ من وجدوا معه غنماً أو إبلاً أو رقيقاً، من الفلاحين أو العربان وغيرهم، فإذا صار أحد من ذكرنا في أيديهم، قتلوه واستهلكوا ماله، ومع هذا فلأعوان الولاية في أخذ الأموال من الناس أخبار لم يسمع قط بمثل قبجها وشناعها، حتى أنه إذا أخذ شارب خمر غرم المال الكثير، وكذلك من ساقه سوء القضاء إليهم من المتخاصمين، فيغرم الشاكي والمشكو المال الكثير، بقدر جرمه، بحيث تبلغ الغرامة آلافاً كثيرة. وجميع ما تجمع الولاية كلهم من هذه الوجوه لا يصرف إلا في أحد وجهين، إما للسلطة مصانعة عن إقامتهم في ولاياتهم، أو فيما تهواه أنفسهم من الكبائر الموبقات، وينعم أعوانهم بما يجمعونه من ذلك، ويتلفونه إسرافاً وبداراً في سبيل الفساد، ويتعرض الولاية لمقدميهم، ويأخذون منهم المال حيناً بعد حين (٣).)

#### ٤ - فساد الحجاب :

كما يصف القلقشندي فساد الحجاب قائلاً :

( وأما الحجاب: فإنهم وأعوانهم قد انتصبوا لأخذ الأموال بغير حق من كل شاك إليهم، ومشكو عليه، فما من أحد من الحجاب إلا وفي بابه رجل يقال له رأس نوبة، يضمن له في كل يوم قدراً معلوماً من المال، يقوم له به، ومن هذا المال المضمون يقيم أوده، فيقسط رأس نوبة على النقباء الذين تحت يده ما ضمنه للحاجب، وما لا بد له من صرفه على عياله، ومؤنة فرسه، وأجرة سايسها، وما اعتاده من المحرمات التي لا يتركونها ما وجدوا إليها سبيلاً وما يرصده ويدخره عنده عدة له في وقت مكروه ينزل به من عزله، أو مصادرة الحاجب له، أو غير ذلك من العوارض، فيتناول من كل واحد من النقباء شيئاً مقررراً عليه عند مضيه في طلب غريم، يقال له الإطلاق، فإذا حضر الغريم فتح عليه رأس نوبة أبواباً من أنواع مكرهم الذي تفقهوا فيه، فيحتاج إلى بذل المال له، ولدوادار الحاجب، وللحاجب، بحسب ما يقتضيه رأيهم. فربما بلغ الغرم في الشكوى الآلاف من الدراهم، فإنهم يسلسلون قضايا ظلمهم حتى يستمر المشكو في الترسيم الأيام والأشهر، وجميع ما يتحصل الحجاب من هذا الوجه، فإنهم يصرفونه فيما لا تجيزه أمة من الأمم من أنواع قبائح المحرمات، ولا يكلفون حمل شيء منه إلى السلطان. وأما نائب الغيبة فسبيل بابه سبيل أبواب الحجاب فيما تقدم ذكره. (١)

#### ٥ - فساد الاستدارية :

واستكمالاً لوصفه للفساد الذي لم يخل من الاستدارية يقول القلقشندي أيضاً :

١. (المقريزي : السلوك - الطبعة المصرية ج ٤ قسم ١ ص ٣٩٢).

(وأما الأستاذار : فإنه أمدّهم باعاً، وأقواهم في الظلم ذراعاً، وأنفذهم في ضرر الناس أمراً، وأشنعهم في الفساد ذكراً، وذلك أنه خرج إلى الوجه البحري، ففرض على جميع القرى فرائض ذهب، قررّها بحيث إن الجباية شملت أهل النواحي عن آخرهم، ولم يعف عن أحد منهم البتة، فما وصلت إليه مائة دينار إلا وأخذ أعوانه مائة دينار أخرى، ثم تتبّع أرباب الأموال مصادرهم، وأخذ لنفسه ولأعوانه ما لا كثيراً ثم طرح على جميع النواحي بعد ذلك الجواميس التي نهبها، فقامت كل واحدة من الجواميس على الناس باثني عشر ألف درهم، وأكثر ما تبلغ الجيدة منهن إلى ألفي درهم، فجبى من الوجه البحري على اسم الجاموس ما لا جماً، ثم أنه ألزم الصيارفة ألا تأخذ الدرهم المؤيدي إلا من حساب سبعة دراهم ونصف، وهو محسوب على الناس بثمانية دراهم، وألزمهم أيضاً ألا يأخذوا الفلوس إلا من حساب خمسمائة وخمسين درهماً للقنطار، وهو إلى الناس بستمائة درهم.

فإذا أمر بصرف الفلوس على أحد حسب عليه بستمائة درهم القنطار، وربما كان هذا الذي حسبت عليه بستمائة قد أخذت منه أمس بخمسمائة وخمسين، وألزمهم أيضاً أن لا يقبضوا الذهب الأفرنتي إلا من حساب مائتين وثلاثين الدينار، وهو معدود على الناس بمائتين وستين، وإذا صرف لأحد ذهباً يحسبه عليه بمائتين وستين، فلا يورد أحد لديوان السلطان ألف درهم إلا ويحتاج إلى غرامة مثلها، أو قريب منها، ثم إنه كل قليل يلزم صيارفته، ومقدميه، وشادي أعماله، ومباشريها، وولاتها، بمال يقرره عليهم، في نظير ما يعلم أنهم أخذوه من الناس، ثم تقرر في أعمالهم حتى يعلم أنهم قد جمعوا شيئاً آخر، أعاد عليهم المصادرة، فما من مرة إلا وهم يبالغون في ظلم الناس، حتى يفضل لهم بعد المصادرة شيء، هذا وهم يبالغون في الترف، ويتلفون المال الكثير في أنواع السرف في المحرمات، ثم أنه لما عاد من الوجه البحري وسار إلى بلاد الصعيد أوقع بلهانه على الأشمونين، وكسرهم، وساق من الأغنام والأبقار والجمال والخيول شيئاً كثيراً فرقه على أهل الوجه البحري بأعلى الأثمان، وهو الآن يفرض على جميع بلاد الصعيد الذهب كما فرضه على نواحي الوجه البحري ومع ذلك فقد شمل باعة مصر والقاهرة رماية البضائع عليهم، من السكر والعسل والصابون والقمح وغير ذلك، فإنه اشترى من الإسكندرية وغيرها بضائع كثيرة، ثم طرحها على الباعة بأعلى الأثمان فلا يصير إليه درهم حتى يغرم لأعوانه نظيره، وله نوع آخر من الظلم وهو أنه أخذ دار بهادر الأعسر بخط بين السورين . فيما بين باب الخوخة وباب سعادة . وشرع في عمارتها، وعمارة ما حولها، وما تجاهها من بر الخليج الغربي، فأخذ من الناس آلات العمارة بغير ثمن، أو بأقل شيء، وتفنن أعوانه في ظلم من يستدعيه بهم إلى هذه العمارة حمل صنف من الأصناف، أو عمل شيء من أنواع العمارة حتى يغرموه لأنفسهم ما لا آخر، هذا وجميع ما يتحصل من وجوه الأموال التي تقدم ذكرها فإنه يحمل إلى السلطان وأعوانه، وينفق في سبيل الشهوات المحرمة. وقد اختل إقليم مصر في هذه السنين خللاً شنيعاً، يظهر أثره في القابلة<sup>(١)</sup>.

١ - ( المقرئ : السلوك - الطبعة المصرية ج ٤ قسم ١ ص ٣٩٢ )

ولم يكن الأمر بأخف وطأة في الفساد في بلاد الشام فقد ذكر ابن قاضي شهبة الكثير من الأمثلة، منها نذكر من فساد الإستدارية على سبيل المثال، يقول ابن قاضي شهبة، عن الإستدار محمود بن علي الأمير جمال الدين بن علاء الدين الظاهري المصري ذاكراً تمرسه بالفساد في كل حياته الوظيفية في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع: (كان استداراً عند الأمير «سودون باق» وأحد رجال الحلقة، فتقلت به الأحوال إلى أن صار شاد الدواوين وأمير طلبخانة في آخر سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م، وقدم دمشق بعد قبض النائب بيدمر لمصادرة النائب وحاشيته فكثرت ظلمه وعسفه، ثم استقر استدار السلطان في جمادى الآخرة سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م، وصار مشير الدولة، ثم قبض عليه الناصري بعدما كان أرضاه وأقره بالإستدارية، فسعى منطاش إلى أن قبض عليه وقيد بقيد ثقيل، وجعل في رقبته ثلاث باشات، ولما صار الأمر لمنطاش أخرج له ذخيرة، فأطلقه وخلع عليه ثم قبض عليه ثم أطلقه ثم قبض عليه. ولما عاد الظاهر (برقوق) إلى الملك استقر مشيراً وأعطي الإستدارية لغيره. ثم استقر استداراً في جمادى الآخرة سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م. ثم في أوائل سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م بدأ تغيير السلطان (الصالح حاجي) عليه، وأخذ منه مائة وخمسين ألف دينار. ثم في صفر من السنة الخالية صادره وأخذ ذخائره. قال بعضهم: تنقل إلى أن صار أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية، وأستدار العالية، وعلت منزلته علواً لم يبلغه أحد من قبله مثله. ثم غضب عليه وصادره وعوقب وعصر مراراً وأخذ منه على ما أشيع ثلاثة آلاف ألف دينار عين مصكوكة خارجاً عن العقار والثياب والمصاغ والحيوان، فأقام في المصادرة والعقوبة قريب السنة... وقال بعضهم أيضاً: من المصادرات إضافة لما ذكر ألف ألف درهم فضة وبضائع وغلل وغير ذلك ما ينيف عن ألف ألف درهم وتلف له، وأخفى هو شيئاً كثيراً<sup>(١)</sup>)

## ٦ - فساد متولي شد المراكز :

أما مقولو شد المراكز في الشام فلم يكونوا بأحسن حالاً، فقد ذكر ابن قاضي شهبة، عن مسيرة حياة فاسد آخر تنقل من العمل كسمسار إلى العمل في الدولة كشاد المراكز مع اشتهاه بالفساد فيما قبل تسلمه الوظيفة وما بعدها:

(محمد بن عبد الله بن إبراهيم، شمس الدين بن النشو السمسار، كان أول أمره مغربلاً بالطواحين، وكان أبوه نصرانياً فيما قبل فأسلم، ثم آل أمر هذا إلى أن صار طحاناً يضمن الطواحين، ثم إنه أثرى وضمن طاحون باب الفرج وغيرها، وصار معلماً كبيراً مشهوراً بذلك، وذلك بعد سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م ثم صار سمساراً في الغلة، وأقبلت عليه الدنيا إقبالاً زائداً، وصار ماله ينمو نمواً وافراً، وداخل الدولة. وصار العوام (يكرهونه) بسبب الغلال، وينسبون إليه أموراً من الظلم وتضييق الأرزاق، والأقوات. ولما جاء السلطان (برقوق) في المرة الثانية، شكاه العوام إلى السلطان وأرادوا رجمه، فهرب واختفى وصور بمال كثير. ثم في سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٥ م جعل إليه شد المراكز، وكان الأمراء يهربون من تولية هذه الوظيفة، فباشرها أحسن مباشرة. وعمر المراكز بالخيال والعلف، وأعطى ابنه إمرة عشرين، وتكلم في دارياً

١. ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة المجلد الأول ص ٦٤٣ . ٦٤٤.

(من ضواحي دمشق) وتمكن من الظلم والطرح وغير ذلك، ولا ينهأ أحد، وصار ينسب إليه كل قبيح، والعامّة يتضاعف بغضها له ويظهرون له كل سوء، فلما كان يوم الاستسقاء حضر مع الناس فرجمه العوام، فقام الناس وتركوا ما كانوا فيه من الخشوع، وصاروا بين راجم وناظر وهارب ومنتقل من مكان لآخر، فكأنه هرب خطوات، فمالوا عليه ورمّاه رجل بحجر في وجهه وجاء آخر فاحتز رأسه، وجاء الخبر إلى الحاجب فلم يُعَيّر من مكانه، وقطعوه قطعاً، وأعقب ذلك مجيء الخطيب واشتغل الناس بالصلاة، هذا وطائفة من العوام قد أخذوا جثته سحباً إلى المدينة، وحملوا رأسه على رمح وجاءوا إلى تحت القلعة فأحرقوه وذهبوا إلى بيته فنهبوه ونهبوا بعض الطواحين المنسوبة إليه، ونهبوا بستانه على حافة نهر ثورا، ووجدوا فيه خيراً كثيراً. وترك جماعة صلاة الاستسقاء بهذا السبب. وكان رجلاً طوّالاً أسمر في لسانه لثغة، مات في عشر السنين ظناً، وبنى حماماً حسناً خارج باب الجابية في هذه السنة، ثم مسك قاتله واعترف فقتل هو وغيره ممن لا دخل له في قتله، بل بمجرد كونهم فرحوا أو نحو ذلك<sup>(١)</sup>

#### ٧ - فساد أرباب العمائم :

حيث نقى هذا الداء إلى الذين يفترض فيهم الاستقامة والتقوى، وقد استغل بعض أبناء العلماء المشهورين شيوع هذا المرض الاجتماعي، واستغلوا في الوقت نفسه مناصب آبائهم ومكانتهم الرفيعة في المجتمع ليتعاملوا كغيرهم بالرشوة، فهذا علي بن محمد بن وهب بن مطيع القشيري، ابن العلامة تقي الدين بن دقيق العيد المتوفى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩ م، والذي تزوج ابنة الخليفة الحاكم بأمر الله والذي استلم تدريس المدرسة الكهربية والسيفية (كان يُعاب عليه أخذ المال ممن يسعى في الوظائف عند أبيه)<sup>(٢)</sup> وتسبب ابن العلامة محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) (بعزله عن قضاء القاهرة لإسرافه بأخذ الرشوة من القضاة ونحوهم وشرهه بالمال)<sup>(٣)</sup>

وأمام شيوع هذا المرض كان لابد أن تتخذ الدولة إجراءات تحد من انتشاره، كما حدث في عام ٧١٢هـ / ١٣١٢م عندما أصدر السلطان كتاباً أن لا يُولى أحد بمال ولا رشوة، (فإن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية، وإلى ولاية غير الأهل)<sup>(٤)</sup>

#### ٨ - فساد القضاة :

هو أخطر أنواع الفساد لأن في فسادهم إخلال في مسيرة الدولة والمجتمع، وإخلال للصلة بين طرفي النزاع،<sup>(٥)</sup> إذ يفترض أنهم من العلماء أرباب العمائم، من أهل الصلاح والتقوى، وعلى يدهم تجري مسيرة

١. ابن قاضي شهابية : تاريخ ابن قاضي شهابية المجلد الأول ص ٦٤٠ . ٦٤١.

٢. العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٣، ص: ١٨٧ . ١٨٨.

٣. العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٢٢، المقرئ: السلوك الطبعة المصرية ج ٢، ق ٢، ص: ٤٣٩.

٤. ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٥٣.

٥. (يرى أن الوزراء البريطانيين أتوا رئيسهم تشرشل في فترة أواخر الحرب العالمية الثانية شارحين له الوضع الأسوأ الذي تعيشه بريطانيا، وتهالك اقتصادها ودمار معظم المدن البريطانية من جراء قصف الطيران الألماني المركز، وتهالك الصناعة والزراعة وسوء أحوال الشعب، فكان جوابه كيف حال القضاء هل ما زال نزيهاً؟ فقالوا: نعم، فقال: إذا ستعود بريطانيا لقوتها سليمة معافاة).



العدالة والإنصاف. إلا أن الحقيقة في زمن الفساد يكون غير ذلك، ومن شواهد هذا الفساد فساد القضاة إضافة لما مر معنا في بحث التقاضي والقضاة.

فقد أورد صاحب السلوك لمعرفة دول الملوك من حوادث سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ . ١٤٣٩ م: (وفي يوم الخميس ثامنه: جمع القضاة والأمراء والمباشرون بالقصر وقت الخدمة وأقيم بعض نواب القاضي الشافعي وكيلاً، فادعى على نقيب الحكم، وقد أقيم وكيلاً عن الأمير قرقماس الشعباني دعوى حسبة بين يدي قاضي شمس الدين محمد البساطي، المالكي، بأن الأمير قرقماس خرج عن طاعة السلطان، وحارب الله ورسوله، فقتل بسببه عدة أناس، وأن في بقاءه في السجن مفسدة وإثارة فتن، وأن في قتله مصلحة، فشهد بذلك جماعة من الأمراء، وحكم البساطي بموجب ذلك، فقبل له ما وجبه، فقال: «القتل»، فندب بعض الممالك لقتله، وجهاز إلى الإسكندرية، فقتله في يوم الإثنين ثاني عشره قتلة شنعاء، وهو أنه أخرج في قيده من السجن إلى مجلس الأمير تمربأي نائب الإسكندرية، وقد جمع الناس، فأوقف على حكم البساطي بقتله، وقيل له «لك دافع أو مطعن فيما شهد به عليك»، فأجاب بعدم الدافع والمطعن، فأقيم قياماً عنيفاً وأخرج إلى ظاهر المدينة، وأقعد عرياناً، وتقدم المشاعلي، فضربه بالسيف، فأخطأ عنقه، ووقعت الضربة على الكتف، ثم ضربه ثانياً فكدت تحت كتفه، حتى ظهر داخل صدره، ثم ضربه مرة ثالثة، فأصابته العنق، ولم تقطعه، فحزه غير مرة حتى انفصل الرأس عن البدن، ونزل في موضعه حتى واره بعض أتباعه، فكان في ذلك عبرة، ولم نعهد مثل ذلك، لا من حيث هذه الدعوى وهذا الحكم الذي زعموا أنه من الأحكام الشرعية، ولا من حيث أن أميراً من عظماء الدولة ترشح للسلطة يقتل هذه القتلة الشنيعة ثم لا يحسن قتله، «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر حادثة أخرى في السنة نفسها ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م:

(وفي يوم الثلاثاء خامس عشره: ضرب الشيخ حسن العجمي بالمقارع ضرباً مبرحاً، وشهر بالقاهرة، ثم سجن، وهذا الرجل قدم القاهرة، ودار في الأسواق يستجدي ويكدي، فيتصدق الناس عليه. ثم تعرف بالأشرف برسباي، واختص به اختصاصاً زائداً، بحيث يدخل خلواته متى شاء بغير إذن، ويقف فوق الأمراء، فتمكن من السلطان وعظم قدره.

وبذل له الأكابر الأموال خشية منه. ثم بنى له السلطان قبة كبيرة بالصحراء، ووقف عليها وقفاً له متحصل كثير، فنقل على أهل الدولة لكثرة أخذه المال منهم، ولسوء أثره فيهم عند السلطان إلى أن زالت الدولة الأشرفية، وبدا لهم سيئات ما كسبوا. قبض على حسن هذا، وضربه السلطان، وسجنه، ثم ادعى عليه عند قاضي القضاة المالكي بما يوجب إراقة دمه، فلم يثبت ما ادعى به عليه فضرب هذا الضرب الثاني، ثم نفى بعد سجنه إلى قوص، وأخذ ما وجد له)<sup>(٢)</sup>

١. الآية رقم ٨ من سورة الرعد، والنص من السلوك ج ٧ ص ٣٩٣ . ٣٩٤.

٢. المقرئزي: السلوك ج ٧ ص ٣٩١.

وكان القضاة في حرب فيما بينهم ينصبون المؤامرات ويكيلون التهم بل ويجرون محاكمات جائرة على بعضهم البعض، من ذلك ما قاله ابن قاضي شهبة، عن مؤامرة على القاضي ابن القرشي: (وفي يوم الإثنين سابعه (جمادى الآخرة): عقد مجلس آخر لابن القرشي تتضمن أمره بطاعة الملك الظاهر وأنه هو السلطان، وأن منطاش لا خير فيه لما فعله بالنائب والقاضي، فأنكر ابن القرشي ذلك، واتهم الزهري به وواجهه قدام الناس بذلك، وأغرى القاضي الناس عليه، وقد هياؤا له دعاوى قبيحة، وشهد عليه جماعة من أهل البقاع بتعاطي الفواحش من شرب الخمر واللواط وغير ذلك بزعم الاستفاضة، ظنا منهم أن الاستفاضة عبارة عما يُشْتَهَر، وكتبوا أوراقاً وفرقوها على جماعات ليرفعوها وتكثر الشكاوي، وأساء الأدب عليه ابن الحسين وعلاء الدين المجذلي وجمال الدين ابن الزهري، وأثبت المالكي فسقه وعزّره برفع طيلسانه عن عمامته ثم أعاده، ثم أعيد إلى موضعه بالقلعة)<sup>(١)</sup>

وبلغ من طمع بعض القضاة أن أصبح القاضي يتعهد قضاء مناطق واسعة يجبي الأموال الحرام منها ويعهد لها لممثليه. (وفي هذا الشهر: اتفقت نادرة لم نر ولا سمعنا بمثلها، وهي استقرار الأمير صفى الدين جوهر الخازندار فى قضاء دمياط، وكانت العادة أن يفوض قاضي القضاة الشافعي قضاء دمياط لمن يقع اختياره عليه من الفقهاء، فلما اتصل ولي الدين محمد بن قاسم المحلاوي بالسلطان، شره في المال، وأخذ قضاء عدة بلاد، منها دمياط. وقرر على من أقامه فى قضاء البلاد التى وليها ما لا يحمله على سبيل الفريضة في كل شهر أو كل سنة، كما هى ضرائب المكوس، سوى ما يتبع ذلك من هدايا الريف. وكان الجاه عريضاً، فما عفت نوابه ولا كفت، فلما ذهب إلى الحجاز، نزل عن قضاء دمياط للقاضي جلال الدين عمر والقاضي كمال الدين محمد بن البارزي كاتب السر. بمبلغ خمسين ألف درهم مصرية.

فجرى على عادة ابن قاسم في ذلك إلى أن عين السلطان القاضي كمال الدين لقضاء دمشق، سألته الأمير صفى الدين جوهر الخازندار أن ينزل له عن قضاء دمياط، فلم يجد بداً من إجابته، ونزل له عن ذلك. فأمضى قاضي القضاة النزول رغماً، وصار أحد نواب الحكم العزيز بدمياط، فاستتاب عنه على العادة في هذا، واستمر. وصار يكتب في مكاتبته إلى نائبه بدمياط «الداعي جوهر الحنفي»، كما كان قاضي القضاة يكتب. وحمد أهل البلد سيرته بالنسبة لمن كان قد ابتدأ ذلك. ولم يعهد فى مثل ذلك نزول، ولا ما يشبهه فله الأمر)<sup>(٢)</sup>

وكان فساد القضاة سبباً في إضعاف الجيش، كما جاء في السلوك في حوادث شهر ذي القعدة سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م:

(وفي سادس عشره: استدعى الأمير الكبير برقوق القضاة وشيوخ العلم، وتحدث معهم في حال الأراضي الأوقاف على الجوامع والمساجد والمدارس والخوانك والزوايا والربط وعلى أولاد الملوك والأمراء

١. ابن قاضي شهبة (أحمد الأسدي الدمشقي) تاريخ ابن قاضي شهبة: تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٧٧. المجلد الأول ص ٣٣٥ - ٣٣٦. ورمزه تاريخ ابن قاضي شهبة.

٢. المقرئزي: السلوك ج ٧ ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

وغيرهم وعلى الرزق الأحباسية، وكيف يجوز بيع أراضي مصر والشام الخراجية على بيت المال، وأحضرت أوراق. بما أوقف من بلاد مصر والشام، وبما تملك منها . ومبلغها في كل سنة مال كبير جداً . فلما قرئت على من قد حضر من الأمراء وأهل العلم، قال الأمير برقوق: «هذا هو الذي أضعف جيش المسلمين». فقال قاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء: «هما جيشان جيش الليل، وجيش النهار»، فأخذ الشيخ أكمل الدين في الكلام مع الأميرين بركة وبرقوق في ذلك باللغة التركية، حتى غضبا منه، فقال بعضهم لشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني «لم لا تتكلم» فقال: «ما استفتاني أحد حتى أفتيه». فأشار له الأمير برقوق أن يتكلم، فطال كلامه على عاداته، وملخصه «أن أوقاف الجوامع والمساجد والمدارس والخوانك، التي هي على علماء الشريعة وفقهاء الإسلام، وعلى المؤذنين وأئمة الصلوات ونحو ذلك، لا يحل لأحد أن يتعرض بحلها بوجه من الوجوه، فإن للمسلمين حق لم يدفع إليهم، وإلا فانصبوا لنا ديواناً نحاسبه على حقنا، حتى يظهر لكم أن ما نستحقه أكثر مما هو موقوف علينا، وأما ما وقف على عويشة وفطيمة، واشترى من بيت المال بحيلة أن يؤخذ المال صورة ثم يعاد، فإنه يحتاج إلى أن ينظر في ذلك، فإن كان قد أخذ بطريق شرعي، فلا سبيل إلى نقضه، وإن كان غير ذلك نقض». فقال ابن أبي البقاء: «يا أمراء، أنتم أصحاب الشوكة، والأمر لكم». فقال له البلقيني «اسكت ما أنت وهذا». فسأل الأمير بركة والأمير برقوق بن أبي البقاء من أين يشتري السلطان هذا فقال: «الأرض كلها للسلطان». فقال له البدر محمد بن البلقيني . قاضي العسكر . «كيف تقول هذا من أين للسلطان ذلك وإنما هو كآحاد الناس». فقال البلقيني: «يا أمراء أنتم تأمرون القضاة، فإن لم يفعلوا ما ترسموا به عزلتموهم، كما جرى لشرف الدين بن منصور مع الملك الأشرف، لما لم يفعل له ما أراد، عزله» ثم انفضوا وأخرجوا عدة أوقاف وأقطعوها إقطاعات<sup>(١)</sup>

وفي سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م بلغ فساد القضاة جميعهم درجة جعلت السلطان المؤيد شيخ يطردهم جميعاً، ففي أول شهر صفر سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م: (فيه عزل السلطان جميع نواب القضاة الأربع، وكانت عدتهم مائة وستة وثمانين قاضياً بالقاهرة ومصر، سوى الوجه القبلي والوجه البحري، وشنت القالة عنهم)<sup>(٢)</sup>

#### ٩ - تضخم الجهاز الإداري:

وظاهرة أخرى في فساد الإدارة هو تضخم عدد العاملين في دولة، للحصول على المنافع المادية للسلطان ومن له علاقة بزيادة عدد موظفيه، من ذلك على سبيل المثال كتاب الدست الذين كان عددهم عادة ثلاثة يعملون زمن الظاهر بيبرس، فأصبحوا عشرة في أيام الأشرف شعبان، وعشرين في زمن السلطان برقوق وابنه فرج الذي رأى تقسيمهم لقلّة العدد للعمل بنوبتين، الأولى تعمل من السبت إلى الثلاثاء والثانية تعمل بقية الأسبوع، ومع ذلك فقد اعتبر القلقشندي هذا غير كاف، أما كتاب الدرج فقد

١ . المقرئزي : السلوك ج ٥ ص ٥٧ . ٥٨ .

٢ . المقرئزي : السلوك ج ٦ ص ٤٠٧ .

فاقت أعدادهم كتاب الدست بكثير، إذ وصلوا إلى مائة وثلاثين كاتباً، وكان أغلبهم من غير أهل الخبرة والكفاءة، ولهذا أقبل كتاب الدست لمعاونتهم. وربما لهذا السبب أشار اليهم صاحب ديوان الإنشاء إشارة عابرة، رغبة منه في عدم التعرض لهم بالنقد والتجريح.<sup>(١)</sup>

وكان الدافع لهذا التضخم ليست الحاجة للعاملين فيه، ولا لحل أزمة بطالة. بل كان في سبيل الحصول على الأتاوات والضمان والبذل للحصول على الوظائف. وبالتالي تباري الموظفين للحصول على منافعهم الخاصة لسد ما تم دفعه للحصول على الوظيفة التي يشغلونها، واستمرار دفع متحصلها للبقاء فيها، إضافة لثراء الموظف الذي يسعى له حثيثاً.

#### ١٠ - صور أخرى من الفساد الإداري :

ومر في بحثنا أشكال مختلفة من صور هذا التضخم.

ومن أطرف الوظائف المحدثة التي تدل على قصر نظر السلطان الأشرف برسباي، وازدياد الفساد وانتزاع الأموال من العامة قهراً وظلماً وعدواناً، ففي أحداث سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٧ م (في يوم السبت الخامس والعشرين من رجب وقع حادث فظيع، وهو أن بعض المماليك السلطانية الجراكسة انكشف رأسه بين يدي السلطان، فإذا هو أقرع، فسخر منه من هناك من الجراكسة، على حين اغتنم هو الفرصة وسأل السلطان أن يجعله كبير القرعان، ويوليه عليهم، فأجابه إلى ذلك ورسم أن يكتب له مرسوم سلطاني، وخلع عليه، فنزل وشق القاهرة بالخلعة، بعد أن عقد النية على استغلال هذا التعيين، مستفيداً من الوظيفة في زيادة ثروته. فصار يأمر كل واحد بكشف رأسه حتى ينظر إن كان أقرعاً أم لا، وجعل على ذلك فرائض من المال، فعلى اليهودي مبلغ يعينه، وعلى النصراني مبلغ وعلى المسلم مبلغ بحسب حاله ورتبته، ولم يتحاشى من فعل ذلك أحد، حتى وصل فيه الحال إلى فرض رسم على الأمير الأقرع مبلغ عشرة دنانير، وتجاوز حتى فرض على الأصلع والأجلح<sup>(٢)</sup> في حكم الأقرع ليجبيه مالاً، فكان هذا من «شنائع القبائح، وقبائح الشنائع»، ولما طال أمره وفحش، أحس السلطان بمدى فداحة الخطأ الذي ارتكبه، فأمر بالكف عن هذه المهزلة، ونودي في القاهرة «معاشر القرعان لكم الأمان»<sup>(٣)</sup>.

وانتشر الفساد في كل قطاعات الدولة فقد أوردنا في بحث الوالي والشرطة شواهد من فساد الشرطة، ولم تكن الشرطة أو الوالي دائماً على النزاهة المطلوبة والمفترضة. وفي بحث التعليم قدمنا صوراً عن انحطاط التعليم والفساد فيه.

كما قدمنا في بحث الخدمات البلدية صورة عن الفساد الذي انغمس فيه الشعب نتيجة الفروق الطبقيّة ومظاهر الثراء والتهتك لدى الطبقات الحاكمة.

١. أحمد : البذل والبرطلة ، ص ٨٦.

٢. (من انحسر شعره عن جانبي الرأس . لسان العرب).

٣. المقرئزي : السلوك ج ٧ ص ١٥٣، أحمد : البذل والبرطلة ص ٦٧ نقلاً عن منتخبات من حوادث الدهور ص ٤٠٥.

## ب - فساد الجيش:

### ١ - فساد نظام الجيش والطباق :

بعد موت السلطان الناصر محمد كثر تغيير السلاطين، ورافق ذلك تعدد الفرق العسكرية وقد أوجب ذلك على السلطان تخريج عدد كبير من المماليك الجدد للخدمة بسرعة. ففقدت العلاقة بين المماليك الصغار والكبار لجهة التربية والتوجيه والإرشاد. وقل احترام وانصياع المماليك لطواشيهم ومقدميهم، بل صارت الفرق عبارة عن أحزاب سياسية متصارعة، وقلّت هيبة المماليك السلطانية تجاه ممالك الأمراء الذين زاد عددهم كثيراً.

وفقد شرط السن في استجلاب المماليك. إذ جرت العادة أن يستقدم المماليك الصغار الذين يدخلون الطباق ويجري إسلامهم وتعليمهم الشريعة، ثم تدريبهم وتأهيلهم عسكرياً ليصار إلى فرزهم للخدمة، فصار يجري شراء المماليك كبار السن، وفقدت الحلقة أهميتها التدريبية والتزام أعضائها الأدبي تجاه بعضهم البعض.

وكان أول هذا الانحدار لاستجلاب المماليك في عهد السلطان برقوق، فصار يجري استجلاب أقرباء المماليك، واستجلاب كبار السن ممن قد يبيع نفسه ليصل إلى مصر، فمنهم ( وقاد في تنور الخباز، ومحول ماء في غيض أشجار ونحو ذلك).<sup>(١)</sup>

وكان للسلطان برقوق دور كبير في إضعاف الجيش باعتماده على نوع واحد من المماليك مما أضعف العنصرية بين مختلف أنواع المماليك، ضمن خطته في القضاء على المماليك الأتراك ليحل محلهم المماليك الجركس لتأسيس دولة المماليك الثانية الجركسية.

وزاد في إفسادهم بإعطائهم الرخصة بسكنى القاهرة وترك معسكراتهم في القلعة مما أفسدهم وأساء للسكان. وقام السلطان إثر محاولة اغتياله بإبطال التمرينات العسكرية في الميدان السلطاني عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م فانحصرت تمرينات الفروسية في الحوش السلطاني.<sup>(٢)</sup>

وبلغ من فساد جيش المماليك أن وصفه المقرئزي: (وصارت المماليك أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً... ما فيهم إلا من هو أزنّى من قرد، وألص من فأر، وأفسد من ذئب، ولا جرم أن خربت أراضي مصر والشام.. بسبب أيلة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتى أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه)<sup>(٣)</sup>

وتكشفت رغبات الطمع عند بعض الأمراء في السلطة والحكم وهم سائرون لملاقات قازان سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م، عندما عزم السلطان على السير إلى بلاد الشام، حيث حرك طائفة الأويراتية من المماليك

١. أحمد : البذل والبرطلة ص ١٣٢. طقوش : تاريخ المماليك ص ٧٦ - ٧٩

٢. المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٢٢٩، ضومط الدولة المملوكية ص ٧٧.

٣. المقرئزي الخطط ج ٢ ص ٢١٤، ضومط الدولة المملوكية ص ٧٨.

البحرية الفتنة في صفوف الجيش، انتقاماً لقتل المماليك البرجية بعض أمرائهم فكانوا يريدون الانتقام أثناء توجه الجيش لقتال قازان، ويصفهم المقرئزي «كثير تحاسدهم وتنافسوا بكثرة سعادتهم»<sup>(١)</sup>

## ٢ - انحطاط وفساد نظام الإقطاع العسكري :

وهو من أهم عوامل انحطاط الدولة، وفساد الجيش، فالزراعة في مصر هي عصب الثروة في الدولة ووسيلة معيشة الناس وطريقة كسب عيش أكثرية الشعب، لذلك كان الاهتمام بالزراعة والسقاية وتنظيم فيضان النيل.

وكانت حيازة الأرض بشكل عام إما أن تكون إقطاعاً للأمرء والجند، بمثابة رواتبهم، ويكون الفلاح فيها يحوز الأرض ويقوم بزراعتها، وهو بالطبع غير مالك لها، مقابل حصوله على حصة مما تغله الأرض ناتج جهده وتعبه، والباقي يعود لصاحب الإقطاع ومماليكه وجنده، ويبقى أيضاً للدولة الرسوم والعوائد والتكليفات غالباً لحفر الترعة والقنوات والتعمير وصيانتها، ويضاف إلى ذلك ما يستغله الموظفون قسراً من الفلاح نقداً أو عيناً.

وكان من أسباب انحدار الإقطاع قلة الروك الذي كان يفترض أن يتم كل ثمانين عاماً، لإزالة التعديلات على حقوق الإقطاعات والمساوات بين المقطعين وإزالة نفوذ المقطعين.

وكان للروك الحسامي أثر سيئ للغاية لما أجرى من تغييرات وتعديلات لم تأت بالمطلوب بل بالعكس أدت إلى خراب في النظام الإقطاعي<sup>(٢)</sup>.

وكان لظهور موجة التنازل والمقايضات الإقطاعية الذي بدأ في عهد شاد الدواوين الأمير شجاع الدين أغرلو، فكان يحضر صاحب الإقطاع والمقطع الجديد إلى بيت المال ومعه مبلغ من المال معين فيتم الأمر، وأدى هذا لانتشار الرشوة في تحديد المبلغ. وكثرت المشاكل مما أدى لاستحداث ديوان البديل سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م، ولكن ألغي هذا بأمر من السلطان بضغط من الأمرء، وعاد الموضوع على ما كان عليه. ولكن في سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ظهرت طائفة تعرف بالمهيسين بلغ عددهم ثلاثمائة مهيس (كالدلال في زماننا) مهمتهم الطواف على الأجناد لحثهم على التنازل إلى الباعة والصناع، الذين يحصلون مع الإقطاع على لقب الفروسية. ثم لم يلبث أن تزايد التنازل حتى قلت جنود الحلقة، وأصبحت جيشاً غير ذا قيمة عسكرية.

كما كان لنظام تقنين الإقطاعات بحيث يقسم إقطاع المقطع في عدة قرى ليحصل على نفس المساحة ولكن بأماكن متفرقة، مما أضعفت سيطرته عليها، واضطر لإيجاد من يحميها. فظهر نظام الحمايات الذي كان يعني مبالغ إضافية تخرج من غلة الإنتاج. وساعد في رواج نظام الحماية هذا عدم سكنى المقطعين في مناطق إقطاعهم<sup>(٣)</sup>.

١. المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٣١٧.

٢- ضومط : الدولة المملوكية ص ١٣٣ - ١٤٠.

٣. ضومط : الدولة المملوكية ص ١٤٠ - ١٤٥.

## ج - الانحطاط الاقتصادي :

شمل كل القطاعات الاقتصادية من مالية وتجارية وصناعية وزراعية. مما أثر على مالية الدولة وقدرتها على تسيير قطاعاتها والالتزام بواجباتها، فتوقف العمران، وتوقفت الصناعات والمشاريع المائية. وشمل الإهمال وعدم الصيانة الانحطاط بالخدمات العامة من طرقات وأبنية عامة وخدمات تعليمية وصحية واتصالات وشمل سائر مظاهر الدولة :

### أولاً - التدهور المالي :

وكانت له عدة أسباب أهمها :

#### ١ - التلاعب بعملة النقد (زغل العملة) :

وكان من أكثر أسباب الشكوى لدى طبقات الشعب التلاعب بعملة النقد الذي يؤدي إلى مخاطر اقتصادية واجتماعية كبيرة جداً. وكان السلاطين في مثل هذه الحالات يتدخلون بتسعير العملة. ويذكر عن متولي ضرب العملة، وهو من هؤلاء الذين تلاعبوا بعملة النقد وهو:

(محمود بن عليّ بن أصفر، عيّنه الأمير جمال الدين الأستاذار ولي شدّ باب رشيد بالإسكندرية مدّة، وكانت واقعة الفرنج بها في سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م وكان ثرياً جداً. كان مسؤولاً عن دار الضرب، وأكثر من ضرب الفلوس بديار مصر حتى فسد بكثرتها حال إقليم مصر، وكان جملة ما حمل من ماله بعد نكبته من قبل السلطان (الأشرف شعبان)، مائة قنطار ذهباً وأربعين قنطاراً، وهي تعادل ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار عيناً، وألف ألف درهم فضة، وصودر له من البضائع والغالل والقنود (عصارة قصب السكر إذا جمّد) والأعسال ما قيمته ألف ألف درهم وأكثر. <sup>(١)</sup>)

كما كان يجري التلاعب بالأسعار الناتج عن الاحتكار مما يؤدي لتدهور العملة، من ذلك في الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م قام السلطان فرج بإجراء سريع لوقف تدهور النقد نتيجة التلاعب بالسعر: (قبض على كثير من الصيارفة والتجار، ورسم عليهم وأخذوا من الغد، وأحضروا بالقلعة، فلم يتهياً لهم حضور بين يدي السلطان، وتقرر معهم ألا يخالفوا ما رسم به في الذهب، وأفرج عنهم بعدما أرجف بأنهم يشنقوا، ونودي أن يكون متقال الذهب بثمانية وخمسين، والدينار الأفرنتيني بمائتين وثلاثين، وأن لا يتعامل بالناصرى، بل يقص، ويصرف بحساب الذهب الهرجة المصري، فشق ذلك على الناس وتلف لهم مال كثير) <sup>(٢)</sup>

وكان لاحتكار السلطان والأمراء للسلع تأثير كبير في تسعير السلع والمواد المعيشية خصوصاً الخبز. كما كان لها تأثيرها السلبي على تحديد قيمة النقد. وكان السلاطين أحياناً يتدخلون في التسعير إلا أن تدخلاتهم لم تكن موفقة دائماً.

١. المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٣٩٥ . ٣٩٧.

٢. المقرئزي : السلوك ج ٦ ص ٤١٢.

## ٢ - بيع الأوقاف والحبوس:

وقد كان هذا من عوامل الضعف للدولة المملوكية أيضاً، فقد كانت الأوقاف مخصصة لإدارة وتسيير وصيانة مباني الخدمة العامة مثل المدارس والبيمارستانات والجوامع، وصيانة وبناء السدود والترع والطرق، وخدمة وبناء الخانات على الطرقات وغير ذلك وقد مر معنا الكثير من الشواهد حول هذا الموضوع، ورأينا عمليات استبدال الأوقاف التي كانت في كثير من الأحيان تتم قسراً بضغط من السلطان على القضاة للإفتاء ببيعها واستبدالها، وهو أمر أفقد الأوقاف قيمتها العملية وأساء للخدمات التي قامت من أجلها، وكان السلاطين وكبار الأمراء يقومون بذلك لشراء الأوقاف بسعر بخس وبيعها بأسعار عالية أو امتلاك تلك الأوقاف، أو إزالتها لإقامة مشاريع جديدة فوق أرضها التي تكون قد ارتفعت أثمانها بتحسين المنطقة وتطورها. وقد تزايدت عمليات بيع الأوقاف في فترة المماليك الجراكسة. فقد كان الأمراء يتسابقون لشراء ممتلكات الأوقاف التي كانت تتم بموافقة القاضي وعلى مسؤوليته الذي يقوم بتغطية نفسه وراء الشهود والخبراء الذين يقررون السعر العادل والسبب الوجيه والفائدة من البيع والاستبدال، وكل ذلك يتم للأسف لقاء أموال يستفيد منها القاضي والشهود والخبراء على حساب الأوقاف لمصلحة الأمراء.<sup>(١)</sup>

## ٣ - بيع ممتلكات الدولة المودعة في بيت المال:

وهو يمثل رصيد الدولة ورأسمالها المُمَوَّن لكافة أعمال وإدارات الدولة وجيشها، وتم ذلك خصوصاً في فترتين الأولى في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع الهجري حيث تم بيع ما نسبته ٤٠.١ % من بيوع أملاك بيت المال التي وصلتنا قيودها خلال الأعوام ٨٥٣ . ٨٧٢ هـ / ١٤٤٩ . ١٤٦٨ م. وأكثر من باع هذه الأوقاف السلطان إينال وابنه أحمد والظاهر قشندم.

أما الفترة الثانية فهي السنوات العشرون الأخيرة من حياة الدولة المملوكية إذ جرى بيع ٣٧.٧ % من عمليات بيع أملاك بيت المال.

وهو بهذا المعنى إضعاف للدولة بشكل أو آخر، وإفقار للدخل الوطني مما ينعكس على كل نشاطات الدولة بمختلف الوجوه.<sup>(٢)</sup>

## ثانياً - تدهور التجارة :

وكان التدهور عاماً فعلى النطاق الداخلي ضعفت التجارة البرية بين مصر والشام بسبب فقدان الأمن وغزوات البدو، وكان على التجار أن يعبروا بقوافلهم الصحراء من القاهرة إلى غزة بالمرافقة العسكرية وذلك من عام ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ . ١٤٧١ م، وكان حراسة القافلة يتطلب مائتي بغير لتحقيق الأمن والسلامة.

١. (لابيدوس : مدن الشام ص ١٠٨).

٢. أبو غازي (د. عماد بدر الدين) : تطور الحياة الزراعية زمن المماليك الشراكسة، من سلسلة تاريخ مصر الاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ص ٢٨. ويشير إليه باسم أبو غازي : تطور الحياة الزراعية.



إضافة لمشاكل الطرق بحد ذاتها الناتجة عن سوء حال الطرق والخانات والآبار لعدم القيام بصيانتها بسبب ذهاب أوقافها.

ومن أسباب تدهور المداخل التجارية للسلطة المملوكية :

#### ١ - العائدات الجمركية :

التي انخفضت كثيراً، ففي قطيا انخفضت العائدات السنوية من ١٥٠٠٠٠ درهم إلى ٨٠٠٠. أو ذهبت في غير محلها فقد بلغت ضرائب مفتشي الأسواق مبالغ لم تصلها من قبل وفرضت ضرائب عالية على الممتلكات والرسوم المحددة على الناس بشكل واسع. وفرضت الضرائب على المدن بحجة الحملات العسكرية خصوصاً على مدينة دمشق<sup>١</sup> إلا أن المستفيد من تلك الضرائب لم تكن مالية الدولة على الإطلاق.

واكتشف العثمانيون لدى قيامهم بإحصائهم الرسمي الأول لمصر أن الدخل الكلي للعائدات انخفض من ٩.٥ مليون دينار إلى ٨.١ مليون دينار. وذلك لتأثر مصر بانخفاض عائداتها الهامة التي كانت مصدر ثروتها.

#### ٢ - ضريبة الأرض :

التي انخفض مردودها، كانت تؤخذ من الوجه البحري نقداً بينما تؤخذ من الوجه القبلي عيناً مما تغله الأرض قمحاً أو شعيراً أو من البقول والمحاصيل.

#### ٣ - الثروة المعدنية:

وكان مدخولها يعتمد على النطرون والذي كان يؤخذ ثلث المتحصل منه لنفقات الجيش. ثم الشب الذي كان يؤخذ ثلث متحصله لدفع رواتب الأمراء وبعض نفقات الجيش. ثم الزمرد الذي توقف إنتاجه بسبب قلة المردود منذ عهد الناصر محمد.

#### ٤ - الضرائب والمكوس:

التي كانت تعطي مردوداً عالياً فضرائب التجارة التي تصل إلى الإسكندرية كانت تعادل ما بين ١٠ ٪ ٢٥ من قيمة البضاعة ووصل دخل الدولة منها إلى ٤٠٠٠٠ دينار سنوياً. وكانت هناك ضرائب على التجارة الداخلية وعلى العقارات وعلى قطاعات واسعة من الصناعة والتجارة والمهن. إلا أن الفساد حول أكثر عائدات هذا القطاع لجيوب الخاصة.<sup>(١)</sup>

### ثالثاً - تدهور الصناعة:

فقد تدهورت صناعات كثيرة كان لها تأثيرها الكبير في الاقتصاد المملوكي. وبإنحدارها أدت إلى نقص واردات الدولة وبطلان تلك الصناعات مما أثر على العاملين فيها وعائلاتهم. من أهم تلك الصناعات :

١ . محمد ( : د. سامح عبد الرحمن فهمي ) القيم النقدية في الوثائق المملوكية . عصر المماليك البحرية، مكة المكرمة ١٩٨٤ ص ١١ . ١٢).

## ١ - صناعة السكر :

وأغلقت مصانع كثيرة في بعض المدن وخربت مزارع قصب السكر . ففي دمشق وحدها أدى اجتياح تيمورلنك للمدينة بخراب مطابخ ( معامل ) السكر ، فقد ذكر السائح الإيطالي دي ميجينانلي ، وهو شاهد عيان ، عن إنتاج السكر في دمشق : ( كان ينتج كل عام في ثمان مطابخ ما مقداره من السكر ثلاثة أو أربعة آلاف جرة ، وقد كانت هذه المطابخ ذائعة الصيت آنذاك في الصناعة . وكانت جرة السكر الدمشقية آنذاك تحتوي على ستمائة رطل بندقى . وحقاً إن هناك أشياء خرافية كثيرة يمكن ذكرها عن تلك المدينة وعن اضمحلالها الشديد بعد تدميرها وخرابها بصورة تثير الأسى عند سماعها و كما أنها أكثر إثارة عند رؤيتها. <sup>(١)</sup> )

## ٢ - صناعة النسيج :

فرغم بقاء صناعات النسيج في مصر والشام ، وبقاء كمية لا بأس فيها من الصادرات خصوصاً الحرير والمقصبات والمطرزات . إلا أن تدهوراً عاماً أصابها لعدة أسباب منها نقص اليد العاملة ، وعدم توفر الأموال الكافية لدى الممالك لشراء تلك المنتجات . وتم تهجير قسري لعدد كبير من الصناع المهرة من قبل تيمورلنك إلى سمرقند من أهالي الشام .

واشتدت منافسة الصناعات الأوروبية بسبب نشاط البنادقة والجنويين التجاري واتجاههم نحو مصادر الكارم . كذلك منافستهم التي بدأت تأخذ حيزاً في السوق العالمي لحصول مصانعهم على المواد الأولية الجيدة مثل الصوف الإنكليزي والأصبغة الجيدة مثل القرمز والزعفران ، والابتكارات العلمية التقنية مثل المطاحن الآلية التي تدار على الهواء (في ألمانيا) أو على الماء ونول المدوس ودولاب الغزل .

## ٣ - صناعة الورق :

كما صار يجري استيراد الورق من فرنسا وإيطاليا .

## ٤ - صناعة الصابون :

التي توقفت وصار يجري استيراد الصابون من إيطاليا أيضاً .

## ٥ - صناعة الخزف :

تدهورت صناعة الخزف في دولة الممالك . وصار يجري استيراد الخزف من الصين بعد أن فشل الخزافون المصريون عن تقليد طينة خزف الصين .

## ٦ - صناعة الحرير :

ثم صار يجري استيراد الحرير الأوروبي لمصر وبلاد الشام .

وكان لاحتكارات السلطان وكبار التجار والأمراء عامل سلبي في مضمار الصناعة والتجارة. <sup>(٢)</sup>

## رابعاً - تدهور الزراعة:

<sup>١</sup> . ( سليمان د. أحمد عبد الكريم ) تيمورلنك ودولة الممالك الجراكسة دار النهضة العربية بمصر طبعة ١٩٨٥ ص ٣٦ .

<sup>٢</sup> . ( اشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي : ص ٣٩٨ . ٤٠٠ ) .

فالأرض في الدولة المملوكية إما أن تكون ملكاً للفلاح له الحق في التصرف فيها كما يشاء، وهي قليلة المساحة لأنها تكون من فائض الإقطاع، وهذه الأراضي ومالكوها أكثر عرضة لتسلط الموظفين عليها وعلى حاصلاتها من جهد مالكيها وتعبه.

أو تكون إقطاعاً يتقاسم خيرات الأرض الأمير المُقطع وجنوده والفلاح بنسب شرحناها سابقاً. أو تكون ملكاً للدولة، ملكية كاملة، أو تكون قد منحت الدولة حق الانتفاع بريعتها لشخص من الأشخاص أو لجهة من الجهات، وهي تتحصل من الحائزين على ضرائب.<sup>(١)</sup> إلا أن تزايد تسلط الموظفين وأحياناً جفاف الأرض جعلت الفلاحين ينزحون عن أرضهم مهاجرين للمدن، وبالتالي فسد ربيع الأراضي وقل المحصول، ونتج عن ذلك ارتفاع لأسعار المنتجات الزراعية. كما يضاف إلى ذلك ضعف الفلاح وسوء أحواله وقلة مردود جهده. وزاد الأمر تعقيداً ظهور الأوبئة والأمراض، خصوصاً الطاعون الذي ذهب بمعظم الفلاحين، فقُلت اليد العاملة.<sup>(٢)</sup>

### خامساً - فقدان الأمن والأزمات :

ومن أسباب انحطاط وانهيار الدولة المملوكية فقدان الأمن أيضاً الذي يتمثل بما يلي :

#### ١ - عبث العربان:

الذين لم يرضهم الحكم المملوكي من الأساس، وظلوا واجهة مواجهته دائماً، والمعبرين عن سخط الشعب، فهم وحدهم المسلحون القادرون على إيقاع الخسائر في الجيش المملوكي، وكان هذا دأبهم دائماً رغم المعاملة القاسية والعنف الشديد في استئصال ثوراتهم، إذ لم يفلح معهم اتخاذ سياسة الإرضاء. إلا أن فوضى الحكم والإدارة في السلطنة شجعتهم على المواجهة، وبذلك أضافوا ضعفاً للدولة التي ينخرها الفساد والصراعات الداخلية للفوز بالسلطة والمغانم.

ورغم ذلك لم يذكرهم مؤرخونا بصفة الثوار أبداً، بل كان وصفهم بالغزاة والمشغبين، إلا أن الدراسات الحديثة. والغربية بشكل خاص، اعتبرت حركاتهم كنوع من الكفاح ضد المماليك الدخيلين على البلاد، واعتبرت جهودهم كنوع من الثورة ضد المماليك.

(ومع ذلك ففي أرض مصر من عبث العربان ونهبهم وتخريبهم وقطعهم الطرقات على المسافرين من التجار وغيرهم شيء عظيم قبحه، شنيع وصفه. والسلطان بعسكره في البلاد الشامية يجول وقد قال الله سبحانه وتعالى: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون.»<sup>(٣)</sup>)<sup>(٤)</sup>

١. أبو غازي : تطور الحياة الزراعية ص ٧.

٢. ضومط : الدولة المملوكية ص ١٣٣ . ١٥٢، اسماعيل ( البيومي ) النظم المالية ص ٣٣١ . ٣٣٥.

٣. سورة النمل الآية رقم ٤٤.

٤. المقرئزي : السلوك ، الطبعة المصرية: ج ٤ قسم أول ص ٣٩٤ . ٣٩٥.

فقد كان لغزوات البدو أثرها المدمر على الحياة السياسية والاقتصادية والسكانية في قطري الدولة مصر والشام فقد دمر البدو القرى الواقعة في مصر العليا في عقد ٨٦٠ . ٨٧٠ هـ / ١٤٥٦ . ١٤٦٦ م وتعرضوا لمؤن الحبوب الذاهبة إلى القاهرة، ودمرت ثورات البدو في الشام منطقة حوران والمناطق الواقعة حول حلب وطرابلس، ودمروا فيما بعد مناطق حماة وأجزاء من فلسطين ودمرت مدينة الرملة وأصبحت نابلس مسرحاً للقتال. وأصبحت دمشق مسرحاً لغزوات البدو أيضاً، فدمرت الغوطة التي انخفض عدد قراها من ٢٠٠ إلى ٤٠، كذلك دمرت منطقة البقاع وانخفض عدد قرى طرابلس من ٣٠٠٠ إلى ٨٠٠.<sup>(١)</sup>

## ٢ - قطاع الطرق :

الذين استغلوا ظروف الفوضى، فأدلو بدلوهم في الإخلال بالأمن الداخلي، وفي حرية التنقل في الطرق، وانسياب قوافل التجارة، وبالوقت نفسه الإقلال من هيبة الدولة، ولم يكن الولاة ببعيدين عن التعاون معهم، أو غض النظر عن نشاطهم لقاء مشاركتهم بناتج نشاطهم هذا. وامتدت أيدي هؤلاء إلى ما بين أيدي الناس من بضائع وأموال، وكل ذلك والولاة غافلون عنهم بجمع المال وإنفاقه بالحرام.<sup>(٢)</sup> وقد انتشرت حوادث القتل في المدن خصوصاً وقت الاضطرابات. ففي شهر ربيع الأول عام ٩١٠ هـ / أيلول - سبتمبر عام ١٥٠٤ م قتل أحدهم على باب داره، وبعده خنق بواب القيسرية. وفي رمضان قتل رجل وأبوه على باب دكانهما بالعمارة على ملأ من الناس، وبعده رئي مطروح في القيصرية كما قتل عواني، ثم أتى جماعة إلى شاب وضربوه بالسكاكين وتركوه ميتاً على باب داره.<sup>(٣)</sup>

## ٣ - الزلازل والأوبئة ونقص عدد السكان :

صدف أن اجتاحت الطاعون والأوبئة الدولة المملوكية عدة مرات، كما كان للمجاعات دورها في نقص أعداد السكان وكان معظم هذه المجاعات مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوي. وكان هناك ترابط بين الأوبئة والمجاعات فإحداهما كانت دائماً تسبب الأخرى. وتكون النتيجة دوماً موت أعداد كبيرة من الناس وتكدس في الجثث في الطرقات والأزقة. فتنشر الأوبئة والطاعون وبالتالي تكون النتيجة نقصاً في اليد العاملة وعدم توفر من يزرع الأرض ويحصد المحصول، وبذلك تتوقف الحركة الاقتصادية التي قد تمتد لسنين وقد وصفها المقرئزي قائلاً : ( إذا تأخر جري النيل بمصر يمتد الغلاء سنين<sup>(٤)</sup> ).

وكان الخوف من عدم وفاء النيل هاجس مصر منذ الأبد. ومن أسباب أزمات مصر أن الناس إذا تأخر النيل عن الفيضان يسارعون لجمع الأقوات خوفاً من فقد المواد أو ارتفاع الأسعار مما يسبب الأزمة

١ . ( لبيبوس : مدن الشام ص ٨١ . ٨٢، وانظر أيضاً بحث البدو في هذه الرسالة. ٨.)

٢ . أحمد : البذل والبرطلة ص ١٣٨.

٣ . ( ابن طولون : مفاهية الخلان الصفحات ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨١ و ٢٨٧ و ٣١٧ من المجلد الأول، علبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٣٥ - ١٣٦.)

٤ . ( المقرئزي : إغاثة الأمة ص ٤١ - ٤٢ ) .

قبل وقوعها. أضف إلى ذلك قيام بعض المتنفذين والتجار في التلاعب في الأسواق والأسعار مستفيدين من هذه الفرص.

وكانت مجاعة عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤-١٢٩٥ م من أكبر المجاعات وأدت إلى خلو قرى بكاملها من السكان بالموات أو الهجرة وكان نقص السكان من نتائجها ملحوظاً.

وكان الفناء الكبير سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م الذي قضى على أعداد هائلة من السكان. وعلى طوائف معينة بالكامل مثل التكرور السودان وعددهم ثلاثة آلاف شخص، ويقول المؤرخون المعاصرون: إن الفناء الكبير قضى على ثلثي السكان.

وكان للزلازل الكثيرة في حينها دورها، إذ خربت الكثير وقتلت الكثير<sup>(١)</sup>.

يضاف إلى ذلك كثرة الحروب والفتن سواء الخارجية أو المنازعات الداخلية وفتن العربان وغزواتهم. كل ذلك أثر على الاقتصاد وعلى الأسواق التي انخفض عددها أو تغيرت طبيعة عملها أو تلاشت نهائياً. (فمن الأسواق قد تخرب اثنان وخمسون سوقاً بعضها تصل حوانيته إلى ستين حانوتاً<sup>(٢)</sup>).

#### د - الفساد الأخلاقي :

بعد انتهاء عصر الحروب في السلطنة المملوكية أخذ الرخاء يعم أرجاءها، وأخذ الثراء يصيب أركانها بدءاً من السلطان فكبار الأمراء فالأمراء ثم الحاشية. وأخذت الأموال والعطايا تبذل هنا وهناك. وبالوقت نفسه ازدهرت تجارة الجواري والإماء. حتى امتلك بعض السلاطين والأمراء ما يفوق على ألف جارية. وأخذ الترف الجنسي ينتشر وتبعه الانحراف فأصبح الشذوذ الجنسي منتشراً بين الأمراء وحتى بعض السلاطين. وأصبح الجهر به يسير رويداً رويداً. وهذا الأمر غير مقبول بالشريعة الإسلامية وأي شريعة أخرى فكيف الحال بالحكام المماليك الذين وصلوا للحكم على أساس حماية الشريعة الإسلامية والإسلام عموماً. وزاد الطين بلة وصول ما عرف بالحكام الصغار الذين ليس لهم من الأمر إلا الاسم. وكان الأمر والنهي للمتسلطين من الأمراء. ولا بد في هذه الحال من وجود صراع بين هؤلاء، يتبع ذلك المؤامرات المحاكاة والايقاع بالآخر.

في ظروف كهذه انتشر الفساد في الدولة والمشروبات الكحولية والحشيش. وفقدت الرقابة التي كانت مفروضة من المحتسب والقضاة والولاة لغرق أكثرهم بهذه الآفات التي يكون نهايتها نهاية الدولة واضمحلالها.

وانتشرت مظاهر اللهو من مغانٍ ومومسات وغلماں. وأخذ هؤلاء بتقريبهما للسلطان والأمراء بالحصول على الأموال والمناصب. والثروات وبالوقت نفسه التمكن من السلطة باستخدام رجالاتها الذين أصبحوا طعماً سهلاً لهؤلاء. وأصبحت المغنيات والعاهرات يمثلن طبقة في المجتمع وفرض عليهن رسوم ومتحصل، وكانت رسومهن ترتفع وتتخفض حسب رواج مادتهن ورضى السلطان عليهن.

<sup>١</sup>. (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ) .

<sup>٢</sup>. (المقريزي : إغاثة الأمة ص ٣٣ - ٣٥، قاسم : عصر سلاطين المماليك ص ١٥٩ - ١٨٨ ) .

ولم تخل السلطة وبعض السلاطين من طيبة النية وصدق الحمية والتمسك بالشرعية، فكان لابد من الصراع بين هاتين الوجهتين. فكان يجري المنع أحياناً، وإتابة الخطايا وتزويجهن أحياناً أخرى. ثم لا يلبث أن يعود الأمر بالفساد للعلنية.

ولم يكن هذا الفساد مختصاً بالعصر المملوكي، فقد سبق إلى هذا الوضع الفاطميون وانتشر لديهم انتشاراً كبيراً حتى اضطر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ . ١٠١١ م منع المغاني وأصحاب الملاعب (من الركوب في القوارب إلى القاهرة في الخليج، وشدد في المنع، وسدت أبواب القاهرة التي يتطرق منها إلى الخليج، وأبواب الطاقات من الدور التي تشرف على الخليج، وكذلك أبواب الدور والخور التي على الخليج)<sup>(١)</sup>

ونقل المقرئ عن القاضي الفاضل: (قال القاضي الفاضل في متجددات حوادث سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م: ونهى عن ركوب المتفرجين في المراكب في الخليج، وعن إظهار المنكر، وعن ركوب النساء مع الرجال، وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم. قال: وفي يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان، ظهر في هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات، ومن الفواحش ما خرج من الدور إلى الطرقات، وجرى الماء في الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط، ووقوف الزيادة في الذراع السادس عشر، فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر، وبأيديهن المزاهر يضربن بها، وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة، وحرفاؤهن من الرجال معهن في المراكب لا يمنعون عنهن الأيدي ولا الأبصار، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار، وتوقع أهل المراقبة، ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة)<sup>(٢)</sup>

وبقي هذا الوضع بين منع وإباحة لنرى مرسوماً مشابهاً صدر عن الأميران بيبرس وسلار من أمراء السلطان محمد بن قلاوون عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ . ١٣٠٧ م:

(بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمي والتفرج فيه، بسبب ما يحصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات اللاتي تجمع الخمر مع آلات الملاهي، والنساء المكشوفات الوجوه المتزنيات بأفخر زينة، من كوافي الزركش والقنايز والحلي العظيم، ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة، ويقتل فيه جماعة عديدة، ورسم الأميران المذكوران لمولى الصناعة بمصر، أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور إلا ما كان فيه غلة)<sup>(٣)</sup>

ولم يكن هذا الأمر محصوراً بالعاصمة فقد انتشر في كل المدن في البلاد المصرية وبلاد الشام. ولم يكن الأمر مختصاً بالسلطان والأمراء بل تغشى المرض إلى العامة وأصبح الفساد ظاهرة واضحة. فقد جاء في السلوك عن حوادث سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م:

١. المقرئ: الخط ج ٢ ص ١٣٧.

٢. المقرئ: الخط ج ٢ ص ١٤٣.

٣. المقرئ: الخط ج ٢ ص ١٤٣.

(وفي مستهل شهر جمادى الأولى: رسم بإبطال ضمان المغاني، والأفراح بجميع أعمال مصر من أسوان إلى العريش، وكان قد أعاده وزراء السوء لكثرة ما يتحصل منه، فإن العرس ما كان يتهاى حتى يغرم أهله للضامنة خمسمائة درهم فما فوقها، بحسب حال أهل العرس، ولا تقدر امرأة وإن جاءت تنتقش إلا بإطلاق من الضامنة، ولا يضرب بدف في عرس أو ختان أو نحو ذلك إلا بإطلاق، وعلى كل إطلاق فريضة مال مقررة في الديوان، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها إلى الضامنة، فإن باتت في غير بيتها قامت. بمال للضامنة، وتدور في كل ليلة على بيوت المغاني جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من باتت منهن خارج بيتها، وكان على البغايا ضرائب مقررة؛ وأما في بلاد الصعيد والوجه البحري فإنه يفرد حارات للمغاني والبغايا تقوم كل واحدة منهن. بمال مقرر، فيكون هناك من التجاهر بالزنا وشرب الخمر ما يشنع ذكره، حتى لو مر غريب بتلك المواضع من غير أن يقصد الزنا لألزم بأن يأتي بغياً من تلك البغايا، ويكره على ذلك، أو يفندي بمال يدفعه إليها، حتى تقوم به مما عليها من الضريبة.)<sup>(١)</sup>

إذاً كان لضامنة المغاني ديوان وكتاب ومفتشون ولها مخبرون خاصون وكل ذلك تحت سمع ومرأى السلطة. وبلغت سطوة المغنيات وضامنة المغاني لدرجة كبيرة وصفها المقريري قائلاً: (وفي تاسع جمادى الآخرة سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م، أمر الملك الظاهر ببيرس بإقامة الخمر وإبطال الفساد، ومنع النساء الخواطي من التعرض للبغاء من جميع القاهرة ومصر، وسائر الأعمال المصرية، فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر، ونهبت الخانات التي كانت معدة لذلك، وسلب أهلها جميع ما كان لها، ونفى بعضهم، وحبست النساء حتى يتزوجن.

وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك، وحط المال المقرّر على البغايا من الديوان، وعوّض الحاشية من جهات حلّ بنظيره، وفي سابع عشر ذي الحجة سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٩٧ م، أريق الخمر، وأبطل ضمانها، وكان كل يوم ألف دينار، وكتب توقيع بذلك قرئ على المنابر، وافتتح سنة سبعين بإقامة الخمر، والتشدد في إزالة المنكرات، وكان يوماً مشهوداً بالقاهرة، وبلغه في سنة ٦٧٤ هـ / ١٣٠٥ م عن الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف: بصدر الباز، وكان قد تمكن منه تمكناً كثيراً أنه يشرب الخمر، فشنقه تحت قلعة الجبل.

وأبطل الملك الناصر، محمد بن قلاوون عدّة جهات قد ذكرت في الروك الناصري، وآخر ما أدركنا إبطاله ضمان الأغاني، وضمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (١٣٧٦ م)، على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.

فأما ضمان الأغاني فكان بلاءً عظيماً، وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة، وكان على النساء، إذا تنفسن أو عرسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء،

١. المقريري: السلوك ج ٥ ص ٤.

أو أراد أحد أن يعمل فرحاً لا بدّ من مال بتقرير تأخذه الضامنة، ومن فعل فرحاً بأغانٍ أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة حلّ به بلاء لا يوصف<sup>(١)</sup>.

وأصبح استخدام المغاني أمراً عادياً ولكل المناسبات ولجميع المستويات الاجتماعية:

فمن حوادث ٧٢١هـ / ١٣٢١ م أورد صاحب السلوك أن كريم الدين أكرم<sup>(٢)</sup> متولي الخاص أكرم خمساً من الأمراء بمناسبة تنصيبهم أمراء مائتين: (ونزلوا إلى المدرسة المنصورية بين القصرين، وقد أشعلت لهم القاهرة، وجلس المغاني بالحوانيت في عدة أماكن، وعمل لهم كريم الدين سمطاً جليلاً وفواكه ومشارب بالمدرسة، فكان يوماً مشهوداً.<sup>(٣)</sup>)

وحين مرض كريم الدين هذا سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣ م كان موضع اهتمام السلطان، فعندما شفي (ركب كريم الدين إلى القلعة، وتوجه بعد اجتماعه بالسلطان إلى القرافة، فكان يوماً مشهوداً، زينت فيه القاهرة زينة عظيمة، وصفت بها المغاني، وأشعلت الشموع، واجتمع الناس بالمدرسة المنصورية بين القصرين لأخذ الصدقات، فمات في الزحمة أربعة عشر إنساناً، وتأذى أناس كثيرة، ولم يفرق فيهم شيء. وخلع على جميع الأطباء، وأخرج أهل السجون، وتصدق بأموال جزيلة.<sup>(٤)</sup>)

وكانت قمة الفساد في عهد السلطان المنصور أبي بكر الذي انغمس باللذات وكانت سبباً في خلعه إذ لم يستطع الأمراء السكوت على مبادئه وتهتكه فعزلوه عام ٧٤٢هـ / ١٣٤١ . ١٣٤٢ م: (ركب الأمير قوصون والأمراء على الملك المنصور أبي بكر، وخلعوه من الملك في يوم الأحد عشريه، وأخرج أبو بكر هو وإخوته إلى قوص صحبة الأمير بهادر بن جرکتمر. وسبب ذلك أن السلطان قرب الأمير يلبغا اليحيائي، وشغف به شغفاً كثيراً، ونادم الأمير ملكتمر الحجازي، واختص به وبالأمر طاجار الدوادر وبالشهابي شاد العمائر وبالأمر قطليجا الحموي، وجماعة من الخاصكية، وعكف على اللهو وشرب الخمر وسماع الملاهي. فشق ذلك على الأمير قوصون وغيره، لأنه لم يعهد من ملك قبله شرب خمر. فحملوا الأمير طقزدمر النائب على محادثته في ذلك وكفه عنه، فزاده لومه إغراء، وأفحش في التجاهر باللهو حتى تحدث به كل أحد من الأمراء والأجناد والعامة. وصار السلطان يطلب الغلمان في الليل، ويبعثهم لإحضار المغاني، فغلب عليه الشراب في بعض لياليه، فصاح من الشباك على الأمير أيدغمش يا أمير آخور هات لي ابن عطعط فقال أيدغمش:

١ . المقرئزي : الخطط ج ١ ص ١٠٦ .

٢ . (وعبد الكريم هو عبد الكريم بن العلم هبة الله المسلماني، حصل له من الأموال والتقدم والمكانة الخطيرة عند السلطان ما لم يحصل لغيره في دولة الأتراك، وقد وقف الجامعين بدمشق أحدهما جامع القبيبات والحوض الكبير الذي تجاه باب الجامع، واشترى له نهر ماء بخمسين ألفاً فانقع به الناس انتفاعاً كثيراً، ووجدوا رفقاءً، والثاني الجامع الذي بالقابون. وله صدقات كثيرة تقبل الله منه وعفا عنه، وقد مسك في آخر عمره ثم صودر ونفي إلى الشوبك، ثم إلى القدس، ثم الصعيد فخنق نفسه كما قيل بعمامته بمدينة أسوان، وذلك في الثالث والعشرين من شوال، وقد كان حسن الشكل تام القامة، ووجد له بعد موته ذخائر كثيرة. ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٨ ص ٢٥١ .

٣ . المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٤٧ .

٤ . المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦٠ .



يا خوند ما عندي فرس بهذا الاسم فنقل ذلك السراخورية والركابية، فتداولته الألسنة. فطلب قوصون الأمير طاجار والشهابي شاد العمائر، وعنفهما وقال: سلطان الإسلام لا يليق به أن يعمل مقامات، ويحضر إليها البغايا والمغاني، وعرفهم أن الأمراء قد بلغهم هذا<sup>(١)</sup> حتى أصبح لكل سلطان أو أمير جوقة خاصة به، فقد جاء في النجوم الزاهرة في ترجمة المنصور محمد بن الملك المظفر حاجي:

(وكان محباً للهو والطرب راضياً بما هو فيه من العيش الطيب. وكان له مغان عدة، جوقة كاملة زيادة على عشر جوار يعرفون بمغاني المنصور، استخدمهم الوالد بعد موته. وكانت العادة تلك الأيام أن كل سلطان أو ملك يكون له جوقة من المغاني عنده في داره. ولم يخلف الملك المنصور مالا له صورة، وخلف عدة أولاد ذكورا وإناثا)<sup>(٢)</sup>

وقد وصل سعيير هذه الموجة حتى للشيخ فقد ذكر الصفدي في الوافي بالوفيات في ترجمة الشيخ شرف الدين بن الرومي قال:

(الشيخ شرف الدين ابن الرومي الصالح محمد بن عثمان بن علي شرف الدين أبو عبد الله المعروف بابن الرومي الشيخ الصالح.

كان من أكرم الناس لا يدخر شيئاً وكان كبير النفس عالي الهمة كثير التواضع لطيف الأوصاف منقطعاً في زاويته بسفح قاسيون لا يتردد إلى أحد إلا في النادر، يعمل الساعات ويطلع إليه الخلق الكثير من الفقراء والناس ويرقص من أول السماع إلى آخره ويخلع جميع ثيابه على المغاني ويرقص عريانياً ليس عليه غير السراويل، وله الحرمة الوافرة عند الأمراء والملوك ويحمل إليه من الفتوح شيء كثير فيخرجه من وقته، حضر حصار المرقب وعاد إلى دمشق فتوفي سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ودفن بزاويته في سفح قاسيون)<sup>(٣)</sup>

كان متحصل ضامنة المغاني والخمور كبير جداً. وكان لا يدخل ميزانية الدولة بل يكون في حساب خاص يذهب للأمراء. وكان السلطان إذا قرر منع الخمور وضمن المغاني يعوض على الأمراء بالمبلغ نفسه من خزينة الدولة. لذلك كان المنع والإعادة بسعي من الأمراء متكرراً وفكرة عن متحصل هذه الفئة تعطينا صورة عن رواجها واتساعها، فقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة عن حاصل جهات الفساد بدمشق وحدها مائة ألف دينار فقال ناقلاً:

(وقال أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قز أوغلي في كتابه مرآة الزمان: «سألته عن مولده فقال: فتوح الرها يعني سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م». وهذا نقل آخر في مولده. قال: وقد ذكرنا أحواله في السنين إلى أن استقر له الملك وامتد من بلاد الكرج إلى همذان والجزيرة والشام ومصر والحجاز ومكة والمدينة واليمن إلى حضرموت؛ وكان ثبناً خليقاً بالملك حسن التدبير، حليماً صفوحاً مديراً للملك على وجه الرضا، عادلاً مجاهداً ديناً عفيفاً متصديقاً، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ظهر جميع ولاياته من الخمور

١. المقرئ: السلوك ج ٣ ص ٣٣٥.

٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧.

٣. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٦٤.

والخواطئ والقمار والمكوس والمظالم. وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى. وكان واليه على دمشق البارز والمعتمد، أعانه البارز على ذلك، أقام رجالاً على عقاب قاسيون وجبل الثلج وحوالي دمشق بالجامكية والجراية يحرمون أحداً يدخل دمشق بمنكر. بلغني أن بعض المغاني دخلت على العادل في عرس فقال لها: أين كنت. فقالت: ما قدرت أجيء حتى وفيت ما علي للضامن. فقال: وأي ضامن؛ قالت ضامن القيان، فقامت عليه القيامة، وطلب المعتمد وعمل به ما لا يليق، وقال: والله لئن عاد بلغني مثل هذا لأفعلن ولأصنعن<sup>(١)</sup>

وكان لبنات الهوى في دمشق بيوت خاصة بقيسارية ابن الصقر التاجر قرب جامع التوبة في حي العقيبة، وانتقلت هذه البيوت إلى جوار المدرسة اليونسية في الشرف الأعلى بعد خراب بيوتهن الأولى، وقد نقل الناس من بيوتهن وأسكنت بنات الخطا<sup>(٢)</sup>.

وفي شهر رمضان سنة ٩١١ هـ / كانون ثاني - يناير ١٥٠٦ م ذهب إلى القاهرة شاب (متصلح) متصوف فصحب هناك بعض المردة، كعادته بدمشق وغيرها. فلما قرب شهر رمضان جاء مع رجل آخر إلى بعض الشهود بالقاهرة، بهيئة فتاة، وطلب أن يعقد على الرجل فأجيب إلى ما طلب، وبعد أيام لاحظ جيرانه الأمر فاشتكوا إلى الأمير طراباي، فوجدوه صبياً بزي بنت، فأمر بضربه بالمقارع وسجنه، فزاد الناس في قلة اعتقادهم بالمتصلحين<sup>(٣)</sup>.

وكانت تلك الموجة من الفساد سبباً لمنع التجول في الليل أحياناً ومنع النساء من الخروج. فقد جاء في تذكرة السلطان الناصر محمد لنائبه كتبغا المنصوري هذه التوصية التي تعتبر أمراً للتنفيذ: (يتقدم بأن لا يمشي أحد في المدينة ولا ضواحيها في الحسينية والأحكار في الليل إلا لضرورة، ولا يخرج أحد من بيته لغير ضرورة ماسة، والنساء لا ينصرفن في الليل ولا يخرجن ولا يمشين جملة كافية)<sup>(٤)</sup> وكان مدخول الخمر في الإسكندرية وحدها نحو أربعين ألف دينار سنوياً: (وفيه اشتد الأمير الحاج آل ملك النائب على والي القاهرة ومصر في منع الخمر وغيره من المحرمات، وتتبع أهل الفساد وإحضارهم إليه. ونودي بالقاهرة ومصر من أحضر سكراناً أو أحداً معه جرة خمر خلع عليه. فقعد العامة لشربة الخمر بكل طريق، وأتوه مرة بجندي قد سكر، فضربه وقطع خبزه، وخلع على من أحضره. وقبض العامة أيضاً على بعض مماليك الأمراء، وقد أحضر جرة خمر في مركب، فضربه وقطع خبزه. وأخذ النائب كثيراً من شربة الخمر وباعته بناحية شبرا الخيم ومنية السيرج، ومن المراكب، ومن البيوت، فضربهم عرايا، وكشف رؤوسهم، وصب عليهم الخمر وشهرهم. ونادى من اشترى عنياً بالقنطار قبض عليه، ويؤتي به إليه. فعرفه شاد الدواوين أن متحصل الديوان من معاملة العنب مائة ألف درهم، وقد بطلت، فلم يلتفت إليه، وتتجز مرسوم السلطان بالمساجة بذلك. وبعث النائب في خفية من اشترى له عنياً

١. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٥٣.

٢. (ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٢ و علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٦٣ .

٣. - (ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ٢ ص ٢٧٩. علي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : ص ١٣٨).

٤. القلقشندي : صبح طبعة مصر ج ١٣ ص ٩٢.

بدرهمين، فجاءه عشرة أرطال فطلب المحتسب، وأنكر عليه كيف يكون العنب بهذا السعر وقد منعنا من اعتصاره.

ومنع الأمير الحاج ملك النائب أن يحمل الفرنج إلى الإسكندرية خمرًا، فقام في ذلك جمال الكفاة، وذكر أنه يتحصل من ذلك في السنة نحو الأربعين ألف دينار، ومتى منع الفرنج من حمل الخمر فسد حال الإسكندرية، ومازال بالسلطان حتى منع النائب من ذلك.

وقد عرفت الخمر في بلاد الشام ومنها دمشق، ولكن الخمارات كانت تتعرض لحملات مستمرة من النائب أو القاضي. وكانت بعض الخمارات تعود ملكيتها لبعض الأمراء. ولما زاد عددها وشروطها اجتمع أهل دمشق بالجامع الأموي بسبب الخمارات، وركب القاضي الشافعي، وأزال خمارة الدودار، ثم ركب القضاة والمشايخ والأمراء، وأراقوا خمرًا كثيرة، وفي صفر سنة ٩١٣ هـ / تموز / يوليو ١٥٠٧ م ركب النائب الحاجب الكبير، وأراقوا الخمر، وأبطلوا الخمارات. (١)

وأبطل الأمير الحاج آل ملك النوايح من القاهرة ومصر، فقامت الضامنة عند الأمير قماري الأستاذار في إعادة النوايح، وخوفت أن جهته تبطل، وكان مرصده للحاشية، فمازال الأمير قماري يكلم الأمير الحاج آل ملك حتى أعادها. (٢)

ولكن تبدل الوضع كثيرًا عند وصول الملك الظاهر جقمق فقد أثر تدينه على الأمراء حوله فبعضهم تاب وبعضهم تظاهر بالتوبة والبعض الآخر لجأ للتستر على مجونه. وقد وصف المقرئ الذي حصل في المجتمع قائلًا ضمن حوادث سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م:

(وفي هذه السنة، أعني سنة أربع وأربعين وثمانمائة، جدد بالقاهرة وظواهرها عدة جوامع؛ منها جامع الصالح طلائع بن رزيق خارج باب زويلة، قام بتجديده رجل من الباعة يقال له عبد الوهاب العيني؛ ومنها مشهد السيدة رقية، قريباً من المشهد النفيسي، جدده الشريف بدر الدين حسين بن أبي بكر الحسيني، نقيب الأشراف؛ وجدد أيضاً جامع الفاكهيين بالقاهرة، وجامع الفخر بخط سويقة الموفق بالقرب من بولاق؛ وجدد أيضاً جامع الصارم أيضاً، بالقرب من بولاق؛ وأنشأ أيضاً جوهر المنجكي نائب مقدم المماليك، جامعاً بالرميلة، تجاه مصلاة المؤمني، وعمارته بالفقيري بحسب الحال؛ وأنشأ تغري بردي المؤذي البكلمشي الدودار جامعاً بخط الصليبية على الشارع الأعظم.

قلت: الناس على دين مليكهم، وهو أنه لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه والطرب، عمرت في أيامهم بولاق وبركة الرطلي وغيرهما من الأماكن، وقدم إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين وأمثالهم من المغاني والملاهي، إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة والعفة عن المنكرات والفروج، وأخذ في مقت من يتعاطى المسكرات من أمرائه وأرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم، وتصلح وتزهد، وصار كل أحد منهم يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف،

١. (علي: دمشق بين عهد المماليك والعثمانيين: ص ١٣٨. ١٣٩ وانظر ابن طولون: مفاكهة الخلان ج ١ صفحات ٢١ و ٣٠ و ٣٢ و ٨٠ و ١٥٨ و ٣١٤).

٢. المقرئ: السلوك سنة ٧٤٤ ج ٣ ص ٣٩٩.

فمنهم من صار يكثر من الحج، ومنهم من تاب وأقلع عما كان فيه، ومنهم من بنى المساجد والجوامع، ولم يبق في دولته ممن استمر على ما كان عليه إلا جماعة يسيرة؛ ومع هذا كان أحدهم إذا فعل شيئاً من ذلك، فعله سراً مع تخوف ورعب زائد، يرجفه في تلك الحالة صغير الصافر وخفق الرياح، فله دره من ملك، في عفته وعبادته وكرمه<sup>(١)</sup>

وكانت للمغاني رواتب تدفع من الدولة كان يجري قطعها بين الحين والآخر<sup>(٢)</sup> وكانت الخمر تهرب حتى في حالات المنع، وبلغ تهريبها حتى إلى القلعة: فقد جاء في السلوك عن حوادث سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م:

(واتفق أن الأمير ملكتمر الحجازي كان مولعاً بالخمر، ويحمل إليه الخمر على الجمال إلى القلعة. فمرت الجمال بالنائب وهو بشباك النياية، فبعث نقيباً لينظر أين تدخل، ويأتيه بالجمال. فلما دخلت الجمال بيت الحجازي، وتسلم الشربدار ما عليها، وقد فطن الجمال بالنقيب، تغيب في داخل البيت، وعرف الأمير ملكتمر الحجازي الخبر فأحضر الأمير ملكتمر النقيب، وضربه ضرباً مؤلماً، فقامت قيامة الأمير الحاج آل ملك النائب، وتحدث مع الأمير أرغون العلاني في الخدمة، وأنكر على الحجازي تعاطيه الخمر)<sup>(٣)</sup>

وقد كان بعض السلاطين ضحية بعض هؤلاء المغاني رغم كل ما ملكوه من جوازي ومحظيات وقد اشتهرت من هؤلاء مغنية عرفت باسم اتفاق دخلت لبيت الملك الناصر أحمد فحشها ابنه الذي أصبح سلطاناً، وهو الصالح إسماعيل ومن بعده أخيه الكامل شعبان:

واتفاق المولدة الجنس (نشأت عند ضامنة المغاني ببليس ثم انتقلت إلى ضامنة المغاني بمصر فعلمتها عند علي العجمي ضرب العود، ففاقت فيه وبلغت الغاية، فقدمتها الضامنة لبيت الناصر فحظيت عند الصالح إسماعيل بن الناصر وولع بها فأكثر لها من الإنعام حتى اختصها بنفس الجواهر وولدت منه. ثم شغف بها بعده أخوه الكامل وولدت منه أيضاً، ولم تكن جميلة وإنما تقدمت بالغناء ويقال أنه عمل لها عند ولادتها من الكامل بشخانة ودائر بيت وغشاء مهد المولود وما يناسبه فبلغ جميع ذلك ستة وثمانين ألف دينار مصرية، وأحيط بها في ولاية المظفر حاجي فوجد لها أربعون بذلة مكللة بالجواهر واللآلئ وثمانون مقنعة أقلها بمائتي دينار وأكثرها بألف، ثم أخرجت من القلعة، ثم استعادها المظفر وتزوجها وأعطاهما أضعاف ما كان يعطيها أخواه، وهام بها فأفرط ويقال أن عصبته بلغت قيمتها ألف دينار مصرية لاشتمالها على الجواهر النفيسة التي حصّلتها من ثلاثة سلاطين. ثم أخرجت في أيام

١. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٦ ص ١٠٧. ١٠٨.

٢. انظر المقرئ : السلوك ٧٤٨ ج ٤ ص ٦١.

٣. المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٤١٢.

الناصر حسن وقطعت رواتبها وتزوجها الوزير موفق الدين هبة الله بن السعيد إبراهيم، ورتب لها في السنة سبعمائة ألف درهم إلى أن مات عنها، وتنقلت بها الأحوال إلى أن ماتت<sup>(١)</sup>.

ولم تكن المغاني أو ضامنتهم في رغد عيش دائماً فقد كان منعهم وتغريمهم ومصادرتهم تجري بين الحين والآخر ففي حوادث سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ . ١٣٤٠ م (وفيها طلبت النساء المغاني وصودرن ما بين ثلاثة آلاف درهم وألف درهم الواحدة، وسجنّ بالحجرة أياماً حتى تاب بعضهن عن الغناء، وتزوج بقيتهن. وسبب ذلك أن الأمير آنوك بن السلطان كان يركب إلى جهة بركة الحبش، وعمر له بها حوشاً لطيره وموضعاً يبتزه به، وأحضر إليه مغنية تعرف بالزهرة، فشغف بها حتى بلغ السلطان ذلك. فأسر السلطان للأمير آقبا عبد الواحد أن يلزم شاد المغاني والضامنة بالإنكار على المغاني حضورهن مجالس الخمر وإقامة الفتن، وإلزامهن بمال يقمن به عقوبة لهن على ذلك<sup>(٢)</sup>).

وفي سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م (وفيه طلبت دبيعة مغنية عرب الجيزة، وكانت تخايل بالقلعة، وطلبت ضامنة المغاني أيضاً، وألزمها بمال في نظير ما حصل لهما من بيت المال)<sup>(٣)</sup>

وفي سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م (أبطل الأمير الكبير برقوق ضمان المغاني بمدينة حماة، وبمدينة الكرك وبمدينة الشوبك، وبناحية منية ابن خصيب من أراضي مصر وبناحية زفتا منها)<sup>(٤)</sup>

كذلك فعل الظاهر برقوق في سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م إذ أبطل (ضمان المغاني بالكرك والشوبك من البلقاء ومنية بني خصيب، وزفتي بديار مصر)<sup>(٥)</sup>

وأبطل الناصر برقوق سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨. ١٣٩٩ م ضمان المغاني بمدينة الكرك والشوبك وبمدينة بني خصيب وأعمال الأشمونين وزفتا ومنية غمر من أعمال مصر<sup>(٦)</sup>.

على أن ذلك كله لم يكن يعني اعترافاً رسمياً بوجود بنات الهوى، لأنهن كن يتعرضن بين الفينة والأخرى إلى حملات تأديبية من النائب (في دمشق) وحكومته، من ذلك مثلاً (خوزقة) أكبر بنات خطأ في دمشق تعرف باسم (جان سوار) ولا شك أنهن كن يتمتعن . مع ذلك . بحماية مستترة من أصحاب النفوذ، ولولا ذلك ما وسعهن البقاء والتجاهر بأفعالهن، ولعله قد يكون غريباً أن تخصص لهن بيوت يمارسن فيها البغاء في تلك الفترة<sup>(٧)</sup>.

١ . لابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، مادة اتفاق المولدة الجنس، وانظر أيضاً السلوك حوادث سنة ٧٤٢ ج ٣ ص ٣٣٥ . ٣٣٨.

٢ . المقرئ: السلوك ج ٣ ص ٢٧٩.

٣ . المقرئ: السلوك ج ٤ ص ٥٩.

٤ . المقرئ: السلوك ج ٥ ص ٩٧.

٥ . المقرئ: السلوك ج ٥ ص ٢٣٠.

٦ . المقرئ: السلوك ج ٥ ص ٤٤٧.

٧ . (علي: دمشق بين عهد المماليك والعثمانيين: ص ١٣٦ . ١٣٧).

إذ كان لبنات الهوى في دمشق، بيوت خاصة بقيسارية ابن الصقر التاجر، قرب جامع التوبة في حي العقيبية، ثم انتقلت بيوتهن إلى جوار المدرسة اليونسية بالشرف الأعلى، بعد خراب بيوتهن الأولى، وقد نقل الناس من بيوتهم وأسكنت فيها بنات الخطا.<sup>(١)</sup>

### وأخيراً صورة من انتقادات المؤرخين :

ولم يكن تردّي الوضع العام في المملكة ببعيد عن تعليقات وانتقادات بعض المؤرخين، فقد جاء في مفاكهة الخلان عن الشكاوي من (كثرة الخمر والفساد وبنات الخطا، حتى أن أحد الوجهاء مُسك مع بنت خطا. وأصبح اجتماع الشبان على الحشيش والخمر والنساء أمراً مألوفاً).<sup>(٢)</sup> من ذلك أيضاً ما جاء في النجوم الزاهرة فترة حكم السلطان برقوق الأولى حيث يرد ابن تغري بردي مدافعاً عن السلطان برقوق مما كتبه عنه المقريزي، وبها نتعرف على الفساد وطريقة ابن تغري بردي في تبريره:

(قلت: وزالت دولة الملك الظاهر برقوق كأن لم تكن . فسبحان من لا يزول ملكه . بعد أن حكم مصر أميراً كبيراً وسلطاناً إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً تفصيله: مدة تحكمه أميراً قبض على الأمير طشتمر العلاني الدوادر في تاسع ذي الحجة سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م إلى أن جلس على تخت الملك وتلقب بالملك الظاهر في يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام. وكان يقال في هذه المدة الأمير الكبير أتابك العساكر. ومن حين تسلطن في سنة أربع وثمانين المذكورة إلى يوم ترك واختفى في ليلة الإثنين خامس جمادى الآخرة من سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً، فهذا تفصيل تحكمه على مصر أميراً أو سلطاناً إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً. وذهب ملكه من الديار المصرية على أسرع وجه، مع عظمة في النفوس وكثرة ممالিকে وحواشيه، فإنه خلع من السلطنة وله نحو الألفي مملوك مشترى، غير من أنشأه من أكابر الأمراء والخاصكية من خشداشيته وغيرهم، هذا مع ما كان فيه من القوة والشجاعة والإقدام، فإنه قام في هذا الأمر بالقوة في ابتداء أمره وتوثب على الرئاسة والإمرة بيده دفعة واحدة حسب ما تقدم ذكره، ولم يكن له يوم ذاك عشرة ممالك مشتراة وأعجب من هذا ما سيكون من أمره في سلطنته الثانية عند خروجه من حبس الكرك، وهو في غاية ما يكون أوله إلى آخره.

وأما الملك الظاهر برقوق فإنه دام في اختفائه إلى أن قبض عليه بعد أيام على ما سنحكيه في سلطنة الملك الصالح مفصلاً إلى أن يسجن بالكرك ويعود إلى ملكه ثانياً.

وقال المقريزي . رحمه الله .: وكان في سلطنته مخطأً يخط الصالح بالطالح.

ومما حكاه المقريزي قال: وكان له في مدته أشياء مليحة، منها: إبطاله ما كان يؤخذ من أهل البرلس وشورى وبلطيم من أعمال مصر شبه الجالية في كل سنة.

قلت: وقد تجدد ذلك في دولة الملك الظاهر جقمق ثانياً في سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م.

١. (علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ١٣٦ ناقلاً عن كتاب في التاريخ ورقة ٢١٨ وابن طولون: مفاكهة الخلان ج ١ ص ٢٠ انظر الحاشية).

٢. (علي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: ص ١٣٦).

قال: وهو مبلغ ستين ألف درهم فضة. يعني عن الذي كان يؤخذ من هذه الجهات المذكورة، قال: وأبطل ما كان يؤخذ على القمح بثغر دمياط من المكوس، وما كان يؤخذ من معمل الفرائج بالجيزية وأعمالها والغربية وغيرها، وما كان يؤخذ على الملح من المكس بعينتاب وما كان يؤخذ على الدقيق بالبيرة من المكس. وأبطل أيضاً ما كان يؤخذ في طرابلس عند قدوم النائب إليها. من قضاة البر وولاية الأعمال. عن كل واحد خمسمائة درهم. وأبطل أيضاً ما كان يؤخذ في كل سنة من الخيل والجمال والبقر والغنم من أهل الشرقية من أعمال مصر. وأبطل ما كان يؤخذ من المكس بديار مصر على الدريس والحلفاء خارج باب النصر. وأبطل ضمان المغاني بالكرك والشوبك ومن منية ابن خصيب وزفتى من أعمال مصر. وأبطل رمي الأبقار بعد فراغ عمل الجسور على أهل النواحي. وأنشأ من العمائر في هذه السلطنة الأولى المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، ولم يعمر داخل القاهرة مثلها بعد مدرسة السلطان حسن ولا أكثر معلوماً منها بعد خانقاه شيخو. وله أيضاً الصهرج والسبيل بقلعة الجبل تجاه الإيوان. وعمر الطاحون أيضاً بالقلعة، وأنشأ جسر الشريعة على نهر الأردن بطريق الشام وطوله مائة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً. وجدد خزائن السلاح بثغر الإسكندرية. وعمر سور دمنهور بالبحيرة. وعمر الجبال الشرقية بالقيوم وزاوية البرزخ بدمياط وبنى قناطر بالقدس. وبنى بحيرة برأس وادي بني سالم قريباً من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. قال: وكان حازماً، مهاباً، محباً لأهل الخير والعلم، إذا أتاه أحد منهم قام إليه، ولم يعرف أحد قبله من الملوك الترك يقوم لفقيه، وقلماً كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده، إلا أنه كان محباً لجمع المال. وحدث في أيامه تجاهر الناس بالبراطيل، فكان لا يكاد يولى أحد وظيفة ولا عملاً إلا بمال، وفسد بذلك كثير من الأحوال. وكان مولعاً بتقديم الأسافل وحط ذوي البيوتات. قلت: وهذا البلاء قد تضاعف الآن حتى خرج عن الحد، وصار ذوو البيوت معيرة في زماننا هذا. انتهى.

قال: وغير ما كان للناس من الترتيب. واشتهر في أيامه ثلاثة أشياء قبيحة: إتيان الذكران حتى تشبه البغايا لبوارهن بالغلمان، وذلك لاشتهاره بتقريب الممالك الحسان. والتظاهر بالبراطيل، وكان لا يكاد يولي أحداً وظيفة إلا بمال، واقتدى بهذا الملوك من بعده. وكساد الأسواق لشحه وقلة عطائه، فمساوئه أضعاف حسناته. انتهى كلام المقرئ من هذا المعنى.

قلت: ونحن نشأح الشيخ تقي الدين المقرئ في كلامه حيث يقول: وحدث في أيامه ثلاثة أشياء قبيحة، فأما إتيان الذكران، فأقول: البلاء قديم، وقد نسب اشتهاه ذلك من يوم دخول الخراسانية إلى العراق في نوبة أبي مسلم الخراساني في سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩. ٧٥٠ م.

وأما اقتناؤه الممالك الحسان، فأين الشيخ تقي الدين من مشترى الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى حسان الممالك بأعلى الأثمان الذي لم يقع للملك الظاهر في مثلها، حتى إن الملك الناصر محمد قدم جماعة من مماليكه ممن شغف بمحبتهم وأنعم عليهم بتقادم ألوف بمصر، ولم يطر شارب واحد منهم، مثل بكتمر الساقى ويلبغا اليحياوي وألطنبغا المارديني وقوصون وملكتمر الحجازي وطقزدمر الحموي وبشتك وطغأي الكبير وزوجهم بأولاده، فحينئذ الفرق بينهما في هذا الشأن ظاهر. وأما قوله: أخذ البراطيل، فهذا أيضاً قديم جداً من القرن الثالث وإلى الآن، حتى إنه كان في دولة الملك الصالح إسماعيل

ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ديوان يعرف بديوان البذل . أعني بديوان البرطيل . وشاع ذلك في الأقطار وصار من له حاجة يأتي إلى صاحب الديوان المذكور ويبذل فيما يرومه من الوظائف، وهذا شيء لم يصل الملك الظاهر برقوق إليه.

وأما شحه فهو بالنسبة لمن تقدمه من الملوك شحيح، وإلى من جاء بعده كريم. والشيخ تقي الدين . رحمه الله . كان له انحرافات معروفة تارة وتارة، ولولا ذلك ما كان يحكي عنه في تاريخه السلوك قوله: ولقد سمعت العبد الصالح جمال الدين عبد الله السكسري المغربي يخبرني . رحمه الله . أنه رأى قرداً في منامه صعد المنبر بجامع الحاكم فخطب ثم نزل ودخل المحراب ليصلي بالناس الجمعة، فثار الناس عليه في أثناء صلاته بهم، فأخرجوه من المحراب، وكانت هذه الرؤيا في أواخر سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة ٧٧٨ هـ ١٣٧٦م، فكان تقدم الملك الظاهر برقوق على الناس وسلطنته تأويل هذه الرؤيا، فإنه كان متخلفاً بكثير من أخلاق القردة شحاً وطمعاً، وفساداً، ولكن الله يفعل ما يريد، والله الأمر من قبل ومن بعد. انتهى كلام المقرئ.

قلت: وتعبير الشيخ تقي الدين لهذه الرؤيا أن القرد هو الملك الظاهر فليس بشيء من وجوه عديدة، منها: أن برقوقاً لم يتسلطن بعد قتل الملك الأشرف إلا بعد أن تسلطن ولد الملك الأشرف المنصور علي وولده الملك الصالح أمير حاج. ثم تسلطن برقوق بعد ست سنين من وفاة الأشرف. ومنها أن الناس لما أخرجوا القرد في أثناء الصلاة كان ينبغي أن يعود ويصلي بالناس بعد إخراجه ثانياً صلاة أطول من الصلاة الأولى، فإن برقوق لما خلع عاد إلى السلطنة ثانياً ومكث فيها أكثر من سلطنته الأولى حتى كانت تطابق ما وقع لبرقوق. وقولنا: إن الشيخ تقي الدين كان له تارات يشكر فيها وتارات يذم فيها، فإنه لما صحب الملك الظاهر المذكور في سلطنته الثانية وأحسن إليه الظاهر أمعن في الثناء عليه في عدة أماكن من مصنفاته، ونسي مقالته هذه وغيرها، وفاته أن يغير مقالته هذه، فإنه أمعن، ويقال في المثل: من شكر وذم، فكأنما كذب نفسه مرتين. وبإجماع الناس أن الملك الظاهر برقوقاً كان في سلطنته الأولى أحسن حالاً من سلطنته الثانية، فإنه ارتكب في الثانية أموراً شنيعة: مثل قتل العلماء وإبعادهم والغض منهم، لما أفتوا بقتاله عند خروجه من الكرك. ونحن أعرف بأحوال الملك الظاهر وابنه الناصر من الشيخ تقي الدين وغيره، وإن كان هو الأسن ولم أرد بذلك الحط على الشيخ تقي الدين ولا التعصب للملك الظاهر، غير أن الحق يقال. والحق المحض فيه أنه كان له محاسن ومساوئ، وليس للإمعان محل، كما هي عادة الملوك والحكام. وبالجمله فهو أحسن حالاً ممن جاء بعده من الملوك بلا مدافعة. والله تعالى أعلم.<sup>(١)</sup>

وسقطت الدولة المملوكية تحت سناك خيل ومدفعية العثمانيين، تلك المدفعية ورمي البندق التي فشل المماليك في إقتنائها وإدراك أهميتها القتالية. انتهت دولة المماليك ولكنها تركت أثراً لا يمحي في

١ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٨٨ . ٢٨٩ .



التاريخ فقد كانت من أعظم دول الإسلام دفاعاً عن الإسلام في التاريخ. وحقت إنجازات عسكرية وسياسية وثقافية وعمرانية كثيرة في مصر والشام، وقدمت في الفنون آثاراً باقية، وكانت من أغنى الدول الإسلامية ثراءً وتنوعاً في المداخل القومية.

## - وختاماً:

- فقد بينت هذه الدراسة صورة واضحة عن الإدارة في بلاد الشام في عصري الدولة المملوكية الأولى والثانية، وبينت الفرق الواضح بين الدولة الأولى التي كانت فتية ملتزمة قوية صارعت الصليبيين والتتار وتغلبت عليهما. أما الدولة الثانية فكانت تمثل شيخوخة دولة المماليك بصراعات الأمراء والسلاطين الذين كان أكثرهم صغاراً. كما اتصفت الدولة الشركسية بصفة الفساد والرشاوى والتدهور الاقتصادي والعسكري والاجتماعي فيها.
- كما بينت الرسالة الإدارة في الدولة المملوكية التي اتصفت بالتنظيم والدقة، قبل أن يلحقها الفساد.
- ودرست مدى التقدم الذي جرى في عصر المماليك في سائر مظاهر الحياة وفي العمارة والعلوم وتبين لنا مدى الثراء الفاحش الذي أصبحت عليه الدولة، والذي انعكس إيجاباً على سائر مجريات الحياة.
- وبينت الرسالة أن الإدارة المملوكية كانت جزءاً من سلسلة نظم إدارية سبقتها وتتابعت معها.
- وأن الكتابة الديوانية التي أتت متسلسلة عبر عصور سبقت المماليك، إلا أن تلك الصورة من العلم والتأليف وصل قمة عالية في عصر المماليك.
- ودرست الرسالة التقسيم الإداري المملوكي الذي شابه ما قبله من تقسيمات إدارية تقريباً، إلا أن تأخر تحرير بعض النيابات كان سبباً لتأخر ظهور تلك النيابات.
- ودرست حال النيابات الثمانية التي تتألف منهم بلاد الشام بين نيابات صغرى وكبرى.
- وأظهرت الرسالة وجوه الإدارة والوظائف ومسؤوليات الموظفين في كل نيابة . وبينت الرسالة أن هناك قانوناً للموظفين يبحث في واجباتهم وحقوقهم يكاد يشبه قانوننا الحالي.
- كما بينت الرسالة ما قدمته السلطة الإدارية المملوكية من خدمات في البنية التحتية لمرافق الدولة مثل الطرق والسدود والمياه والنظافة في المدن. وبينت الدراسة مؤسسة البريد التي كانت متقدمة جداً وذات دور بارز في عصر دولة المماليك.
- وكشفت الرسالة ما قدمته الإدارة من خدمات للعامة من أمن داخلي عبر مؤسسة الولاة أو الشرطة، وما قدمت الدولة من رعاية صحية ووسائل التعليم في سائر أنحاء المملكة، وخصوصاً في بلاد الشام موضوع الرسالة.
- وأخيراً أوضحت الرسالة أسباب انحدار الإدارة المملوكية وفسادها الذي أدى أخيراً لسقوط الدولة واضمحلالها.

## المصادر والمراجع

- المصادر :

- (١) **اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء:** تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- (٢) **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم:** شمس الدين أبو محمد بن أحمد بن بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن ١٩٠٧.
- (٣) **الأحكام السلطانية والولايات الدينية،** أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ.
- (٤) **الاحكام السلطانية:** أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٠.
- (٥) **أعيان العصر وأعوان النصر:** خليل بن أبيك الصفدي، تحقيق محمد أبو زيد وآخرون، دار الفكر بيروت ١٩٨٨.
- (٦) **إغاثة الأمة بكشف الغمة:** تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، دار بن الوليد، حمص بدون تاريخ.
- (٧) **الإفاداة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر،** رحلة عبد اللطيف البغدادي، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة دمشق ١٩٨٢.
- (٨) **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك:** خير الدين التونسي، طبعة ١٢٨٤
- (٩) **العالم الإسلامي في العصر المغولي:** برتولد شبولر، ترجمة خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق ١٩٨٢.
- (١٠) **– إنباء الغمر بأنباء العمر:** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦
- (١١) **الانتصار بواسطة عقد الأمصار:** إبراهيم بن محمد بن دقماق، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق
- (١٢) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل:** مجير الدين الحنبلي، طبعة حجرية. وطبعة أخرى عن مكتبة المحتسب عمان ١٩٧٣.
- (١٣) **بدائع الزهور في وقائع الدهور:** ابن أبياس، طبعة القاهرة ١٩٦٦.
- (١٤) **بدائع السلك في طبائع الملك:** أبو عبد الله بن الأزرق، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، وزارة الاعلام بغداد ١٩٧٧.
- (١٥) **البداية والنهاية:** أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق علي بري. دار احياء التراث العربي. بيروت ١٩٨٨.

- (١٦) **البلدانيات**: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق حسام بن محمد القطان، دار العطاء، الرياض ٢٠٠١.
- (١٧) **تاريخ ابن قاضي شهبة**: أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٧٧.
- (١٨) **تاريخ الخلفاء**: جلال الدين عبد
- (١٩) **الرحمن بن أبي بكر السيوطي**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٤.
- (٢٠) **تاريخ صفد**: محمد بن عبد الرحمن الحسيني العثماني، تحقيق أ. د سهيل زكار، دار التكوين ودمشق ٢٠٠٩.
- (٢١) **التبر المسبوك في تواريخ الملوك**: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٥.
- (٢٢) **التبر المسبوك في ذيل السلوك**: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- (٢٣) **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، معرب عن الفارسية من قبل أحد تلامذته، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨.
- (٢٤) **تحفة الأحباب وبغية الطلاب**: للحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي تحقيق ليف من العلماء، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة بدون تاريخ.
- (٢٥) **تحفة الناظرين فيمن ولي من الملوك والسلطين**: عبد الله الشرقاوي. تحقيق رحاب عبد الحميد الغاري، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٦.
- (٢٦) **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب تحقيق د. محمد أمين ثلاثة أجزاء، ومطبعة دار الكتاب، القاهرة ١٩٧٦.
- (٢٧) **تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**: رحلة ابن جبیر الأندلسي، محمد بن جبیر الأندلسي وحررها وقدم لها علي أحمد كنعان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠١. رحلة ابن جبیر.
- (٢٨) **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي المتوفي سنة ٦٦٥ هـ دار الكتب الملكية بالقاهرة تصوير دار الجيل بيروت.
- (٢٩) **التعريف بالمصطلح الشريف**: القاضي ابن فضل الله العُمري شهاب الدين أحمد بن يحيى، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.

- ٣٠) **تقويم البلدان**: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء، دار صادر، بيروت.
- ٣١) **تهذيب سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط / مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩١.
- ٣٢) **ثلاث رسائل النقود الإسلامية**: تقي الدين أحمد بن عبد القادر المقرئ مطبعة الجوائب، قسطنطينية ١٢٩٨.
- ٣٣) **حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلطين**: محمد بن عيسى بن كنان، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت ١٩٩١.
- ٣٤) **الحسبة**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المكتبة الشاملة.
- ٣٥) **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م.
- ٣٦) **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، ابن تغري بردي تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، ١٩٩٠.
- ٣٧) **الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب**: محمد بن منكلي، تحقيق: نبيل أحمد، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠م.
- ٣٨) **الخراج وصناعة الكتابة**: قدامة بن جعفر، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨١.
- ٣٩) **الدارس في تاريخ المدارس**: عبد القادر محمد النعمي، تحقيق جعفر الحسيني، دمشق ١٩٤٨ و ١٩٥١. وطبعة أخرى فهرسها إبراهيم شمس الدين صدرت عن دار الكتب العلمية في بيروت سنة ١٩٩٠.
- ٤٠) **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**: لابن الشحنة، دار الكتاب العربي سورية ١٩٨٤
- الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ابن حجر (أحمد بن علي) العسقلاني: تحقيق: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م وطبعة أخرى مصورة صادرة عن دار الجيل بيروت. وطبعة ثالثة صادرة عن، دار إحياء التراث العربي، بيروت بلا تاريخ.
- ٤١) **درر العقود الفريدة: أحمد بن علي المقرئ**، تحقيق عدنان درويش و محمد المصري، دمشق، ١٩٩٥م..
- ٤٢) **ذيل مرآة الزمان: قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد اليونيني**. مطبعة دار المعارف العثمانية حيدر آباد الهند ١٩٥٤ . ١٩٦١.

- (٤٣) **رحلة العبدري:** أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري تحقيق د. علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق الطبعة الثانية ٢٠٠٥.
- (٤٤) **رسوم دار الخلافة:** أبو الحسن بن المحسن الصابي: تحقيق ميخائيل عواد، دار الرافدين بغداد ١٩٨٦.
- (٤٥) **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر:** محي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦ م.
- (٤٦) **الروض المعطار في خبر الأقطار:** محمد بن عبد المنعم الحميري تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٠.
- (٤٧) **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك،** غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، تصحيح بولس راويس طبعة باريس ١٨٩٤ أعاد النشر دار العرب للبستاني، القاهرة، ١٩٨٨. ١٩٨٩.
- (٤٨) **سراج الملوك:** محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي. مطبوع سنة ١٣٨٩ هجرية.
- (٤٩) **السلوك لمعرفة دول الملوك،** تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقرئ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩.
- (٥٠) **سنا البرق الشامي:** قوام الدين الفتح بن علي البنداري، تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١.
- (٥١) **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية:** أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران دار عالم الفوائد طبعة ١٤٢٩ مكة المكرمة.
- (٥٢) **السياسة الشرعية:** تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المكتبة الشاملة.
- (٥٣) **سير أعلام النبلاء:** محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٦.
- (٥٤) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب:** عبد الحي ابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت طبعة جديدة بدون تاريخ.
- (٥٥) **شذور العقود في ذكر النقود:** النقود الإسلامية: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية في النجف ١٩٦٧.
- (٥٦) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا:** أبو العباس أحمد القلقشندي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر. مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، القاهرة، ٢٠٠٤.
- (٥٧) **صبح الأعشى لصناعة الإنشا:** شرح وتعليق د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية

بيروت ١٩٨٧.

(٥٨) وطبعة مصر تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ج ١ و ٢ ود. سعيد عاشور ج ٣ و ٤ القاهرة ١٩٣٩ . ١٩٧١

(٥٩) **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع:** شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، بيروت دار الحياة تصويراً عن طبعة، القدسي، بدون تاريخ.

(٦٠) **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع:** شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الجيل بيروت، ١٩٩٢.

(٦١) **الطالع السعيد الجامع بأسماء نجباء الصعيد:** جعفر بن ثعلب الأدفوي، تحقيق سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م

(٦٢) الطبري طبعة أوروبا ج ٣ ص ٤٢٦ وج ٨ ص ٨٩ طبعة دار المعارف المصرية عام ١٩٧٩

(٦٣) **العبر في خبر من غبر:** الحافظ الذهبي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٥.

(٦٤) **العبر وديوان المبتدأ والخبر:** عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٨.

(٦٥) **عجائب المقدور في نوائب تيمور:** لابن عربشاه، أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي، تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦.

(٦٦) **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان:** بدر الدين محمود العيني (عصر سلاطين المماليك. تحقيق د. محمد أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

(٦٧) **الفلك المشحون في أحوال محمد بن طيلون :** محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي ، عني بنشره مكتبة القدسي والبيدر دمشق ١٣٤٨ هـ .

(٦٨) **فوات الوفيات:** محمد بن شاکر الکتبی، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٧٤.

(٦٩) **القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة:** أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب ابن الصيرفي، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد والدار المصرية اللبنانية. القاهرة.

(٧٠) **قوانين الدواوين:** أسعد بن مماتي، تحقيق عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩١.

(٧١) **قوانين الوزارة:** أبو الحسن الماوردي: تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد، د. محمد سليمان داود. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٧٨.

(٧٢) **القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف** أو رحلة قايتبأي إلى بلاد الشام ٨٨٢ هـ

- / ١٤٧٧ م. القاضي بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني المعروف بابن الجيعان، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، منشورات غروس برس ١٩٨٤.
- (٧٣) **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**: لکاتب مراکشي من القرن ٦ هـ ١٢ م. نشر د. سعد زغلول عبد الحميد، بغداد.
- (٧٤) **الكتاب العزيزي**: المسالك والممالك، حسن بن أحمد الملهبي، تحقيق تيسير خلف، دار التكوين، دمشق ٢٠٠٦.
- (٧٥) **كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية**: منصور بن بكرة الذهبي الكامل، تحقيق الدكتور عبد الرحمن فهمي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٦٦.
- (٧٦) **كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون**:، مصطفى القسطنطيني حاجي خليفة، دار الفكر بيروت ١٩٨٢.
- (٧٧) **لسان العرب**: لابن منظور، نسقه وعلق عليه علي شيري دار إحياء التراث العربي بيروت سنة ١٩٨٨.
- (٧٨) **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**: أحمد بن عبد الله القلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمدفراج، عالم الكتب، بيروت ٢٠٠٦.
- (٧٩) **مختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور**: محمد بن أحمد بن أياس الحنفي المصري، مطابع الشعب، القاهرة
- (٨٠) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار دولة المماليك الأولى**: لابن فضل الله العمري شهاب الدين بن أبي العباس أحمد بن يحيى، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٩٨٦
- (٨١) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: لابن فضل الله العمري شهاب الدين بن أبي العباس أحمد بن يحيى،، قطعة منه بعنوان: «مملكة مصر والشام والحجاز».
- (٨٢) **المسالك والممالك**: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خُرداذبه دار صادر بيروت تصويراً عن طبعة بريل ١٨٨٩.
- (٨٣) **مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، تحقيق الدكتور أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفران للتراث الإسلامي، لندن ١٩٩٥.
- (٨٤) **معالم القرية في طلب الحسبة**: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة القرشي



- ضياء الدين. ت ٧٢٩ هـ، المصدر موقع الإسلام الإلكتروني.
- (٨٥) **معجم البلدان**: ياقوت الحموي، دار صادر بيروت ١٩٧٧ وطبعة ثانية عام ١٩٨٤.
- (٨٦) **معيد النعم ومبيد النقم**: تاج الدين عبد الوهاب السبكي، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، مكتبة الخانجي في القاهرة، ١٩٩٣.
- (٨٧) **المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزعات القاهرة**: تحقيق د. محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩.
- (٨٨) **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨.
- (٨٩) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل. تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٢.
- (٩٠) **المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الانشا**: عبد الله بن لطف الله محمد بن بهاء الدين الخالدي تحقيق الدكتور خليل شحادة، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة القديس يوسف كلية الآداب والعلوم الإنسانية فرع الآداب العربية، بيروت عام ١٩٨٨.
- (٩١) **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**: يوسف بن تغري بردي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٦.
- (٩٢) **مواد البيان: علي بن خلف**، تحقيق د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح ليبيا ١٩٨٢.
- (٩٣) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**: المعروف بخطط المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ، المتوفي سنة ٨٤٥ هـ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٧.
- (٩٤) **المواكب الإسلامية في الممالك الإسلامية**: محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي، طبعة وزارة الثقافة / دمشق ١٩٩٣.
- (٩٥) **مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة**: جمال الدين بن تغري بردي طبعة كانتربريدج
- (٩٦) **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة**: القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المَعْرِب في حلى المَعْرِب، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠.
- (٩٧) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، دار الكتب العلمية، بيروت بلا تاريخ

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: شمس الدين أبو عبد الله محمد أبو طالب الأنصاري شيخ الربة، طبعة ليبزغ المانيا ١٩٢٣.

نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين: عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي، تحقيق محمد كمال عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧،  
(٩٨)

نزهة الأنام في محاسن الشام: تأليف أبي البقاء عبد الله البدري، دار الرائد العربي بيروت ١٩٨٠.  
(٩٩) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر: موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي، تحقيق الدكتور أحمدحطيط، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦،

(١٠٠) نزهة النفوس في بيان المعاملة بالفلوس: شهاب الدين أبو العباس أحمدبن الهائم، تحقيق أ. د. شكران خربوطلي. دار التكوين، دمشق ٢٠٠٧.

(١٠١) نظم العقيان في أعيان الاعيان: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق فيليب حتي، دار ومكتبة بيبليون، بيروت ٢٠٠٥.

نقد الطالب لزغل المناصب : شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي , تحقيق نظم العقيان في أعيان الاعيان: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق فيليب حتي، دار ومكتبة بيبليون، بيروت ٢٠٠٥.  
(١٠٢)

نكت الهميان في نكت العميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي و دار المدينة سنة ١٩١١ نسخة مصورة.

(١٠٣) نهاية الأرب في فنون العرب: شهاب الدين أحمدبن عبد الوهاب النويري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ.

(١٠٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري الطبري وموقع الإسلام الالكتروني.

(١٠٥) هدية العارفين: إسماعيل الباباني وهو ملحق بكتاب كشف الظنون وذيل له طبع دار الفكر بيروت ١٩٨٢.

(١٠٦) الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي، تحقيق هلموت ريتير، دار صادر بيروت ١٩٦٢ .  
١٩٧١،

## - المراجع العربية والمعرّبة:

- (١٠٧) الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار: د. حسن الباشا، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨.
- (١٠٨) أبجد العلوم: صديق حسن خان القنوجي: تحقيق عبد الجبار زكار وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٨.
- (١٠٩) الآثار الإسلامية الأولى، ك. كريزويل ترجمة وتعليق عبد الهادي عبله وأحمد غسان سبانو. دار قتيبة دمشق، ٢٠٠٦.
- (١١٠) أحوال العامة في حكم المماليك، الدكتورة حياة الحجي، جامعة الكويت، ١٩٨٤.
- (١١١) الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، محمود رزق سليم، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٧.
- (١١٢) أصالة الدواوين والنقود العربية، عبد المتعال محمد جبري مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٩.
- (١١٣) أضواء جديدة على الحروب الصليبية: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤.
- (١١٤) أضواء على صناعة الكتابة الديوانية عند العرب منذ نشأتها حتى العصر المملوكي، الدكتور سليم الحسنية، مطبوعات وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٧.
- (١١٥) أطلس تاريخ الإسلام: د، حسين مؤنت، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة
- (١١٦) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢.
- (١١٧) أعلام المهندسين في الإسلام: أحمد تيمور باشا، مطابع دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٥٧م.
- (١١٨) الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار: د. حسن الباشا، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٨.
- (١١٩) أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين ٩ و ١٠ هجرية. جامعة الكويت، ١٩٩٥.
- (١٢٠) الأيوبون والمماليك في مصر وبلاد الشام: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، دون تاريخ وطبعة جديدة للكتاب مزينة ومنقحة صدرت عن دار النهضة العربية بالقاهرة عام ١٩٩٣.
- (١٢١) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة ١٩٩٣.
- (١٢٢) بادية الشام: كريستينا فيليبس غرانت، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، دار رسلان دمشق، ٢٠٠٧.

- (١٢٣) البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك: الدكتور أحمد عبد الرزاق أحمد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٩.
- (١٢٤) بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية، د. فيصل الشلي، دار الزمان، ٢٠٠٨. الشلي.
- (١٢٥) بلدانية فلسطين العربية: الأب أ. س. مرمجي الدومنيكي. عالم الكتب، بيروت ١٩٨٧.
- (١٢٦) التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي والمماليك البحرية: د. يوسف درويش غوانمة. دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٢.
- (١٢٧) تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر، القاهرة بلا تاريخ.
- (١٢٨) التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى: آ. آشور، ترجمة عبد الهادي عبلة وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة دمشق، ١٩٨٥.
- (١٢٩) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: الدكتور أحمد عيسى بك، دمشق ١٩٣٩ م.
- (١٣٠) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى: ف. هايد، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٨.
- (١٣١) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، أ. محمود السيد. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٨.
- (١٣٢) تاريخ القدس من أقدم الأزمنة إلى اليوم: عارف العارف، دار أسمر باريس، ٢٠٠٥.
- (١٣٣) تاريخ المماليك البحرية وخاصة في عصر الناصر محمد بوجه خاص: علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٨.
- (١٣٤) تاريخ المماليك عادل زيتون جامعة دمشق، ١٩٩٢. تاريخ المماليك في مصر بلاد الشام: الدكتور محمد سهيل طقوش، دار النفائس، بيروت ١٩٩٧.
- (١٣٥) تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، إحسان عباس، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨.
- (١٣٦) تاريخ دولة المماليك: السير وليم موير، ترجمة محمود عابدين وسليم حسين، طبعة القاهرة دار مدبولي ١٩٩٥.
- (١٣٧) تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي: د. يوسف درويش غوانمة. دار الحياة، عمان ١٩٨٢.
- (١٣٨) تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي: عبد الرحمن زكي، القاهرة، ١٩٦٩ م.

- (١٣٩) **تطور الحياة الزراعية زمن المماليك الشراكسة:** من سلسلة تاريخ مصر الاجتماعي، د. عماد بدر الدين أبو غازي، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٠ م.
- (١٤٠) **التقويم:** أكرم حسن العلبي دار المصادر، بيروت ١٩٩١.
- (١٤١) **تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة،** د أحمد عبد الكريم سليمان، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٥
- (١٤٢) **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام في زمن الحروب الصليبية:** د. محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٥.
- (١٤٣) **جغرافية مصر** من كتاب الممالك والممالك لأبي عبيد البكري: تحقيق د. عبد الله يوسف الغنيم. الكويت ١٩٨٠.
- (١٤٤) **جهود المماليك في تصفية الوجود المغولي بالشام:** د. نعمان الطيب سليمان، مطبعة الحسان الإسلامية. القاهرة ١٩٨٨.
- (١٤٥) **جولة أثرية:** أحمدوصفي زكريا، دار الفكر . دمشق ١٩٨٤
- (١٤٦) **الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري:** د. إبراهيم فرغلي، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٠.
- (١٤٧) **الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة:** د. محمد كمال الدين عز الدين عالم الكتب، بيروت ١٩٩٠.
- (١٤٨) **الحصان العربي وخيول العالم:** ترجمة أحمد غسان سبانو طبعة دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٩٥.
- (١٤٩) **حكام دمشق:** موفق فوزي الجبر طبعة دمشق ٢٠٠٦
- (١٥٠) **خانقاه الصوفية بمصر في عصر دولة المماليك البرجية:** د. عاصم محمد رزق، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٧.
- (١٥١) **خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي:** د. عاصم محمد رزق. مكتبة المدبولي القاهرة ١٩٩٧.
- (١٥٢) **الخزانة الشرقية حبيب الزيات،** المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤٦
- (١٥٣) **خطط الشام:** محمد كرد علي، مكتبة النوري دمشق ١٩٨٣.
- (١٥٤) **دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية،** دار المعرفة بيروت بدون تاريخ
- (١٥٥) **دراسات في النظم العربية والإسلامية:** د. توفيق سلطان اليوزبكي، جامعة الموصل ١٩٧٧.

- ١٥٦) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك: حمدي عبد المنعم محمد حسين، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ٢٠٠٠.
- ١٥٧) دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامي ومصادره: دكتور محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة ١٩٨٨.
- ١٥٨) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، أكرم حسن العليبي. الشركة المتحدة للتوزيع دمشق ١٩٨٢.
- ١٥٩) دمشق عبر العصور جورج جيراردو، ترجمة. لينا موفق دعبول، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٧.
- ١٦٠) دمشق في عصر المماليك. الدكتور نقولا زيادة، مكتبة لبنان، ١٩٦٦. زيادة.
- ١٦١) دمشق في عصر ساطين المماليك: أحمد ابيش، دار الشرق دمشق، ٢٠٠٥.
- ١٦٢) دمشق مقالات مجموعة، أحمد غسان سبانو، دار قتيبة ١٩٨٥.
- ١٦٣) الدول الإسلامية: ستانلي لين بول، ترجمة محمد صبحي فرزات، مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق، ١٩٧٤.
- ١٦٤) الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري): د. أنطون خليل ضومط. دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠. ضومط.
- ١٦٥) دولة بني قلاوون في مصر: الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، الدكتور محمد جمال الدين سرور، دار الفكر العربي.
- ١٦٦) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء: نعمان القساطلي، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٢.
- ١٦٧) السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك (فترة حكم السلاطين المماليك البحرية، الدكتور حياة الحجي، جامعة الكويت، ١٩٩٧.
- ١٦٨) سورية نبع الحضارات: فاطمة جود الله، دار الحصاد ودار الكلمة، دمشق ٢٠١٠. سورية نبع الحضارات
- ١٦٩) الشرقية في عصري الأيوبيين والمماليك: د. محمد فتحي الشاعر، دار المعارف بمصر ١٩٩٧.
- ١٧٠) شعر الجهاد في الحروب: د. محمد علي الهرفي، مؤسسة الرسالة ١٩٨٠.
- ١٧١) صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل المماليك، الدكتور حامد زيان غانم، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٨
- ١٧٢) شمس الحضارة العربية الإسلامية: د. عمار محمد النهار، دار أفنان دمشق ٢٠٠٨. شمس الحضارة: النهار.

- (١٧٣) **الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره:** محمد جمال سرور، طبعة القاهرة ١٩٣٨.
- (١٧٤) **الظاهر بيبرس،** بيتر توراو، ترجمة محمد جديد، دمشق ٢٠٠٢.
- (١٧٥) **العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك:** مع رحلة الأمير يشبك الدوادار، محمد الحلبي الملقب بابن أجا، حققه أحمد محمد دهمان، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦.
- (١٧٦) **عشائر الشام:** أحمد وصفي زكريا، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥.
- (١٧٧) **عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف:** دار المعارف، القاهرة.
- (١٧٨) **العصر المفترى عليه عصر المماليك:** الدكتور عمار محمد النهار، دار النهضة، دمشق ٢٠٠٧.
- (١٧٩) **العصر المماليكي في مصر والشام:** د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦.
- (١٨٠) **العصر المملوكي:** من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية: نادية محمود مصطفى، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٩٦.
- (١٨١) **عصر سلاطين المماليك: التاريخ السياسي والاجتماعي،** دكتور قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٨.
- (١٨٢) **عظمة آشور: هاري ساغز،** ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، الدار السورية الجديدة، دمشق ٢٠٠٢.
- (١٨٣) **عظمة بابل: هاري ساغز،** ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، الدار السورية الجديدة، دمشق ٢٠٠٢.
- (١٨٤) **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى:** د. فايد حماد نسيم، دار المعارف بمصر. دون تاخير.
- (١٨٥) **العلاقات بين الشرق والغرب:** الدكتور عزيز سوريال عطية، ترجمة الدكتور فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة ١٩٧٢.
- (١٨٦) **علاقات بين الشرق والغرب:** د. عبد القادر أحمد اليوسف، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٩.
- (١٨٧) **العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي:** د. أحمد عبد الكريم سليمان، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٨.
- (١٨٨) **الفكر الإداري الإسلامي والمقارن،** الأصول العامة، حمدي أمين عبد الهادي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥.

- ١٨٩) الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري: محمود نديم أحمدفهم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.
- ١٩٠) الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية: د. حسن الباشا، دار النهضة العربية، القاهرة دون تاريخ.
- ١٩١) فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك: تحقيق الدكتور محمد أمين، كلية آداب جامعة القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي لآثار الشرقية بالقاهرة، بدون تاريخ.
- ١٩٢) قاموس الكتاب المقدس: تحرير د. بطرس عبد الملك، ود. الكساندر طمس والـأستاذ إبراهيم مطر: دار مكتبة العائلة الطبعة الثالثة عشر، بيروت ٢٠٠٠ م. قاموس الكتاب المقدس.
- ١٩٣) قاموس المنجد في اللغة والاعلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٥
- ١٩٤) القاهرة وبيت المقدس ودمشق، دافيد مارجوليوث، ترجمة خالد أسعد عيسى، أحمدغسان سبانو، دار علاء الدين، ٢٠٠٠.
- ١٩٥) القدس في العصر المملوكي: د. علي السيد علي. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠١.
- ١٩٦) القرى والبلدات في جنوب بلاد الشام، أحمدوصفي زكريا، إعداد أحمدغسان سبانو. دار رسلان، ٢٠٠٨
- ١٩٧) قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري: الدكتور أحمدحطيط، الفرات، ٢٠٠٣
- ١٩٨) القلاع أيام الحروب الصليبية: فولفغانغ مولر. فيز. ترجمة محمد وليد الجلال، مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٨٢.
- ١٩٩) القلاع والحصون في سورية: أكرم ساطع، دار دمشق ومكتبة أطلس، دمشق بدون تاريخ.
- ٢٠٠) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام: أحمدمختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٢.
- ٢٠١) قيام دولة المماليك الثانية: د. حكيم أمين عبد السيد. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.
- ٢٠٢) القيم النقدية في الوثائق المملوكية، عصر المماليك البحرية: د. سامح عبد الرحمن فهمي محمد، الطبعة الأولى مكة المكرمة ١٩٨٤.
- ٢٠٣) كتاب الالفاظ الفارسية المعربية: إدي إشر، دار العرب للبستاني، بيروت ١٩٨٨.
- ٢٠٤) اللانقية عبر العصور: غيد الياس بيطار. دار المجد للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠١.



- ٢٠٥) لمحات عن خلفاء وملوك العصر الإسلامي: وليد مصطفى خالد، دار البشائر، دمشق ٢٠٠٥.
- ٢٠٦) ماهية الحروب الصليبية: د. قاسم عبده قاسم، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٠.
- ٢٠٧) مجمل تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية: د. ناصر الأنصاري. دار الشروق، القاهرة ١٩٩٣.
- ٢٠٨) المجمل في تاريخ مصر: د. ناصر الأنصاري، طبعة القاهرة ١٩٧٠.
- ٢٠٩) المدارس العصرية في بلاد الشام: د. صادق أحمد داود جودة، مؤسسة الرسالة، دار عمار، بيروت ١٩٨٦.
- ٢١٠) مدن الشام في العصر المملوكي: ايرا مارفين لايدوس، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق ١٩٨٥. مدن الشام
- ٢١١) المدينة المنورة في العصر المملوكي: عبد الرحمن مديرس المديرس، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ٢٠٠١
- ٢١٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون: أ. د. سعاد ماهر محمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية طبعة القاهرة ١٩٧١.
- ٢١٣) المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، الدكتور عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، دون تاريخ.
- ٢١٤) المسكوكات الإسلامية: إشراف إبراهيم جابر الجابر، إعداد أحمد الحمد موسى، هيئة المتاحف لقطرية. ٢٠٠٦.
- ٢١٥) المشاهد والآثار في بلاد الشام: أحمد وصفي زكريا، إعداد أحمد غسان سبانو، دار رسلان، دمشق ٢٠٠٨. المشاهد والآثار.
- ٢١٦) مشاهد دمشق الأثرية: عادل عبد الحق وخالد معاذ، مطبعة الترقى، ١٩٥٠. مشاهد دمشق الأثرية.
- ٢١٧) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٢.
- ٢١٨) مصطلحات صبح الأعشى، محمد قنديل البقلي، نشر باعتباره الجزء الخامس عشر لصبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر، القاهرة ٢٠٠٤.
- ٢١٩) معالم حلب الأثرية، عبد الله حجار، حلب ١٩٩٧.

- (٢٢٠) معالم وأعلام، أحمد قدامة، دمشق ١٩٦٢.
- (٢٢١) معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، دار الفكر دمشق، ١٩٩٠.
- (٢٢٢) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، إدوارد فون زامباور، دار الرائد العربي ١٩٨٠، وهناك طبعة ثانية باخراج د. زكي حسن بك: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٨ ج ١ و ٢.
- (٢٢٣) معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية: د. قتيبة الشهابي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥.
- (٢٢٤) المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري: مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٩٠.
- (٢٢٥) معجم دمشق التاريخي: د. قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة السورية ١٩٩٩.
- (٢٢٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ.
- (٢٢٧) الملابس المملوكية: ل. أ. ماير ترجمة صلاح الشيتي، مراجعة وتقديم الدكتور عبد الرحمن فهمي محمد، الهيئة المصرية للكتاب،
- (٢٢٨) ملف القدس، بإشراف مصطفى طلاس، مركز الدراسات العسكرية، دمشق ٢٠٠٤
- (٢٢٩) الملوك: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي. تحقيق خضر أحمد خضر مكتبة أفراح.
- (٢٣٠) المماليك في مصر: أنور زقلمة، طبعة القاهرة ١٩٩٥
- (٢٣١) المماليك: د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.
- (٢٣٢) مملكة حماة الأيوبية، أحمد غسان سبانو، دار قتيبة دمشق ١٩٨٤..
- (٢٣٣) مملكة حمص في العصر الايوبي: منذر الحابك، دار طلاس، دمشق ٢٠٠٠.
- (٢٣٤) مملكة صفد في عهد المماليك، طه ثلجي الطراونة. دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١.
- (٢٣٥) من كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشا: للقلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، السفر الخامس، اختصار وتعليق عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٣
- (٢٣٦) موانئ البحر الأحمر: وأثرها في تجارة دولة المماليك: د. خالد محمد سالم العميرة، دار الملك عبد العزيز دون تاريخ.
- (٢٣٧) الموجز في تاريخ مصر: د. ناصر الأنصاري، طبعة القاهرة ١٩٩٣

- (٢٣٨) موسوعة الحصان العربي: أحمد غسان سبانو دار فادي برس لندن ١٩٩٢.
- (٢٣٩) الموسوعة الفلسطينية: الأولى إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق ١٩٨٤. الموسوعة الفلسطينية.
- (٢٤٠) نظم الفاطميين، الدكتور عبد المنعم ماجد ج ١ و ٢ دار الطباعة الحديثة القاهرة.
- (٢٤١) النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، د. البيومي إسماعيل، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨ البيومي إسماعيل.
- (٢٤٢) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، الدكتور عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية ج ١ وج ٢ طبعة ١٩٧٩.
- (٢٤٣) النقود العربية وعلم النميات: انسطاس ماري الكرمل، المطبعة العصرية القاهرة ١٩٣٩.
- (٢٤٤) نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، الدكتور عادل عبد الحافظ حمزة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.
- (٢٤٥) نيابة غزة في العهد المملوكي: محمود علي خليل عطا الله. دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٦.
- (٢٤٦) وثائق من عصر سلاطين المماليك: محمد محمد أمين، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، دون تاريخ.
- (٢٤٧) ٢٣١. ولاية دمشق في عصر المماليك: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق ١٩٨٤.
- (٢٤٨) المخطوطات:
- مخطوطة تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، والكتاب تهذيب لكتاب التعريف (مكتبة الاسكوريال في مدريد رقم FOS 550 M. S. 1197، ويتألف من ١٢٠ ورقة مزدوجة الصفحات).

#### – المصادر الأجنبية:

- 1) La Poste aux Chevaux dans L'empire des Mamelouks، J. Sauvaget، Paris، 1941
- 2) A Social and Economic History of the Near East in the middle Ages; E. Ashtor، Collins، London 1979.

- 3) **Education and Society: Higher Religious Learning in the Late Medieval Cairo**, Jonathan Porter Berkey, Princeton University, 1989.
- 4) **Jerusalem in the Ayyubid and Mamluk Eras**, Karl R. Schaefer, New York University, 1985.
- 5) **Mamluk Painting**, Duncan Haldane, Aris & Philips LTD Warminster .England 1978.
- 6) **Crusades A Short History**, Jonathan Riley . Smith, the Athlone Press London, 1986.
- 7) **Crusader Castles**, T. E. Lawrence, Immel Publishing, London 1992.
- 8) **Crusade and Mission**, Benjamin z. Kedar Princeton University Press. 1988.
- 9) **A History of the Crusades**, Steven Runciman 1965.
- 10) **The Caliphate its rise, decline and fall**, Muir. W. London 1942
- 11) **The Caliphate**, T. Arnold: Oxford 1924
- 12) **Encyclopedia of Islam**, New Edition, Leiden, E. J. Brill 1978.
- 13) **Storm from the East**, Robert Marshall, Penguin Books. B B C books.
- 14) **A Short Account of Early Muslim Architecture**, K. A. C. Creswell, Pelican Book 1958.
- 15) **Apostasy in Mamluk Period The Politics of Accusation of Unbelief**, Hanaa H. Kilany
- 16) **A Dissertation in Asian and Middle Eastern Studies**, Omar, university of Pennsylvania, 2001
- 17) **Sunni Ulama And The Reform of Religious Offices in Medieval Egypt**, 637 . 676 H. /1240 . 1277, Lahmuddin Lahmuddin, University of Arkansas, 2004.
- 18) **Mamluk Cavalry Practices: Evolution and Influence**, Isolde Betty Nettles, University of Arizona, 2001.
- 19) **Mamluk Ideological and Diplomatic Relations With Mongol and Turkic Rulers of the Near east and Central Asia (658 . 807 H / 1260 . 1405**, Anne Falby Broadbridge, Chicago, Illinois, 2001.
- 20) **Mamluk Authority, Meccan Autonomy and Red Sea Trade**, 797 . 859 H /1395 . 1455, John Lash Melony, Chicago, Illinois, 1998.
- 21) **State Formation and the Structure of Politics in Mamluk Syro . Egypt**, 648 . 741H/1250 . 1340, Winslow W. Califford, Chicago, Illinois, 1995.
- 22) **Marco Polo** Maurice Collis, Faber and Faber, London.
- 23) **The Trail of Tamerlane**, John Ure, Constable London 1980.
- 24) **A Short History of The Arab Peoples**, John Bagot Glubb, Quartet Books, 1980.
- 25) **Arabian Society in The Middle Ages**, Edward William Lane, Curzon Press, London
- 26) **Islam Art and Architecture**, Markus Hattstein and Peter Delius Konemann.

27) Chonicles of The Crusades, Edited by Elizabeth Hallam, Weidenfeld And Nicolson, London 1989.

28) The Crusaders Kingdom: Joshua Prawer, Phoenix Press, London 1972.

29) Art of Mamluks: Esin Atule, Smithsonian Institution, Washingtonm D. C. 1981.

30) Mamluk Panting: Ducan Haldane & Philips LTD England 1980

### – المجلات والصحف والدوريات:

- ١ . مجلة تاريخ العرب والعالم: تصدر عن بيروت العدد ١٩ لعام ١٩٨٠
  - ٢ . مجلة المدار: الصادرة عن اتحاد الكتاب والناشرين العرب في المملكة المتحدة وأوروبا، الصادرة في لندن العدد ٢ لعام ٢٠٠٦.
  - ٣ . مجلة الصوفية المتجددة: الصادرة في لندن العدد ٢٠ لعام ١٩٨٩
  - ٤ . مجلة المجمع العلمي العربي: دمشق، المجلد الأول العدد ١ . ١٢ من ١ / ١ / ١٩٢١ أعيد طبعها عام ١٩٦٩.
  - ٥ . المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، عدد ٣٩ لعام ١٩٩٢ مقال التقسيم الإداري في مصر زمن المماليك الاتراك.
  - ٦ . المجلة التاريخية المصرية: المجلد الخامس، الصفحة ١١٢، ج ٤١ مقال التقسيم الإداري في مصر زمن الممالك البحرية.
  - ٧ . مجلة المعرفة السورية: العدد ٥٥١ آب ٢٠٠٩ مقال تاريخ شبكتي البريد عند العرب، د. أجفان الصغير.
  - ٨ . مجلة العمران الصادرة عن وزارة شؤون البلديات العدد الخاص عدد ٢٩ . ٣٠ مقال شوقي الكيلاني: تطور التعليم في حماه.
  - ٩ . مهرجان أبي الفداء: مجموعة أبحاث المهرجان، مقال إحسان العظم ص ١٦٧ . ١٦٨
- 10 . Daily Mail: Newspaper, London, Thursday, February 4. 2010. Article: Very Unholy Crusades, by William Napier Pages 34 . 35.

## ملاحق البحث:

### الملحق الأول :

#### شرح أهم المصطلحات الواردة في البحث:

**الأتابك:** لفظة تتألف من كلمتين تركيتين: اطا: بمعنى أب، بك: بمعنى السيد. أي السيد الأب، أو أبو الأمراء ومهمته الوصاية على أولاد السلطان وتربيتهم، وفي عصر المماليك أطلق على القائد العام لجيوش الدولة.

**الأحباس والأوقاف:** حفظ العقار من التبدد، وتخصيص دخله إما لأسرة مؤسس الوقف وإما إلى مؤسسة دينية، وفي عصر المماليك انفصلت الأحباس عن الأوقاف وصار لكل منهما ديوان مستقل. **آدر الضرب:** مفردا دار، ويقصد بها: دور سك العملة.

**الإستادار:** هو المتحكم في أمر البيوت السلطانية كلها: من مطبخ وحاشية وخدم، وله استدعاء ما تحتاج إليه هذه البيوت من متطلبات ونفقات وكساوى.

**الاستيمار:** أوراق رسمية كانت تستخدم في دواوين الدولة، تنص على العطاء والرسوم المقررة في بداية كل سنة وكذا النفقات. ومنها تم اشتقاق تعبير الاستمارة.

**الأغربة:** مراكب حربية كبيرة تشبه رأس الغراب وتعمل بمائة وعشرين مجدافاً.

**الأمين:** كاتب يتبع صاحب الديوان، ويساعد الشاهد، وينوب عنه في غيابه.

**الأهراء:** هي شون غلال الدولة أو حواصلها. وبها كانت تخزن كافة أنواع الحبوب.

**الأوشاقية (الأوجاقية):** الأوشاقي لفظ أعجمي مفردا أوجاقي، هو من يتولى ركوب الخيل لرياضتها.

**بازهنجات:** فتحات في كم الثوب الواسع الكمين والمشقوق من الأمام الذي يسمى «جبة».

**البرواناه:** لفظ فارسي معنى (الحاجب paravan) أو الحاجز.

**البشتمبخ:** مسند يضعه الجالس خلف ظهره، ويكون للأمراء من الجوخ الأحمر.

**البشمقدار (البجمقدار):** الذي يحمل نعل السلطان.

**البطال:** المغضوب عليه من قبل الدولة ولا يعمل بسبب جرم سياسي وله مكان محدد لإقامته لا يجوز له مغادرته.

**البنود:** (ج بند) وهو العلم الكبير أو هو شريط من القطن المصبوغ يشدّ على الوسط بدل الحزام.

**البيمارستان:** كلمة فارسية مشتقة من لفظي: بيمار: أي مريض، وستان: وتعني المكان أو الموطن

أي المكان الذي يوجد فيه المرضى وهو ما نسميه بالمستشفى.

**التسمير:** وسيلة عقاب، ويبدو أنها عبارة عن دق المسامير في جسم المحكوم عليه.

**التشاريق:** الإنعامات من الملابس ينعم بها السلطان على الأمراء، وكل تشريف بحسب المناسبة.

**التكفور:** لقب ملك الأرمن ومعناه (المتوج).

**التوسيط:** نوع من العقاب عبارة عن وضع الشخص على خشبة تشبه الصليب بعد تجريده من ملابسه، ثم يضربه صاحب السيف بشدة فيقسم جسمه إلى نصفين من الوسط.

**الجالية:** تطلق على أهل الذمة لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب ثم لزم هذا الاسم كل من وجبت عليه الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوها عن أوطانهم.

**الجامكية:** وهي الرواتب التي تصرف للمحاربين، وأصلها كلمة فارسية.

**جباية المراكب:** ضريبة يدفعها كل مركب أو سفينة تبحر في النيل، وتختلف من مركب إلى آخر بحسب حجم المركب وقيمة البضاعة المحملة، وفي حقيقته أن من على ظهر المركب هم الذين يجبرون على جمع هذه الضريبة فيما بينهم لتدفع إلى الضامن، وبالتالي كان المسافرون الفقراء يعانون من دفع هذه الضريبة مما حمل ابن قلاوون على إلغاء هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م.

**الجشارات:** أماكن رعي الماشية.

**الجمدار:** الذي يقوم بإلباس السلطان.

**الجمقدار:** الذي يمشي في المواكب عن يمين السلطان ويحمل دبوساً ضخماً.

**الجهبذ:** وهو محرر إيصالات الدفع والقبض.

**الحاشر:** أحد كتاب المال المكلفين بحراسة الأجران وبمنع الفلاحين من التصرف بها إلا بإذن كتابي من العامل.

**الحائز:** أحد الكتاب المكلفين بإحصاء أهل الذمة.

**الحاصل:** ما يكون في بيت المال.

**حامل الجتر:** الذي يحمل المظلة فوق رأس السلطان.

**الحراريق:** مفردها: حراقة وهي مراكب حربية كبيرة يعبر اسمها عن وظيفتها في إحراق سفن العدو بالنفط وكان يجذف بها ما يقرب من مائة مجداف.

**الحسبة:** وظيفة دينية قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

**الحمالة:** نوع من السفن الحربية.

**الحمايات:** مكوس تفرض على الأراضي والمتاجر والمراكب، تدفع إلى الأمير فيحمي مقابلها من يدفع.

**الخازن:** أحد الكتاب المكلفين بقبض وتخزين الغلال وإخراجها عند الطلب.

**الخاصكية:** فرقة من الجند مقربون للسلطان وملازمون له في خلواته، ومنهم يُؤمر كبار الأمراء كالنائب والوزير.

**الخانقاه:** لفظ فارسي يعني المائدة أو المكان الذي يأكل فيه الملك ثم أطلق اللفظ على الدور الضخمة التي يقوم على إنشائها الملوك والأمراء من أجل إيواء غرباء المسلمين وتعني أيضاً رباط الصوفية.

**الخراج:** ما يخرج من غلة الأرض، وأيضاً المال الذي يحصل في أوقات معينة.  
**الخراجي:** المقررات المالية التي تحصل على الأراضي الزراعية سنوياً.  
**الخركاه:** بيت من خشب يَغشَى بالجوخ وتحمل في السفر لتوضع في الخيمة.  
**خمس الغنائم والمعادن:** مقدار المال المحصل لصالح بيت المال من أسلاب الحروب والمعادن المستخرجة

**الخواجا:** (الخواكجي) لقب أكابر التجار.  
**الدرج:** الورق المستطيل المؤلف من عشرين وصلاً.  
**الدرك:** مكان الحراسة المستمرة.  
**الدركاه:** فارسية بمعنى الساحة أو الحوش.  
**الدلق:** لباس للعلماء والصوفية متسع الأكمام.  
**الدوادار:** اسم فارسي مكون من لفظين: دواة: وهي دواة الحبر وقلمه ودار: بمعنى الممسك. والمعنى حامل الدواة. وصاحبها.

**ديوان الأملاك:** ديوان يدير جميع أملاك السلطان أنشأه الظاهر برقوق.  
**ديوان التحقيق:** اختصاصه مراجعة الحسابات التي تخص الدولة.  
**الرختوان:** متولي أمر القماش وهو غلام تحت يد مهتار الطشت خاناه.  
**رسوم الأفرح:** ضريبة يتكفل أحد الضمان بجمعها من كل عرس يجري بحيث يدفع أصحاب ذلك العرس هذه الضريبة، ولا يمكن عمل أي عرس دون دفعها وشكل عبئاً مالياً على الطبقة الفقيرة من الناس. وقد ألغى محمد بن قلاون ذلك سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م.

**رسوم الولاية:** ضريبة يقوم بجمعها الولاة والمقدمون من جميع البيوت ذات السمعة السيئة في كافة مدن سلطنة المماليك، بل كانت تؤخذ من كل شخص يقوم بممارسات غير أخلاقية. وكان مجموع هذه الضريبة يدفع كمرتبات للأجناد. وفي سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ألغى الناصر محمد بن قلاون هذه الضريبة من أجل حرمة البيوت والعمل على القضاء على الممارسات غير الأخلاقية في الدولة.  
**الركستوانات:** الغاشية المزركشة التي تغطي سرج الحصان.

**الروك:** في كتب المؤرخين مصدر الفعل الثلاثي راك، ومعناه مسح الأراضي في بلد من البلاد، لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال. وكان الخراج في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية المنبع الرئيسي لدخل الدولة من تصرف أعطية الجند ورواتب الولاة وموظفي دواوين الدولة، فما زاد منه أودع في بيت المال، ويسمى هذا النظام المالي بنظام الأعطية. وقد مر في العصور الإسلامية الأولى ثلاث مرات: المرة الأولى على يد رفاعة عامل خلافة الوليد وأخيه سليمان بن عبد الملك الأموي حوالي سنة ٩٧ هـ / ٧١٥. ٧١٦ م والمرة الثانية كانت على يد ابن الحجاب في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي



سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م المرة الثالثة كانت على يد ابن مدير في خلافة المعز لدين الله الفاطمي ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م. ثم حل نظام الإقطاع في مصر الأيوبية محل نظام الأعطية وهي في الديار المصرية تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً: يكون للسلطان منها أربعة قراريط، والأمراء عشرة قواريط.

**الزرد خاناه:** دار السلاح.

**شاد الدواوين:** يرافق الوزير في التفتيش على مالية الدولة.

**شد:** كلمة ترادف لفظة التفتيش.

**شد دار الضرب:** صاحبها يجب أن يعرف قوانين المعاملة والسكة والعيار.

**شد الزكاة:** وظيفة بدمشق يتحدث متوليها عن تجارة الكارم، يتولاها جندي.

**شد الشراب خاناه:** موضوعها التحدث عن أمر الشراب خاناه السلطانية.

**شد المينا:** من الوظائف بمدينة طرابلس.

**شعار السلطنة:** أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان السلطان يظهر بها في المواكب.

**الصاحب:** استخدم لفظ الصاحب أولاً كنعت شخصي ثم كلقب فخري عام واسم وظيفة. وقد أطلق

لقب «الصاحب» في عصر المماليك على الوزراء من أرباب القلم.

**الضامن:** وهو الكفيل أو الملتزم الذي يتولى لحسابه جمع ضريبة من الضرائب التي يفرضها

السلطان، ويضمن في مقابل توليه ذلك مبلغاً معيناً من المال يدفعه للجهة المختصة سنوياً.

**ضمان تجيب:** ضريبة تجبى من العبيد الغلمان والجواري مما يمارسون السلوك غير الأخلاقي، فعمل

الناصر محمد على محاربة هذه السلوكيات غير الأخلاقية من خلال إلغاء الضريبة التي تجمع منهم

نتيجة السماح لهم بهذا العمل غير الشرعي وغير الأخلاقي، وقد ألغيت سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م.

**ضمان القاريط:** ضريبة بيع الابنية، وكان مكساً على كل من باع داراً ولو تكرر بيعها في الشهر

الواحد مراراً، فلا بد أن يؤخذ أيضاً مكس معلوم، ولا يستطيع أحد من الشهود أن يكتب توقيعه في مكتوب

دار حتى يرى الختم في المكتوب أي على عقد البيع، وقد أبطل الملك الأشرف هذا النوع من الضمان.

**ضمان المغاني:** من أشنع الأمور وأقبحها، فما كان أحد يستطيع إقامة عرس حتى يغرم قدر عشرين

إلى ثلاثين مثقال ذهب، وكانوا بمصر لا تغيب مغنية عن بيتها ولو إلى زيارة أهلها، إلا أخذ الضامن

منها رشوة. وفي الأرياف كان للمغاني حارة مفردة يعمل فيها من الفجور جهراً ما يقبح ذكره، ومن اجتاز

بها غلطاً ألزم أن يزني بخاطئة، فإن لم يفعل فدى نفسه بشيء.

**الطائفة الأويراتية:** هم النتر الوافدية، وهم قبائل من المغول وفدوا إلى دولة المماليك، والتجؤوا إليها

وتوطنوا في بلاد الشام ومصر وصاروا من جملة فرق الجيش المملوكي.

**الطباق:** جمع طبقة وهي تكتات جيوش المماليك بالقلعة، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين

من بلد واحد.

**الطبلخاناه:** البيت الذي يحوي الطبول، وأمراء الطبلخاناه: رتبة في الجيش كان يسمح لحاملها بحيازة أربعين فارساً.

**طُشت خاناه:** حيث تغسل ثياب السلطان، ولها مهتار وغللمان «طُشت دارية».

**الطرائد:** سفن حربية مخصصة لحمل الخيل وكانت تسع ما بين ٤٠ و ٨٠ فارساً.

**الطرار:** كلمة فارسية الأصل تعني «التطريز» ثم صارت تطلعه على الثوب الموشى الذي يرتديه الملوك والأمراء، وأخيراً أطلق هذا اللفظ على الدار التي يصنع فيها الثياب وأيضاً على المادة المستخدمة في التطريز، وأيضاً على الكتابة التي تكتب على البردى في دار صناعة أوراق البردى.

**العبرة:** مقدار المربوط من الأموال على كل إقطاع من الأرض أي أن هذا الاصطلاح المالي يعبر عن الإيراد.

**العشاريات:** مراكب نيلية لحمل الغلال.

**العشور:** ما يحصل من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها. وأيضاً ما يحصل على التجارة.

**العصر:** نوع من التعذيب يوقع على المذنب حيث يحضر له آلة تسمى المعصرة يمكنها عصر أي جزء من جسمه فتضغط عليه بشدة مما يسبب له ألماً شديداً.

**الغاشية:** الغطاء المزركش للسر

**الفرجية:** ثوب واسع من الصوف طويل الكمين.

**الفنداق:** أوراق تسجل بها القياسات وقت إجرائها.

**قانون الخراج:** سجل مفصل به أنواع الأراضي وأسماء مزارعيها، ويرجع إليه في أمور الجباية.

**القصة الحاكمية:** ترجع نسبتها إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، وكانت تستعمل في قياس الأرض وطولها خمس أذرع بالنجاري (ذراع النجار)، وستة أذرع بالهاشمي وبلغ الفدان ٤٠٠ قصة حاكمية أي ٢٠×٢٠ وبالحساب نجد أن طول القصة آنذاك ٣. ٨٨٤ ومساحة الفدان ١٨٢. ٦٠٣٤ متر مربع.

**القطر:** عصير القصب المقطر الخالي من الشوائب.

**القند:** عسل القصب إذا جمد.

**الكاتب:** أحد مباشري الأموال، ويؤدي اختصاصات العامل إذا غاب.

**كاتب السر:** ناظر ديوان الإنشاء وهو المسؤول عن قراءة الكتب للسلطان والرد على الرسائل وقراءة القصص بدار العدل.

**الكارم:** أصلها الكانمي نسبة إلى الكانم وهم فرقة من السودان كانوا بمصر يتاجرون في البهار المجلوب من اليمن فعرف بهم.

**الكاغد:** ورقة كبيرة يكتب فيها مثل القرطاس والطومار.

**الكافل:** من ألقاب نائب السلطنة، النائب الكافل أو كافل السلطنة.

**كافل الممالك:** هو كافل السلطنة.

**كتاب الدرج:** وهم من الطبقة الثانية من موظفي ديوان الإنشاء، وعليهم الرد على ملاحظات كتاب الدست وناظر الديوان. وسموا بذلك بسبب تحريرهم كتبهم على دروج وهو ورق مستطيل مركب من عشرين وصلاً متلاصقة.

**كتاب الدست:** وهم من الطبقة الأولى كتاب بديوان الإنشاء، وسموا بذلك نسبة إلى دست السلطان وهي المرتبة التي يجلس عليها وهم من حوله للكتابة.

**كتابة المربعات:** يعين كتابها نائب الشام وهي خاصة بالإقطاعات.

**الكراع:** كلمة تطلق على الدواب والخيول وآلات الاصطبل.

**الكمخا:** القطيفة الحرير.

**كنبوش:** برذعة تكون تحت السرج على الخيول.

**الكوسات:** صنوج نحاسية تدق في مناسبات معينة.

**الماسح:** موظف بديوان النظر كانت مهمته قياس الأرض الزراعية.

**المباشرون:** موظفو الدواوين والأعمال ومنهم الناظر والمستوفي والشاد.. إلخ

**المراسيم السلطانية:** يكتب المراسيم السلطانية مستوفي الصحة ويعلم عليها السلطان، تارة تكون بما يعمل في البلاد وتارة بإطلاقات وتارة باستخدامات كبار في صغار الأعمال وما يجري مجراها وفي ديوان الصحة تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية وتصدر المراسيم السلطانية كذلك باعتماد حضور رسل الملوك.

**المربعات:** هي مراسيم مربعة تكتب في ورق شامي وتكتب من ديوان الخاص بخط مباشرته، وتكتب بالاقطاعات في نصف فرخة مكسورة في القطع البلدي وتستهل بالبسملة ويبعث بها إلى ديوان الإنشاء فيكتب عليهما صاحب الديوان بالتعيين على بعض كتاب الإنشاء من مباشري الديوان فيكتبها ويخلد المربعة شاهداً عنده.

**المربعات الجيشية:** جرت عادة ديوان الجيش أنه إذا عين ناظر الجيش المثل أو القصة أو الأشهاد على أحد من كتاب ديوان الجيش يخلد الكاتب ذلك عنده ثم تكتب به مربعة من ديوان الجيش وتكسى بالخطوط اللازمة وتجهز إلى ديوان الإنشاء فيعينها كاتب السر على من يكتب بها منشوراً. وصورة المربعة أن يكتب في ورقة مربعة يجعل أعلى ظاهرها الورقة الأولى منها بياضاً ويكتب في ذيلها معترضاً آخذاً من جهة أسفل المربعة إلى أعلاها أسطراً قصيرة على قدر عرض ثلاثة أصابع.

**المستبحر:** عبارة عن الأرض المنخفضة تشبه البركة فإذا انحدر إليها الماء تجمع فيها ولا يجد الفلاح سبيلاً إلى صرفه فيقعدّها عن الزراعة إلى أن يزول عنها الماء وقد ينتفع بهذا الماء عند الجفاف فيرفع بالآلات رفع الماء كالطنبور والساقية في ري مجاورها من أراض.

**المستوفي:** موظف مالي عليه مراجعة حسابات المباشرين ومحاسبة أصحاب الكيل على استحقاقاتهم والتتبيه على حمل الموارد إلى بيت المال وعمل المقايسات.

**مستوفي الجيش:** موظف كبير يشرف على ديوان الجيش.

**مستوفي الصحبة:** يشارك الوزير ويوحي بالإنذار الكتاب بما يلزمهم من الأعمال.

**المشارف:** أحد كتاب المال، وكان مسؤولاً عن الإشراف على الحاصل والختم عليه وعمل جميع الحسابات والتوقيع إذا توفى العامل.

**المشد:** موظف مالي له سلطة المراقبة والإشراف والتفتيش وغالباً يلجأ إلى الشدة في عمله.

**مشيد الممالك:** من ألقاب الوزراء، وورد في ألقاب نائب الشام.

**المطلقات:** هي عبارة عن رسائل أقسامها لا تخرج عن ثمانية أقسام إلى الوجه القبلي وإلى الوجه البحري وإلى عامة الديار المصرية وإلى بعض البلاد المصرية والشامية وإلى بعض أولياء الدولة كالأمرء بدمشق أو حلب وإلى قبائل العرب أو التركمان أو الأكراد أو بعضهم.

وكانت القاعدة في المطلقات أنه إذا اجتمع في المطاق كبار وصغار يغلب لأمر الأكبر، فإن كان في المطلق من الألقاب ما تخص به الأكبر دون غيرهم استوفى للكبير ما يختص به من الألقاب وأتى بالقدر المشترك فيه بعد ذلك.

ثم المطلقات منها ما يختم، وهو ما كان لبعض أولياء الدولة إذا كان في سر يكتم ولا يراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه فيختم على عادة الكتب.

وهذا يكون عنوانه تظاهرة كما في غيره من المكاتبات المفردة. ومنها ما لا يختم، وهو سائر المطلقات.

وعنوانها مخالف لعنوان الكتب المفردة للآحاد: فإن تلك في ظاهر الورق وهذه في باطن الورق فوق وصلين أو ثلاثة فوق البسمة. ويقال فيها مثال شريف مطلق إلى الولاية والنواب أو غير ذلك من نحو ما في الصدر فيضمن العنوان ملخص ما فيه، ثم يقال على ما شرح فيه أو حسب ما شرح فيه. ومن قاعدتها أن يصرح بذكر المكتوب إليهم في المطلق بخلاف غيرها من المكاتبات المفردة. ثم بعد التعريف في المطلقات الدعاء ثم الإفضاء إلى الكلام، وفي آخرها يتعين أن يقال «فليعلموا ذلك ويعتمدوه».

**المعين:** مساعد ومعين للكتاب في أعمالهم.

**مقدم الممالك:** تسمى وظيفته مقدمة الممالك وهو الذي يقوم بالإشراف على تعليم ممالك السلطان والأمراء في الطباق التي هي أشبه بالمدارس الحربية.

وكان يركب خلف الممالك إذا ركب السلطان كأنه يحفظهم ويحكم بين هؤلاء الممالك ورتبة مقدم الممالك أمة طلبخاناه وكان له نائب وتحت يده جملة معلمين غالبيتهم من خدام الطباق.

**مقرر المشاعلية:** ضريبة يدفعها أصحاب الحمامات العامة والمنازل والمدارس وجميع الابنية عند القيام بتنظيفها حيث كان لا يسمح بنقل أي أوساخ منها إلا بعد أن يقوم صاحبها أو المشرف عليها بدفع

ضريبة النظافة هذه إلى الضامن. وقد يؤدي هذا الأمر إلى تقاعس أصحاب هذه المباني عن تنظيفها، فعمل الناصر محمد على إلغاء هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م.

**المقر:** لقب شرف يمنحه السلطان لكبار أرباب الوظائف الديوانية وكذلك ينعم به السلطان على الأمراء.

**المقر الشريف:** يرد اللقب في ألقاب العسكريين وفي ألقاب الوزراء ومن في معناهم ويكتب به عن نواب السلطنة.

**مقرر السجون:** ضريبة قدرها مائة درهم تجبى من كل سجين في ساعة القبض عليه سواء ثبت اتهامه أو كان بريئاً، فإذا ثبت أنه كان بريئاً من التهمة الموجهة ضده وأطلق سراحه فلا يعاد المال (مائة درهم) إليه. وكان يتولى عملية جمع هذه الضريبة الباهظة ضامن يتكفل بجمعها من كافة سجون المدينة. وقد ألغى الناصر محمد بن قلاون هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م.

**مقرر الحوائص والبغال:** ضريبة كانت تجبى من جميع الولاة والمقدمين في دولة المماليك حيث كان كل وال ومقدم يلتزم بدفع مبلغ من المال سنوياً إلى بيت المال. ومن ثم اجتهد هؤلاء الولاة والمقدمون في جميع مبلغ هذه الضريبة.

وأخذ بعضهم في جمع ما يزيد عن ذلك المبلغ وأخذ له لحيته الخاص مما ترتب عليه أعباء كثيرة فعمل الناصر محمد بن قلاون على إلغاء هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م.

**مقرر طرح الفراريج:** ضريبة كانت تجبى من كل من يقوم بتربية الدجاج وكان الفلاحون يجبرون على شراء الفراريج والدجاج من الضامن بسعر محدد الضريبة لقاء السماح لهم بتربيتها مما يظهر صورة من صور الاحتكار الإداري وقد تضرر الفلاحون كثيراً، لهذا ألغى الناصر محمد بن قلاون هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م.

**مقرر الفرسان:** ضريبة يلتزم بدفعها الناس في كل مدينة في سلطنة المماليك من الولاة والمقدمين الفرسان، وهي عبارة عن هدايا وعطايا إجبارية لهؤلاء بعض الأحيان كان يجبى ما يعادل ذلك أو ثلاثة أضعافه من سكان المدينة، فعمل الناصر محمد بن قلاون على إلغائها.

**المكس:** الجباية وهو ما يأخذه أعوان الحاكم على البيع والشراء وكان يحصل في الموانئ وجميع الدولة.

**مكس ساحل الغلة:** ضريبة تؤخذ عن أي كمية من الذرة تجلب إلى القاهرة قبل إتمام عملية البيع، وقد ألغاه الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م فخفف بذلك من شدة ضرره على الناس حيث انخفض بناء على ذلك سعر الذرة، ولكن يبدو أن الناصر محمد أراد أن يستفيد من ظاهرة التأييد الشعبي

الناجمة عن إلغاء هذه الضريبة بتكرار إلغائها، فعمل على إعادتها مرة أخرى لكي يقوم بإلغائها سنة ١٣٢٤هـ/١٣٢٤م في مصر وبلاد الشام. (١)

**مكفة:** أوراق تبين مساحة الأراضي التي تخص كل مزارع وتفصيل أنواع ما يزرع فيها.

**المنشور:** المنشور في مصطلح الدولتين الأيوبية والمماليك بمصر عبارة عن أمر سلطاني مكتوب بإقطاع من أرض أو مال أو غير ذلك. وكانت التأشير على أربعة أصناف يكتب كل صنف منها في قطع معين من الورق. ويختلف باختلاف طوائف رجال الدولة وهو من المكاتبات التي لا تحتاج إلى ختم كالمكتوب بالولاية والمكتوب بالحماية والمكتوب بالإقطاع.

**مهاميز:** حديدة تكون في رحل الفارس يوخز بها الحصان فيسرع.

**المهتار:** الكبير أو الأكبر لقب يطلق على كبير كل طائفة من الغلمان، كمهتار الشراب خاناه..

**المهندار:** الذي يقوم بلقاء الرسل والعربان وينزلهم دار الضيافة.

**المواريث الحشرية:** تركة من لا وارث له. من أصحاب الفروض أو العسبة أو ذوي الأرحام. أو له وارث لا يستحق كل ميراثه، فهي تعود إلى الدولة (السلطان).

**الموقع:** كاتب مكلف بكتابة التوقيعات والمراسيم وتعرض عليه الأجوبة.

**النائب:** كاتب يتبع صاحب الديوان، ويطلب بالحسابات والإجابة عن الرسائل ونائب السلطنة هو من ينوب عن السلطان.

**نصف السمسرة:** ضريبة تجبى من كل سمسار أو دلال يقوم بإتمام أي عملية بيع فيلتزم بإبراز مبلغ درهمين عن كل مائة درهم، يأخذ السلطان درهماً والسمسار درهماً، ولذا عمل السماسرة من أجل المحافظة على نسبتهم وهي اثنان بالمائة على أخذ نصيبهم أولاً ثم نصيب السلطان مستخدمين في سبيل ذلك كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة. ولهذا عمل الناصر محمد بن قلاوون على إلغاء هذه الضريبة في سنة ١٣١٥هـ/١٣١٥م.

**نظر البهار والكارم:** موضوعها التحدث على ما يصل من تجار الكارم من أصناف البهار.

**نمجاه:** خنجر صغير مثل السيف

**النمجة السلطانية:** خنجر مقوس شبه السيف القصير وهو من شعار السلطنة.

**الهالي:** ضرائب ومكوس تجبى على حكم الشهور العربية.

**الوكالة:** فندق ينزل به التجار وبضائعهم ودوابهم للقيام بعمليات البيع والشراء.

**الوشق:** لباس من فرو الذئب.

**الياسة:** (أو اليسق) قوانين جنكيز خان وألزم المغول بأحكامها.

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، دار الكتب العلمية بيروت بلا تاريخ ج ٩، ص ٤٥ وسيرد في الحواشي التالية باسم النجوم الزاهرة.

## المصادر:

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: محمد قنديل البقلي، القاهرة، ١٩٨٣م. ملحق دوزي للمعاجم العربية والألقاب الإسلامية حسن الباشا: القاهرة ١٩٥٧م، ص ٣١٣٠. النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك: د. البيومي إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨، بعض الأبعاد الإقتصادية لسلطنة المماليك. أ. د. حياة ناصر الحجي: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثالثة والعشرون الرسالة ١٨٩ لعام ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣.

## الملحق الثاني أسماء الأمراء في النباتات

منذ ٧٨٤ هـ وحتى ٩٢٣ هـ

الجدول مقتبسة من كتاب تاريخ غزة , عارف العارف :

### آ - نيابة دمشق

- ١- منجك اليوسفي (٧٨٤هـ)
- ٢- محمد بن تنكز (٧٨٨هـ)
- ٣- بيدمر الخوارزمي (٦٨٧هـ)
- ٤- اشتقتمر المارديني (٧٨٨هـ)
- ٥- الطنبغا (٧٩١هـ)
- ٦- طرنطاي (٧٩١هـ)
- ٨- جنتمر (٧٩١هـ)
- ٩- آرغون العثماني (٧٩٢هـ)
- ١٠- بطا (٧٩٣هـ)
- ١١- سودون الطرنغاي (٧٩٤هـ)
- ١٢- كمشبا الخاصكي (٧٩٤هـ)
- ١٣- تنم الحسني أو تنبك (٧٩٥هـ)
- ١٤- تغري بردي الأتابكي (٨٠٣هـ)<sup>(١)</sup> (٨١٤هـ)<sup>(٢)</sup>
- 15- أقبغا الجمالي الأطروشي (٨٠٤هـ)
- ١٦- شيخ المحمودي (٨٠٧هـ)<sup>(١)</sup> (٨١٠هـ)<sup>(٢)</sup> (٨١٢هـ)<sup>(٣)</sup>
- ١٧- توروز الحافظي (٨٠٧هـ)
- ١٨- بيغوت (٨١٠هـ)
- ١٩- بكتمر جلق (٨١٣هـ)<sup>(٢)</sup>
- ٢٠- ثاني باي المحمودي (٨١٦هـ)
- ٢١- الطنبغا العثماني (٨١٩هـ)
- ٢٢- ثاني باي المحمودي (٨١٦هـ)
- ٢٣- جقمق (٨٢٣هـ)
- ٢٤- تنبك العروي ميق (٨٢٥هـ)
- ٢٥- ثاني البجاسي (٨٢٦ هـ)

- (١) - المرة الأولى التي تسلم فيها النيابة.

- (٢) - المرة الثانية التي تسلم فيها النيابة.



- ٢٦- سودون عبد الرحمن (٨٢٧هـ)  
 ٢٧- شار قطلوا (٨٣٦هـ)  
 ٢٨- قصروه (٨٣٩هـ)  
 ٢٩- إينال الجكمي (٨٣٩هـ)  
 ٣٠- أقمق التمراري (٩٣٩هـ)  
 ٣١- جليان (٨٤٣هـ)  
 ٣٢- قاني باي الحمزاوي (٨٥٣هـ)  
 ٣٣- جانم الأشرفي (٨٦٧هـ)  
 ٣٤- تتم بن عبد الرزاق (٨٨٦هـ)  
 ٣٥- برسباي البجاسي (٨٦٧هـ)  
 ٣٦- بردبك البجمقدار (٨٧١هـ)<sup>(١)</sup> (٨٧٣هـ)<sup>(٢)</sup>  
 ٣٧- أزيك بن طحطح (٨٧٢هـ)  
 ٣٨- برقوق الناصري الظاهري (٨٧٧هـ)  
 ٣٩- قلقسيز (٨٧٧هـ)<sup>(١)</sup> (٨٧٨هـ)<sup>(٢)</sup>  
 ٤٠- عبد القادر بن جانم (٨٧٨هـ)  
 ٤١- السيفي قانصوه اليحياوي (٨٨٤هـ)  
 ٤٢- قجماس الإسحاقي (٨٨٥هـ)  
 ٤٣- جانم الجداوي (٨٨٥هـ)  
 ٤٤- يشبك العلاي (٨٨٦هـ)  
 ٤٥- كرتباي الأحمر (٩٠٣هـ)  
 ٤٦- جانبلاط (٩٠٤هـ)  
 ٤٧- قصروه (٩٠٥هـ)  
 ٤٨- دولة ياي (٩٠٦هـ)  
 ٤٩- قرقماش تتم (٩٠٦هـ)  
 ٥٠- قانصوه المحمدي البرجي (٩٠٨هـ)  
 ٥١- سودون العجمي (٩٠١هـ)  
 ٥٢- أركماس (٩١٠هـ. ٩١١هـ)  
 ٥٣- سيباي بن بخنجا (٩١١هـ. ٩٢٣هـ)

## ب - نيابة حلب

- ١- يلغا الناصري (٧٨٤هـ)<sup>(٣)</sup> (٧٨٩هـ)<sup>(٢)</sup>

(١) المرة الأولى التي تسلّم فيها النيابة.

(٢) المرة الثانية الحموي (٧٩١هـ)

(٣) - المرة الأولى التي تسلّم فيها النيابة.

- ٢- سودون المظفري (٧٨٧هـ)
- ٣- كمشبقا الحموي (٧٩١هـ)
- ٤- جلبان الكمشبقاوي (٧٩٣هـ) <sup>(١)</sup> (٧٩٥هـ) <sup>(٢)</sup>
- ٥- مملوك (٧٩٥هـ)
- ٦- تغري بردي بن يشبقا (٧٩٥هـ)
- ٧- آرغون شاه (٨٠٠هـ)
- ٨- أقبغا الجمالي (٨٠٢هـ)
- ٩- دمرادش المحمدي (٨٠٣هـ) <sup>(١)</sup> (٨١٧هـ)
- ١٠- جكم (٨٠٧هـ)
- ١١- علان اليحياوي (٨٠٧هـ)
- ١٢- تمربقا المشطوب (٨١١هـ)
- ١٣- نوروز الحافظي (٨١١هـ)
- ١٤- شيخ المحمودي (٨١٤هـ)
- ١٥- قمر قماس (٨١٥هـ)
- ١٦- أيناك الصلصلاني (٨١٦هـ)
- ١٧- أقباي (٨١٩هـ)
- ١٨- قبقار القردمي (٨٢٠هـ)
- ١٩- يشبك (٨٢٣هـ)
- ٢٠- إينال الجكمي (٨٢٤هـ)
- ٢١- تغري بردي بن قانصوه (٨٢٤هـ)
- ٢٢- ثاني بك البجاسي (٨٢٥هـ)
- ٢٣- شارقطلو (٨٢٦هـ)
- ٢٤- قصروه (٨٣١هـ)
- ٢٥- قرقماس الشعباني (٨٣٩هـ)
- ٢٦- تغري ترمش التركماني (٩٣٩هـ)
- ٢٧- قاني باي الحمزاوي (٨٤٣هـ)
- ٢٨- برسباي الناصري (٨٥١هـ)
- ٢٩- تتم بن عبد الرزاق (٨٥١هـ)
- ٣٠- جانم الأشرفي (٨٥٩هـ)
- ٣١- الحاج أيناال (٨٦٣هـ)
- ٣٢- جاني بك التاجي المؤيدي (٨٦٨هـ)
- ٣٣- برديك البجمقدار (٨٧٠هـ)

---

(٢)- المرة الثانية التي تسلّم فيها النيابة.

- ٣٤- يشبك البجاسي (٨٧١ هـ)
- ٣٥- أينك الأشقر (٨٧٣ هـ)
- ٣٦- قانصوه الـحيـاوي (من ٨٧٤ حتى ٨٨٤ هـ)
- ٣٧- أزدمر الطويل (٨٨٤ هـ)
- ٣٨- وردبش بن محمود شاه (٨٨٥ حتى ٨٨٩ هـ)
- ٣٩- أزدمر الطويل (٨٨٤ هـ)
- ٤٠- برسباي قرا (من ٨٩١ هـ حتى ٩٠٣ هـ)
- ٤١- أينك السلحدار (من ٨٩٩ هـ حتى ٨٩٣ هـ)
- ٤٢- جان بلاط بن يشبك (٩٠٣ هـ)
- ٤٣- قصروه بن أينال (٩٠٤ هـ)
- ٤٤- دولات باي بن أركماس (من ٩٠٤ حتى ٩٠٥ هـ)
- ٤٥- قرقماس ولي الدين (٥٠٩ حتى ٩٠٦ هـ حتى ٩٠٨ هـ)
- ٤٦- أركماس (٩٠٦ هـ)
- ٤٧- قانصوه قرا (من ٩٠٦ هـ حتى ٩٠٨ هـ)
- ٤٨- سيباي (من ٩٠٨ هـ حتى ٩١٠ هـ)
- ٤٩- قانصوه المحمدي البرجي (٩١٠ هـ)
- ٥٠- خايربك (٩١٠ هـ - ٩١١ هـ) أول مرة بعده عاد سيباي واستلم ومن ثم عاد خايربك من (٩١٦ هـ - ٩٢٣ هـ) نهاية الدولة.

#### ج- نيابة حماة

- ١- الأمير يلو أو يلو (٧٨٤ هـ)
- ٢- سنجق الحسيني الـيلـبـغاوي (٧٨٥ هـ)
- ٣- سودون المظفري (٧٨٧ هـ)
- ٤- سودون العثماني (٧٨٨ هـ) <sup>(١)</sup> (٧٩١ هـ) <sup>(٢)</sup>
- ٥- ناصر الدين محمد بن مبارك المهندار (٨٨٩ هـ)
- ٦- مأمور العلمطاوي (٧٩٢ هـ)
- ٧- آقبا الصغير (٧٩٥ هـ)
- ٨- يونس بلطار (٨٠١ هـ)
- ٩- دمرداش الظاهري (٨٠٢ هـ)
- ١٠- دقماق المحمدي (٨٠٣ هـ)
- ١١- الأمير علان الـحيـاوي (٨٠٧ هـ)
- ١٢- عمر الهيدباني (٨١٠ هـ)

١- المرة الأولى التي تسلّم فيها النيابة.

٢- المرة الثانية التي تسلّم فيها النيابة.

- ١٣- الأمير جانم (٨١٢هـ)
- ١٤- تغري بردي ابن أخي دمرداش (٨١٤ هـ)
- ١٥- تماراز (٨١٥ هـ)
- ١٦- تاني بك البجاسي (٨١٧هـ)
- ١٧- جرقطلو (٨١٩هـ)
- ١٨- شاهين الزرجا (٨٢٢ هـ)
- ١٩- إينال السيفي (٨٢٣ هـ)
- ٢٠- آق بلاط (٨٢٤هـ)
- ٢١- شارقطلو (٨٢٥هـ)
- ٢٢- جلبان المؤيدي (٨٢٦هـ)
- ٢٣- قاني باي الحمزاوي (٨٣٨هـ)
- ٢٤- دولات باي الخاصكي (٨٢٤هـ)
- ٢٥- بردي بك العجمي (٨٤٤هـ)
- ٢٦- تغم بن عبد الرزاق (٨٥١هـ)
- ٢٧- إينال اليشبكي (٨٥٧هـ)
- ٢٨- إياس الطويل (٨٦٠هـ)
- ٢٩- جاني بك التاجي (٨٦٣هـ)
- ٣٠- سودون الأبو بكري المؤيدي (٨٦٥هـ)
- ٣١- تنم الحسنی الأشر في (٨٧٠هـ)
- ٣٢- إينال الأشقر (٨٧٢هـ)
- ٣٣- محمد بن مبارك (٨٧٣هـ)
- ٣٤- يشبك البجاسي (٨٧٢هـ)
- ٣٥- بلاط اليشبكي (٨٧٤هـ)
- ٣٦- خايربك القصري (٨٧٥هـ)
- ٣٧- جانم الجداوي (من ٨٨٥ هـ حتى ٨٨٨هـ)
- ٣٨- يشبك العلاوي (من ٨٨٨هـ حتى ٨٩٠هـ)
- ٣٩- سيباي الطيوري (من ٨٩٠هـ حتى ٨٩٣هـ)
- ٤٠- أينال الخسيف (من ٨٩٣هـ حتى ٨٩٦هـ)
- ٤١- يشبك بن حيدر (من ٨٩٦هـ حتى ٨٩٩هـ)
- ٤٢- أقباي الطويل (٨٩٩هـ)
- ٤٣- قانصوه الشامي (٩٠٠هـ)
- ٤٤- أركماس (٩٠١ هـ)
- ٤٥- يخشباي (من ٩٠٢ هـ حتى ٩٠٤هـ)

٤٦- ابن لوقا (قانسوه بن سلطان جركس) (٩٠٦ هـ)

٤٧- سيياي (٩٠٦ هـ)

٤٨- جانم (٩٠٨ هـ)<sup>(١)</sup> (من ٩١٠ حتى ٩١٥ هـ)<sup>(٢)</sup>

50- سودون الدواري (٩١٧ هـ)

د- نيابة أطرابلس

١- القلظماوي (٧٨٦ هـ)

٢- كمبشبا (٧٨٧ هـ)

٣- اسندمرالمحمدي (٧٩٠ هـ)

٤- سنجق الحسيني (٧٩١ هـ)

٥- دمرداش الأحمدي (٧٩٢ هـ)

٦- دمرداش المحمدي (٧٩٥ هـ)

٧- أرغون شاه (٧٩٥ هـ)

٨- آقبغا الجمالي (٨٠٠ هـ)<sup>(١)</sup> (٨٠٣ هـ)<sup>(٢)</sup>

٩- يونس بلطا (٨٠٢ هـ)

١٠- شيخ المحمودي (٨٠٣ هـ)

١١- شيخ السلطان المسرطن (٨٠٦ هـ)

١٢- بكتمر جلق (٨٠٨ هـ)

١٣- إبراهيم بن شيخ المحمودي (٨١٢ هـ)

١٤- دمرداش (٨١٣ هـ)

١٥- نوروز الحافظي (٨١٤ هـ)

١٦- سودون الجلب (٨١٥ هـ)

١٧- يشبك المشد اليوسفي (٨١٩ هـ)

١٨- بردى بك الخليلي (٨٠٢ هـ)

١٩- برسباي الدقماقي (٨٢١ هـ)

٢٠- سودون القاضي (٨٢١ هـ)

٢١- شاهين الزردكاش (٨٢٣ هـ)

٢٢- اسنبغار الزردكاش (٨٢٤ هـ)

٢٣- تنبك البجاسي (٨٢٥ هـ)

٢٤- أينال النوروزي (٨٢٦ هـ)

٢٥- قصروه (٨٢٧ هـ)

٢٦- جرياش قاشق (٨١٣ هـ)

٢٧- طرباي (٨٣٦ هـ)

٢٨- جلبان (٨٣٨ هـ)

٢٩- أينال الخاصكي (٨٤٢ هـ)

- ٣٠- قاني باي الحمزاوي (٨٤٣هـ)
- ٣١- برسباي (٨٤٣هـ)
- ٣٢- يشبك الصوفي (٨١٥هـ)
- ٣٣- الحاج أينال (٨٤٣هـ)
- ٣٤- إياس الطويل (٨٦٣هـ)
- ٣٥- قاني باي الحسني المؤيدي (٨٧٠هـ)
- ٣٦- أينال الأشقر (٨٧٤هـ)
- ٣٧- قانصوه اليحياوي (٨٧٤هـ)
- ٣٨- يشبك البجاسي\_ (٨٧٤هـ)
- ٣٩- إياس الطويل المحمدي (٨٧٦هـ)
- ٤٠- ازدمر الطويل (من ٨٨٠ هـ حتى ٨٨٤هـ)
- ٤١- بردبك المعمار (٨٨٤هـ)
- ٤٢- أينال السلحدار (من ٨٨٦ هـ حتى ٨٩٠هـ)
- ٤٣- أينال باي (من ٨٩٠ هـ حتى ٩٠٢هـ)
- ٤٤- أركماس (٩٠٢هـ)
- ٤٥- أقبردي (٩٠٤هـ)
- ٤٦- دولات باي بن أركماس (٩٠٤هـ)
- ٤٧- يلباي المؤيدي (٩٠٤هـ) ٤٨- قيت البرجي (٩٠٥هـ)
- ٤٨- قيت البرجي (٩٠٥هـ)
- ٤٩- برد الطويل (٩٠٦هـ)
- ٥٠- جانم بن قجماس (٩٠٦هـ حتى ٩٢٠هـ)
- ٥١- دولات باي (٩٠٨هـ) (من ٩١٠ حتى ٩١٥هـ)
- ٥٢- أركماس (٩١٠هـ)
- ٥٣- سودون الدواداري (٩١٥هـ)
- ٥٤- أبرك مملوك (٩١٧هـ)
- ٥٥- تماراز الأشرفي (من ٩٢٠ هـ حتى ٩٢٣هـ)

#### هـ- نيابة صفد

- ١- إينال اليوسفي (٧٨٤هـ)
- ٢- تمرباي التمرداش (٧٨٥هـ)
- ٣- كمشبا الحموي (٧٨٥هـ)
- ٤- قطلوبغا الصفوي (٧٩١هـ)
- ٥- إلياس الجرجاوي (٧٩٢هـ)
- ٦- آرغون شاه (٧٩٤هـ)

- ٧- آقبا الجمالي (من ٧٩٥ هـ حتى ٨٠٠ هـ)
- ٨- الأمير أحمد بن شيخ علي (٨٠٠ هـ)
- ٩- طنبا الظاهري العثماني (٨٠٢ هـ)<sup>(١)</sup> (٨١٢ هـ)<sup>(٢)</sup>
- ١٠- تمربا المنجكي (٨٠٣ هـ)
- ١١- دقماق المحمدي (٨٠٣ هـ)
- ١٢- شيخ السلطان المسرطن (٨٠٥ هـ)
- ١٣- بكتمر جلق (٧٠٨ هـ)
- ١٤- بكتمر الركني (٨٠٨ هـ)
- ١٥- الأمير طولو (٨٠٨ هـ)
- ١٦- قرقماس ابن أخي دمرداش (٨١٢ هـ)<sup>(١)</sup> (٨١٣ هـ)<sup>(٢)</sup>
- ١٧- خليل الجشاري (٨١٩ هـ)
- ١٨- برسباي الدقماقي (٨٢١ هـ)
- ١٩- بردبك الخليلي (٨٢١ هـ)
- ٢٠- قرمراد خجا (٨٢١ هـ)
- ٢١- قطلوبا التتمي (٨٢٣ هـ)
- ٢٢- الأمير أينال (٨٢٥ هـ)
- ٢٣- مقبل الدوادور (٨٢٦ هـ)
- ٢٤- مقبل الزيني (٨٣٦ هـ)
- ٢٥- تماراز المؤيدي (٨٤٠ هـ)
- ٢٦- أينال الأجروود (٨٤٢ هـ)
- ٢٧- قاين البهلوان (٨٤٤ هـ)
- ٢٨- بيغون الأعرج المؤيدي (٨٥٧ هـ)
- ٢٩- إياس الطويل (٨٥٧ هـ)
- ٣٠- جاني بك التاجي (٨٦٠ هـ)<sup>(١)</sup> (٨٨٤ هـ)<sup>(٢)</sup>
- ٣١- خابريك النوروزي (٨٦٣ هـ)
- ٣٢- تشكم الأشرفي (٨٧٠ هـ)
- ٣٣- دمرداش العثماني (٨٧٢ هـ)
- ٣٤- الجمالي يوسف بن فطيس (٨٧٤ هـ)
- ٣٥- مال باي (٨٩٣ هـ)
- ٣٦- قرقماش المبيسفي تنم (٩٠٦ هـ)
- ٣٧- ملاج (٩٠٨ هـ)<sup>(١)</sup> (٩١٢ هـ)<sup>(٢)</sup>
- ٣٨- أربك الصوفي (٩١١ هـ)

١ - المرة الأولى التي تسلّم فيها النيابة.

٢ - المرة الثانية التي تسلّم فيها النيابة.

- ٣٩- أيدكي (٩١١هـ)  
 ٤٠- الأمير بك باي (٩١٧هـ)  
 ٤١- بردبك السيفي جرباش كرت (٨٨٠هـ)  
 ٤٢- لماس (من ٨٨٦هـ حتى ٨٨٩هـ)  
 ٤٣- أزمير المسرطن (٨٨٩هـ)  
 ٤٤- آقبردي الدوادر (من ٨٩٣هـ حتى ٨٩٦هـ)  
 ٤٥- كرتباي أخي الدوادر (من ٩٠٠هـ حتى ٩٠١هـ)  
 ٤٦- بردبك الطويل (من ٩٠١هـ حتى ٩٠٥هـ)  
 ٤٧- جانم (٩٠٦هـ)  
 ٤٨- سودون الرواداري (من ٨٠٩هـ حتى ٥١هـ)  
 ٤٩- جانبرد الغزالي (٩١٥هـ)  
 ٥٠- طرباي (من ٩١٥هـ حتى ٩٢١هـ)  
 ٥١- الأمير يوسف عز بن سيباي (٩٢٣هـ)

#### و - نيابة الكرك

- ١- طغاي تمر القبلوي (٧٨٥هـ)  
 ٢- تمر داش القشتمري (٧٨٦هـ)  
 ٣- الطينغا الجوباني (٧٨٧هـ)  
 ٤- حسام الدجين الكجني (٧٩١هـ)  
 ٥- قديد القلطماوي (٧٩٢هـ)  
 ٦- شهاب الدين أحمد بن شيخ علي (٧٩٦هـ)  
 ٧- بدخاص السودوني (٧٩٧هـ)  
 ٨- أقبغا الكاش (٨٠١هـ)  
 ٩- عمر الهذباني (٨٠٧هـ)  
 ١٠- علم الدين سلمان (٨٠٧هـ)  
 ١١- جحق (٨١٠هـ)  
 ١٢- ناصر الدين محمد التركماني (٨١٢هـ)  
 ١٣- يشبك (٨١٧هـ)  
 ١٤- الأمير شاهين (٨١٩هـ)  
 ١٥- عمر شاه (٨٤٠هـ)  
 ١٦- العزسي خليل بن شاهين الصفوي (٨٤١هـ)  
 ١٧- الأمير مازي (٨٤٤هـ)  
 ١٨- تغري بردي الأشرفي (٨٦٤هـ)  
 ١٩- قصروه (٩٠٢هـ)



- ٢٠- قايتباي (٩١١هـ)  
 ٢١- ملاج (٩١٢هـ)  
 ٢٢- دولات باي الأعمش (٩١٨هـ - ٩٢٣هـ)

#### ز - نيابة غزة

- ١- الأمير حسام الدين باكيش (٧٨٤هـ)  
 ٢- أقبعا اللكاش (٨٠٢هـ)  
 ٣- علاء الدين الطبلابي (٨٠٣هـ)  
 ٤- المعتر السيفي طولو بن علي شاه (٨٠٣هـ)  
 ٥- الأمير صرق الظاهري (٨٠٤هـ)  
 ٦- الأمير الطنبغا العثماني (٨٠٥هـ)  
 ٧- الأمير أحمد بن الشيخ علي (٨١١هـ)  
 ٨- الأمير بيقجاه طيفور (٨١٢هـ)  
 ٩- حطط الناصري (٨٥٩هـ)  
 ١٠- خايربك النوروزي (٨٥٩هـ)  
 ١١- خايربك القصري (٨٧٥هـ)  
 ١٢- أرغون شاه (٨٧٦هـ)  
 ١٣- يشبك العلاني (٨٧٧هـ)  
 ١٤- سيباي الظاهري (٨٨٠هـ)  
 ١٥- دولات باي بن مصطفى (٨٦٦هـ)  
 ١٦- دولات باي الإينالي (٨٨٧هـ)  
 ١٧- إبراهيم بن عبد الرحمن (٨٨٩هـ)  
 ١٨- أقباي الطويل (٨٩٢هـ)  
 ١٩- الأمير قاني بك (٩٠٠هـ)  
 ٢٠- قايتباي الشرفي (٩٠١هـ)  
 ٢١- قراكرز البهلوان (٩٠٢هـ)  
 ٢٢- آقبردي الدوادر (٩٠٣هـ)  
 ٢٣- جان بلاط الغوري (٩٠٤هـ)  
 ٢٤- قراجا (٩٠٥هـ)  
 ٢٥- قانصوه قرا بن جركس (٩٠٦هـ)  
 ٢٦- علي باي السيفي بن يشبك (٩٠٧هـ)  
 ٢٧- الأمير صلاح الدين (٩١٢هـ)  
 ٢٨- إزبك الصوفي (٩١٤هـ)  
 ٢٩- أقباي (٩١٦هـ)

- ٣٠- دولات باي الأعمش (٩١٨هـ) وبالوقت نفسه تسلم نائب الكرك والقدس
- ٣١- دوا دار علي بك الأحذب (٩٢٢هـ)
- ٣٢- الأمير دولت باي (٩٢٢هـ)

نماذج من علامات البريدية عن سوفاجيه:

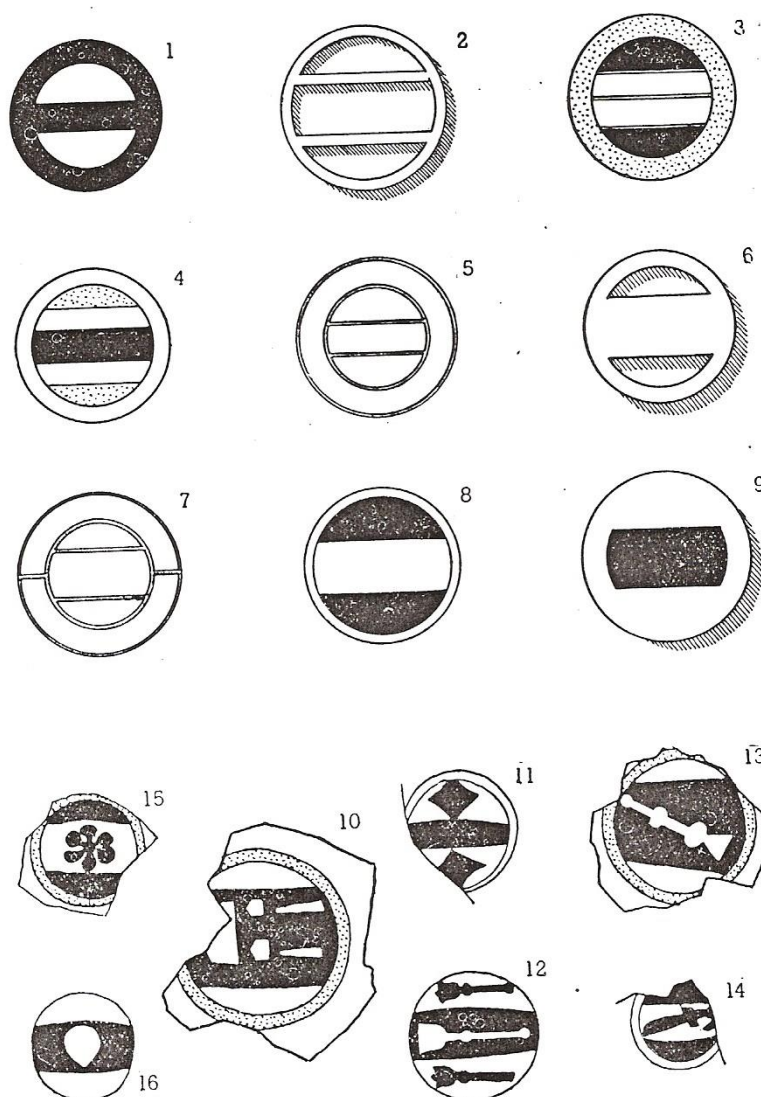


FIG. 7. — L'insigne des courriers en héraldique : 1, sur une poterie; 2, sur la façade d'un relais (v. p. 61); 3, sur une poterie; 4, sur une poterie; 5, sur le tombeau de l'émir Koutchkoun, à Damas (pierre, gravé); 6, sur la fontaine de 'Alâ' ad-Dîn al-Baridi, à Damas (pierre, sculpté); 7, sur un chandelier de cuivre au nom d'Ibrahim b. Baktamur al-Hosâmi; 8, sur une lampe en verre émaillé, au nom d'Arghofîn an-Nâsirî (rouge et or); 9, sur un monument de Ghazza au nom de Salâr (pierre incrustée : noir et blanc); 10-16, l'insigne des courriers associé à d'autres emblèmes de fonctions (10, porte-écritoire; 11, djandâr; 14, porte-armure).

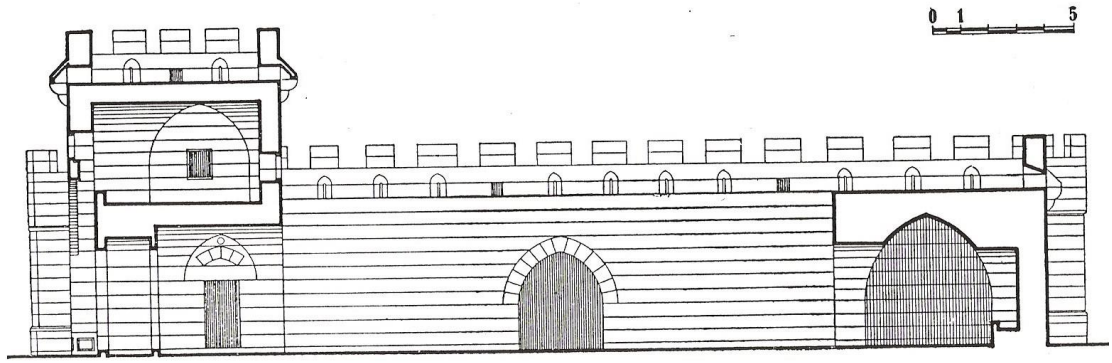
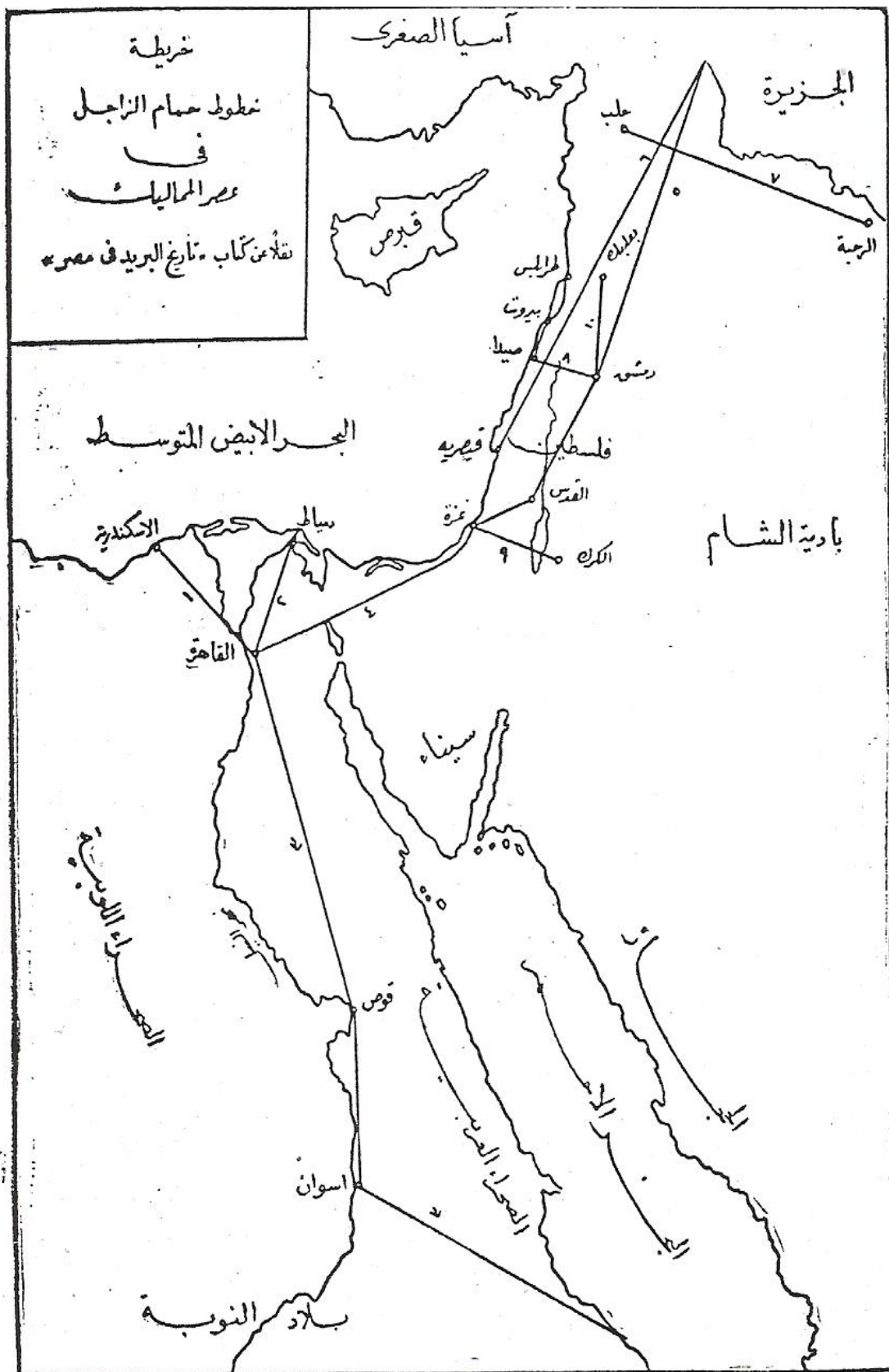


FIG. 17. — Le caravansérail d'Inqirâtâ : coupe suivant l'axe.

خان العروس من أجمل خانات الطرق في بلاد الشام وما زال قائماً: عن سوفاجيه



خطوط حمام الزاجل في عصر الممالك

## فهرس

|                                                                      |                  |
|----------------------------------------------------------------------|------------------|
| كلمة شكر وامتنان.....                                                | ٢                |
| مدخل :.....                                                          | ٣                |
| مصادر البحث:.....                                                    | ٧                |
| تقديم : الممالك وإستيلائهم على الحكم في مصر والشام .....             | ١١               |
| أصل الممالك:.....                                                    | ١١               |
| تبعية بلاد الشام للحكم المملوكي .....                                | ١٧               |
| <b>الفصل الأول : الكتابة الديوانية تطورها وأدبها.....</b>            | <b>٢٠</b>        |
| <u>أولاً الصناعة الديوانية في الدولة المملوكية..</u>                 | <u>٢٦</u>        |
| ثانياً الصناعة الديوانية في الدولة المملوكية الأولى.....             | ٢٦               |
| ثالثاً الصناعة الديوانية في الدولة المملوكية الثانية ...             | ٢٦               |
| <b><u>الفصل الثاني السلطة المملوكية في بلاد الشام.</u></b>           | <b><u>٣٩</u></b> |
| <u>أولاً السلطة المركزية على بلاد الشام .....</u>                    | <u>٤٠</u>        |
| <u>. ثانياً السلطة المحلية : .....</u>                               | <u>٤٥</u>        |
| <b><u>الفصل الثالث : التقسيمات الإدارية في الدولة المملوكية.</u></b> | <b><u>٥٧</u></b> |
| <u>التقسيمات الإدارية في بلاد الشام .....</u>                        | <u>٥٨</u>        |
| <u>أولاً نيابة دمشق الشام .....</u>                                  | <u>٦٠</u>        |
| <u>ثانياً نيابة حلب .....</u>                                        | <u>٦٤</u>        |
| <u>ثالثاً نيابة أطرابلس .....</u>                                    | <u>٧٤</u>        |
| <u>رابعاً نيابة حماة .....</u>                                       | <u>٧٦</u>        |
| <u>خامساً نيابة صفت ( صفد ) .....</u>                                | <u>٧٧</u>        |
| <u>سادساً نيابة الكرك .....</u>                                      | <u>٨٠</u>        |
| <u>سابعاً نيابة غزة .....</u>                                        | <u>٨١</u>        |
| <u>ثامناً نيابة القدس .....</u>                                      | <u>٨٢</u>        |
| <b><u>الفصل الرابع الإدارة المملوكية في بلاد الشام.....</u></b>      | <b><u>٨٣</u></b> |
| <u>الإدارة المملوكية في بلاد الشام.....</u>                          | <u>٨٠</u>        |
| <u>أولاً: نيابة دمشق.....</u>                                        | <u>٨٧</u>        |
| <u>ثانياً نيابة حلب:.....</u>                                        | <u>٩٧</u>        |

|     |                                                                           |
|-----|---------------------------------------------------------------------------|
| ١٠٦ | ثالثاً نيابة أطرابلس.....                                                 |
| ١١٤ | رابعاً نيابة حماة.....                                                    |
| ١١١ | خامساً نيابة صفد:.....                                                    |
| ١١٣ | سادساً نيابة الكرك.....                                                   |
| ١١٥ | سابعاً . نيابة غزة.....                                                   |
| ١٢٣ | ثامناً نيابة القدس.....                                                   |
| ١٣٤ | <b>الفصل الخامس : التوظيف في الدولة المملوكية وقوانينه :</b> .....        |
| ١٥١ | <b>الفصل السادس : الإدارة والخدمات التحتية :</b> .....                    |
| ١٤٤ | أولاً . الأشغال والمنشآت العامة.....                                      |
| ١٥١ | ثانياً . مشاريع المياه في الدولة المملوكية.....                           |
| ١٥٩ | ثالثاً - الإتصالات في الدولة المملوكية : البريد والحمام ونقل الثلج :..... |
| ١٦٧ | رابعاً _ شبكة المواصلات والخدمات البلدية:.....                            |
| ١٨٩ | <b>الفصل السابع : خدمات القضاء والأمن :</b> .....                         |
| ١٨٩ | أولاً خدمات القضاء :.....                                                 |
| ٢٠١ | ثانياً خدمات الأمن الداخلي والشرطة والولاة :.....                         |
| ٢١٢ | <b>الفصل الثامن: الخدمات العامة</b> .....                                 |
| ٢١٧ | أولاً - العناية الصحية.....                                               |
| ٢١٢ | ثانياً . التعليم في الدولة المملوكية.....                                 |
| ٢٤٨ | <b>الفصل التاسع : كيف إحتظ الممالك بالسلطة :</b> .....                    |
| ٢٤٨ | <b>الخاتمة : تقويم الإدارة والفساد وانهلال السلطنة المملوكية.....</b>     |
| ٣٠٢ | المصادر والمراجع.....                                                     |
| ٣٠٧ | المصادر الأجنبية.....                                                     |
| ٣٠٩ | المجلات والصحف والدوريات:.....                                            |
| ٣٢١ | ملاحق البحث:.....                                                         |
| ٣٢٢ | الملحق رقم ١ شرح أهم المصطلحات الواردة في البحث :.....                    |
| ٣٢٧ | الملحق رقم ٢.أسماء الأمراء في نيابات الشام :.....                         |
| ٣٣٨ | الملحق رقم ٣ صور ومخططات :.....                                           |
| ٣٤٢ | الفهرس.....                                                               |

**UNIVERSITY OF DAMASCUS  
CULTURAL AND HUMANITARIAN STUDIES FACULTY  
HISTORY DEPARTMENT**

**THE CIVIL ADMINISTRATION IN THE MAMLUK PERIOD**

**١٢٥٠ - 1517 AD / 648 . 923 H**

**Research to Obtain  
PHD IN THE HISTORY OF ARAB AND ISLAMIC HISTORY**

**BY**

**AHMAD GHASSAN SBANO**

**ADVISOR: PROFESSOR IBRAHIM MAHMUD ZAROOR**

**ACADEMIC YEAR 2009 – 2010**



## **ABSTRACT:**

The purpose of this research is to study the civil administration of the Mamluk period, spanning from 648–923 H / 1250 To 1517 AD; an extensive period, covering a large region including Egypt and Greater Syria- now Republic of Syria, Lebanon, Jordan, Palestine and Hejaz (part of present day Saudi Arabia). The research will be about civil part of the administration and does not include the military, financial or other arrangements.

The research will include:

Notes on sources and references

List of references

Introduction to the origin of the Mamluk

The research is divided into nine chapters

### **Chapter 1:**

The administration departments and their most important sections. In addition, I have chosen to include the secretarial department of the Sultan insha (dewan) and the development of this department in the Islamic period

I have included the writing style of the administration practiced at that time.

The most famous writers and researchers and their books on the administration in the Mamluk period

### **Chapter 2:**

The political power and administration which is subdivided into two sections. The first being the political power in the Mamluk period, (the top circle of influence) the second is the Rules of the Administration in the Mamluk Period and od.

### **Chapter 3:**

The Mamluk administration in Greater Syria is divided into eight provinces. The provinces are Damascus, Aleppo, Tripoli, Hama, Safed, Karq, Gaza and Jerusalem. Each of these provinces is sub divided into three divisions, Civil Service Authority and the Religious Authority.

The public offices in each provinces and its divisions

The public staff in each office in every province and its divisions.

The provinces ruler's private offices.

The provinces ruler's private staff

### **Chapter 4:**

The Administration divisions of the country and how they were subdivided and ruled in the four regions.

1. The central region being the Cairo Citadel, which contained the Central power leading the Mamluk Kingdom and it, included the central offices and departments for all the kingdoms including the Sultan and the elite officers of the state.
2. Egypt which includes:
  - a. Greater Cairo which includes Egypt (part of present day Cairo), Fostat and Cairo.
  - b. Northern Egypt
  - c. Southern Egypt
  - d. Alexandria
3. Greater Syria
4. Hejaz

How each of these were again sub-divided and described.

### **Chapter 5:**

. The system of employment and the rules relating to it at that time. The appointment of staff, the salaries and the difference between the divisions salaries, the wages of the army, the wages of the civil service and the wages of the religious staff. The bonus that were given, clothes, horses, gifts and food. The penalties that were administered to the staff. The rules relating to pensions and the holiday.

### **Chapter 6:**

The Administration and the infrastructure of the Kingdom which is divided into:

1. The State Structures:

2. Communication in the State:

The postal system and the route of the postal system all around the Kingdom. The air postage carried by pigeon, positions, routes of the pigeons and their resting places (**airport**).

The lighting and smoking system which give signals and messages all around the Kingdom to reach the Sultan and the position of these powers.

The Ice Delivery: which was collected from the mountains in Lebanon to cool the drinks for the Sultan and the high ranking officials was taken by two routes, by sea and by land.

3. The Road System.

### **Chapter 7.**

The Public Services which is divided into tow parts.

Joury Courts system

Security and Policing:

### **Chapter 8**

**The services of :**

a. Health Care

b. Education.

## **Chapter 9:**

How the Mamluks kept the politic power

## **Conclusion**

The judgement of the administration system, its advantages and disadvantages, its strengths and weaknesses and the reasons for the decline of the Mamluk period.

List of resources and references

Appendix

- 1 - Explanation of the technical terms mentioned in this research
- 2 - The Syrian Badwen Adminastration
- 3 - Lists of the Governor of all syria provances
- 4 - Lists of Tables and Plates